الكتب

وجهات نظر

فى الثقافة والسياسة والفكر

مجلة شهرية . العدد المائة وثمانية . السنة التاسعة . يناير ٢٠٠٨ . الثمن عشرة جنيهات


Weghat Nazar - Volume 9 - Issue 108 - January 2008

2007

الكتب .. مراجعة المراجعات .. وجائزة لتداول السلطة !

« تلات سلامات » .. زمن محمود الشريف





السنة التاسعة

العدد المائة وثمانية

يناير ٢٠٠٨

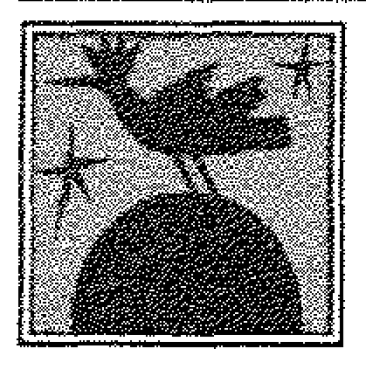
عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج

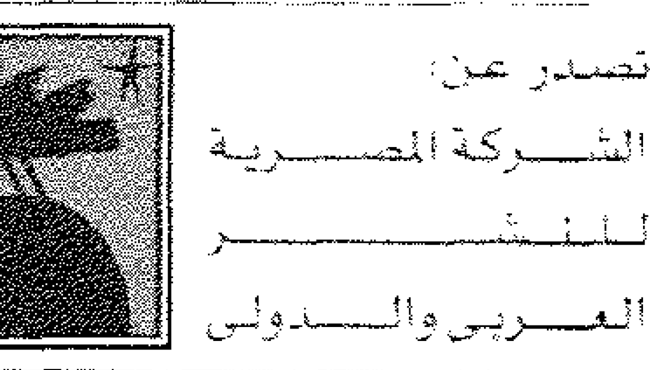
أحمد الزيادى

الكتب

وجهات نظر

فى الثقافة والسياسة والفكر





تصدر عن:
الشركة المصرية
للنشر
العربى والدولى

رئيس مجلس الإدارة

إبراهيم المعلم

رئيس مجلس التحرير

سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير

أيمن الصياد

رئيس التحرير الفنى

حلمى التونى



محتويات العدد :

كتّاب العدد :

- أبوالعلا ماضى.. ناشط إسلامى ـ وكيل مؤسسى حزب الوسط (تحت التأسيس).
- أمبرتو إكو.. كاتب وروائى وأستاذ للفلسفة بجامعة بولونيا.
- أنطوان زحلان.. أستاذ سياسات العلوم ومؤسس الجمعية الملكية الأردنية للعلوم.
- جريج جراندن.. أستاذ التاريخ فى جامعة نيويورك.
- خالد أبوالفضل.. أستاذ القانون الإسلامى وحقوق الإنسان بجامعة كاليفورنيا.
- السيد أمين شلبى.. سفير سابق والمدير التنفيذى للمجلس المصرى للشئون الخارجية.
- طاهر حمدى كنعان.. نائب رئيس وزراء أردنى سابق وعضو منتدى الفكر العربى.
- عبد الرءوف الريدى.. رئيس المجلس المصرى للشئون الخارجية.
- محمد المهدى.. مستشار دار الآثار الإسلامية بالكويت.
- محمود محيى الدين.. اقتصادى وسياسى مصرى يشغل حاليًا منصب وزير الاستثمار.
- معتز خورشيد.. مدير المجلس العربى للدراسات العليا ونائب رئيس جامعة القاهرة السابق.
- مينا بديع عبدالملك.. أستاذ ورئيس قسم الرياضيات بكلية الهندسة جامعة الإسكندرية.
- نبيل حنفى محمود.. كاتب وأستاذ بجامعة المنوفية.
- يواكيم تشيسانو.. رئيس موزمبيق الأسبق.

رسوم العدد للفنان

محمد حجى ـ سعد الدين شحاتة





المراسلات :

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب . القاهرة . جمهورية مصر العربية
ت : ٢٣٩٣٠٤٩٠/ ٢٣٩٣٠٤٩٢/ ٢٣٩٣٠٤٩٦ ـ فاكس ٢٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): e-mail: info@alkotob.com

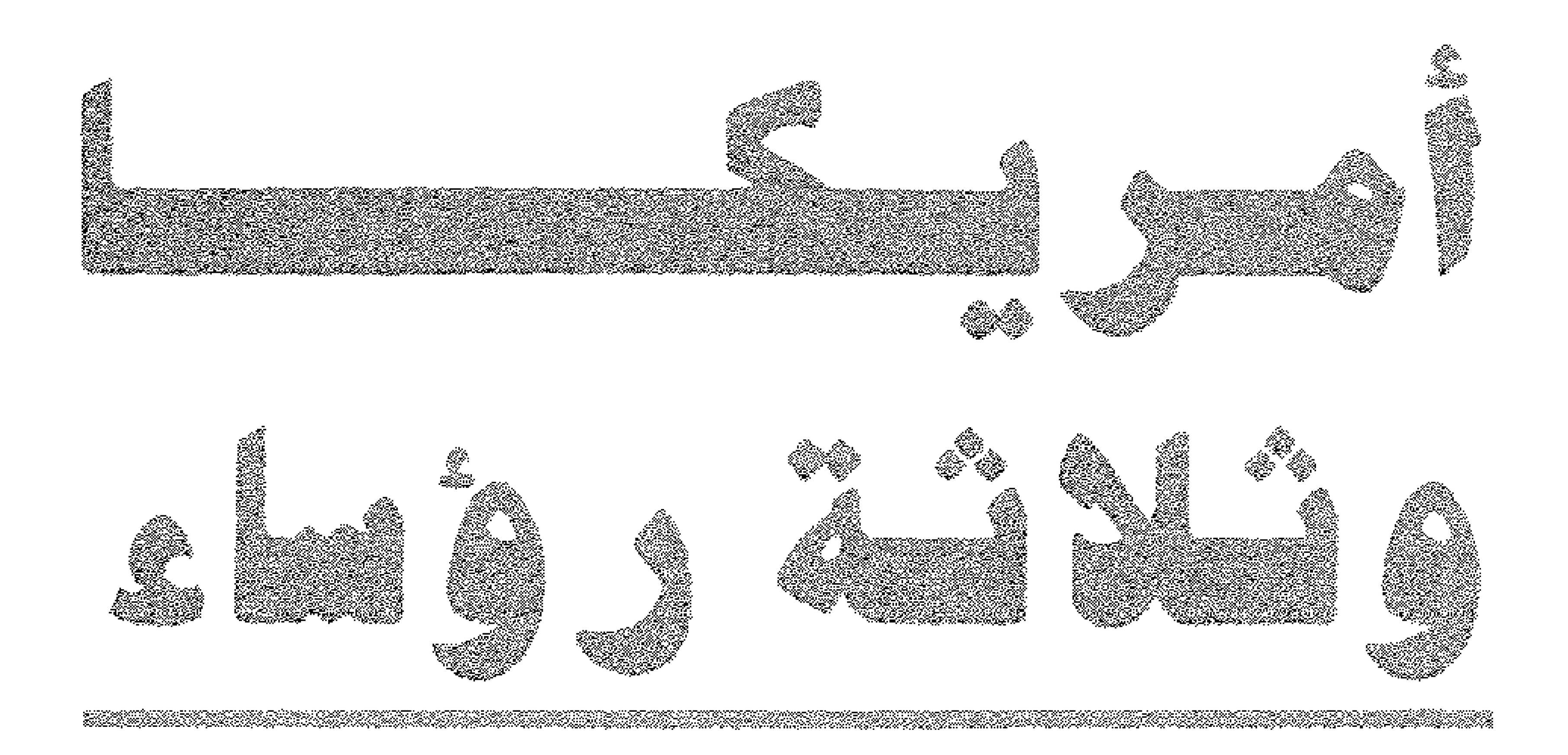
الاشتراكات :

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد : داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى ـ اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا ـ أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا ـ أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا . باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى ـ ص ـ ب : ٣٣ البانوراما . مدينة نصر
هاتف: ٢٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس ٢٤٠٤٨٥٤٦ ـ subscription@weghatnazar.com

ثمن النسخة :

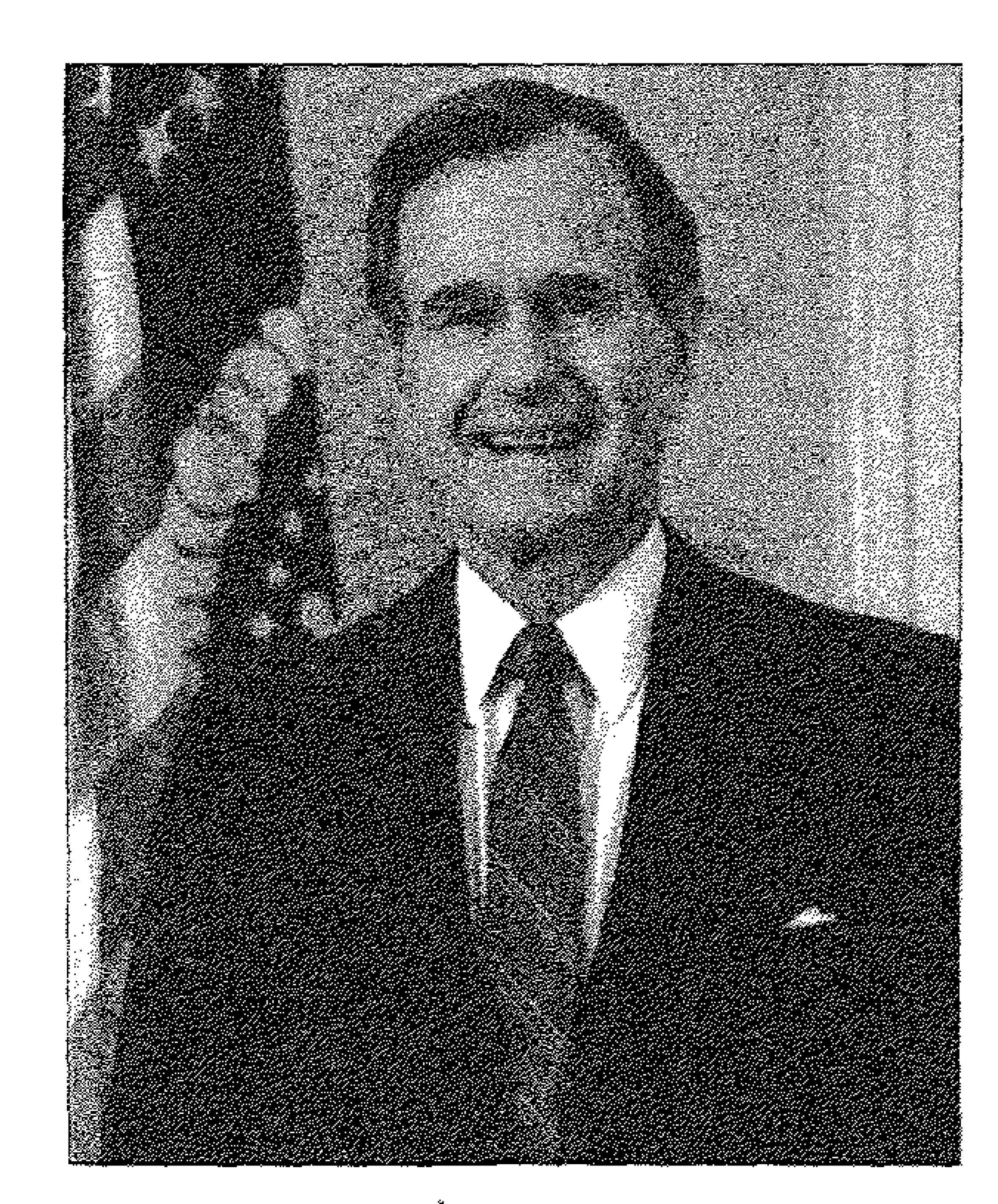
فى مصر ١٠ جنيهات مصرية ـ السعودية ١٥ ريالاً ـ الكويت ١.٥ دينار ـ الإمارات ١٥ درهمًا ـ مملكة البحرين ١.٥ دينار ـ قطر ١٥ ريالا ـ سلطنة عُمان ١.٥ ريال ـ لبنان ٥٠٠٠ ليرة ـ سوريا ١٥٠ ليرة ـ الأردن ديناران ونصف ـ ليبيا ديناران ـ الجزائر ٣٠٠ دينار ـ المغرب ٣٠ درهمًا ـ تونس ٤ دنانير ـ اليمن ٣٠٠ ريال ـ فلسطين ٣ دولارات.
Austria, France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £ 3 - USA $ 5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

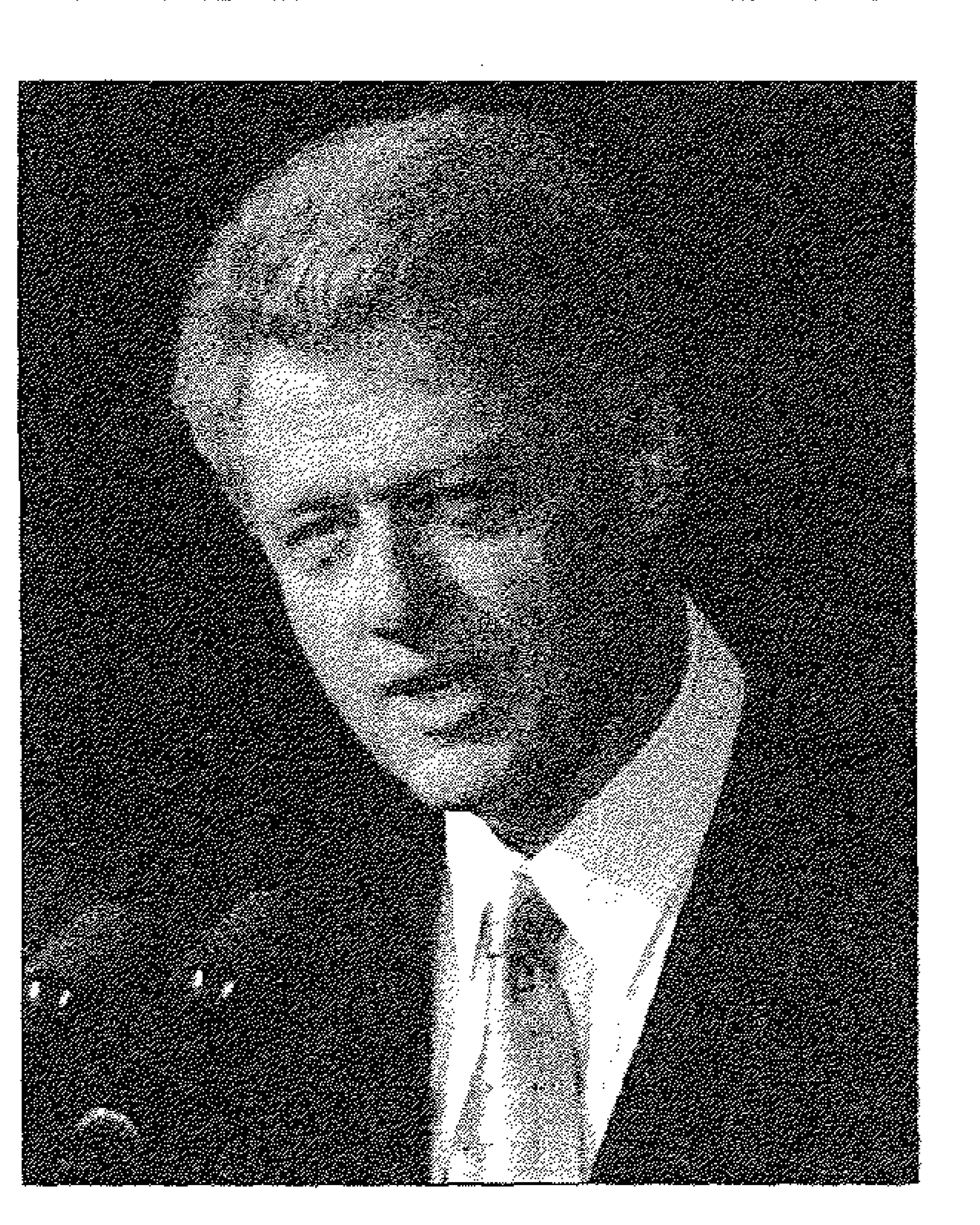


أمريكا وثلاثة رؤساء

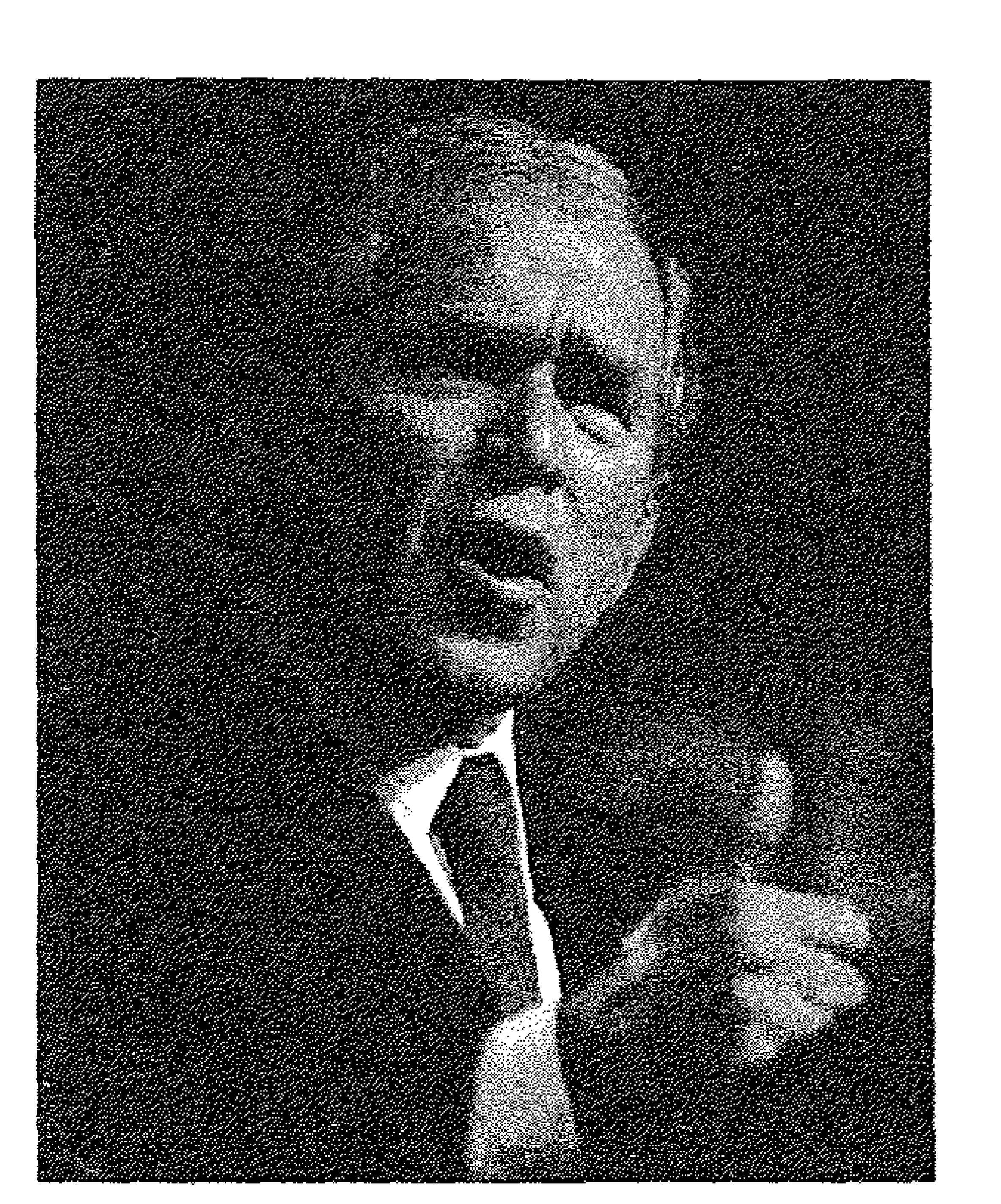
السيد أمين شلبى



بوش الأب



كلينتون



بوش الابن

■■ زبجنيو برجنسكى هو أحد الخبراء الأمريكيين البارزين، وقد بنى سمعته الأكاديمية كخبير فى شئون الاتحاد السوفيتى والكتلة الشرقية، واعتبر كتابه الذى كتبه بالتعاون مع صموئيل هينتنجتون USSR - US أحد المراجع الأساسية فى فهم السياسة السوفيتية والتعامل معها. وقد اختاره الرئيس الأمريكى الأسبق جيمى كارتر مستشاراً للأمن القومى ١٩٧٦ - ١٩٨٠ وارتبط عهده بثلاثة أحداث تحويلية كبرى: معاهدة السلام المصرية الإسرائيلية ١٩٧٨، واستكمال عملية الانفتاح على الصين، وإقامة علاقات دبلوماسية كاملة معها واستراتيجيته فى توريط الاتحاد السوفيتى فى أفغانستان، ودعمه العسكرى للمجاهدين الأفغان والذى كان من عوامل تفكك الاتحاد السوفيتى.

وبعد انقضاء عمله كمستشار للأمن القومى عمل زميلا فى معهد الدراسات الاستراتيجية فى واشنطن وأصدر كتبه: Out of Control, The Erand Chess game, The Choice والكتب الثلاثة تناقش الوضع الأمريكى بعد انقضاء الحرب الباردة.

هذا الكتاب الذى نعرض له هو استمرار لهذا المشروع بالتركيز على الرؤساء الثلاثة الذين ورثوا نهاية الحرب الباردة: بوش الأب، وبيل كلينتون، وبوش الابن. وموضوع هذا الكتاب هو كيف فهم الرؤساء الثلاثة نهاية الحرب الباردة وجوهر العصر الجديد، وهل استرشدوا برؤية تاريخية تتفق مع هذا الحدث؟ وهل اتبعوا استراتيجية متماسكة؟ وأى قرارات فى السياسة الخارجية كانت أكثر تأثيرا؟ وهل تركوا العالم على صورة أحسن أم أسوأ؟ وهل كان الموقف الأمريكى فى العالم أضعف أم أقوى؟ وأى دروس رئيسية للمستقبل يمكن الخروج بها من أداء أمريكا عبر السنوات الخمسة عشر باعتبارها القوة الأعظم الوحيدة؟ وعلى هذا تصبح هذه القوة الأعظم الأولى، وهذه السنوات الخمسة عشر وهؤلاء الرؤساء الثلاثة الذين تولوا خلالها هى موضوع هذا الكتاب.

ويبدأ برجنسكى بالرئيس الأمريكى الأول الذى ورث نهاية الحرب الباردة ومن ثم بروز الولايات المتحدة باعتبارها القوة الأولى والوحيدة فى العالم، وهو جورج بوش الأب، وقد كانت العلامة المميزة فى عهده هى عبارة «النظام الدولى الجديد» والتى أصبحت ترمز لرؤيته للعالم. وباعتبار أنه عاصر عملية تصدع الاتحاد السوفيتى فإن جورج بوش قد تعامل بمهارة مع هذا التطور، وقد توافق مع هذه العملية عدوان صدام حسين على الكويت وهو ما عبأ به بوش الرأى العام الدولى بمهارة دبلوماسية فائقة وبتصميم عسكرى، إلا أنه فى الحالتين لم يترجم أى انتصار إلى نجاح تاريخى دائم، فالنفوذ السياسى الأمريكى الفريد فى هذا الوقت لم يطبق استراتيجيا لا إلى إحداث تحول فى روسيا ولا جلب السلام فى الشرق الأوسط. غير أنه إنصافا لبوش فإنه من الرؤساء الأمريكيين منذ نهاية الحرب الثانية كان عليه أن يواجه هذا الغليان الواسع والكثيف. وأيا كانت التحفظات على ميراثه إلا أنه أحسن اختيار فريقه للسياسة الخارجية. ولكن فى الوقت الذى كان يتشاور معهم ودعوته من وقت لآخر لمستشارين من خارج البيت الأبيض، فقد كان بوش بدون شك الأول بينهم والصانع الأول العليم والواثق للقرار. غير أن ما كان يحتاجه بوش هو تحديد أولوياته والنظر ابعد من اليوم والغد وأن يكون واضحا حول إحساسه بالاتجاه والتصرف على هذا الأساس. وهذا هو ما لم يفعله بوش، وقد ركز فى المقام الأول على الهدف الحساس فى الإدارة السلمية لتفكك الإمبراطورية السوفيتية، ثم على وقف أطماع صدام حسين ولقد حقق بشكل لامع كلتا المهمتين ولكنه لم يستغل أيا منهما.

وفى إدارته للتفكك السوفيتى وآثاره، فقد كان فى قمة أولويات بوش التأكد من أن الترسانة النووية السوفيتية لن تقع فى أيد لا يعتمد عليها فى الدول التى تخلفت عن الاتحاد السوفيتى والتى كانت تتركز فيها هذه الترسانة، وهكذا فقد كان التركيز الرئيسى للدبلوماسية الأمريكية خلال العام الأخير فى الرئاسة هى المفاوضات مع الدول المستقلة حديثا: أوكرانيا، بيلاروسيا، وكازاخستان حول نقل هذه الأسلحة إلى روسيا نفسها، مثل هذا العمل كان يتطلب وقتا وطاقة، وقد تعامل معه فريق بوش بمهارة معتمدا على النفوذ الضخم الذى تمتعت به الولايات المتحدة فى أعقاب انهيار الاتحاد السوفيتى. غير أن تعقد الأحداث والمهام التى يجب مواجهتها فى السنوات الثلاث السابقة قد تركت إدارة بوش مجهدة فكريا وبلا فكر خلاق، فحقيقة أن بوش وفريقه قد أداروا بنجاح تفكك الإمبراطورية السوفيتية ولكن كان لديهم القليل من الوقت للتخطيط لما بعد النصر الذى - شأن غيرهم - لم يتوقعوه بشكل كامل.

ومع الوقت القليل الذى تبقى قبل الانتخابات الرئاسية التالية، فإن إغراء الاعتماد على أكاليل النصر وعلى شعار غامض كان قويا بما لا يمكن مقاومته. وقد كانت سياسة بوش تجاه روسيا الجديدة غنية بالبلاغة، وكريمة فيما يتعلق باللفتات ولكنها خاوية استراتيجيا. ولقد ترك فريق بوش التحديات الجديدة لروسيا ما بعد

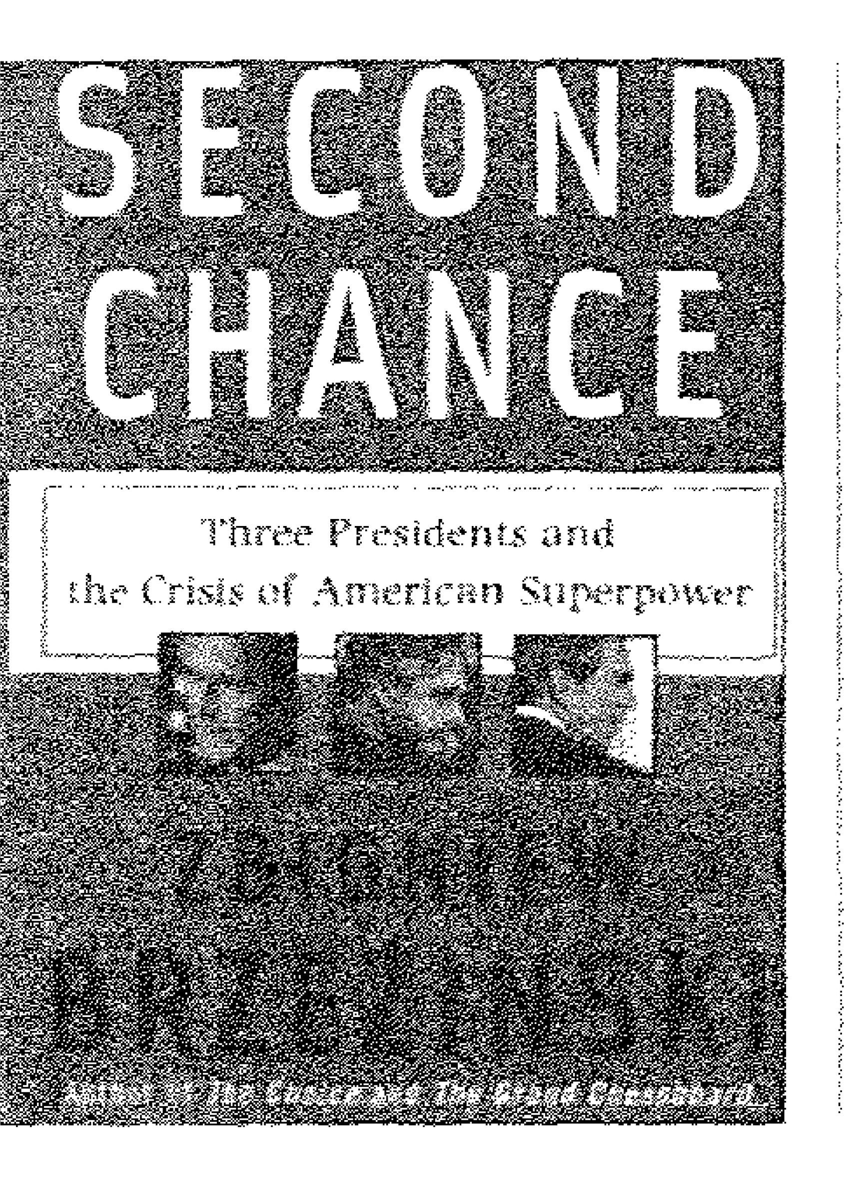
Second Chance : Three Presidents and The Crisis of American Superpower

(فرصة ثانية.. ثلاثة رؤساء وأزمة القوة العظمى الأمريكية)

Zbigniew Brzezinski

Basic books 2007

مع بداية عام ١٩٩٢ كان لدى بوش الأب قدرة أكثر لتحقيق اختراق للسلام، ولكنه لم يحاول الضغط على الأطراف لتسوية القضايا الرئيسية المتنازع عليها



الاتحاد السوفيتى تأخذ مجراها فى الوقت الراهن حتى يمكن معالجتها فى الولاية الثانية التى لم تأت. وقد أعيد تحديد مفهوم النظام الجديد بشكل ملائم لكى يتضمن روسيا يلتسين ولكن بدون أى مضمون جديد وبدون أى استجابة طويلة الأجل لعالم ما بعد الاتحاد السوفيتى. أما عن موقف الإدارة من أفغانستان فقد كان سلبيا فالولايات المتحدة التى قدمت عبر رؤسائها كارتر وريجن وبوش دعما للمقاومة، فعلت القليل للتعامل مع أفغانستان المدمرة بعد الخروج السوفيتى ولضمان الاستقرار السياسى والنقاهة الاقتصادية. وقد ظهرت آثار هذا الإهمال بعد وقت طويل من خروج بوش من السلطة.

أما عن منطقة الشرق الأوسط ونزاعها الطويل الأمد فإن برجنسكى يعتبر أن التحالف الذى صنعه بوش ضد صدام حسين قدم فرصة للولايات المتحدة لاستخدام وضعها الاستثنائى لكى تعالج أكثر صراعات المنطقة مرارة والتى سببت كثيرا من المعاناة ومصدرا رئيسيا لتصاعد المشاعر المعادية لأمريكا، وهو الصراع الفلسطينى الإسرائيلى.

وقد بدأ بوش ولايته الرئاسية مستعدا للقيام بمبادرة شاملة لإنهاء الصراع، حتى قبل حرب ١٩٩١ فقد صدرت عنه إشارات عن ذلك رغم وجود حكومة الليكود فى إسرائيل والتى كانت ملتزمة ببناء المستوطنات فى الأراضى الفلسطينية، ففى مايو ١٩٨٩ وبعد أربعة شهور من توليه السلطة، ذكر وزير خارجية بوش صراحة للايباك اللوبى الإسرائيلى الأساسى أن «على إسرائيل فى هذا الوقت التخلى إلى الأبد عن الرؤية غير الواقعية عن إسرائيل الكبرى.... والتخلى عن سياسة الضم ووقف نشاط المستوطنات والتواصل مع الفلسطينيين كجيران يستحقون الحقوق السياسية». وفى مارس ١٩٩٠ أعلن بوش نفسه «أن مواقف السياسة الخارجية للولايات المتحدة تقول إننا نعتقد أنه لا يجب أن تكون هناك مستوطنات جديدة فى الضفة الغربية وفى القدس الشرقية». وفى منتصف عام ١٩٩١ طلب شامير قرضا بـ ١٠ بلايين دولار فى الوقت الذى رفض فيه بناء المستوطنات وهو ما قابله بوش بفرض حظر على ضمان قروض لإسرائيل.

وهكذا فإنه فى عام ١٩٩١ ومع بداية عام ١٩٩٢ كان لدى بوش الأب قدرة أكثر لتحقيق اختراق للسلام أكثر من أى رئيس أمريكى آخر منذ ايزنهاور، ولكنه لم يحاول أن يستخدم موقفه الاستثنائى فى المنطقة للضغط على الأطراف لتتبنى مبادئ واضحة فيما يتعلق بالقضايا الرئيسية المتنازع عليها كما أنه لم يلزم أمريكا بمثل هذه المبادئ من خلال إعلان علنى وملزم. أما هذه المبادئ فهى فى تقدير برجنسكى: لا لحق العودة للفلسطينيين، لا لتوسع إسرائيلى كبير بعد حدود ١٩٦٧، تعويضات للأراضى لأى تغيرات، صيغة للمشاركة حول القدس، ونزع السلاح لما يترتب من دولة فلسطينية.

ويعتبر برجينسكى أن ولاية ثانية ربما كانت ستعطى بوش الوقت لكى يصبح حقا رئيسيا مجددا، و الذى سيصنع مرحلة تاريخية جديدة. وبالتأكيد فإن سجله فى التعامل مع محنة الإمبراطورية السوفيتية تستحق أكبر استحسان، ولكن فى الشرق الأوسط فإن انتصارا عسكريا مذهلا قد انخفض إلى مجرد نجاح تكتيكى والذى أصبح ميراثه الاستراتيجى سلبيا بشكل تدريجى. ويستخلص برجينسكى أن العمل غير المنتهى فى كل من الصراع العربى الإسرائيلى، ووقف إطلاق النار فى العراق سوف تلازم خلفاء بوش، وأصبح العرب بشكل متزايد يرون دورا أمريكيا فى المنطقة لا نفوذا مجددا ولكن كإعادة إنتاج للماضى الاستعمارى.



على العكس من خلفه كان للرئيس بيل كلينتون رؤية عالمية. وقد تلاءمت بشكل كامل الحتمية التاريخية الكامنة فى مفهوم العولمة، بالاعتقاد العميق لكلينتون أن أمريكا لكى تبرر دعوة نفسها «بالأمة التى لاغنى عنها» يجب أيضا أن تجدد نفسها، وبالنسبة لكلينتون كانت السياسة الخارجية إلى حد بعيد امتداداً للسياسة الداخلية. وهكذا أصبح التجديد الداخلى الموضوع الرئيسى لولاية كلينتون الأولى، ولكن مادامت السياسة الخارجية لا يمكن تجاهلها، فإن تركيز كلينتون على العولمة قدم له صيغة فى دمج الداخلى والخارجى وحررته من الالتزام بتحديد واتباع استراتيجية منتظمة للسياسة الخارجية، وهكذا أصبحت العولمة الموضوع الذى بشر به كلينتون باعتقاد رسولى فى الداخل والخارج وخلال زيارة له لفيتنام فى مؤتمر ٢٠٠٠ وصف العولمة بأنها «المعادلة الاقتصادية لقوة الطبيعة، وبعد ذلك أبلغ الرئيس الروسى بأن السمة المحددة للعالم هى العولمة.

وعكس بوش الأب، نظر كلينتون للشئون الخارجية كاستمرار للسياسة الداخلية بوسائل أخرى، وقد أثرت هذه النظرة أيضا فى الطريقة التى صنعت بها قرارات السياسة الخارجية تحت قيادة كلينتون وكيف اختيرت الشخصيات الرئيسية لفريقه فى السياسة الخارجية. وقد أظهرت ولايته الثانية نوعا من التكيف وإن كان متأخرا بعض الشىء. فقد انجذب إلى ارتباط أكبر بالسياسة الخارجية وعكس فريقه للشئون الخارجية مستوى عاليًا من النشاط. غير أن الأولوية التى أعطاها كلينتون فى ولايته الأولى للسياسة الداخلية كان لها تأثيرها الجانبى حيث شجعت الكونجرس الذى يتأثر بشكل متزايد باللوبيات والارتباطات الأجنبية، بأن يشرع للسياسة الخارجية، وقد كان أكثر هذه اللوبيات نشاطا ونجاحا هما اللوبى الإسرائيلى والكوبى واللذان امتلك كل منهما الموارد لكى يصنع فروقا فى عمليات التبرع خلال الانتخابات وخاصة فى ولايتين هما نيويورك وفلوريدا. ولكن للإنصاف لكلينتون جعلت الحالة العنيفة للعالم من الصعب تحديد أولويات واضحة للسياسة الخارجية وتحديد التهديدات الجيوبوليتيكية، على عكس بوش لم يواجه كلينتون تحديات لها إمكانات ضخمة على الخير أو الشر مثل أزمات الكتلة السوفيتية أو التحدى الذى فرضه غزو صدام حسين للكويت.

وقد عكس كلينتون صورة جذابة لقائد شاب يمتلك حساسية للمعضلات التكنولوجية والبيئية التى تواجه البشرية وعلى وعى بالعيوب الأخلاقية للوضع العالمى ومستعد لأن يعبئ البشرية فى جهد مشترك للتعامل مع مشكلات لم تعد قابلة للحل من خلال أمة واحدة.

وقد جاء اختفاء الاتحاد السوفيتى ليخلق ثلاث فرص هامة لكلينتون لاتباع أجندته حول الأمن والتعاون العالمى. فقد جعلت من الممكن إطلاق مبادرات أمريكية روسية شاملة للحد من التسلح بين الأمتين. وقد خلف اختفاء العالم الثنائى القطبية نظاما عالميا أوسع للأمن المشترك. كما أن انتهاء تقسيم أوروبا كان يعنى أن أوروبا الأكبر والقابلة للحياة المتصلة بشكل أوثق بأمريكا من خلال الرابطة الاطلنطية سوف تبزغ. وقد أدى انهيار الاتحاد السوفيتى - بوجه خاص - إلى تحقيق الهدف الأول وخلق فرص مواتية لوقف سباق التسلح بين الولايات المتحدة وروسيا والتوصل إلى اتفاقات مثل سولت ٣ عام ١٩٩٣ لخفض الترسانات الأمريكية والروسية، وهكذا شهد منتصف التسعينيات نهاية سباق التسلح كأكبر مصدر للتهديد المحتمل والمدمر فى تاريخ البشرية. غير أن هذا لم يمنع من ظهور تحديات جديدة مثل التحدى الذى مثلته كوريا الشمالية والذى ظهر بعد أسابيع من تنصيب كلينتون. وعبر العامين التاليين دخلت الولايات المتحدة الأمريكية وكوريا الشمالية فى محاولات عقيمة حول البرنامج الكورى النووى وحول برنامجها للصواريخ التكنولوجية، بل إنه عند نقطة ما من عام ١٩٩٦ راودت إدارة كلينتون فكرة ضربة استباقية ضد المنشآت النووية لكوريا الشمالية ولكن كلينتون قرر فرض عقوبات اقتصادية بدلا من ذلك وفى نهاية عام ٢٠٠٠ وقبل أسابيع من الانتخابات الرئاسية زارت وزيرة الخارجية مادلين أولبرايت الرئيس الكورى الشمالى والمحت إلى إمكانية زيارة الرئيس كلينتون لبيونانج. وقد كان الدرس الذى خلفه كلينتون لخلفائه فى قضية منع الانتشار أنه مع عدم التعادل الضخم فى القوة بين الولايات المتحدة وبين غيرها من الذين يسعون إلى الانتشار النووى، فإن البديل الوحيد للحرب هو التعاون الدولى الحقيقى على المستوى الإقليمى وفى مرحلة مبكرة من التحدى النووى.

ويعتقد برجنسكى أنه مما أضر بسمعة كلينتون كقائد له رؤية فشل الولايات المتحدة فى دعم الجهد الدولى لإطلاق استجابة مشتركة للتهديد المتزايد للاحتباس الحرارى العالمى. وقد انتهى الجدل الداخلى الذى ثار فى الولايات المتحدة والذى انحنى كلينتون أمامه معارضة الكونجرس بروتوكول كيوتو على أساس أنه ليس عمليا ولا عادلا. وفى نهاية عهد كلينتون فإن الأجندة المأمولة لرئاسته كانت موضع شك فيما عدا توسيع ودعم التحالف الأطلنطى الذى بدأ باعتباره أكثر الاتحادات الاستراتيجية دوما وإن كانت سوف تتعرض للضرر بشكل جاد من سياسة خلفه، غير أن رؤية كلينتون الرئيسية وهى العولمة

أمريكا وثلاثة رؤساء

باعتبارها «المعادل الاقتصادى لقوة الطبيعة» أصبحت تحت هجوم عنيف.

غير أنه إذا كانت الحرب الباردة قد انتهت إلا أنها قد رفعت الغطاء عن عدد من الصراعات والمشكلات الدولية، وهذا ما واجهه كلينتون حين واجه بعد توليه اشتعال العنف فى عدد من مناطق العالم مثل الصومال، ورواندا، وتفكك يوغسلافيا وانغماس روسيا فى الحرب مع الشيشان واختبار الصين لحدود تصميم الولايات المتحدة لحماية تايوان، وأكثر من ذلك تقيح النزاع العربى الإسرائيلى عبر ولايتيه حيث لم يتحقق إلا تقدم ضئيل وعدد من النكسات فى عملية السلام الإسرائيلية الفلسطينية، والعراق حيث أصبحت مصدرا من المواجهة الدورية وتكثيف عمليات الإرهاب ضد الولايات المتحدة مع ارتفاع حرارة المنطقة. مثل هذه التحديات كانت تتطلب قدراً أكبر من الإيمان فى قوة الاندفاع التاريخية للعولمة. ولكن لرصيد كلينتون ضد ميله الطبيعى، حاول كلينتون أن يتجاوب مع الأزمة فى البلقان وكان ناجحا فى النهاية ولكن لسوء الحظ فإن هذا لا يمكن أن ينطبق فى حالة الصومال ورواندا.

وفى تقدير برجنسكى أن ميراث كلينتون الأكثر مدعاة لخيبة الأمل كان فى فشله فى استغلال الفرص التى ظهرت على السطح على الأقل حول مناسبتين تتعلقان بالعلاقة الفلسطينية الإسرائيلية الراكدة. وربما أيضا فيما يتعلق بالعلاقة الأمريكية الإيرانية. وقد كانت الفرصة الأولى لدفع سلام فلسطينى إسرائيلى قد بزغت بعد وقت قصير منذ تولى كلينتون السلطة. أما الثانية فقد حدثت قبل وقت قصير من تولى كلينتون السلطة. وقد أضيعت السنوات بين ذلك فى الوقت الذى انحرفت فيه السياسة الأمريكية تدريجيا من الالتزام المتحيز لتسوية عادلة إلى وضع منحاز وأحادى الجانب لإسرائيل. وقد عكس فريق كلينتون هذا التطور حيث اختير الفريق الذى تولى المفاوضات من معاهد البحث الموالية لإسرائيل واللوبيات الإسرائيلية. وقد عارض أبرز هؤلاء أى مبادرة محددة للسلام على أساس أن الوقت يجب أن يمر قبل أن يكون الفريقان مستعدين لتسوية حقيقية. ومثل هذه الحجة استخدمتها أكثر العناصر المتشددة فى إسرائيل الذين استخدموا الوقت لتوسيع ودعم المستوطنات فى الأراضى الفلسطينية باعتقاد أن «الحقائق المتحققة» على الأرض سوف تجبر الفلسطينيين بعد ذلك على تنازلات أحادية أكثر. أما فيما يتعلق بدعوة كلينتون الى مؤتمر كامب ديفيد ٢ فإنه على عكس كارتر، كان يفتقر إلى إطار أمريكى مسيطر قائم على مواقف أمريكية محددة وعلى مشروع أمريكى للتفاوض. وإذا كان الجهد الذى بذله كلينتون لإحداث اختراق قد بذل فى وقت مبكر، مباشرة بعد انسحاب باراك فربما كان هناك وقت لكى يستقر الغبار ولكى تسود صيغة كامب ديفيد بعد ذلك.

أما عن العلاقات مع إيران فقد ظلت مجمدة وفى عداء متبادل، وقد كانت اختيارات كلينتون محدودة بتشريعات معادية سياسيا له والتى تمنع أى استكشاف لحوار إيرانى - أمريكى. وعلى العكس، فقد أعلن كلينتون فى خطبة امام المؤتمر اليهودى العالمى؛ وردا على لفتة إيرانية لفتح آبار بترولها للاستثمارات الأمريكية، إصدار أوامر رئاسية تمنع التجارة مع إيران، وفى عام ١٩٩٧ أنتجت الانتخابات الإيرانية رئيسا معتدلا. الأمر الذى كان من المفروض أن يفتح نافذة لاستكشاف تحسن فى العلاقات الأمريكية الإيرانية، ولكن خوفا من الآثار الداخلية من اللوبيات الإسرائيلية والإيرانية، اختار كلينتون مرة أخرى ألا يتصرف بشكل إيجابى. هذه التطورات فى مجموعها قد أنتجت آثاراً عكسية أساسية حول رؤية المنطقة لأمريكا. فقد كان الكثيرون فى الشرق الأوسط ينظرون إلى دخول أمريكا فى المنطقة كقوة محررة سوف تؤدى إلى رحيل السيطرة البريطانية الفرنسية، ولكن بعد خمسة عقود فإن أعدادا متزايدة من العرب والمصريين والإيرانيين أصبحوا بشكل متزايد يتبنون تصور أن المنطقة مرة أخرى تعانى من السيطرة الأجنبية تحت قناع جديد. وهو الشعور الذى أدى بدوره إلى إعطاء دافع للأعمال المميتة والإرهابية الموجهة ضد الشخصيات العسكرية والدبلوماسية الأمريكية فى المنطقة، ورغم هذا فإنه ليست هناك شواهد أن تصاعد التهديد الإرهابى المعادى للولايات المتحدة قد أدى إلى أى جهد أمريكى جاد لصياغة استراتيجية شاملة لإجهاض هذه التهديدات. هذا الركود الجيوبيولتيكى فى المنطقة - الذى باركته أمريكا إلى حد بعيد، لم يشجع أيا من هذه الجهود. وقد ظلت القضية نائمة حتى صدم الرأى العام الأمريكى بصباح شنيع بعد ٧ أسابيع من رحيل كلينتون عن السلطة.

وهكذا ترك كلينتون منصبه والعلاقات الفلسطينية الإسرائيلية فى أسوأ صورها والشرق الأوسط فى حالة غليان أكثر مما كان عندما تولى منصبه. ولسوء الحظ فإن نظامه غير المكترث فى صنع القرار والذى أفسدته الحسابات السياسية الداخلية قد أدى إلى خجل استراتيجى والذى كانت له معان خطيرة لمصالح أمريكا طويلة الأجل. فإذا كان كلينتون قد نجح فى التوصل إلى تسوية عادلة للصراع الفلسطينى الإسرائيلى فإنه كان سيكسب لنفسه ولأمريكا نجاحا تاريخيا هاما.

ويستخلص بريجنسكى تقييمه لسنوات كلينتون فى السلطة بقوله أن كلينتون نفسه كان موضع إعجاب ومحبوبا عالميا وبجاذبية شخصيته تكاد ترقى إلى رئيسين سابقين هما فرانكلين وروزفلت وجون كيندى، ولكن لم يستغل سنواته الثمانى فى البيت الأبيض لكى يحول زعامة أمريكا المكتسبة الجديدة إلى طريق محدد يلهم الأمم الأخرى باتباعه، وهو ما لم يبذل أبدا جهدا منسقا لتطوير واتباع استراتيجية شاملة لدور أمريكى مسئول فى العالم العنيف الذى يواجهه، وقد كان لديه الذكاء والشخصية لعمل ذلك، ولكن أسلوبه اللامبالى والانتهازى لصنع القرار لم يكن ليؤدى إلى وضوح استراتيجى وكان إيمانه فى الحتمية التاريخية للعولمة جعلت مثل هذه الاستراتيجية غير ضرورية وهكذا يمكن القول أنه خلف عام ٢٠٠١ ميراثا غير مكتمل ومعرضاً للخطر لخليفته ونقيضه الأيديولوجى.

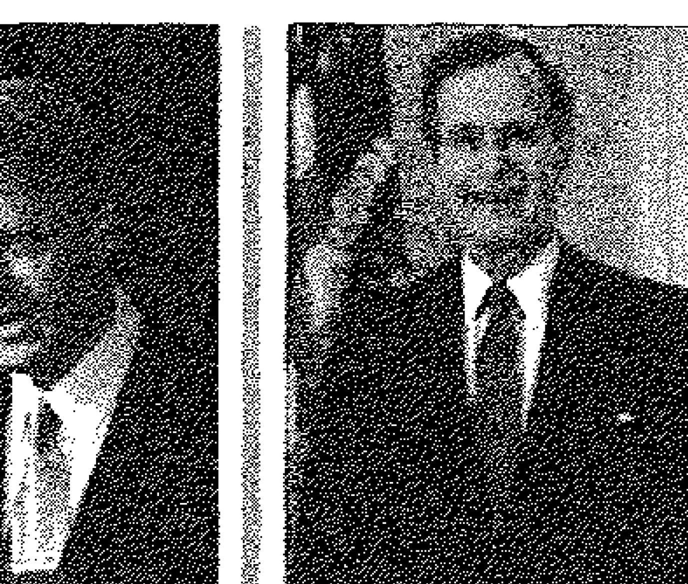


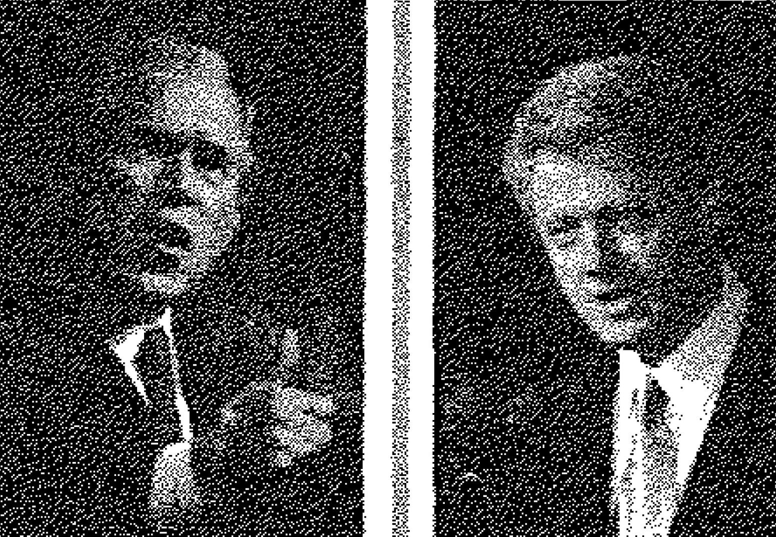
يطلق برجينسكى على جورج دابليو بوش «القيادة الكارثية»، ويعتبر أن أحداث ٢٠٠١/٩/١١ كانت أحداثا تحويلية تحول منها بوش إلى قائد حاسم لأمة فى حرب، وبناء على هذا فإن أمريكا ستتصرف بذاتها بغض النظر عن آراء الحلفاء، والتف الشعب الأمريكى حول القائد واستراتيجيته التى عكست «الحرب على الإرهاب» اهتمامات إمبريالية تقليدية للسيطرة على موارد الخليج الفارسى وكذلك رغبات المحافظين الجدد لدعم أمن إسرائيل بتصفية الخطر العراقى. وقد كانت النتائج الأولية لهذا الخليط مؤدية إلى الفخر و الخيلاء. فقد أطيح بحكومة طالبان فى أفغانستان وفى أقل من ١٨ شهراً بنظام صدام حسين بهجوم أرضى أمريكى فى أقل من ثلاثة أسابيع؛ وهكذا كان المزاج فى البيت الأبيض مزاج انتصار ورفض للمفاهيم القائمة على الواقع reality based معتبرين أن الولايات المتحدة الآن هى إمبراطورية وأنهم حين يتصرفون فإنهم يخلقون الواقع. وليس من المستغرب ألا يتأخر الانتقام، ففى خلال شهور فقط أصبحت السياسة الخارجية للقوة الأعظم الأولى المهيمنة يسيطر عليها النتائج المستنفرة للحرب فى بلد بعيد بدأتها الولايات المتحدة ولكنها لا تستطيع أن تنهيها وفى نفس الوقت أخذت الحرب على الإرهاب شكل تصادم مع عالم الإسلام ككل.

من ناحية أخرى فإن مستشارى بوش الابن للشئون السياسية الداخلية انتهزوا هذه اللحظة لرفع الهجوم الإرهابى إلى إعلان عن تكريس الرئيس كقائد أعلى يمنح سلطات تنفيذية قوية، وبمخاطبة الوطنية الغاضبة للجمهور فى الوقت الذى أشاعوا فيه الخوف والارتياب فى الآخرين، سوف تولد فوائد سياسية وقد جاءت انتخابات عام ٢٠٠٤ لكى تؤيدهم، وهكذا أصبحت الحرب التى لا نهاية لها على الإرهاب أداة سياسية داخلية مثلما هى أداة للسياسة الخارجية، أما وزير خارجية بوش كولين باول فعلنيا كان غامضا، و كان أكثر المتحدثين دفاعا عن الحرب فى العراق مجادلا بأنها ضرورة يمليها التهديد الذى تفرضه أسلحة الدمار الشامل لدى العراق. ولكنه على المستوى الشخصى كان يعرب عن تحفظات عميقة حول مقدمات ونتائج الطريق الذى يعتزم الرئيس الشروع فيه، ولا يمكن للمرء إلا أن يتساءل ماذا كان يمكن أن يحدث إذا ما كان بدلا من أن يعرب عن آرائه مع كتاب ومعلقين قد اختار أن يتخذ موقفا علنيا حول مسألة لها مثل هذه المركزية للمصالح القومية.

كذلك من الصعب تفادى النتيجة أنه فى لحظة ما فى عام ٢٠٠٢ فإن مجلس الأمن القومى قد توقف عن أن يمارس دوره التقليدى فى الفحص الدقيق وتقييم تدفق المعلومات الاستخبارية إلى الرئيس، كذلك فإن التقييمات البديلة والمتشككة قد توقفت عن أن تصل للرئيس. وهكذا ظهر توافق واقعى فى صالح العمل العسكرى مع بداية عام ٢٠٠٢، ومع يونيو كان نائب الرئيس يشرح فوائد إزاحة صدام حسين بالقوة «فالمعتدلون فى المنطقة سوف يتجرأون، وسوف تتقدم قدرتنا على دفع العملية السلمية بين الفلسطينيين والإسرائيليين». وعبر السنوات الثلاث أو الأربع القادمة فإن الهوس على مستوى عال بالعراق قد غطى على كل قضية خارجية واجهتها أمريكا.

ومع عام ٢٠٠٦ كان واضحا أن تكاليف الحرب قد تعدت الإنجاز الإيجابى الوحيد الذى حققته وهو الإطاحة بصدام حسين، وهذه التكاليف تتحدث عن نفسها وأصبحت مألوفة. فهى اولا قد سببت ضررا فاجعا لوضع أمريكا العالمى وتصدعت مصداقية أمريكا العالمية، كما قوضت عدم الثقة فى شرعية أمريكا العالمية وهى المصدر الرئيسى للقوة اللينةSoft Power للأمة؛ وما هو أكثر أهمية من كل شىء فقد أساءت إلى قيادة أمريكا العالمية ولم تعد أمريكا قادرة على أن تجمع العالم حول قضيتها ولا على أن تسود بشكل حاسم





باستخدام القوة. وقد قسمت حلفاءها ووحدت أعداءها وخلقت فرصا لخصومها ومن يتمنون لها الشر. وتحول عالم الإسلام إلى كراهية مريرة، وانحسر الاحترام لأمريكا كدولة بشكل كبير، فى الوقت الذى تعرضت فيه قدرة أمريكا على القيادة بضرر بالغ. وثانيا: كانت الحرب على العراق كارثة جيوبولوتيكية، فقد حولت الموارد والاهتمامات عن الإرهاب، وتلى النجاح الأولى للحرب فى أفغانستان بإعادة بعث طالبان وخلفت بذلك ملاجئ جديدة للقاعدة، وقد تطور الاتجاه فى الصومال، وظل الاستقرار السياسى فى باكستان موضع شك حيث استغلت العناصر الأكثر تطرفا فى البلد علاقة النظام الوثيقة مع الولايات المتحدة.

أما عن الخسارة المادية للحرب فقد كانت ترتفع بشكل ثابت، ففى الوقت الذى كان فيه عدد الموتى الأمريكيين يقترب من ٣٠٠٠ وقرابة ٢٠,٠٠٠ من المشوهين يسجلون، فإن عدد القتلى من العراقيين ظل غير محصى بشكل متعمد، فمن الواضح أن يبلغ عشرات الآلاف بالإضافة إلى الجرحى وحيث يلوم أقاربهم أمريكا على ذلك.

ويمكن تقدير التكاليف المالية بشىء من الدقة وهذه وفقا لدراسات الكونجرس تعدت ٣٠٠ بليون، أما التكاليف غير المباشرة فهى أعلى بعدة مرات، وبالتالى فإن معانى ذلك بالنسبة للقوة العسكرية الأمريكية وصحتها الاقتصادية من الواضح أنها معاكسة. وعلى عكس توقعات نائب الرئيس فقد شاعت المشاعر المعادية لأمريكا فى الشرق الأوسط واكتسبت القوى الراديكالية السياسية جاذبية شعبية وهددت النظم الصديقة للولايات المتحدة، وأزاح تدمير العراق الدولة العربية الوحيدة القادرة على الوقوف فى وجه إيران مفيدة بذلك أكثر خصوم أمريكا حماسا فى المنطقة، وباعتبارات جيوبولتيكية كانت الحرب هزيمة أنزلتها أمريكا على نفسها وكسبا خالصا لإيران. وثالثا: فإن الهجوم على العراق قد زاد من التهديد الإرهابى للولايات المتحدة، فالحرب على الإرهاب، وحيث ليس هناك عدو محدد بوضوح ولكنه يحمل معانى معادية للإسلام، وحدت الرأى العام الإسلامى نحو عداء متزايد نحو أمريكا وبذلك خلق تربة خصبة لتجنيد أعداد إرهابية جديدة تحمل خصومة دينية لغير المؤمنين وهذا بدوره زاد من الصعوبة أمام المعتدلين المسلمين لمحاربة الخلايا الإرهابية لتجميع شعوبهم ضد المشاعر السياسية والدينية المتطرفة.

وعلى عكس ما يردده بوش نفسه فإن انتشار العداء لأمريكا لم يكن لأن المسلمين فى المنطقة «يكرهون الحرية» ولكن لأن الذكريات التاريخية جعلتهم يكرهون التوافق المتزايد بين القوة الأمريكية فى المنطقة بالماضى الاستعمارى القديم والسياسات الإسرائيلية فى الوقت الحاضر. ومما ضاعف من معضلات الحرب التى شنتها إدارة تفتقر إلى المنظور التاريخى هو التوافق السيكولوجى بل والعينى للسلوك الأمريكى مع السلوك الإسرائيلى. وقد أثارت مشاهد السلوك الأمريكى ضد السكان العراقيين الخائفين والمعصوبى الأعين نفس مشاهد السلوك الإسرائيلى ضد الفلسطينيين.

وقد كان الطابع غير التاريخى للمغامرة الأمريكية قد أبرز حدود الاستراتيجية التى تعتمد فى المقام الأول على القوة. وهذا المفهوم الذى بشر به الاستراتيجيون الذين وجهوا السياسة البريطانية فى المنطقة، ورد الفعل الإسرائيلى للعداء العربى، ومما كان مميزا للحالات الثلاث الاعتقاد بأن العرب لا يحترمون إلا القوة وينظرون إلى أى استعداد للمساومة كعلامة على الضعف، وهكذا فإن القوة العسكرية الساحقة قد وضعت مرارا باعتبارها الأداة الوحيدة التى يمكن الاعتماد عليها لحل الصراعات وفرض حلول دائمة.



ويعتبر برجنسكى أن المشكلة بالنسبة لأمريكا هى أنه رغم أن قوتها لا تقارن بأى دولة أو مجموعة دينية فى المنطقة فإنها لا تستطيع لأسباب داخلية أن تعبأ على نطاق كاف بفرض إرادتها بالقوة عبر الشرق الأوسط وما وراءه. وباختصار، عند برجينسكى، فإن الولايات المتحدة تواجه على نطاق أوسع كثيرا نفس المعضلة التى تواجهها إسرائيل فيما يتعلق بجيرانها العرب: فكلا الجانبين يفتقر إلى الوسائل لفرض حله الدائم المنفرد الذى يمليه بشكل كامل تحديده الخاص لأهدافه ومصالحه. ويستخلص أن مثل هذه المفاهيم الخاطئة التى تتبناها الولايات المتحدة بما فيها فرض الديمقراطية يجب أن تجعل الولايات المتحدة تفكر بشكل جاد حول النتائج الطويلة الأجل لتورط عسكرى أمريكى فى The Global Balkans، فما حدث بالفعل فى العراق والمعضلات المتزايدة التى تواجهها إسرائيل كنتيجة لسوء الاعتماد على أفكار متشابهة فى التعامل مع الجيران إنما يقدم مؤشرا لنوع الصعاب التى يمكن أن تهدد وضع أمريكا العالمى.

ولهذا فإنه من الأمور العاجلة أن تتوقف أمريكا عن أن ترى «الجبهة المركزية» باعتبارها نوعا من الرسالة التاريخية وإن تبدأ فى أن تراها كدرس تستمد منه تغييرات أساسية فى أسلوبها فى التعامل مع الشرق الأوسط، ويخلص إلى أن الحرب على العراق فى كل مظاهرها وبالطريقة التى تقررت بها داخليا وروجت خارجيا وأديرت بها قد تحولت إلى كارثة، الأمر الذى وصم رئاسة بوش باعتبارها فشلا تاريخيا.

ويعود برجنسكى إلى التركيز على السياسات الأمريكية والإسرائيلية فى الشرق الأوسط فيعتبر أنه مع عام ٢٠٠٦ كان يجب أن يكون واضحا لإدارة بوش أنه لا الولايات المتحدة أو إسرائيل وحدهما أو معا لديهما القوة على سحق وإعادة تنظيم الشرق الأوسط بشكل يتفق تماما مع تصورها، فالمنطقة واسعة جدا وشعبها أقل استعدادا لأن يخاف وأكثر قابلية للاستثارة بالكراهية والغضب واليأس، وأعداد متزايدة على استعداد لأن تندرج فى مقاومة مركزة أو إرهاب بلا عقل، وكلما كان رد الفعل الأمريكى والإسرائيلى بتوسيع نطاق ومستوى العنف المضاد، كلما كان من الممكن أن يستدرجا فى حرب طويلة ومتسعة.

ويستخلص برجنسكى أن تصرفات أمريكا السيئة التوجيه تحمل أخطارا طويلة الأجل: إن الولايات المتحدة سوف تخسر فيما بعد كل أصدقائها العرب وعلى هذا تفقد القدرة على التأثير فى اتجاهاتهم وبالتالى فإنه مع كل الغايات والأهداف فإن الولايات المتحدة سوف تطرد سياسيا من الشرق الأوسط وإن إسرائيل سوف تندرج فى حروب غير متكافئة بشكل ينفى مزاياها التكنولوجية والعسكرية وكنتيجة لذلك تصبح إسرائيل فيما بعد فى خطر مميت.

أما فيما يتعلق بسياسة الإدارة تجاه إيران فإن الحظر الذى فرضته إدارة بوش على نفسها فيما يتعلق بالتعامل الجاد مع طهران هو الذى دفع لرفض اختبار إيرانى عام ٢٠٠٣ وبعد وقت قصير من سقوط بغداد حول إمكانية حوار واسع يتضمن كلا من الأمن والقضايا الاقتصادية بما فيها مشكلة الضمانات النووية بل وحتى حل الدولتين للصراع العربى الإسرائيلى. مثل هذا الاختبار كان قد سبقه فى نهاية عام ٢٠٠١ جهود إيرانية مساعدة تثير الدهشة لدعم الحكومة فى أفغانستان بعد أن أطاحت الولايات المتحدة بنظام طالبان. وقد كان التأثير الخالص لهذه السياسة القائمة على الحصار هو دعم العناصر الأصولية فى النظام الإيرانى فى الوقت الذى تقدمت فيه إيران بثبات وخلسة لاتباع برنامجها النووى. وقد تكررت نفس هذه المعضلة فى التعامل مع البرنامج النووى لكوريا الشمالية. فمع بداية عام ٢٠٠٤ وجدت الولايات المتحدة نفسها مضطرة من خلال الضغوط الإقليمية لكى تغير موقفها بشكل هام حيث لم تبد كل من روسيا والصين استعدادا لاتباع الولايات المتحدة فى سياسة الحصار الدولى لكوريا الشمالية، وهكذا أصبح من الواضح أن الجهد الإقليمى المتعدد الأطراف هو الذى له فرصة النجاح فى دفع كوريا الشمالية للوصول إلى حل مقبول. وقد كانت اللجنة السداسية التى بدأت رسميا عام ٢٠٠٤ متضمنة الولايات المتحدة والصين واليابان وروسيا وكوريا الجنوبية. اعترافا كبيرا أن أمن الشرق الأقصى يتطلب نوعا ما من المعمار الدولى.

ويستخلص برجنسكى من استعراضه للخمسة عشر عاما التى انفردت بها الولايات المتحدة أن القوة العسكرية الأمريكية عام ٢٠٠٦ قد تكون أكبر مما كانت عليه عام ١٩٩١، إلا أن قدرة أمريكا على تعبئة وإلهام والتوجه نحو اتجاه مشترك وبشكل تستطيع فيه أن تصوغ الواقع الدولى، هذه القدرة انحدرت إلى حد بعيد، وبعد خمسة عشر عاما من تنصيبها كقائد عالمى، فإن أمريكا أصبحت مصدرا للخوف وديمقراطية وحيدة فى عالم معاد سياسيا. ■



عكس بوش الأب، نظر كلينتون للشئون الخارجية كاستمرار للسياسة الداخلية بوسائل أخرى، وقد أثرت هذه النظرة فى طريقة صنع القرارات وكيف اختيرت الشخصيات الرئيسية لفريقه



صعود أوباما



عبد الرءوف الريدى

في أجواء السباق المحموم الجارى الآن في انتخابات الرئاسة الأمريكية، والتى ستتصاعد طوال عام ٢٠٠٨ لتصبح أشبه ما تكون بالسيرك القومى الذى تجتمع فيه فنون المسرح الأمريكى، مع رقص على الأسلاك واللعب مع الحيوانات وسط موسيقى الروك الصاخبة وصولاً إلى يوم الإدلاء بالأصوات في نوفمبر ٢٠٠٨.

قادتنى الظروف أخيرا إلى حضور حفل أقيم في أحد مسارح برودواى الشهيرة من أجل دعم المرشح الأمريكى ذى الأصول الأفريقية باراك أوباما... والذى انطلق كالصاروخ في سماء السياسة الأمريكية منذ أقل من عامين. حينئذ لم يكن أحد يعرفه خارج ولاية إلينوى التى يمثلها الآن في مجلس الشيوخ. ومنذ أعلن أوباما عن اعتزامه الترشح لرئاسة الولايات المتحدة قبل أقل من عام مضى، أصبحت حملته الانتخابية تكتسب زخما يوما بعد يوم، وأصبح هو التالى في الترتيب مباشرة لهيلارى كلينتون زوجة الرئيس السابق كلينتون وصاحبة أعلى الأصوات في استطلاعات الرأى العام للحصول على ترشيح الحزب الديموقراطى.

وباراك أوباما هو هذا الشاب الأسمر الذى جاء أبوه من كينيا في شرق أفريقيا في بعثة دراسية بالولايات المتحدة أخذته إلى جزر هاواى حيث التقى بأمريكية بيضاء وتزوجها وكان باراك هو نتاج هذا الزواج. لم يمكث الأب كثيرا في أمريكا حيث عاد إلى كينيا تاركاً ابنه الصغير في رعاية أمه وجدته. كان باراك آنذاك طفلاً صغيراً، وباستثناء فترة قصيرة قضاها مع أمه في أندونيسيا، كانت تربية باراك في أغلبها على يد أمه وجده في جزر هاواى.. حتى أتيحت له الفرصة بسبب تفوقه الدراسى أن يحصل على منحة لدراسة القانون في كلية الحقوق بجامعة هارفارد. وهنالك كانت بداية تألقه عندما انتخب رئيسا لتحرير المجلة القانونية لجامعة هارفارد Harvard Law Review وهو ما أهله بعد ذلك للالتحاق بواحدة من أهم المهن في الحياة الأمريكية وهى المحاماة. إلا أن العمل العام سرعان ما استهوى أوباما فذهب إلى شيكاغو... معقل أمريكا السوداء... ليعمل كمسئول اجتماعى وسط الأحياء الفقيرة السوداء في المدينة... وهناك بدأ في تكوين قاعدته السياسية التى دعمته ليصبح بعد ذلك عضوا في المجلس التشريعى للولاية ثم عضواً بمجلس الشيوخ عن ولاية إلينوى في الكونجرس الأمريكى عام ٢٠٠٢ وهو مازال في بداية الأربعينيات من العمر...



وفي واحدة من أهم وأول المعارك التى واجهها في مجلس الشيوخ كان مشروع القرار الذى تقدم به الرئيس الحالى بوش لتفويضه بشن الحرب على العراق... وبينما صوت الجمهوريون إلى جانب رئيسهم ولم يجرؤ عدد كبير من الديمقراطيين على معارضة التيار الجارف الذى كان مؤيداً آنذاك للحرب.. كان أوباما السناتور الحديث ضمن الأقلية التى صوتت ضد هذا القرار، وأصبح هذا التصويت اليوم واحدا من أهم البراهين التى تُقدمها حملته على شجاعته وعلى حكمه الصائب في مسائل الحرب والسلام... في الوقت الذى صوت فيه منافساه الرئيسيان هيلارى كلينتون وجون إدوارد في صالح قرار الحرب وكل منهما عضو قديم في مجلس الشيوخ.

أخذت مقعدى بين أكثر من ألف في مقاعد أحد مسارح برودواى الشهيرة، وكان الحضور بطبيعة الحال من أنصار أوباما والمعجبين به وغيرهم ممن تستهويهم متابعة الانتخابات الأمريكية، وسارت وقائع الحفل حسب البرنامج المعد... فقرات راقصة وفقرات غناء تماما كما هو الحال في المسرح الموسيقى الأمريكى... ثم جاءت الفقرة الختامية عندما صعد على المسرح صبى صغير وقال «أيها السيدات والسادة... أقدم لكم الآن الرئيس المقبل للولايات المتحدة... باراك أوباما» وصعد هذا الشاب الأسمر النحيل باراك أوباما على خشبة المسرح وسط عاصفة من التصفيق التى تلقاها من حضور واقف على قدميه تحية له، واستمر التصفيق لعدة دقائق بينما يقف أوباما على المسرح ممسكاً الميكروفون المتنقل ويتحدث عن الأسباب التى دعته للترشح... وما الذى يأمل في تحقيقه إذا انتخب رئيسا للولايات المتحدة... كما أخذ يرد على الدعايات المضادة له، إلى الذين قالوا أنه لا يملك الخبرة الكافية ليكون رئيسا... تساءل أوباما عن أى نوع من أنواع الخبرة يريدونها... أهى خبرة أناس مثل نائب الرئيس الأمريكى تشينى ووزير الدفاع السابق رامسفيلد وكلاهما يملك خبرة طويلة في أجهزة الحكم في واشنطن. ومع ذلك كانا من أهم من أدخل أمريكا في مأزق الحرب في العراق، ويستطرد للقول إن أمريكا لا تحتاج إلى هذا النوع من الخبرة... إنها تحتاج إلى نوع جديد من القيادة وخبرة جديدة ورؤى جديدة... ثم أشار إلى خبرته لمدة واحد وعشرين عاما في العمل مع الناس في أحياء شيكاغو الفقيرة وفي تدريس القانون الدستورى في جامعات شيكاغو وفي تمثيل شعبه في مجلس تشريعى الولاية ثم تمثيلها على المستوى القومى في مجلس الشيوخ بالكونجرس الأمريكى... أما عن أولوياته إذا فاز بالمنصب فسيكون على رأسها إخراج الولايات المتحدة من مستنقع العراق، وسيكون أسلوبه في العلاقات مع دول العالم قائما على التفاوض والحوار، ولن يرفض التحدث والتفاوض مع أية دولة... فهو من المؤمنين بما سبق أن قاله جون كيندى عن أن أمريكا لا ينبغى أن تخشى التفاوض مع أية دولة.

أما في الداخل فسيكون على رأس



صعد هذا الشاب الأسمر النحيل باراك أوباما على خشبة المسرح وسط عاصفة من التصفيق التى تلقاها من حضور واقف على قدميه تحية له



أولوياته سبعة وأربعون مليون أمريكى محرومون حاليا من التأمين الصحى ويجب أن تغطيهم مظلته وأن يحصل الأطفال والشباب الأمريكيون على أفضل تعليم فى العالم، فمن العار على أمريكا أن يكون مستوى التعليم المتاح فيها للعامة غير القادرين، على هذا المستوى الحالى من التخلف بالمقارنة إلى الدول الأخرى.

إن صعود نجم أوباما بهذه السرعة المذهلة إنما هو نتاج حالة الإحباط التى تنتاب الكثير من الأمريكيين من حكم الرئيس بوش ودفعهم إلى البحث عن صوت نقيض لبوش.. ومن هؤلاء ديمقراطيون كبار.. مثل تيودور سورنسون الذى كان المساعد الأول للرئيس كيندى.. وبرجنسكى مستشار الأمن القومى للرئيس كارتر والذى يعمل ابنه مستشاراً لأوباما... وغيرهم كثيرون.



لا يعنى ذلك بطبيعة الحال أن الطريق للبيت الأبيض مفتوح أمام أوباما فأغلب الديمقراطيين يؤيدون هيلارى كلينتون.. وهى تلعب أوراقها بمهارة كبيرة وتستفيد من نصائح وخبرة زوجها الرئيس السابق وهو أحد أكثر الأمريكيين خبرة بالعملية الانتخابية، كما تستفيد من شبكة علاقاته الواسعة.. وفى آخر استطلاع للرأى حصلت هيلارى على ستين فى المائة من الأصوات بينما حصل أوباما على حوالى خمسة وثلاثين.. كما أن حملة هيلارى تكتسب كل يوم أنصاراً جدداً.. إلا أن ذلك لا يعنى أن الأمور قد حُسمت تماماً لصالحها لتفوز بترشيح الحزب الديموقراطى.. فمازال هناك وقت طويل قد تحدث فيه مفاجآت وسيكون الاختبار الأكبر فى الانتخابات التمهيدية بولاية نيوهامشير وأيوا فى الشهور الأولى من عام ٢٠٠٨ . ومع ذلك فسواء فاز أوباما بترشيح الحزب الديمقراطى أم لم يفز به.. وسواء نجح فى الانتخابات أم لم ينجح فى حالة فوزه بالترشيح فهو مازال فى أوائل الأربعينيات من العمر... ومازال المستقبل أمامه مفتوحاً.

أعود إلى الحديث عن خطاب أوباما فى المسرح ببرودواى، وهو بالمناسبة خطيب ساحر يخاطب العقل وينأى عن الديماجوجية والصياح.. أخذ يتحدث عن أنه يريد أن تستعيد أمريكا أفضل سجاياها.. وأن تستعيد روحها التى فقدتها.. وفى كل ذلك كان وكأنه يعيد فصلا مشرقا من التاريخ الأمريكى.. عندما انعقدت قيادتها لجون كيندى ولقد كان كيندى فى أوائل الستينيات، هو الغائب الحاضر فى هذا اللقاء.

والواقع أن من أفضل ما تقدمه التجربة الأمريكية هو هذا الذى رأيته أمامى فى لقاء أوباما.. ابن مهاجر قادم من أفريقيا يشق طريقه بكفاءته ثم يصبح رئيسا محتملا لهذه البلاد...

وبعد ماذا تعنى بالنسبة لنا هذه الانتخابات القادمة للرئاسة الأمريكية؟ اعتقد أنها يجب أن تعنينا.. ويجب أن نقيم قنوات التواصل مع المرشحين بما فيهم أوباما.. الذى أراه شيئا جديدا على الساحة السياسية الأمريكية.. وأنا من المؤمنين بأهمية إقامة علاقات وثيقة مع كل القوى فى أمريكا على رأسها الأمريكيون من أصل أفريقى الذين يشكلون ما يقرب من خمس الشعب الأمريكى.. وأعتقد أن أغلب المرشحين يهمهم أن يسمعوا منا.. وأن يتعرفوا على رؤيتنا.. فلقد أصبح الشرق الأوسط بندا ثابتا على جدول أعمال أمريكا.. تلك كانت لمحة عما يجرى فى الانتخابات التى يجب أن نوليها اهتمامنا.. فما سيقوم به القادم الجديد للبيت الأبيض سيؤثر علينا.. وعلى شعوب هذه المنطقة.. شئنا أم أبينا.

وفى وسط هذه الحملة الصاخبة نرى حملة لا تهدأ تستهدف تصوير الإسلام وكأنه العدو ويقود هذه الحملة مستشارو المرشح الجمهورى جوليانى عمدة نيويورك السابق.

مع ذلك فالرأى العام الغالب يريد أن يعرف الحقائق وواجبنا أن نعمل على إسماع صوتنا.

وسط ذلك أيضاً توجد أصوات شجاعة تقرع الأجراس وتحاول تنبيه الرأى العام الأمريكى لخطورة ما جرى وما يجرى.. ومصر بحكم ما تمثله يجب أن ينتظرها دور كبير فى عام ٢٠٠٨ عام انتخابات رئيس جديد وكونجرس جديد فى الولايات المتحدة. ■



ابن العماد الأقفهسى

أخبار نيل مصر

مؤلف مخطوطة أخبار نيل مصر هو شهاب الدين أحمد بن يوسف بن عبدالنبى، أبوالعباس الأقفهسى ثم القاهرى الشافعى، المعروف بابن العماد الأقفهسى، المتوفى سنة ٨٠٨ هـ/ /١٤٠٦م.

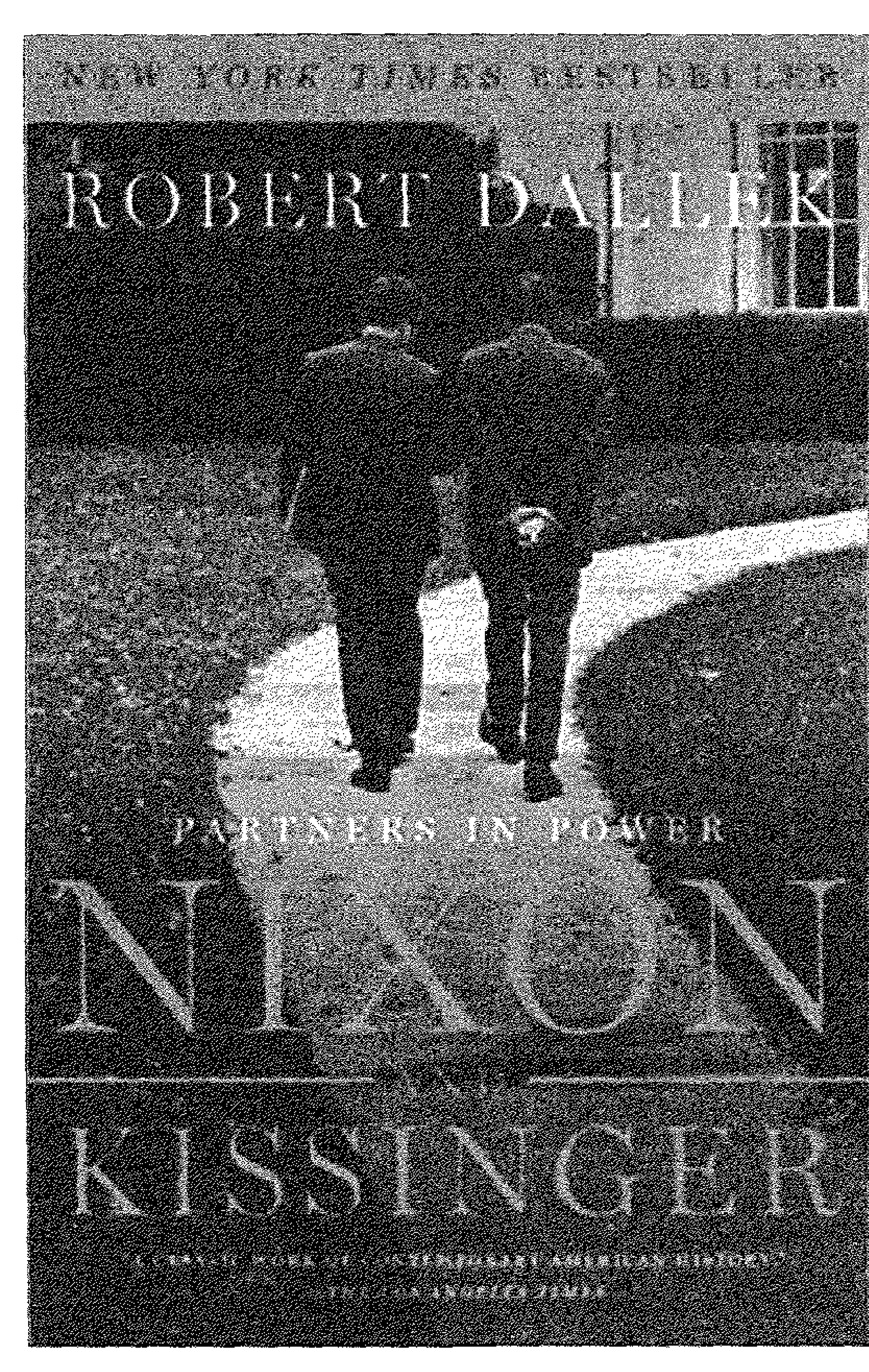
مؤلفاته عديدة، منها: التعقبات على المهمات، شروح المنهاج، أحكام المساجد، أحكام النكاح، آداب الطعام، والإبريز فيما يقدم على موت التجهيز، القول التام فى أحكام المأموم والإمام، موقف المأموم والإمام، شرح العمدة، الأربعين النووية.

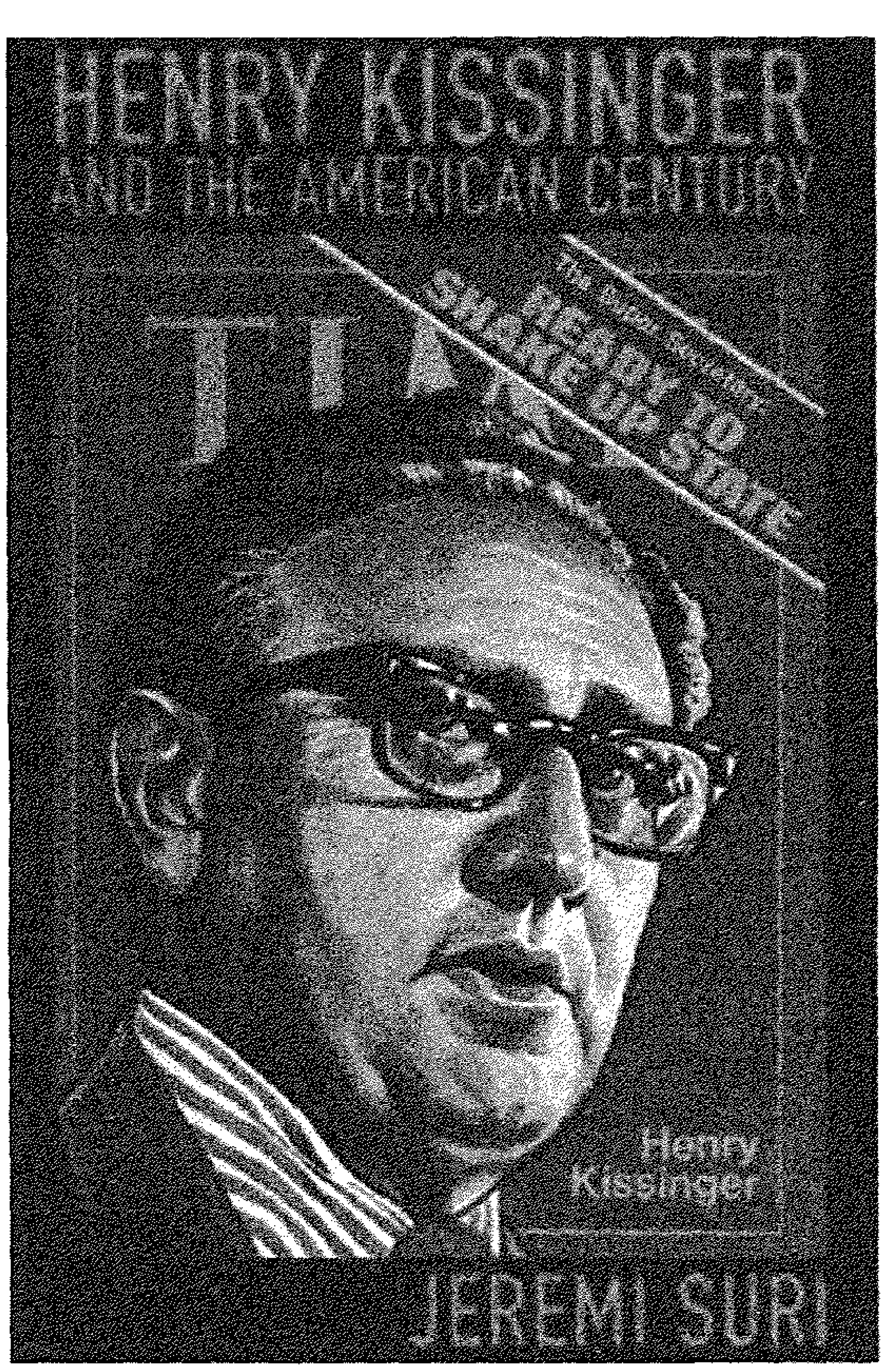
اعتبره معاصروه أحد أئمة الفقهاء الشافعية فى عصرهم ـ أى العصر المماليكى.

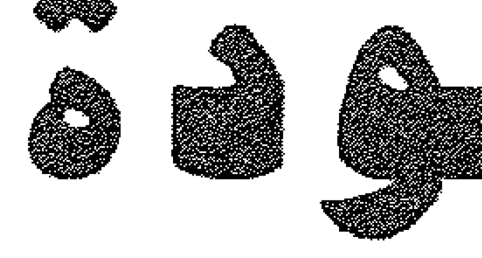
أما مخطوطة أخبار مصر، فترجع أهميتها إلى أن المعلومات التى وردت بها توضح بجلاء أن العلماء المسلمين لم يقفوا مكتوفى الأيدى فى ميدان الاستكشاف والتفسير، سواء ما كان متعلقًا بنهر النيل، أو ببعض الظواهر الطبيعية، أو بالآثار القديمة.

كما ترجع أهميتها إلى أن مؤلفها قام بجمع معظم النصوص التى كتبها الجغرافيون والمؤرخون والفقهاء السابقون عن نهر النيل من المصادر المختلفة، وقام بترتيبها ومقارنتها ببعضها البعض، ثم كتبها فى هذه المخطوطة مجتمعة.

وتنشر «وجهات نظر» بعض فصول من المخطوطة التى حققها ووضع حواشيها الدكتورة لبيبة إبراهيم مصطفى والأستاذة نعمات عباس محمد وصدرت عن دار الكتب والوثائق القومية بمصر عام ٢٠٠٦ .







عودة

جريج جراندن

■■ تقف سياسة هنرى كيسنجر الواقعية بنسبيتها الأخلاقية وإقرارها بحدود القدرة الأمريكية،على طرف نقيض من المسيحية الإنجيلية للمحافظين الجدد التى انطلقت بعد هجمات ١١ سبتمبر. وكان مثال كيسنجر قد استغل طويلا للتقليل من شأن اليمين الجديد. وزير الخارجية «يتكلم مثل تشرتشل» و«يتصرف مثل تشامبرلين»[1]، كما كتب نورمان بودورتز عام ١٩٧٦. وحتى قبل أن يلعن المحافظون كيسنجر لتعامله مع الصين وموسكو، لم تكن لديهم ثقة بشركائه خاصة نيلسون روكفيلر.

Nixon and Kissinger: Partners in Power
(نيكسون وكيسنجر: شركاء فى السلطة)
Robert Dallek
Ailen lane 2007

Henry Kissinger and the American Century
(هنرى كيسنجر والقرن الأمريكى)
Jeremi Suri
Harvard £ 10.95. 368pp

بترتيب مع:
London Review of Books

ترجمة بثينة الناصرى

فى منتصف الستينيات، كان كيسنجر مستشار روكفلر، وحين انضم إلى إدارة نيكسون فى ١٩٦٨ فعل ذلك ليس بصفته أستاذ هارفارد الطموح، ولكن باعتباره وصيا على الجناح الداعى للمعايشة الدولية فى الحزب الجمهورى. وكان رؤساء الشركات أمثال آل روكفلر الذين مولوا الحزب الجمهورى، يعجبون بتمسك نيكسون بمبادئ حزب الشعب الأمريكى المناهضة للشيوعية حين كانت تستخدم ضد العناصر الأكثر راديكالية فى (الصفقة الجديدة)[2]. ولكنهم كانوا يدركون عدم ثباتها، فهى دمقرطة مهزوزة للسياسة الخارجية أحدثتها الاحتجاجات ضد حرب فيتنام. كانت «المؤسسة» كما كان نيكسون يصف نخبة السياسة الخارجية فى واشنطن، تقر أن أمريكا فى أزمة عميقة. ولكن الحل لم يكن فى تصعيد الحرب الباردة وزيادة متسارعة فى المصروفات العسكرية، كما كان دعاة العسكرة يطالبون. بدلا من ذلك دفعت النخبة باتجاه تطبيع العلاقات الدولية. وهنا دخل كيسنجر على المسرح، وكان قد صنع اسمه من إبداء إعجابه بالسياسى مترنيخ.

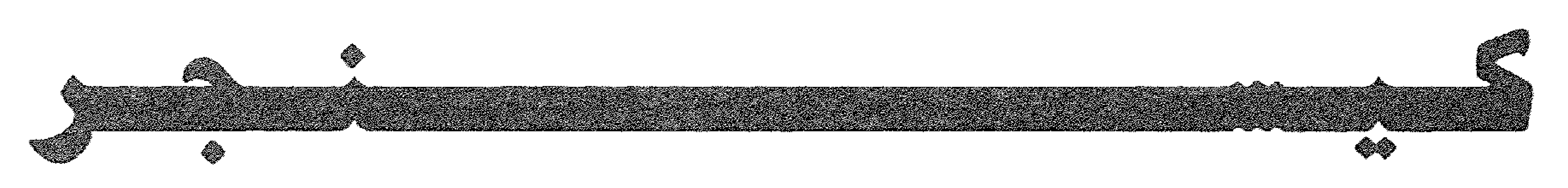


شغل كيسنجر مناصب فى إدارتى نيكسون وجيرالد فورد، أولا كمستشار للأمن القومى ثم منذ ١٩٧٣ أصبح وزيرا للخارجية أيضا إضافة لوظيفته. وبصفته مهندس سياسة الانفراج فى العلاقات الدولية، تجنب كيسنجر، بشكل مدروس، النظرية الأخلاقية التى اتسم بها موقف واشنطن فى بدايات الحرب الباردة. بالنسبة له لم يكن الاتحاد السوفيتى شرا وجوديا يحتاج إلى القضاء عليه ولكن دولة شرعية لها مصالح محددة. فى عام ١٩٧٢ ساعد فى رعاية أول معاهدة للحد من الأسلحة الاستراتيجية بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى وبدأ تطبيع العلاقات مع الصين. قبل عقدين من السنين، رفض جون فوستر دالاس وزير خارجية ايزنهاور آنذاك مصافحة شواين لاى. أما كيسنجر فهو لم يصافحه فقط وإنما رحب به وبالرئيس ماو باعتبارهما رجلى دولة عظيمين. وبدلا من ادعاء الحق بضرورة التدخل الأمريكى فى العالم الشيوعى باسم الحرية، وعد كيسنجر باحترام المخاوف الأمنية لخصومه. وفيما بعد سوف يساعد الانفراج وإعادة النظر فى المقاربة الدولية: الولايات المتحدة الأمريكية على انتزاع نفسها من فيتنام وتأكيد نفوذها فى مجالات تأثيرها، فى حين أن ذلك سوف يسمح للبيت الأبيض أن يلتف حول اليسار المناهض للحرب، داخل الوطن. وقد عبر كيسنجر عن ذلك بقوله: «رفض التفاوض مع الكرملين سوف ينشر فيروس الاحتجاج ضد حرب فيتنام فى كل مناحى السياسة الخارجية الأمريكية وربما فى عمق تحالفاتنا».

كيسنجر الذين شهد فى طفولته انهيار جمهورية فايمار[3]، تخيل نفسه مدافعا عن الوسط ضد اليسار واليمين. فى ١٩٧١ قال فى تجمع من شركات الساحل الشرقى والأكاديميين الكبار بأن بطء انسحاب الإدارة من فيتنام مقصود به «تحييد» المؤدين للديمقراطى الجنوبى جورج ولاس الذى كان يحاول أن يترشح للرئاسة عام ١٩٧٢. إذا انسحب نيكسون بسرعة كبيرة، كما حذر كيسنجر، فإن

فى ١٩٧٦ حظر فورد على كيسنجر إلقاء خطابات خوفا من هروب الجمهوريين المحافظين إلى ريجان. وهكذا كان احتواء كيسنجر خطوة مهمة فى استعادة «الاستقامة» للدبلوماسية الأمريكية





نسبة ١٣٪ التى حصل عليها ولاس فى انتخاب ١٩٦٨ - وكان قد ترشح كمستقل ببطاقة انفصالية وقسم أصوات الجناح اليمينى- قد تتصاعد إلى ٤٠٪. فى نفس الوقت، كان يضغط بانتظام على المحافظين فى كاليفورنيا بقيادة حاكم الولاية رونالد ريجان. وضد اتهاماتهم باسترضاء العدو والخيانة، بالغ كيسنجر فى نجاح حملة القصف على لاوس وكامبوديا. قال «لقد حققنا ماكنا نسعى إليه» ودافع عن نفسه ضد الموظفين الذين استقالوا احتجاجا على غزو كامبوديا عام ١٩٧٠ بالقول لهم: «إننا ننقذكم من اليمين» فردوا عليه: «اليمين هو أنت».

وقد بدت سياسة الانفراج حلا مناسبا للأزمات التى تكاثرت على البلاد. فى ١٩٦٨، مع أول عجز تجارى كبير فى فترة ما بعد الحرب، وهبوط قيمة الدولار وانهيار معيار الذهب وزيادة منافسة أوروبا واليابان والعالم الثالث، بدأ الاقتصاد فى الاهتزاز. واكتسب الانفراج بعدا اقتصاديا إضافة إلى البعد السياسى، وكان بمثابة حبل إنقاذ للقاعدة الصناعية لتحالف الصفقة الجديدة المتهاوى: فمن شأن عدم التصعيد العسكرى أن يحرر الدخل العام للاستثمار الإنتاجى ويقلل من ضغوط التضخم التى كانت ترعب مديرى السندات فى البنوك متعددة الجنسيات. فى حين أن تطبيع العلاقات الدولية سوف يفتح الاتحاد السوفيتى وأوروبا الشرقية والصين للتجارة والاستثمار.

ولكن التطبيع فشل فى حل أزمة دعاة الكينيزية (ذات علاقة بنظريات جون مانيارد كينيز الاقتصادية والتى تدعو لمزيد من البرامج الاجتماعية المالية للدولة لتوفير فرص العمل واجتذاب الاستثمارات - المترجمة) فالصين كانت حالة ميئوسا منها، فى حين أن اقتصاد أوروبا الشرقية والاتحاد السوفيتى كان من الفقر بحيث لا يستطيع استيعاب كميات كافية من الرأسمال الأمريكى، وفى غاية التعقيد والغموض بحيث لا يصلح لشراكة تجارية مربحة- وهكذا ساعد كل ذلك على تقوية دعاة الحرب الباردة وأعداء الانفراج الآخرين. بعد استقالة نيكسون، وضع ريجان خطته لسرقة الترشيح الجمهورى لعام ١٩٧٦ من جيرالد فورد. هاجم كيسنجر للتفريط بالمصالح الأمريكية فى قناة بناما وخيانة الأصدقاء فى جنوب أفريقيا وتايوان، فى نفس الوقت. انضم دونالد رامسفيلد وكان وزير دفاع فورد فى ذلك الوقت وديك تشينى وكان رئيس موظفى البيت الأبيض بجهودهما لعرقلة كيسنجر وتخريب معاهدة سولت جديدة مع روسيا (يقصد الاتحاد السوفيتى - المترجمة). حشر تشينى «بند الأخلاق» فى الخطاب الجمهورى، رافضا «التنازلات غير اللازمة» المتضمنة فى «الاتفاقيات السرية» مع السوفيت داعيا لسياسة خارجية دافعها، ليس سياسات القوة وإنما «الإيمان بحقوق الإنسان وحكم القانون وبإرشاد من الرب». فى ١٩٧٦ حظر فورد على كيسنجر إلقاء خطابات حول السياسة الخارجية فى كاليفورنيا خوفا من أن يسرع ذلك بهروب الجمهوريين المحافظين إلى ريجان. وهكذا كان احتواء كيسنجر خطوة أولى مهمة فى استعادة «الاستقامة» (ترجمتنا لكلمة righteousness وتعنى أن كل أفعال أمريكا لا تصدر عن شر- المترجمة) فى الدبلوماسية الأمريكية وهى استعادة أكملها «وضوح أخلاقى» حدد رد فعل جورج بوش على هجمات ١١ سبتمبر.

ولكن كانت ثمة عقدة صغيرة فى هذه القصة وهى تكمن فى كيسنجر نفسه الذى لم يكن يرغب فى النأى بنفسه عن دائرة النفوذ السياسى. فى خريف ٢٠٠٢، فى الوقت الذى كانت فيه إدارة بوش تقرع طبول الحرب على العراق، حذر كيسنجر بأنه من الضرورى بناء تحالف دولى، ثم أسرع بالمصادقة على الغزو، بل ربطه بالحملة لهزيمة القاعدة، وقد شهد أمام لجنة فى مجلس الشيوخ بأن الهدفين كانا «متصلين اتصالا شديدا حتى لا يمكن الفصل بينهما و.. محاولة فصلهما سوف تجعل من الصعب تحقيق أى منهما. الحرب ضد الإرهاب سوف تستغرق سنوات عديدة. التعامل مع أسلحة الدمار الشامل فى العراق لا يمكن أن ينتظر». وحتى فى الوقت الذى كان فيه نقاد الحرب يركزون غضبهم على اليعقوبيين الجدد مثل بول وولفولتز وجماعته، كانت يد مترنيخ العجوز كما قال الصحفى بوب وودوارد، تمارس «تأثيرا قويا وإن كان خفيا، على سياسة بوش تجاه العراق» كان يلتقى بانتظام مع الرئيس وتشينى. ينفض مذكراته العتيقة من عهد حرب فيتنام لحث الإدارة على البقاء فى نفس المسار: «سحب القوات الأمريكية سوف يكون مثل الفول السودانى المملح للشعب الأمريكى: كلما زاد عدد القوات الامريكية التى تصل إلى الوطن، كلما طالب الشعب بالمزيد منها. وسوف ينتهى هذا بالضرورة إلى مطالبات بانسحاب من جانب واحد».

من المغرى أن نفسر عودة كيسنجر إما باعتبارها مؤشرا على عودة بوش إلى الواقعية بعد أن تكسرت مثاليته على صخرة الواقع الجيوبوليتيكى أو أنها نموذج لـ«غرائز رجل البلاط» التى اشتهر بها كيسنجر، كما وصف والتر ازاكسون ذات مرة، نزعته لقول ما يريد الذين فى السلطة أن يسمعوه من أجل حصوله، ليس على النفوذ ولكن الإيحاء بالنفوذ. فنصائح الرجل العجوز مطلوبة لأنها تصلح أن تكون غطاء لقرارات اتخذت مسبقا.



هنالك بعض الحقيقة فى كلا التفسيرين. ولكن مع هذا فإن واقعية كيسنجر ومثالية المحافظين الجدد تتنافسان على نزوات دبلوماسية بقدر ما تساهمان بالتبادل على تجذر الغرور. فلم يكن هنالك فرق بين مصادقة كيسنجر الخفية على القتل والتعذيب اللذين نفذهما حلفاء الولايات المتحدة فى أمريكا اللاتينية وأفريقيا وجنوب شرق آسيا، أو كلام وليام كريستول المعسول حول فوائد تغيير الأنظمة بالقوة فى الشرق الأوسط: كلاهما يفعلان ذلك باسم أهداف نبيلة (القانون والحرية والديمقراطية). هنالك تماثل فى التكتيكات والأسلوب أيضا: تشكك كيسنجر فى الآخرين، وتحايله ورفضه إظهار أى نوع من الندم، كانت سوابق سلوك سار على خطاها بوش ومن وراءه. وإذا كنتم تعتقدون بأن تهديد إدارة بوش باستخدام أسلحة نووية تكتيكية تؤشر على تغير جذرى من ماض عقلانى، فمن المفيد أن نذكركم بأن كيسنجر لم يدع فقط لمثل هذه الاستراتيجية فى كتاباته الأكاديمية المبكرة وإنما قام بنفسه بوضع الولايات المتحدة فى حالة طوارئ نووية أملا أن يرهب السوفييت للاعتقاد بأن نيكسون كان (مجنونا) بما فيه الكفاية ليبدأ حربا درية.

وقد يكون ريجان قد شكك فى مؤهلاته المناهضة للشيوعية ولكن كيسنجر استطاع أن يكيف نفسه بسرعة لليمين الجديد. «إننا نتطلع الآن جميعا إلى رونالد ريجان لضمان تحقيق آمالنا» قال مخاطبا حشدا فى احتفال الترشيح لعام ١٩٨٠. وقد تسبب ذلك فى احتقار جماهيرى له، أقل قليلا مما حظى به جيمى كارتر. وقد شغل منصب مستشار غير رسمى للبيت الأبيض خلال الثمانينيات، وكان رئيس لجنة الحزبين التى صادقت على حروب ريجان الدموية فى أمريكا الوسطى. ومرة أخرى، هل يمكن أن نعزو عودته إلى اليمين إلى شخصيته الحربائية المتقلبة؟ ربما يكون هذا التعبير دقيقا، ولكنه لا يكفى لتفسير هذه التصرف. فقد كان تحوله جزءا من نقلة أكبر لمؤسسات ما بعد الحرب التى ساندت سابقا سياسة الانفراج - مثل مؤسسة بروكنجز واللجنة الثلاثية ومجلس العلاقات الخارجية والتى كان فيها كيسنجر ولايزال عضوا بارزا - والآن تتصالح مع ثورة ريجان وتسمع لبعض النقد على هامش أجندتها المحلية والخارجية وهى: تمزيق دولة الرفاهية، زيادة المصروفات العسكرية وتصعيد الحرب الباردة. حتى نلسون روكفيلر لحق بالركب قبل أن يفوته القطار، باعثا مندوبا إلى مؤتمر الحزب الجمهورى لعام ١٩٨٠ من أجل تهدئة المعارضة فى أوساط الجمهوريين الليبراليين فى خطاب حزبى، لو كان قد ألقى قبل أربع سنوات فقط لاعتبر متطرفا.

إذا تأملنا الأحداث الماضية، كانت إدارة نيكسون انتقالية تؤشر التحول من سياسة الصفقة الجديدة متعددة الجوانب، إلى عسكرية وأخلاقية واستباقية اليمين الجديد. كيسنجر بدوره، كان مفكرا انتقاليا، وهذا هو السبب أن واقعيته سالت بتدفق فى المثالية التى بررت تدمير العراق.

أحد الجوانب المهمة فى السياسة الانتقالية هو



معرفة كيفية التعامل مع الرصد والمراقبة والمعارضة الجماهيرية. في السنوات القليلة التي سبقت تنصيب نيكسون، تضافرت كل أعمدة المجتمع المؤسساتية التي تمنح شرعية للحكومة - الصحافة والجامعات وصناعات السينما والفن والكنائس والمحاكم - للوقوف ضد الانتقالية مما خلق مايعتبره المحافظون الجدد «ثقافة معادية» متخندقة. أما كيسنجر فقد اعتبرها شفافية حكومية مفرطة أتاحت للمواطن أو الصحفي أن يركز على وقائع منعزلة في حين يتجاهل الصورة الجيوبوليتيكية الأكبر. وقد هتف مرة «لقد أصبح أداء السياسة الخارجية مستحيلاً في ظل هذه الظروف» وكان ذلك حين واجهه صحفي حاملاً وثائق تشير إلى أن نائب الرئيس جيرالد فورد أعطى لسوهارتو الضوء الأخضر لغزو تيمور الشرقية عام ١٩٧٥، مما نتج عنه وفاة ٢٠٠ ألف شخص.

بلغت مناورات نيكسون وكيسنجر لتفادي المساءلة - وعمليات تنصتهم واقتحام المنازل ليلاً ومطاردة المعارضين - مبلغاً أسطورياً وتعزى غالباً إلى ضعف في الشخصية وإلى بارانويا وعنجهية. ولكن روبرت داليك في كتابه (نيكسون وكيسنجر: شركاء في السلطة) يموضع تحاليلهم ضمن تحول أوسع لدبلوماسية لا يتبين فيها الخيط الذي يفصل السياسة الخارجية عن الداخلية.



بدون أية إشارة إلى ضرورات الدفاع القومي. في قضايا الشرق الأوسط، كما يكتب داليك «كانت السياسات الداخلية لها الأولوية»، فقد أراد نيكسون أن يضغط على إسرائيل لتتخلى عن برنامجها النووي، ولكنه سرعان ما تراجع خوفاً من خسران الأصوات المؤيدة لإسرائيل في الكونجرس. كان نيكسون «يرى في محادثات سولت قيمة سياسية أكثر منها أمنية». في حين أبلغ كيسنجر الرئيس بأن سياسة الانفراج سوف «تكسر ظهر هذا الجيل من القادة الديمقراطيين» أجابه نيكسون «هذا صحيح. علينا أن نحطم ثقة الشعب بالمؤسسة الأمريكية».

كان تداخل السياسة الخارجية مع الداخلية يتم- على الأغلب - بسبب فيتنام، كانت الإدارة في حاجة إلى الخروج من فيتنام وإيقاف استنزاف قوتها في العالم وفي الوطن. ومن أجل أن تحقق ذلك عمل نيكسون وكيسنجر على استقرار العلاقات مع الصين والاتحاد السوفيتي، حتى يستطيع كل منهما أن يجند خصمه الشيوعي للضغط على فيتنام الشمالية وتحييد مطالبات الشعب الأمريكي لإحلال السلام، ولكنهما مع ذلك شعرا بأنهما مجبران على توسيع الحرب إلى كمبوديا ولاوس من أجل إجبار هانوي على الموافقة على تسوية تحترم سيادة سايغون، وبهذا تتاح الفرصة للبيت الأبيض للحفاظ على «مصداقيته» مع الحلفاء واسترضاء يمين ثائر. في ١٩٧٠ كتب كيسنجر إلى نيكسون: «يجب أن نصعد أو نخسر الرئاسة».

وكان الرئيس قد بدأ يشكك في كفاءة حملة القصف ولكن كيسنجر أصر على أن «رجة» قوية يمكن أن تكسر الجمود في باريس حيث كان المفاوضون الفيتناميون الشماليون يرفضون التزحزح عن موقفهم. وكان من رأي كيسنجر أيضاً أن التصعيد قد ينهي الجمود السياسي في الوطن. كان يقول: «احتياطي الأصوات الداعمة في البلاد موجود على اليمين»، وكان أحمق في اعتقاده بأنه يستطيع أن يلعب بين اليمين واليسار. لم يكن وسيطاً وإنما كان مسهلاً للأمور، يمهد الأرضية لثورة ريجان، الذي حقق ما لم يستطع كيسنجر تحقيقه من إنهاء أزمات السبعينيات. لا عن طريق العنف السري المغلف بالحديث عن «التعاون المتبادل»، ولكن عن طريق العسكرية الصريحة المشربة بإحساس الاستقامة الأمريكية.

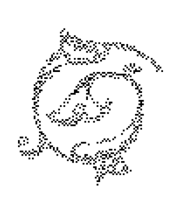
لقد أصبحت الأساليب التي استخدمها نيكسون وكيسنجر من أجل عرقلة المراقبة الديمقراطية للسياسة الخارجية، نهج الإدارات الأمريكية منذ ذلك الحين، واستخدمت مؤخراً للتشكيك بالنقاد ولنشر معلومات مضللة حول غزو العراق. في نفس الوقت، استمر تحلل الخط الفاصل بين السياسة الخارجية والداخلية. لم يحدث في التاريخ الأمريكي أن كانت حظوظ السياسة الداخلية للتحالف الحاكم تعتمد هذا الاعتماد الكلي على السياسة الخارجية كما يحدث في نهج الحزب الجمهوري هذا اليوم، وهو يستخدم ذريعة الأمن القومي والحرب على الإرهاب، ليوصل ما تفرقه الاختلافات في أوساط دوائرهم الانتخابية المتنافسة وبين المحافظين الجدد واليمين المتدين، مثلاً، أو الليبراليين الاجتماعيين والمحاربين الثقافيين.

ولكن مع ذلك هناك فرق مهم وحيد، احتفاظ كيسنجر بسلطته رغم كل شيء.

في السبعينيات كان على نيكسون وكيسنجر إلقاء الكثير من الخطب حول السلام ونزع السلاح، ليس من أجل إسكات مناهضي الحروب فحسب ولكن أيضاً لإرضاء «المؤسسة» التي كان يشتكي منها نيكسون وإليها كان كيسنجر يبعث تقاريره. اليوم، الوسيلة الوحيدة التي يمكن للجمهوريين أن يأملوا في كسب الانتخابات الرئاسية القادمة هي بالتعهد ليس بسياسة التعايش وإنما بالحرب الدائمة.

من الصعب أن يتفق كيسنجر كما قدمه المؤلف داليك - غيوراً، متملقاً، منافقاً، ووصولياً - مع ذلك الكيسنجر الذي قدمه جيرمي سوري في كتابه (هنري كيسنجر والقرن الأمريكي).

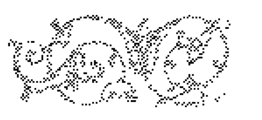
في كتاب داليك، لا نرى مفاوضاً عظيماً ولكن ساذجاً يستغله نظراؤه الروسيون والفيتناميون والصينيون الأكثر دهاء. لم يكن عسيراً على ممثلي هانوي إلى محادثات السلام في باريس، أن يكتشفوا بسرعة، فرحة كيسنجر الطفولية في المشاركة في العالم النادر للدبلوماسية الكوزموبوليتانية واستغلوا ذلك لجر المناقشات إلى صالحهم، حتى اشتكى نيكسون قائلاً: «من الواضح أنه لا يستطيع أن يفاوض». كما أن كيسنجر كان يذعن لمعاداة نيكسون للسامية، بإبعاد موظفيه اليهود عن اجتماعات البيت الأبيض، وكان يثور غضباً لأي إهانة يتخيلها. وكتب هالدمان في يومياته «يصر هنري على الهرولة إلى الرئيس وإخباره أننا على وشك أن نشتبك في حرب في الشرق الأوسط». والرئيس يسأله ماذا يريد أن يفعل حول هذا الموضوع. ولم يكن لديه أية أفكار سوى رغبته في الهيمنة. المشكلة الحقيقية في هنري أنه يتحمس كثيراً حول هذا الأمر».



كتاب داليك شامل ومفصل ويعتمد بشكل كبير على النصوص التي أفرج عنها مؤخراً لمحادثات هاتفية كان كيسنجر قد سجلها سراً، إضافة إلى شرائط نيكسون التي أتيحت للجمهور حديثاً، ومذكرات البيت الأبيض وأوراق ويوميات إيتش آر هالدمان، كبير موظفي نيكسون واليكساندر هيج، نائب كيسنجر في مجلس الأمن القومي. ويصعب على المرء - في أكثر من سبعمائة صفحة - أن يعثر على مبادرة سياسية خارجية واحدة لم تستغل لمكسب داخلي: سواء إسكات المعارضة أو الانتصار على المنافسين أو إظهار نيكسون بمظهر «رجل الموقف والحكمة»، استعداداً لإعادة انتخابه في ١٩٧٢. وعلى سبيل المثال، لم يكن للضغط المبكر لبناء نظام دفاعي صاروخي ضد الصواريخ البالستية، علاقة بالقوة السوفيتية بقدر علاقته بتأكيد هيمنة نيكسون على السياسة الخارجية في مواجهته مع الكونجرس. وبمساعدة كيسنجر، كسب الرئيس المعركة بتضخيم الخطر السوفيتي، ثم تباهى في مذكرة نصر حول «أسلوب نيكسون» بالتعامل مع الكونجرس حتى



في خريف ٢٠٠٢، في الوقت الذي كانت فيه إدارة بوش تقرع طبول الحرب على العراق، حذر كيسنجر بأنه من الضروري بناء تحالف دولي، ثم أسرع بالمصادقة على الغزو





كيسنجر في كتاب سوري، على العكس من ذلك، «رجل دولة بطل» و«رجل قوى العاطفة يسعى لفعل الخير في العالم باتخاذ خيارات صعبة» و«دخل عالم السياسة لأسباب أخلاقية». وما يراه داليك انتهازية يعتبرها سوري «مرونة». وكتاب سوري أقصر بكثير من كتاب داليك ولكنه أكثر طموحاً، وأفضل ما يقال عنه

إنه رد فعل على كتاب «محاكمة هنري كيسنجر» المثير للجدل والذي صدر عام ٢٠٠١ لمؤلفه كريستوفر هنتشنز الذي يرى ضرورة محاكمة كيسنجر لجرائم ضد الإنسانية.

على الضد من ذلك، يصور سوري بطله كرجل دولة لايخلو من الأخطاء ولكنه رجل شريف «ارتكب أخطاء كثيرة في ظروف عصيبة». ويأتي ذكر لاوس على الهامش وينتقد كيسنجر بسبب «قصور خياله» خاصة في شيلي وفيتنام. ولكن سوري لا يذكر دعم كيسنجر لغزو تيمور الشرقية، أو تجاهله جريمة قتل نصف مليون بنغالي في بنجلادش أواخر ١٩٧١ التي ارتكبتها باكستان الغربية، حليف واشنطن والصين، وعدم رغبته في أن تفسد هذه الجريمة رحلته التي صنعت مجده إلى بكين، أوتمويله متمردي رينامو في موزمبيق، أو دوره في تدمير كمبوديا، الذي ساعد في تولي الخمير الحمر السلطة. يكتب سوري «آلاف من الناس قتلوا بسبب قرارات كيسنجر» مقللاً من الرقم الذي قد يصل إلى أكثر من مليون. ويؤكد أكثر من مرة أن كيسنجر «لم يكن مجرم حرب».

ويطالب سوري أن تفسر أفعال كيسنجر في الإطار التاريخي لتساعدنا على فهم سبب ارتكاب «رجال ونساء أخيار أعمالاً سيئة». وهو اقتراح لا يناسب من يتصدى لكتابة التاريخ. ويجادل سوري بأن التجارب التي عاشها كيسنجر - مثل مشاهدة انهيار الديمقراطية الألمانية وصعود النازية، ويهوديته ووضعه كمهاجر في المجتمع الأمريكي - هي التي شكلت فلسفته الدبلوماسية خاصة انعدام ثقته بديمقراطية الجماهير. ويركز سوري بحق على «الثورة الكونية في أواخر الستينيات» كحد فاصل في العلاقات الدولية وهو أمر كان يمكن لكيسنجر أن يستغله لصالحه. ولكن بدلا من استغلال هذه الثورة في الاقتصاد والسياسة في ذلك الوقت، يصفها سوري بكلمات مماثلة لتلك التي يستخدمها بطل كتابه، باعتبارها انهياراً عاماً للسلطة. يكتب قائلاً: «عانت التقاليد الاجتماعية والثقافية من هجوم منسق. الخوف من فوضى عالمية حلت محل التسليم بوجود نظام دولي» أما القادة السياسيون فقد «نالهم الضرر». يتماهى الكاتب مع بطل كتابه حتى يكون من الصعب القول متى ينتهي تفسير سوري لرؤية كيسنجر للعالم ومتى يبدأ تحليله هو فهو يكتب مثلا «مثل الديمقراطيات عشية الحرب العالمية الثانية، أصبح مواطنو المجتمع الدولي ضعفاء ومقسومين وجبناء».

هاجمت جين كيركباتريك سفيرة ريجان للأمم المتحدة، ذات مرة، إدارة كارتر لتفسير أحداث العالم بمصطلحات عامة، باعتبارها ناتجة عن «مسارات» و«قوى». وقالت إن هذا يعكس بلاهة تحليلية وضياعاً أخلاقياً. ولكن موظفي كارتر لايعترضون الآن ضد سوري الذي يحثنا على «فهم تجربة هنري كيسنجر والقوة الامريكية كمسارات للعولمة - ترجمة الأفكار والشخصيات والمؤسسات من مجتمعات متنوعة» ويقول «ظل كيسنجر ورجال الدولة الأخرون خاضعين لقوى ثورية أكبر لم يستطيعوا كبحها».

في نظر سوري كانت مسيرة كيسنجر العملية، مثل القرن الأمريكي ككل، «تتوضح تدريجيا بالفعل الماضي». وكلاهما «تأثرا بعمق وأحيانا تشوها - بفعل عوامل خارجية، بضمنها الصراعات العسكرية البعيدة عن أمريكا الشمالية، وانهيار المجتمعات الأجنبية، وظهور أنظمة عنيفة. كان القرن الأمريكي رد فعل على التحولات الدولية». وهذا المصطلح الأخير يتكرر مثل أحجية مما يجعل التاريخ بلا معنى: «كان القرن الأمريكي رد فعل على التحولات الدولية. كان قرناً كونياً».

ويجادل سوري بحرارة بأن التزام كيسنجر لإعادة إحياء القوة الأمريكية كان مثالياً: ويقتبس من كيسنجر قوله بأن كل ما فعله كان دفاعاً عن أمريكا «لمثاليتها وإنسانيتها واحتضانها لآمال البشرية». ويقول سوري عن كيسنجر «كان يدافع عن حلمه الأمريكي في فيتنام». ومع ذلك فلأن سوري يملك فهماً فجاً للسياسة فهو يعمي عن رؤية الطريقة التي أوصلت بها أسباب كيسنجر «الأخلاقية»، واحتقاره للمراقبة الديمقراطية ورغبته في تنفيذ أي جريمة لتوسيع المصالح الأمريكية، المؤسسة الدبلوماسية الأمريكية إلى المحافظين الجدد.

في نهاية كتابه يقدم مقارنة بين رد فعل بوش على أحداث سبتمبر و«مقاربة كيسنجر الأكثر حذراً والأقل ديمقراطية للسلطة» والتي تجعل المرء يتساءل: كيف أن قيام كيسنجر بالقصف السري لبلدين، ناهيك عن وضع الجيش الأمريكي في حالة إنذار نووي، يمكن أن يسمى مقاربة حذرة أو كيف أن «مقاربة بوش للسلطة» يمكن وصفها بالديمقراطية.

لايعتبر داليك ناقداً راديكاليا للسياسة الخارجية الأمريكية، وعلى الأرجح يصلح كتابه هدية بمناسبة أعياد الكريسماس أكثر مما يصلح للمناقشة في ندوة. ومع ذلك فهو يؤسس تاريخه على أفعال أناس حقيقيين مما يسمح له أن يزن نتائج تلك الأفعال. بخلاف سوري الذي نال الكثير من الثناء لإضافته المنظور «العابر للأوطان» إلى التاريخ الدبلوماسي، فهو يحاول بطموح أكبر تقييم معنى «القرن الأمريكي». ويناشدنا أن نتأمل امتلاء حياة كيسنجر، ومع ذلك فهو يرسمه بكلمات تفتقر إلى الوضوح، بل إنه ينحو إلى التعميم ومن الناحية التاريخية يخلو كتابه أحيانا من المنطق فهو يكتب «لكل صماته المميزة، كيسنجر واحد منا».

يغسل جيرمي سوري جرائم كيسنجر - وبالتالي جرائم «القرن الأمريكي» - في حمام من التفاهة فهو يقول «لم يسع كيسنجر لرسم بحر جديد لرحلة حياته. لقد أبحر مع التيار، يغير اتجاه السفينة بمهارة ليصطاد الرياح في أشرعته».

حين طلب سوري من كيسنجر، في حوار لكتابه، الإعلان عن «مبادئه الأخلاقية القوية - المبادئ التي لا يمكنه أن يتخطاها» قال كيسنجر إنه «غير مستعد للإعلان عن ذلك الآن». ويعتبر سوري هذا دليلا على صراع كيسنجر مع ضميره، مع حقيقة أن «النوايا الحسنة دائماً تأتي بنتائج سيئة». ولكن كيسنجر كان قد أجاب على سؤال مشابه في عام ١٩٧١. سأله صحفي: ما هو الخط الذي إذا تم تجاوزه، قدم كيسنجر استقالته؟ وكانت لحظة مواتية لهذا السؤال حيث كان نيكسون وكيسنجر - خوفاً من احتمال عدم التمكن من الخروج من فيتنام قبل انتخابات ١٩٧٢ - قد بدأ في قصف لاوس مرة أخرى، كجزء من حملة متقطعة ألقت فيها الولايات المتحدة ملايين الأطنان من النابالم والفوسفور الأبيض والمتفجرات القوية وقتلت مئات الألوف من اللاويين. أجاب كيسنجر بأنه سوف يستقيل إذا «أصبح اتجاه السياسة برمته مقيتاً أخلاقياً بالنسبة لي» ولكنه لم يرغب في انتقاد نيكسون «إلا إذا نصبت أفران غاز أو أرتكبت فظائع أخلاقية شنيعة». إن فشله بعد عقود من ذلك من تذكر حتى هذا الجواب المثير للجدل ليس دليلاً على صراع أخلاقي ولكنه دليل على صمت رجل مسئول عن ارتكاب أكبر الفظائع المبررة باسم الأمن القومي. ■



بلغت مناورات نيكسون وكيسنجر لتفادي المساءلة - وعمليات تنصتهم واقتحام المنازل ليلاً ومطاردة المعارضين - مبلغاً أسطورياً وتعزى غالباً إلى ضعف في الشخصية وإلى بارانويا وعنجهية





هوامش المترجمة

(١) ونستون تشرتشل رئيس وزراء بريطانيا لمرتين، في مايو ١٩٤٠ خلف رئيس الوزراء تشامبرلين وقاد بريطانيا إلى النصر ضد قوات المحور، وكان مشهوراً بخطبه البليغة التي كانت ملهمة لقوات الحلفاء. وبعكسه كان ارثر نيفيل تشامبلرين سياسياً محافظاً رأس الوزارة من ١٩٣٧ إلى ١٩٤٠ الذي تميز بسياسة ترضية ادولف هتلر والحكومة النازية بتوقيعه اتفاق ميونخ عام ١٩٣٨.

(٢) الصفقة الجديدة New Deal هو عنوان عدة برامج اجتماعية واقتصادية نفذها الرئيس الأمريكي فرانكلين روزفلت بين عامي ١٩٣٣ و١٩٣٨ بهدف دعم الشعب والاقتصاد خلال فترة الكساد الكبرى. وتعتبر نقلة في السياسة الأمريكية الهادفة إلى رفع دعم الدولة وتشجيع القطاع الخاص، وكان من نتائج هذه البرامج: سيطرة الدولة على الاقتصاد والنقد، والتدخل للسيطرة على الأسعار والإنتاج الزراعي، وتشجيع الاتحادات والنقابات المهنية.

(٣) جمهورية فايمار هي اختراع المؤرخين فليس هناك مثل هذه التسمية، بل كان الاسم الرسمي هو (ألمانيا). وقد تأسست في فبراير ١٩١٩ في ألمانيا المهزومة واستمرت حتى مارس ١٩٣٣ حين استبدلت ديمقراطيتها بالرايخ الثالث وصعود هتلر.

الديمقراطية..

طاهر حمدى كنعان



لا تبدأ الديمقراطية بدون ديمقراطيين بل بحملة قيم وثقافة تبدأ بسيادة وحقوق الشعب وبالعدالة كحالة من المساواة ورفض الامتيازات الحصرية لفئات معينة على الأقل



■■ «الكتاب العظيم.. يعظم فائض المنتفع

من مفاهيم علم الاقتصاد اللصيقة بمنطق هذا العلم، والتى لا تنفك تثير الإعجاب كلما تأملها المرء عند الحالات التى تستدعيها، هو مفهوم «فائض المنتفع» أو «فائض المستهلك» consumer's surplus الذى يسجل فى بعض قراءاته الفرق بين قيمة المنفعة التى يحصل عليها المستهلك أو المنتفع بمنتج معين والتى تعادل تكلفة المال والوقت والجهد المطلوب لإنجاز هذا المنتج، وبين الثمن الفعلى الذى يدفعه المنتفع للحصول عليه. الذى ينشئ هذا الفرق أو «الفائض» هو وجود عدد كبير من المستهلكين أو المنتفعين بالمنتج مما يمكن من توزيع تلك التكلفة على ذلك العدد الكبير بحيث يستطيع كل واحد منهم أن يحصل على المنتج مقابل ثمن تافه يعظم بدرجة جد كبيرة قيمة «فائض الانتفاع» لدى كل واحد منهم. ومن الأمثلة على الحالات التى تستدعى التأمل فى ذلك المفهوم حالة الكتاب الذى يخطه عالم أو مفكر عظيم يضع فيه عصارة علمه وتجربته باذلاً أياماً وليالى من الجهد فى البحث وتقليب الأفكار لاستخلاص أفضلها لكى يعهد به إلى الصحائف الورقية. وفى الأزمنة المبكرة من نشأة الحضارة كان الحصول على مثل ذلك النتاج يقتضى من المنتفع أن يبذل مالاً طائلاً لمنتجه سواء كان فيلسوفاً أو مفكراً أو أديباً أو فناناً لكى يحفزه للإنتاج أو ليكافئه عليه، وفى هذه الحالة لا يحصل هذا المنتفع الأول على أى فائض. لكن بعد تدوين ذلك النتاج فى كتاب قابل للاستنساخ وسماح راعيه الأول باستنساخه، يصبح المنتفع التالى الذى يحصل على نسخة ثانوية من الكتاب متمتعاً بفائض يعادل الفرق بين التكلفة الأصلية للمنتج وتكلفة استنساخ النسخة الواحدة. وحين كان الاستنساخ يدوياً يقتضى جهداً غير قليل من الكاتب المحترف الذى يتوخى الدقة ويتمتع بالخط الجميل، فإن «فائض الانتفاع» وإن كان ضخماً بالقياس إلى ما تكلفه المنتفع الأصلى، إلا أنه زهيد جداً بالقياس إلى الفائض الذى أضحى يتمتع به المنتفع فى زماننا الراهن حين يستطيع أن يحصل مقابل ثمن بخس دراهم (أو دنانير أو دولارات) معدودة على أفضل إنتاج لأعظم المفكرين أو الأدباء أو الفنانين، (بل وفى عهد الإنترنت مقابل لاشىء سوى تكلفة الربط بالعنكبوت العالمى العريض «ع ع ع» أو "www" (world wide web))!!

إن إدراكى لذلك المفهوم المركزى فى علم الاقتصاد (وإعجابى المستمر به) أنشأ عندى عادة معاملة النتاج الفكرى أو الأدبى أو الفنى (من كتاب أو قرص إلكترونى أو تنزيل download من الإنترنت) بكثير من الاحترام. فإذا خطر لى أو طلب منى التعليق على أى منتج جدى فى الفكر أو الفن أو نقده، فإنى أفعل ذلك بمنتهى التهيب والشعور بجسامة «فائض المنتفع» الذى يمثله ذلك المنتج، ولذلك لا أسمح لنفسى بالتعليق أو النقد إلا بعد الاستيعاب المتأنى والدقيق لمضمون ما أنا بصدد نقده أو التعليق عليه.

وحين استلمت نسختى من كتاب عزمى بشارة الجديد «فى المسألة العربية، مقدمة لبيان ديمقراطى عربى»، شرعت فى قراءته بكل عناية واهتمام، ليس فقط لضخامة «فائض المنتفع» الذى يهدينا إياه مفكر عربى بمستوى عزمى بشارة، ولكن أيضاً لنيتى المسبقة أن أقوم بمهمة كتابة مراجعة له، كون منشأ الكتاب كان محاضرة شرفنى الكاتب بتقديمها فى عمان فى خريف ٢٠٠٥ ضمن فعاليات «المركز الأردنى لأبحاث وحوار السياسات»، فى موضوع «تحديات الانتقال إلى الديمقراطية». وكان وقعها على كل من سمعها غاية فى التأثير، ورأيت فيها مقومات تضعها فى مستوى البيان التاريخى أو «المانيفستو» فيما يخص مقاربة الديمقراطية من منظور قومى عربى. ولذلك حين قام المركز بنشر نص المحاضرة المفرغ من التسجيل الصوتى (كونها كانت حديثاً مرسلاً من رؤوس أقلام وليس من نص مكتوب) وجدت من المناسب أن أضيف إلى عنوانها الأصلى «تحديات الانتقال إلى الديمقراطية».. التكملة اللائقة «.. مقدمة للبيان الديمقراطى العربى». وحين استجاب عزمى بشارة لأهمية تطوير أفكارها المحورية إلى كتاب كامل فى «المسألة العربية» سرنى بأنه لم يتخل عن تلك التكملة للعنوان وإن أدخل عليها قدراً من التواضع فجعلها «مقدمة» وليس «المقدمة»!

يقدم الكتاب عدداً من الأطروحات الفكرية التى تسعى إلى التحديد النظرى الدقيق لعدد من المفاهيم التى يلتبس فهمها عند الكثيرين من المفكرين السياسيين ومن الحركات السياسية المتأثرة بذلك الالتباس والمعرضة بذلك إلى التيه فى تجارب سياسية غير مجدية. ولما كان هذا الجهد الفكرى بطبيعة أهدافه نظرياً وتجريدياً، فإن نصوصه تقتضى قدراً غير قليل من التأنى والصبر فى القراءة لاستيعاب مراميها.

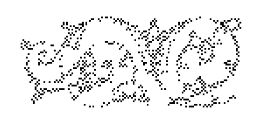
ظاهرة الديمقراطية

الأطروحة المحورية فى الكتاب هى التمييز بين الديمقراطية كما نشأت تاريخياً نتاجاً لعملية إنضاج طويلة لهذه الظاهرة الاجتماعية التى نشاهدها فى عصرنا وقد اكتملت صورتها المؤسسية المحددة وأضحت قادرة على استدامة ذاتها وظائف وغايات، وبين المبادرة المستعجلة لتأسيسها أو «إعادة إنتاجها» فى مجتمعات كالمجتمعات العربية على الخلفية التاريخية التى قادت إلى واقعها الراهن وضمن السياق الدولى والمؤثرات الخارجية التى تكتنفها من كل الجهات. هناك فرق كبير بين الأمرين: نشوء الظاهرة تاريخياً وإعادة إنتاجها آنياً.

ويلفت الكتاب النظر إلى أن الخطأ الذى يقع فيه المهتمون بإنشاء الديمقراطية فى مجتمعاتنا العربية هو استصغارهم شأن تلك العملية التاريخية والتوهم أن الديمقراطية تنشأ بمجرد توفر مقوماتها التى يتم تشخيصها من استقراء خصائص الديمقراطيات الكبرى كالفرنسية أو البريطانية أو الألمانية أو الهندية، غافلين عن أن الديمقراطية التى تأسست تاريخياً فى هذه الدول/الأمم باتت نظاماً يستديم ذاته بعوامل أعمق غوراً من تلك المقومات. والحال هو أن معرفة الشروط المطلوب

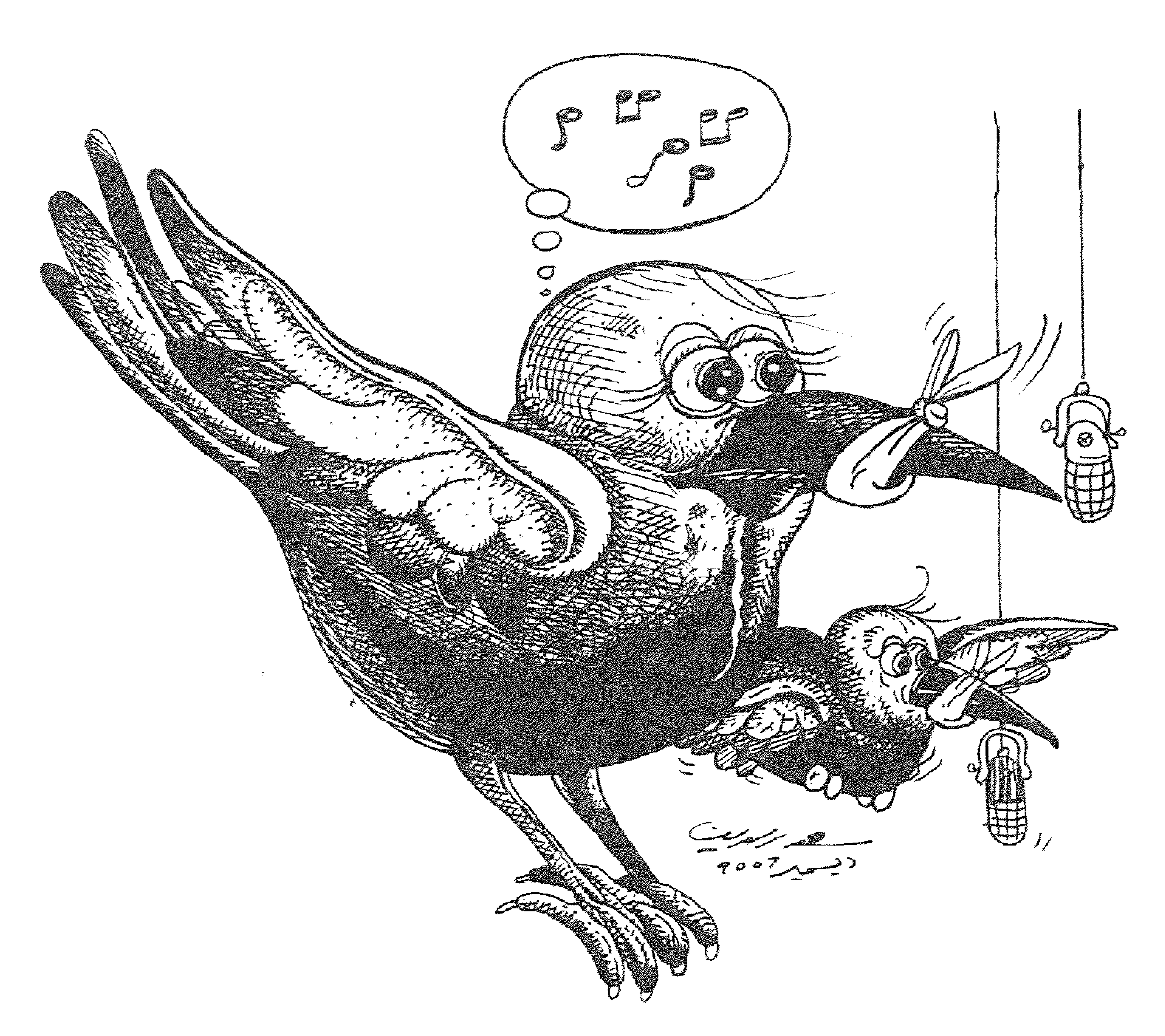


الخطأ الذى يقع فيه المهتمون بإنشاء الديمقراطية فى مجتمعاتنا العربية هو استصغارهم شأن تلك العملية التاريخية والتوهم أن الديمقراطية تنشأ بمجرد توفر مقوماتها



فى المسألة العربية
مقدمة لبيان ديمقراطى عربى
عزمى بشارة
بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية - ٢٠٠٧

مشروع عربى!!!



توفرها لتأسيس ديمقراطيات جديدة وتحديد هذه الشروط لا يكون بمجرد تعداد الصفات أو المقومات أو العناصر التى ميزت الديمقراطيات التاريخية، والتساؤل عن ورودها أو غيابها فى هذا المجتمع أو ذاك، ومن ثم استنتاج مدى ابتعاد أو اقتراب هذا المجتمع من تأسيس نظام ديمقراطى. إن نظرية نشوء الديمقراطية المبنية على الاستقراء التاريخى قد تستنتج أن العوامل الحاسمة فى نشوء الديمقراطية كانت متماهية مع بعض العناصر التى أصبحت تعرف بعناصر «الحداثة» مثل نمو الطبقة الوسطى الواسعة فى مقابل الإقطاع والإكليروس كما حدث فى فرنسا، ونشوء مفهوم جديد للأمة وارتفاع مستوى التعليم وصعود القومية على أنقاض الانتماءات الأصغر... إلخ.. وفى بعض الحالات ارتبط نشوء الديمقراطية بالصراع بين الكنيسة والنبلاء والملك وتحالفات شتى قامت بالتوازى مع ذلك... إلخ.. ما يجعل الشروط التاريخية لهذا كله لانهائية وغير محددة بحيث لا يمكن استحضارها من جديد، بل يصعب فى ذلك الاستقراء للتاريخ، الاختيار بين ما يعتبر الأسباب الجوهرية لنشوء وتطور الديمقراطية وبين التفاصيل التاريخية اللا نهائية التى سبقت هذا التطور. لكن بعض عناصر الحداثة، وبالذات النزعة الليبرالية، لم تكن أساسية فى نشوء الديمقراطية. وفى هذا الصدد يشير الكاتب إلى أن الأمر احتاج إلى بضعة قرون لكى تلتقى الديمقراطية مع الليبرالية فى الحداثة ذاتها. فالليبراليون المدافعون عن الحريات وحقوق المواطن والسوق الحرة لم يكونوا ديمقراطيين تاريخيا. والديمقراطيون من بداية الثورة الفرنسية غالبا لم يكونوا ليبراليين. وربما من هذه الزاوية يمكن النظر إلى الوراء والقول: «إن الأمر احتاج إلى حربين عالميتين وإلى تحول الاشتراكية دون حريات (الديمقراطيات الشعبية كما وصفت ذاتها) إلى أحد أسوأ أنواع الاستبداد: حتى بدأ الناس بتصور الديمقراطية كنظام ديمقراطى ليبرالى يقوم على حكم الأغلبية بموجب القواعد الديمقراطية الليبرالية بما فيها الرقابة على حكم الأغلبية واستقلال القضاء والحريات وتعميم المواطنة وحقوقها».

يضيف الكاتب: إن نضوج تلك الديمقراطيات التاريخية واستقرارها وصل بها إلى القدرة على استدامة النظام الديمقراطى فيها، وإنجاز هذه الاستدامة دون الحاجة بالضرورة إلى ديمقراطيين ينشغلون بهذه المهمة. لأن الديمقراطية وفى مرحلة استدامة الذات، يمكنها أن تصمد وتتطور بغض النظر عن قيم الشخوص التى تدير دفة الحكم. وتفترض هذه المرحلة - وهى مرحلة استدامة الديمقراطية لذاتها - أن قواعد وأسساً للحكم قد أرسيت: وقد نشأ لها حراس فى القضاء والصحافة والأكاديميا، وهى قادرة على استدامة النظام حتى لو كان من يقف على رأسه (بوش مثلاً) لا يحمل قيماً ديمقراطية كما حملها الديمقراطيون الأوائل، ولا قيما ليبرالية كم حملها الليبراليون غير الديمقراطيين فى القرن التاسع عشر... أو قد يحملها لدوافع لا علاقة لها بالديمقراطية مثل المحافظة على التقاليد والهوية او لغرض الدعاية الانتخابية وغيره، وهذا هو المهم فى حالة وجود نظام ديمقراطى يستديم صناعته لذاته: إن دوافع السياسيين وأهدافهم لا تؤثر على طبيعة النظام وقواعده.

عالمنا العربى الراهن:

لا تستحضر الديمقراطية باستحضار «مقومات»، بل يصنعها مناضلون ديمقراطيون.

فى المقابل، فى رأى مؤلف الكتاب، أنه «لا يمكن تأسيس أو إنشاء نظام ديمقراطى فى مرحلتنا التاريخية المعاصرة دون ديمقراطيين» (تثقيل العبارات وارد فى النص الأصلى!) خاصة أن المطلوب من التأسيس أن يتم دفعة واحدة فلا يعيد عبور المراحل التى قطعتها الديمقراطيات التاريخية. يمكن تخيل دور شخوص وأحزاب غير ديمقراطية فى عملية تطوير الديمقراطية ونشوئها تاريخيا دون أن تدرى ودون وعى منها لطبيعة الدور الذى قامت به. ولكن لا يمكن أن يبدأ عن سبق الإصرار بتأسيس نظام ديمقراطى فى أى منطقة بما فى ذلك المنطقة العربية دون أن يكون



الديمقراطيون «متورطين في عملية ذلك التأسيس للديمقراطية فكرا وبرنامجا».

«وفي كل مرحلة من مراحل تاريخ نشوء الديمقراطية والصراع على توسعها وتطورها» يضيف المؤلف، «كان الرعيل الأول من الديمقراطيين يحمل مثلا ديمقراطية، في سياق عصره ومقارنة بما كان، على الأقل. لا تبدأ الديمقراطية بدون ديمقراطيين بل بحملة قيم وثقافة تبدأ بسيادة وحقوق الشعب وبالعدالة كحالة من المساواة ورفض الامتيازات الحصرية لفئات معينة على الأقل. وكان توق هؤلاء الوطنيين الجمهوريين للاستقلال الوطني والعدالة حقيقيا. في حين أن من يطرح استيراد النظام الديمقراطي جاهزا على بارجة إلى البلدان العربية هم نيو-ليبراليون لا يحملون قيم الليبرالية والديمقراطية ولا الحماس لتحقيق ما يرونه عدالة إطلاقاً. ويعتقدون عادة أن هنالك تناقضا بين العدالة والإنصاف والبراجماتية التي رفعت إلى درجة القيمة حينا، أو إلى درجة الترادف مع العقلانية أحيانا. هناك ترويج نيوليبرالي للتناقض بين العدالة والعقلانية، لا يميز مراحل انطلاق التحولات الديمقراطية بل مراحل الانحلال. ويكفي أن نأخذ مثلا نصائح الليبراليين الجدد العرب المتكررة بألف صيغة للشعب الفلسطيني عند كل مفترق بالتخلي عن العدالة والقبول بموازين القوى فيصلا بينهم وبين إسرائيل، والقبول بشروط الأخيرة للتسوية بحجة الواقعية وعدم تفويت الفرص. ليست هذه صفات ومزايا ولا مميزات الثقافة المؤسسة للديمقراطية».

ويبين الكاتب أنه بالرغم من ذلك فإن حلفاء الولايات المتحدة ووكلاء بضاعتها الديمقراطية الجاهزة للتصدير، وبالذات فيما يخص القضية الفلسطينية: لا ينفكون ينصحون شعوب المنطقة بعدم قبول فكرة العدالة أصلاً كمبدأ، وإنما قبول معايير غير حقوقية من نوع موازين القوى وغيرها. وهي نابعة من أفكار وفلسفات قد تعمل في ظل النظام الديمقراطي ولكنها بحد ذاتها لم تنتج ديمقراطية في يوم من الأيام. ومن يتخل عن مفاهيم الحق والعدل لا يمكن أن يكون ديمقراطياً حقيقياً. ... «ويجب ألا يخطر في البال أنه لو وضعنا «جورج بوش» بعقليته الحالية مواطنا أو سياسيا في بلد ليس فيه ديمقراطية فهو يستطيع أن يقود أو يبدأ أو يساهم في عملية تأسيس ديمقراطية: هو لن يستطيع ذلك لأنه ليس ديمقراطياً. الديمقراطية تتضمن قيماً أساسية من أهمها الصدق والعدالة. وبوش كسائر «المحافظين الجدد» بعيد أقصى البعد عن الإيمان بهذه القيم».

ويؤكد الكاتب أن الديمقراطية في حالة مثل حالة البلدان العربية هي - فوق كل شيء وقبل كل شيء - مسألة سياسية نضالية: لا تقدم على صينية من فضة، ولا على دبابة من فولاذ. والأخيرة تؤدي إلى جباية ضحايا من الآخرين، فيبدو الطرف الذي يناضل ويضحي هو الطرف المناهض لـ «الديمقراطية»، ويضيف:

«هنالك طبعا من يرد على هذا الكلام بحجة أمريكية مفادها أن التدخل الأجنبي، والأمريكي تحديدا، حيوي ولا يمكن تجنبه أو الاستغناء عنه في عملية إنشاء الديمقراطيات في «دول مستعصية على التحول» لا يمكن أن يسقط فيها النظام من دون تدخل أجنبي. وقد أنشئت مثل هذه النظم بتدخل خارجي، أمريكي تحديدا، بعد «عملية بناء الأمة»... في اليابان وألمانيا وإيطاليا. ولكن هذا غير صحيح. فقد كانت اليابان وألمانيا وإيطاليا أمما حديثة قبل الاحتلال، وفي مرحلة حداثة متطورة ووحدة وطنية أدت إلى بدايات نظام ديمقراطي. وكان هنالك إصلاح استمر عقودا في حالة إمبراطورية «ميجي» وتعثر في العشرينيات من القرن العشرين في حالة اليابان، وفي ألمانيا كانت جمهورية فايمر، وإيطاليا عاشت تجربة ديمقراطية عقدين قبل مرحلة موسوليني. وعج تاريخ تلك البلاد الحديث بديمقراطيين واشتراكيين كقوى اجتماعية وأحزاب وأفراد أصحاب مشاريع ديمقراطية وتقاليد وقواعد اجتماعية في المنافي والمعتقلات. لم يخلق تدخل الولايات المتحدة وحكمها العسكري في تلك الدول نظاما ديمقراطيا من لا شيء. كما أن تدخل الولايات المتحدة جاء منسجما مع التجانس والوحدة الوطنية في هذه الدول وليس حليفا لتقسيمها ومعاديا لثوابتها القومية».

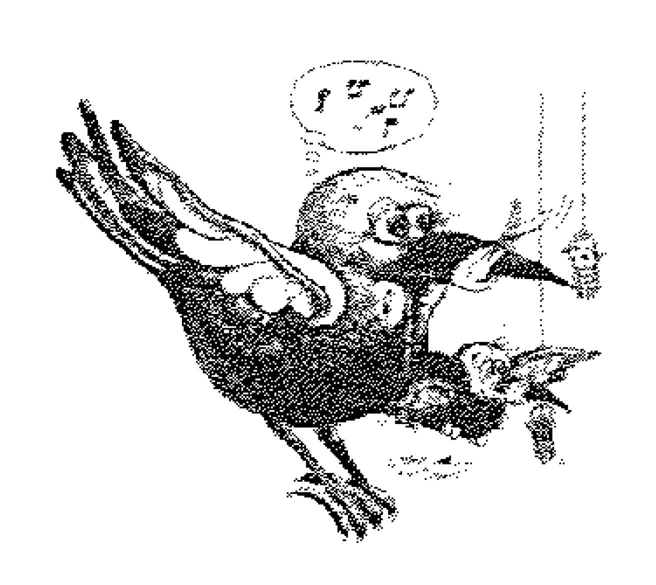
ولقد خصص الكاتب مساحة كبيرة من نصوصه لكي يبرهن على أن التحول الديمقراطي أكثر جدية من أن يعهد به إلى من لا يمكن أن يكونوا ديمقراطيين حقيقيين ما داموا تحت أي عذر يتراخون في التصدي الفكري والعملي للمشروع الإمبريالي للمحافظين الجدد في البيت الأبيض والبنتاجون.

وعاء القومية الديمقراطي

وظف عزمي بشارة ذخيرة فكرية وعلمية ضخمة لفرز المثقفين الذين يدركون أن إضفاء الأولوية القصوى على الديمقراطية وعلى تمكينها من استعادة المبادرة العربية الوطنية والاجتماعية، يقتضي وجود الوعاء الذي يحتويها والإطار الذي تتشكل فيه وهو الـ«نحن» المتخيلة imagined community. إن هذه الـ«نحن» ليست جماعة عضوية بل هي أشمل من ذلك، ولكنها متخيلة بأدوات مثل الطباعة والنشر والدولة والتعليم والتأريخ وكأنها جماعة عضوية. هذه الـ «نحن» ضرورة لازمة لتطوير درجة من التسامح والثقة تمكن من احتواء سوق وطنية، ومن الاختلاف والتنافس، وتمكن من احتواء التنافس على تعريف الخير العام لهذه الجماعة وتنظيمه بشكل سلمي، (هذه أولويات سابقة لكل النظريات حول بنية الديمقراطية مثل الفصل بين السلطات واستقلالية القضاء وغيرها، لأنها الشرط لفعل هذه النظريات). وفي إطار العضوية في الجماعة السياسية، القومية، ينشأ بداية الحديث عن حقوق المواطن ثم يتوسع، حتى يصبح تعريف المواطنة في الدولة تعريفا كونياً متجاوزاً للقومية. إن القومية تتحمل في داخلها النقاش السياسي وتبادل السلطة بالسبل السلمية، والنقاش السياسي يتحول إلى أحزاب، وهذه الأحزاب تحمل وتتحمل الاختلاف في وجهات النظر السياسية بحيث لا ينفرط المجتمع وينحل إلى طوائف وجماعات أهلية متصارعة متحاربة.. القومية هي إمكانية «نحن» متخيلة تحتوي هذه العملية.

وفي أساس الفكرة القومية عند عزمي بشارة «بناء دولة المواطنة التي تكون ملكاً لجميع مواطنيها دون أي تمييز عرقي او إثني أو ديني أو طائفي بين المواطنين سواء في حقوقهم فيها أو واجباتهم تجاهها..»، ولذلك تتناقض الفكرة القومية أيما تناقض مع التشكيلات القبلية والعشائرية والطائفية والمذهبية التي شكلت زمر «الجماعات العضوية التي تعود في تكوينها إلى سلسلة تاريخ طويلة، آخر حلقاتها الامبراطورية العثمانية». وكانت الشعوب التي استظلت بهذه «الدولة العلية» بما فيها معظم الشعوب العربية مجرد رعايا للسلطان. وفي غياب حقوق المواطنة بالمفهوم والممارسة الحديثة كان «مرجعية» الفرد للمحافظة على حقوقه والدفاع عن مصالحه هو العائلة أو العشيرة أو الطائفة التي ينتسب إليها، يحتمي بعزوتها أو أموالها في وجه الوالي أو الانكشاري من منفذي القمع السلطاني. بسبب هذه الخلفية، فإن انتقال الولايات العثمانية سابقاً إلى العصر الحديث وتحولها عبر المرحلة الكولونيالية إلى «دول» مستقلة، فإن أيا منها لم يتحول إلى «دولة أمة» بمفهومها الحديث، بمعنى أن كل من يعيش في كنفها يرتبط بالدولة ارتباطاً يلغي كل الولاءات العائلية أو العشائرية أو القبلية ويستبدل بها الولاء للوطن. فالقومية العربية قبل مرحلة بناء أمة المواطنين هي حاجة عملية لتوحيد غالبية الشعب حتى في الدولة القطرية لكي لا ينهار إلى طوائف: وهي ليست مجرد «اثنية» مختلقة مركبة بل جامع ثقافي من الدرجة الأولى يقوم على عناصر قائمة غير مختلقة مثل اللغة المشتركة، والتعبيرات المختلفة عن تطلعات سياسية مشتركة لها تاريخ حديث وقديم. حتى بعناصرها الرومانسية ليست القومية العربية مجرد حالة رومانسية بل حاجة عملية ماسة وبراجماتية في الوصول ليس فقط إلى مجتمع حديث قائم على الانتماء الفردي، بل أيضا لتزويد المواطن بهوية ثقافية جامعة تحيد غالبية الطوائف والعشائر، العربية على الأقل، عن التحكم بانتماء الفرد السياسي.

لذلك يفتح عزمي بشارة الباب على مصراعيه حتى لأقطار من اختراع سايكس بيكو أن تنجز ديمقراطية مستقيمة شريطة أن تنجح مثل هذه الدولة القطرية في تشكيل أمة مدنية على أساس الانخراط في مواطنة حقوقية بحيث تكون الدولة/الأمة المدنية، وليس العشيرة أو الطائفة، هي الضمان ضد الاستبداد. بل قد يستغرب بعض القوميين العرب التمييز الذي يقيمه الكاتب بين قومية عربية ثقافية ينتمي إليها غالبية المواطنين في الدول العربية من جهة، وأمة سياسية قائمة على المواطنة القطرية: هي مجتمع مدني نحو الداخل وأمة نحو الخارج.



ويمكن أن يستنتج من هذا التمييز تصوّر حالة عربية تنشأ فيها دول قطرية يتشكل مجتمعها على أساس ديمقراطي حقيقي من المواطنين المتساوين فعلاً في الحقوق والواجبات متجاوزين أية روابط عشائرية أو طائفية إلى الولاء الخالص «للوطن»، في هذه الحالة قد لا يتم إنجاز دولة- أمة على المستوى العربي الشامل في الأمد القريب، بل قد تنشئ هذه الأقطار مرحلياً بدلاً من ذلك متحداً اقتصادياً ثقافياً أو common wealth كونها تضم شعوباً تجمعها قومية ثقافية مشتركة، وهذه حالة متقدمة جداً قياساً بالواقع العربي الحالي، وقد تكون هي التمهيد المطلوب لأي اتحاد طوعي. لكن الدول العربية القطرية القائمة، مع الأسف الشديد، فشلت في عملية بناء الأمة على أساس المواطنة، أو على الأقل على أساس هوية محلية إثنية متخيلة مثلاً(*).

القومية العربية والإسلام السياسي

بخلاف الفكرة القومية، لا يقدم الدين حلا مرضياً لموضوع «المواطن- الدولة». والكتاب يقدم أعمق تحليل نقدي أعرفه لتسييس الدين ومحاولات تحويل العقيدة الدينية إلى هوية وانتماء أشبه بالقومية. فنشأ الخطر المعاصر أن يخسر العرب العالمين: عالم الدين كوازع أخلاقي وكعقيدة إيمانية حرة، وعالم القومية كخطاب حديث يسعى إلى بناء أمة حديثة. والأمة المواطنية الحديثة هي نحو الداخل: دولة- مجتمع مدني قائم على المواطنة، وهي نحو الخارج: أمة ودولة- قومية.

وإن من نادى بتمييز عقيدي للمسلمين عن سواهم باعتباره أساساً في التميز السياسي للأمة بدل تميز قومي للعرب مسلمين وغير مسلمين، ما لبث أن انتهى إلى هوية دينية للعرب في مقابل هويات قومية. ثم ما لبث هذا التيار أن اعتمد على أغلبية دينية ديموجرافية تبرر هذه الهوية، أغلبية تحسب بالولادة لا بالإيمان الفعلي. وهذا لا يختلف عن الصيغة العنصرية من القومية، أي أن الهوية تحتسب بغض النظر عن الإيمان الفعلي بالعقيدة. وقد كان هذا الإيمان المبرر الوحيد بداية لنسخ مفهوم الأمة الإسلامية القديم كجماعة المؤمنين ضد الجماعة القومية كأساس لتأسيس الأمة الحديثة.

وكما لم تنجح الهويات الوطنية القطرية في استبدال القومية العربية، فهي أيضا لا تستطيع التغلب على الإسلام السياسي المتشرذم طائفياً، لأن الهويات الوطنية هي غالبا أقل شرعية منه، أو لأنها بنيت أصلا على التوازن الطائفي المحلي، أو على سيطرة طائفة من العهد الاستعماري. ولكن الرابطة العروبية فقط هي التي تستطيع شمول السنة والشيعة والمسلمين والمسيحيين العرب. القومية العربية صيرورة مستمرة بالتوازي مع عملية بناء الدولة العربية والهويات المحلية وبتفاعل معها. ولأن الهوية العربية هوية تشمل أغلبية المواطنين لغةً وثقافةً وانتماءً فإنها قادرة أن تقدم حتى في كل دولة على حدة وعاء لتأطير الخلاف السياسي في تيارات ومواقف ومصالح عند الأغلبية ومن خلال احترام حقوق غير العرب المتساوية كمواطنين أفراد وكجماعات لها حقوق. فمن حق مثل هذه الجماعات بنظر العروبة المنفتحة والإنسانية الحصول على حقوق ثقافية جماعية في حالة تأكيدهم على هوية ثقافية غير عربية موروثة أو حتى مصنوعة.

إن تعريف المسلم في عصرنا ليس المسلم المتدين، بل من يولد مسلما أو يصبح مسلما بمعنى الانتماء الطائفي، وهذه هي الأغلبية المقصودة عندما يتم الحديث عن غالبية إسلامية. وهذه عصبية لا تقل عن عصبية الرابطة القومية التي تغذي للتجييش والتعبئة عند أيديولوجييها. أما إذا كان المقصود بالمسلم كمفهوم عقيدي، فهذا يعني بالتأكيد مساساً بمبدأ المواطنة، وحتى مواطنة المسلمين. ولا شك أن حكم المفهوم هذا بناء على العقيدة يتحول إلى «المسلم المؤمن»، ثم المؤمن بتفسير معين للإسلام، الأمر الذي يقصي من المواطنة المسلمين الذين يعترضون على التفسير الرسمي أو السائد للعقيدة، وهكذا... في هذه الحالة يصبح التمييز الرئيسي موجها ضد المسلمين غير المتكيفين مع التفسير السائد للإسلام.

وكل هذا النهج هو عبارة عن مس بالمواطنة كفكرة، وبالمواطنة المتساوية كممارسة. ومهما أعقب هذا المس من وعظ حول التسامح وعدم جواز الافتراء على غير المسلمين والاعتداء عليهم من منطلق «لهم ما لنا وعليهم ما علينا» كـ«معاهدين»، أو من الواجب حمايتهم لأنهم في ذمة المسلمين، وأن هذا هو العهد لكي تبقى علاقة «نا» بـ«هم»، كعلاقة وصاية (إذا صيغت سلبا) أو حماية (إذا صيغت إيجابا) وهي علاقة بين طرفين وليس بين مواطنين. إضافة إلى ذلك فإنهما طرفان غير متساويين. فهنالك طرف يملك الدولة ويمنح الحقوق أو الحماية أو الوصاية، وطرف آخر متسامح معه.. وهذا مناقض لعملية بناء الأمة الحديثة باتجاه المساواة أمام القانون والديمقراطية وحقوق المواطنة.

ختاماً، يشكل هذا الكتاب أكثر المعالجات الفكرية أصالة «للمسألة العربية» بما هي إشكالية تعثر النهوض المدني والوطني والقومي بسبب غياب «مشروع للتحول الديمقراطي» يناضل من أجله ديمقراطيون حقيقيون، ويتماهى غياب المشروع الديمقراطي هذا مع غياب «مشروع قومي» يوفر الوعاء الذي يجعل دولة المواطنة ممكنة من خلال استبدال الرابطة القومية بكل الروابط التي تقف حواجز بين المواطن والدولة المكرسة لجميع مواطنيها من دون تمييز سواء كانت تلك الروابط ولاءات قبلية أو عشائرية أو دينية أو طائفية أو عرقية أو إثنية أو غيرها من الانتماءات القديمة ذات الخلفيات التاريخية والثقافية، أو كانت ولاءات مستحدثة نتيجة تكتلات المصالح الطبقية والكومبرادورية المرتبطة غالباً بمشروعات دول الهيمنة والاستتباع، والتي تغذى وتتغذى من «رخاوة الدولة» واستشراء الفساد.

بالمعاني التي تستخلص من هذا الكتاب، فإنه لا الديمقراطية ولا القومية العربية ماهيات أو جواهر ذات وجود موضوعي وحتمي كما الظواهر المادية أو الطبيعية الصماء، ولكنها أفعال إرادة و«مشروعات» إنسانية حية يبتدعها الإنسان الحر حين يمارس ما تقتضيه حريته من مسئولية لتجاوز معطيات الواقع المرفوض ولصنع مشروعه، ماهيته الفردية والمجتمعية، عن طريق الانخراط في عملية بناء مجتمعه وأمته واستقبال المقبل من حياته والأيام ملتزماً إنجاز هذه المهمة.. ▪



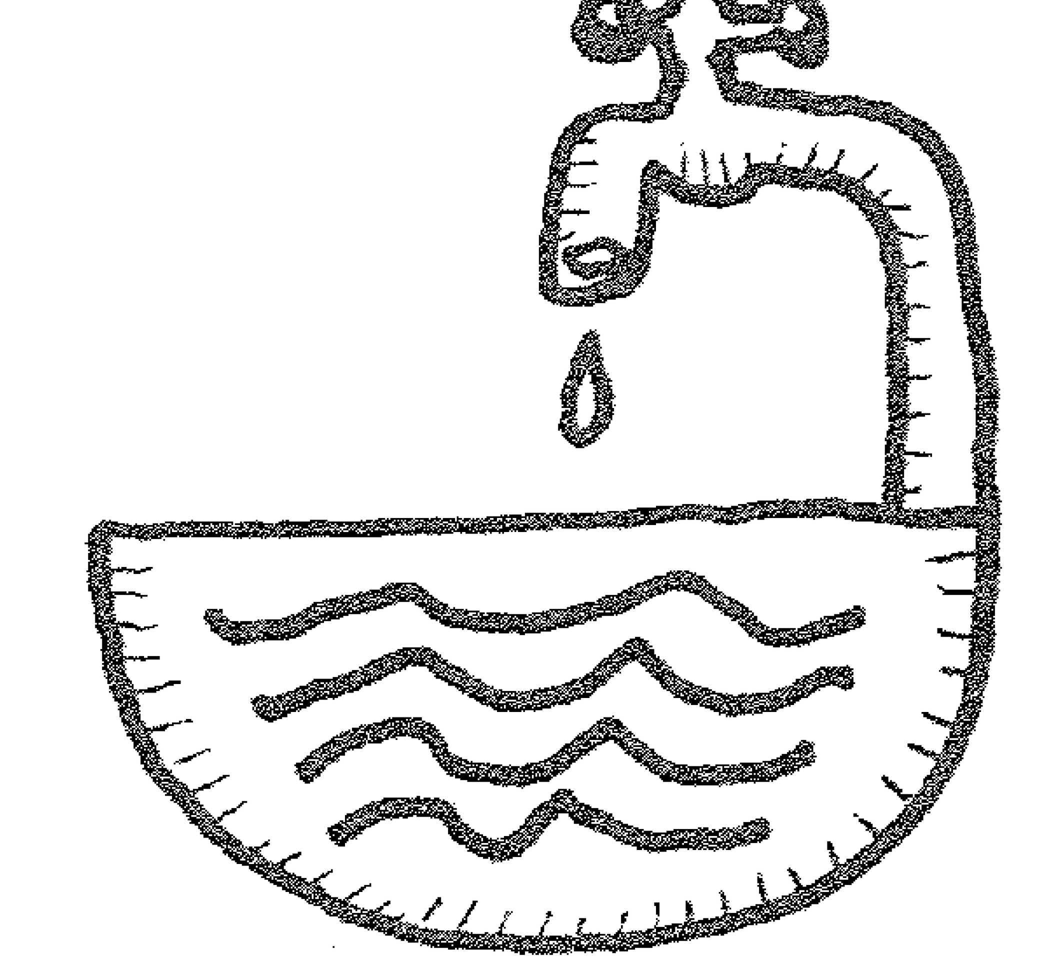
إن تعريف المسلم في عصرنا ليس المسلم المتدين، بل من يولد مسلما أو يصبح مسلما بمعنى الانتماء الطائفي، وهذه هي الأغلبية المقصودة عندما يتم الحديث عن غالبية إسلامية



هامش

(*) لا يتردد أحد المفكرين المرموقين في التنازل بخفة عن «فائض المتخيل»، فيتعجل قراءة الكتاب ونقده بما يعكس قصوراً مؤسفاً في فهم الكتاب نصاً وروحاً. فيبدي استنتاجات تعكس همومه الذاتية المشروعة لكنها تتسرع بالظن أن عزمي بشارة لا يشارك هذه الهموم. من ذلك الظن أن الدعوة الديمقراطية في نظر عزمي بشارة «لا تستقيم إلا في إطار أمة ناجزة»، في حين أن ما أوردناه أعلاه يبين عكس ذلك تماماً! كذلك يجنح الناقد إلى فقدان التماسك المنطقي في نقده. فمن جهة هو يقر بأن عزمي بشارة «يتبنى الديمقراطية كما يتبناها الديمقراطيون العرب الآخرون»، وهذا إقرار يشكر عليه. لكنه ينتقد عزمي بشارة لأنه «يأخذ على الديمقراطيين العرب عدم فهمهم أن الديمقراطية لا تصح من دون أمة... وهو لذلك يخاطبهم بصراحة كخصوم ومن دون تمييز». يفهم من هذا أن عزمي بشارة متورط في الخصومة مع جميع الديمقراطيين العرب «دون تمييز» لأنهم لا يفهمون أن الديمقراطية لا تصح بدون أمة، أي بدون اقترانها بالفكرة القومية. ليس هناك معنى لهذا الكلام سوى أن «جميع» الديمقراطيين العرب «دون تمييز» هم على مذهب الأستاذ الناقد في اعتقاده أن الديمقراطية تصح بدون الوعاء القومي. وإذن فإن الديمقراطي العربي الوحيد والفريد في هذا العالم الذي يحرص على المحتوى الديمقراطي للعروبة والوعاء العروبي للديمقراطية هو عزمي بشارة. «هذا كلام له خبيء، معناه ليست لنا عقول»، كما يقول المعري!. (انظر برهان غليون، دفاعاً عن الديمقراطية والديمقراطيين العرب، يومية الاتحاد الإماراتية، تصفح ٢٠٠٧/١٠/٢٤).

النمو وحده لا يكفى!



أمسية رمضانية قضيتها فى بلدتى كفر شكر الواقعة فى محافظة القليوبية، وكانت المناسبة لتوزيع الجوائز للفائزين فى إحدى المسابقات التى تعقد فى هذا الشهر لتلاميذ المدارس من حفظة القرآن الكريم. وقد رأى المنظمون ألا تكون الجائزة للفائزين فقط من ذوى السبق فى الحفظ والتجويد، ولكن كل مشارك تكون له أيضا جائزة تحفيزاً وتقديراً.. والجائزة رمزية ومعها ثلاثون من الجنيهات المصرية، وضعت فى مظروف صغير والتقطت صور تذكارية.

وانتهى الحفل البسيط بسعادة ظاهرة على الأطفال.. فمنهم من لم يحصل على جائزة من قبل، ومنهم من لم ير هذا المبلغ البسيط من المال مجتمعا فى يده لعمل قام به.. ومنهم من لا تعنيه الجائزة النقدية بقدر الفوز والاحتفاء.

وكاد يخرج المحتفلون جميعاً، لولا صوت طفلة فى الثامنة أو نحوها يكاد لا يبين بين صخب الخارجين من القاعة، فاستعانت بأحد ذويها يرفعها من الأرض لكى تظهر بين الناس.. فتواجه المنظم بكلمات مستفهمة ببساطة وبراءة: «يا عمو».. «وأنا أين جوابى؟».. تقصد مظروف النقود الصغير، وعن بعد قريب يقف ما يظهر أنهما أبوها وأمها معاً.. يقفان فى حياء وتعفف.. وبوادر من أمل على وجهيهما أن يلبى طلب ابنتهما حتى بعدما انفض الحفل.. فبادرت الطفلة شارحة أنها ذات حق كأقرانها وأنه لا ذنب لها فى سهو المنظمين عن ذكر اسمها.. فما كان من المنظم إلا أن تدارك الأمر سريعا فأتى بمظروف فائض، وأعطاه للطفلة التى أصرت على أن تحظى بصورة تذكارية لكى يكتمل الأمر لها.. كاكتماله فى ظنها لمن سبقها.. وكان من الواضح أنها أشد احتفالاً بالصورة التى التقطت منها بالمظروف الذى أعطته سريعا لأمها التى أمسكت به بتقدير ظاهر لما فيه رغم تواضعه.. وابتسامة تعلو وجهها محدثة زوجها فى همس، ربما فيما يمكن فعله بهذا المبلغ مع إقبال العام الدراسى.. كأن يكمل ثمن حذاء.. أو تشترى به بعض الجوارب متواضعة الثمن.. أو يسدد جانباً من الرسوم المستحقة للمدرسة الابتدائية والتى تبلغ خمسة وثلاثين جنيها.



إن هذا الحدث ليس فريداً بل يتكرر بصور متباينة فى مناسبات مختلفة وبشهود شتى.. ولكنى اصطحبته معى وأنا أطالع كتاباً صدر منذ شهور عن النمو والتقدم والسياسات المحققة لهما.. وتحديداً فيما يتعلق بالارتباط بين النمو ومكافحة الفقر وتحقيق الغنى.

ألف هذا الكتاب جريجورى كلارك «Gregory Clark»، أستاذ التاريخ والاقتصاد بجامعة كاليفورنيا - ديفيز ورئيس قسم الاقتصاد بها، والمتخصص فى تحليل النمو الاقتصادى طويل الأجل وثروات الأمم، والمتبحر فى دراسة التاريخ الاقتصادى لانجلترا والهند. ذكر المؤلف فى مقدمة كتابه المعنون «وداعاً للهبات[1].. تاريخ اقتصادى مختصر للعالم Farewell to A Alms... A Brief Economic History of The World» والذى يقع فى ٤٢٠ صفحة، أن هذا الكتاب حصيلة عشرين عاماً من البحث والتحليل والتحرى والتنقيب، مستعينا بأرشيف من الوثائق التى علاها غبار السنين فى انجلترا، خاصة تلك المتعلقة بمستندات الملكية والحقائق الاقتصادية وتطورها على مدار ٨٠٠ سنة، حفظتها السجلات وطوتها مصونة فى دور حفظ الوثائق التى حماها استقرار فريد تمتعت به انجلترا على مدار ما يقترب من ألفية كاملة من الزمان.

والكتاب قد كتب عن قصد ومحاولة مخلصة من مؤلفه على غرار النهج الذى خط به كتاب «ثروة الأمم» لآدم سميث، وكتاب «رأس المال» لكارل ماركس، على اختلاف منهجيهما وتباين ما استخلص منهما وما أحدثاه من جدل وما ترتب

محمـــــــود محيـى الديـن

Farewell to Alms... A Brief Economic History of The World
(وداعاً للهبات.. تاريخ اقتصادى مختصر للعالم)
Gregory Clark
Princeton University Press,
Princeton and Oxford: 2007, 420pp



معظم الناس قد عاشوا عند ذات المستوى
من المعيشة مقاسة بالمكتسبات المادية دون فوارق ظاهرة لمدة تقترب من الألف عام
السابقة على الثورة الصناعية



على اتباع ما فهم أو تصور لما جاء فيهما من رؤى وأفكار فى صياغة السياسات الاقتصادية والاجتماعية.. بل فى تشكيل مجتمعات برمتها.. لا أقول إن هذا الكتاب الجديد سيحدث ذات التأثير الممتد للكتابين العتيدين، ولكنى أقول إن هذا الكتاب مثله مثل كتاب آخر أشار إليه المؤلف تحت عنوان: « مدافع وجراثيم وصلب» Guns, Germs & Steel، الذى يأخذ هذا «المنهج الكبير» المتسع للباحث فى تطور ثروات وفقر وغنى الأمم وأسبابها وما آلت إليه أحوالها مقارنة بنفسها وبغيرها عبر الوقت.. لا يخلو الكتاب من بعض مفاجآت قد يكون تأثيرها فى جمعها فى كتاب واحد يرصد التاريخ الاقتصادى منذ عام ١٠٠٠ قبل الميلاد حتى عام ٢٠٠٠ من الميلاد ولكن بتحليل أدق منذ عام ١٢٠٠ حتى عام ١٨٠٠ ثم بعمق فى التحليل من عام ١٨٠٠ حتى الزمن الراهن.

وما يخلص إليه الكتاب يمكن تلخيصه فيما يأتى:

❖ إن معظم الناس قد عاشوا عند ذات المستوى من المعيشة مقاسة بالمكتسبات المادية دون فوارق ظاهرة لمدة تقترب من الألف عام السابقة على الثورة الصناعية.

❖ إن الحدث الأكبر فى التاريخ الاقتصادى للعالم هو هذه الثورة الصناعية التى حققت معدلاً فى النمو الاقتصادى يتجاوز عشرة أمثال ما كان عليه هذا النمو قبلها لما لا يقل عن ٣٪ فى العام، منذ القرن الثامن عشر، وذلك فى انجلترا وللبلدان الأخرى التى تحققت فيها أبعاد وآثار ايجابية لهذه الثورة الصناعية بعدها وبمقادير مختلفة.

❖ رغم النمو الهائل فى الاقتصاد العالمى فى القرنين الماضيين فإن الناس فى بلدان كثيرة أسوأ حالا مما كان عليه آباؤهم فى قرون مضت، بما يدحض فكرة الانسياب والتساقط «Trickle Down» التلقائى الشامل لآثار النمو المتحقق فى بلدان الغنى والتقدم إلى بلدان الفقر والتخلف الاقتصادى.

❖ يمكن تفسير الزيادة المتحققة فى النمو الاقتصادى، وبشكل قاطع من وجهة نظر المؤلف، من خلال ما أطلق عليه اكتشاف «المعرفة النافعة»، وتوظيفها بكفاءة فى العملية الاقتصادية المحققة للتقدم.

وفى الكتاب نقد شديد لنظريات النمو الاقتصادى لعجزها عن تفسير هذا الاستقرار لمستوى معيشة متدن لفترة طويلة من الزمن اقتربت من آلاف السنين، بما جعل الإنجليز على سبيل المثال فى منتصف القرن الثامن عشر يتطلعون إلى مجرد محاكاة نمط معيشة أهل روما من الناحية المادية فى القرن الأول قبل الميلاد، وينظرون إليه كنموذج يحتذى رغم ما يقرب من ١٨٠٠ عام بين أهل روما وهى فى أوجها، قبل انحدارها، وأهل لندن وهم فى مرحلة بدايات الثورة الصناعية، قبل صعودها، وكل ما كان يرجوه أهل لندن فى مبلغ علمهم وقتها محاكاة لنموذج أهل روما من معيشة على ما ظنوه فيها من ترف فى العيش أصبح محط آمالهم... فإذا بأحفادهم ومن حاكوهم ثم من نافسوهم وتجاوزوهم بفضل تداعيات الثورة الصناعية، وما أحدثته بعدها، يبلغون مصاف فى مستوى المعيشة المادى ما يعبر عنه هذا الشكل البيانى.

ثم ينتقد كلارك نظريات النمو لعجزها عن تفسير هذا التباين الحاد فى النمو بعد الثورة الصناعية عما كان قبلها حيث عاش الناس فى ظل معدلات نمو متدنية، انخفضت فى أحوال كثيرة عن معدل نمو السكان بما أوقع الناس فيما يعرف « بفخ مالثوس» نسبة إلى توماس روبرت مالثوس، صاحب الكتاب الشهير عن السكان الصادر فى عام ١٧٩٨، وهذا هو فخ الفقر الذى يحدث عندما ينمو السكان بمعدل سنوى يزيد عما ينتجونه من سلع وخدمات بما يؤدى إلى تراجع مستوى المعيشة ثم الفقر بعدم القدرة على تلبية الاحتياجات الأساسية.



ويمكن اعتبار أن كتاب كلارك قد ساند وجهة نظر مالثوس فى تفسير أوضاع المعيشة للناس حتى عام ١٨٠٠، وأن الخلاص من فخ الفقر هو توظيف المعارف النافعة فى تحقيق النمو الاقتصادى والتقدم وهو ما لم يدركه مالثوس لأنه لم يشهد آثار الثورة الصناعية التى حققت هذا الانفلات من فخ الفقر. ولا يرى كلارك فى الوقت ذاته وفقاً للمنهج الذى اتبعه من منظور التحليل التاريخى الاقتصادى أن نظريات النمو الاقتصادى المعروفة بمدارسها الثلاث: مدرسة العوامل الخارجية والعوامل المؤسسية، ومدرسة نقاط التوازن المتعددة عبر الزمن، ومدرسة النمو الداخلى.

لم تعط هذه المدارس تفسيراً مقنعاً لأوضاع معيشة الناس قبل الثورة الصناعية أو بعدها. من وجهة نظر كلارك الذى يعول على المعرفة واكتشافها وتطويرها وتوظيفها بمهارة وكفاءة لكى يتحقق النمو والتقدم. وهو ما قد تكون قد اقتربت منه مدرسة النمو الداخلى خاصة فيما يتعلق بموضوع التعلم وأثره على النمو، ولكنها تضيف إليه عناصر أخرى تعتمد على إسهامات المدرستين الأخريين.

ولكن يذكرنا كلارك فى أكثر من موضع فى كتابه بأن وجهة نظره فى تحقيق الطفرات فى النمو الاقتصادى على شاكلة ما حدث إبان الثورة الصناعية وما بعدها على هذا النحو، قد تطلب بيئة مواتية تحققت لإنجلترا ولم تتحقق لسواها فى هذا الوقت لكى تنفلت من فخ الفقر وتودع اقتصادا يعتمد على الإقطاع الزراعى، تنعم به القلة وتعيش الأغلبية فيه على ما قد يمنح لها طوعا أو كرها..

هذه البيئة التى ساندت النهضة والثورة الصناعية تمتعت باستقرار وانعزال عن الفوضى التى كانت تموج بها بلدان أخرى فى أوروبا. حيث سادت فى انجلترا قيم لطبقة متوسطة أخذت فى التعلم، والسعى إلى تطبيق قيم متوازنة للعمل، واحترام حرية الفكر، والدأب الشديد والإنتاجية العالية فيما تفعل، كما تولدت لهذه الطبقة رغبة عالية فى الادخار، ليس تحوطاً فقط ضد تقلبات الزمن بل ثقة فى عائد الادخار واستثماراً فى المستقبل. وهذا ما أكد عليه بول جونسون فى كتابه عن تاريخ الإنجليز.. من أن الانعزال عن الاضطرابات التى سادت أوروبا هو أهم الخيوط المميزة للتاريخ الانجليزى، وهذا الانعزال لم يكن مانعاً من التواصل والتعامل والتعاون مع الآخرين، ولكنه كان مانعاً من انتقال عدوى الفوضى التى سادت فى بعض البلدان الأخرى. التى عزلتها عن هذه الجزيرة بحار مانعة من الولوج إليها بيسر، وسياجات حامية تكونت من ثقافة لطبقة وسطى ساعية إلى التقدم.

وهو ما يؤكد عليه كلارك أيضاً فى تفسيره لتحقق النمو والتقدم والآثار الايجابية للثورة الصناعية والقدرات على توظيف المعارف النافعة بمهارة فى العملية الاقتصادية فى بلدان أخرى.. من ضرورة وجود هذه البيئة المواتية المساندة للنمو والتطور والإبداع.. وهو ما تحقق لبلدان أخذت تنتشل من فخ الفقر شعوبها وبفضل نمو متواصل مطرد لم يقل عن ٧٪ لمدة عشرين عاماً متواصلة.

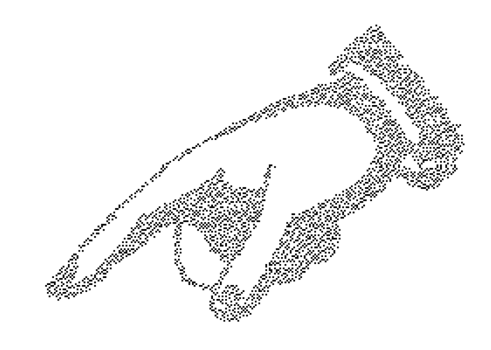


فالنمو المتسارع للصين منذ عام ١٩٨٠ حقق لها القدرة على انتشال ٤٠٠ مليون من مواطنيها إلى ما فوق خط الفقر.. وإذا ما رجعنا إلى حالة الصين نفسها إلى عام ١٩٦٠ نجد أن النمو الاقتصادى فيها بمعدل ٧،١٣٪ سنوياً من هذا التاريخ قد حقق لها زيادة فى متوسط الدخل فى عام ٢٠٠٥ بأربعة عشر مثلاً لما كان عليه دخلها فى عام ١٩٦٠ .. وقد حققت كوريا الجنوبية زيادة فى متوسط دخول مواطنيها بلغت عشرة أمثال فى أربعين سنة. وحققت سنغافورة زيادة مماثلة فى خمس وثلاثين سنة.. وهناك أمثلة أخرى مماثلة كاليابان وماليزيا وتايلاند، أو أمثلة أقل إنجازاً كالبرازيل.. لكن كل خبرات الدول المشار إليها قد اشتركت فى تأكيد أن النمو الاقتصادى المطرد هو أكثر الأدوات كفاءة فى تخفيض معدلات الفقر وتحقيق مستوى معيشة أفضل للفقراء وتوفير خدمات تعليمية وصحية أفضل لهم.

ولكن النمو الاقتصادى وحده، وإن كان مطرداً، ليس إكسيراً ناجعاً.. وهو ما يذكرنا كلارك به فى حديثه عن البيئة المواتية الصالحة والدافعة للنمو.. ففنى الأمم ونجاحها فى مكافحة الفقر وتحقيقها للتقدم مرهون بإرساء العدالة بين الناس.. وفى المضمار الاقتصادى لا تتحقق هذه



كتاب الزاوية



ابن العماد الأقفهسى

فضل النيل

وقد وردت فيه آيات وأحاديث.

أما الآيات: فمنها قوله تعالى: «وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى»(سورة محمد من الآية١٥).

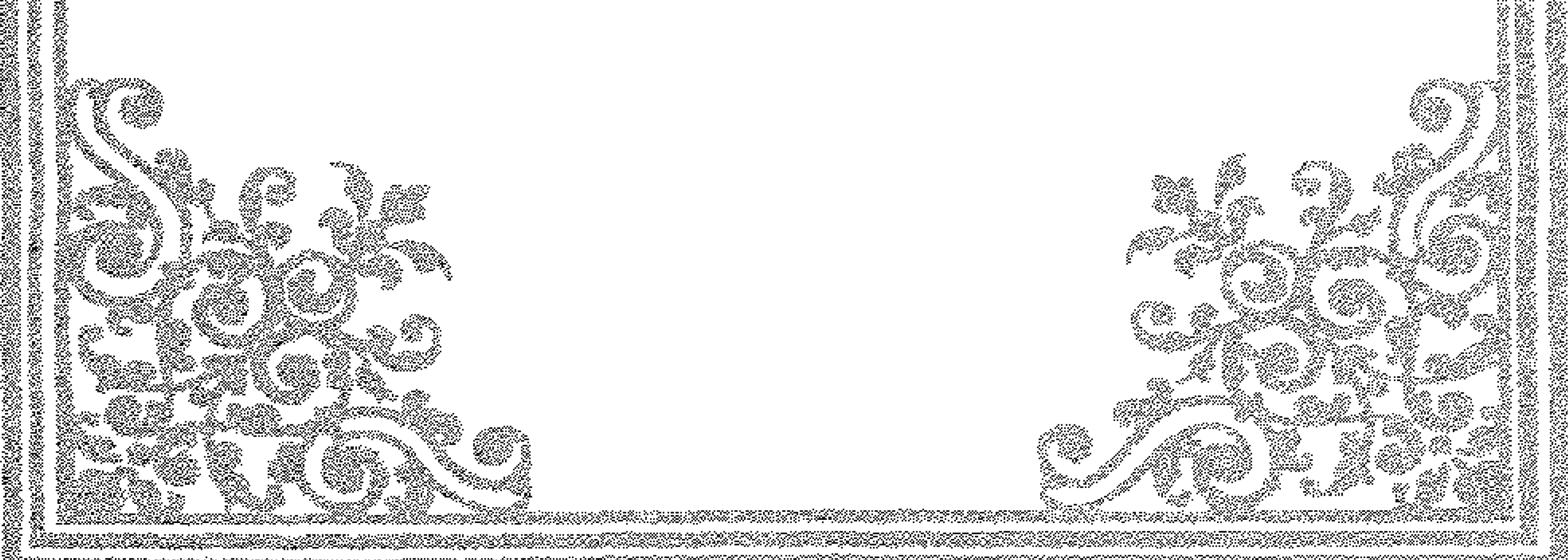
وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «سيحان. وجيحان/، والفرات، والنيل. «كُلّ» من أنهار الجنة».

قال البغوى فى تفسير هذه الأنهار الأربعة: تخرج من نهر الكوثر. قال: قال كعب الأحبار: نهر دجلة نهر ماء أهل الجنة. ونهر الفرات نهر لبنهم، ونهر مصر نهر خمرهم، ونهر سيحان نهر عسلهم.

ونقل ابن زولاق فى «تاريخ مصر» عن كعب الأحبار: أن نهر مصر نهر العسل فى الجنة. والفرات نهر الخمر، وسيحان نهر الماء. وجيحان نهر اللبن.

وفى حديث الإسراء أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: «لما انتهيت إلى سدرة المنتهى فرأيت أربعة أنهار (يخرج) من أصلها نهران ظاهران ونهران باطنان. «فقلت: يا جبريل ما هذه الأنهار؟». قال: أما النهران الباطنان فنهران فى الجنة. وأما الظاهران فالنيل والفرات».

وقال ابن زولاق فى تاريخ مصر: إن النيل يجرى من تحت سدرة المنتهى، وإنه لو تُقُفِّى آثاره لوجد فى أول جريانه أوراق الجنة. قال: ولذلك ندب إلى أكل البلطى من السمك، لأنه يتتبع أوراق الجنة فيرعاها. ويشهد لصحة «ما ذكره» ما روى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: «عليكم بالحيزوم فإنه يرعى من حشيش الجنة».



فى النمو والتقدم والعدالة بين الناس



العدالة إلا بتكافؤ الفرص للناس كافة دون تمييز.. تكافؤ فى فرص التعلم والتدريب والرعاية الصحية، ونصيب عادل من البنية الأساسية المعينة لهم على الانتقال والحركة سعياً وراء الرزق.. تكافؤ فى فرص الحصول على الموارد الممكنة لهم فى المنافسة من تمويل لإنشاء المشروعات والمشاركة فيها ملكية لها أو العمل فيها وتكافؤ فى فرص الحصول على أراض ينشئون عليها مشروعاتهم.

ثم إذا دخلوا الأسواق بمنتجاتهم وخدماتهم تتحقق لهم عدالة المنافسة فى أسواق تحكمها قواعد الكفاءة وتضبطها معايير رقابية حصيفة.. صارمة فى تطبيق القانون دون تمييز.. مرنة فى التطور، ملاحقة للمستحدثات، ولما يستجد فى الأنشطة الاقتصادية بفضل إبداع الناس وتجديدهم.

عندئذ يمكن الاطمئنان إلى أن الدخول المتحققة فى قطاعات وأقاليم النمو ستولد دخولاً جديدة متدفقة، من خلال الطلب على المنتجات وزيادة الطلب على العمالة والتشغيل ومن ثم زيادة الدخول، وفقاً للآليات الراسخة «لأثر مضاعف الاستثمار والطلب»... وهذا يأخذ وقته ومضماره ويتحرك بفاعلية كلما زادت مرونة الاقتصاد ودرجة استجابته من خلال أنشطة إنتاجية، ومدى اعتماده على مكونات محلية الإنتاج.



لاحت على خاطرى صورة هذه الطفلة، صاحبة الجائزة، وأنا أطالع ما جاء فى هذا الكتاب من مسيرة النمو ومكافحة الفقر والشروط المرصودة فيه لمتطلبات التقدم[٢]... إن هذه الطفلة ذات الاستعداد الفطرى والذهنى للانطلاق والتعلم والتسابق والمنافسة وإثبات الذات، كحال أبناء وبنات عمرها[٣] من المصريين، يجب أن تحصل على فرصة متكافئة ومنافسة عادلة ليس فقط فى مسابقة رمضانية ولكن فى مسابقة الحياة.. إن هذه الطفلة ومثيلاتها كثيرات أراهن تواقات للمثابرة والاجتهاد، تعلماً، ثم مشاركة فى سوق العمل، ثم انطلاقاً فى قيادة المشروعات. إنها وأقرانها وقريناتها، لا ينتظرون جميعاً تساقط ثمار النمو من أهل الغنى.

ولكن هذه الطفلة وأقرانها لا يحتاجون إلا تكافؤاً فى الفرص، فى التعلم والتدريب والرعاية الصحية، ونصيباً من الخدمات العامة يعين على الحراك الاجتماعى الإيجابى، وهى قبل كل ذلك من مبادئ تحقيق العدالة بين الناس التى لا تتقدم الأمم إلا بها. ■

هوامش:

١ - تترجم أيضاً بمعنى صدقات أو تبرعات.

٢ - يذكرنا المفكر المصرى الكبير الدكتور/ زكى نجيب محمود - فى كتابه حصاد السنين - «أن فكرة التقدم محتوية على وجوب التغير مع متغيرات الحضارات المتعاقبة والتطور الذى ينقل صورة الحياة نحو ما هو أعلى، ومعنى ذلك وجوب الاهتمام بالمصير. ولا ينفى هذا الاهتمام أن تجىء قوائمه مستندة على تراثنا الذى تركه لنا السلف، على ألا يكون فى حياتنا الحاضرة بمثابة النهاية التى نقف عندها، بل يكون بين أيدينا نقطة ابتداء نجاوزها على مستلزمات حاضر حى ومستقبل مأمون».

٣ - نقلاً عن الموقع الرسمى لمحافظة الاسكندرية على شبكة المعلومات الدولية أعلن وكيل وزارة التربية والتعليم بمحافظة الإسكندرية يوم الأحد الثانى من ديسمبر ٢٠٠٧ «أن ثلاثة تلاميذ من أبناء المحافظة حصدوا المراكز الأولى فى مسابقة أذكى أذكياء العالم الرابعة عشرة فى مجال الحسابات العقلية والتى شارك فيها ٢٧٠٠ طالب وطالبة من ٣٥ دولة. وقال إن المسابقة أقيمت فى ماليزيا ونظمتها هيئة «يو سى ماس» لافتا إلى أن المسابقة تعتمد على قياس قدرة الطالب فى الإجابة على ١٠٠ مسألة حسابية فى زمن أقصاه ٨ دقائق دون استخدام الآلة الحاسبة. وأضاف أن الطالبة «سارة يحيى حسن» من مدرسة «نبوغ الابتدائية» حصلت على المركز الأول تحت سن ٧ سنوات، كما حصلت الطالبة «ريناد صبرى القاضى» من مدرسة «السيكرد هارت» على المركز الأول والطالب «تقى أيمن رشاد» على المركز الثانى فى منافسات تحت سن ٩سنوات. ويذكر الخبر أن مصر تعد الدولة الأولى التى تحصل على أكثر من مركز متقدم على مدار تاريخ البطولة».

الشريعة حاضنة الحقوق

خالد أبو الفضل

محاضرة ألقاها الكاتب فى جامعة أوسلو فى ١٢ نوفمبر الماضى بمناسبة الاحتفال بفوزه بجائزة حقوق الإنسان التى تمنحها الجامعة

لم يكن أبداً ثمة تعارض بين الشريعة الإسلامية وحقوق الإنسان. وأنا أحترم كل واحد منهما بدافع ووازع من الآخر. وأرى أن كل ما أتى به أى منهما من مبادئ كالحسن أو الجمال أو المعروف والتسامح أو المحافظة على كرامة الإنسان لمجرد كونه إنسانًا بغض النظر عن لونه أو جنسه أو معتقده، وتحريره من العبودية لغيره من البشر، هو بالتحديد ما أتى به الآخر. بمعنى أنه طالما كان كل منهما يستهدف تحقيق نفس الغايات، فإنهما يصبحان بالقطع كوجهى العملة الواحدة.

فى الشريعة فإن الله لن يستفيد شيئًا من طاعة الإنسان، والقصد من هذه الطاعة فى نظرها هو تحقيق الخير للإنسان، وحقوق الإنسان إذا ما خدمت مصالح خاصة تسلطية ضلت الطريق وأصبحت أداة لاستغلال وهلاك الشعوب، بحيث يمكن القول إن القصد منها كذلك هو تحقيق الخير للإنسان كالشريعة سواء بسواء. وهى نظرة غير مقبولة من البعض، ولكن من درس مناهج الشريعة العقلانية والأخلاقية، وكذا درس أسس حقوق الإنسان العقلانية والأخلاقية، أدرك صحة ما أقول به على وجه اليقين.

لا أستطيع أن أنكر أن هناك من جعلوا الشريعة نقيض كل شىء تمثله حقوق الإنسان، فأنكروا القبح والحسن كمصدر عقلانى ومنهاج أساسى فى تحديد نطاق الشريعة وأهدافها، بل أنكروا الأسس الأخلاقية للشريعة باعتبارها هدفًا مقصوداً لذاته، وجعلوا النص هو الهدف بغض النظر عن نتائجه وأثره على الاعتبارات الإنسانية مع انفرادهم بتفسيره وفق فهمهم له. بل تمادى بعض هؤلاء فجعل الشريعة عبارة عن هوية قبلية تناقض كل ما هو غربى أيًا كان، ونسى هؤلاء ـ مثلاً ـ أن أول أوقاف فى العالم ظهرت أساسًا فى العالم الإسلامى وكانت للعناية بالأيتام والأرامل والنساء الهاربات من وضع استبدادى، بل إن بعضها أوقف على رعاية القطط والكلاب الضالة. لقد وجد نظام الوقف أولاً فى ظل الحضارة الإسلامية بوازع مباشر من الشريعة وأهدافها الأخلاقية وليس تطبيقًا لنص ما. ونظر هذا النفر إلى علماء كابن رشد وابن سينا وابن طفيل وابن ماجه وابن عقيل وكأنهم خارجون على الشريعة فى حين أننا نعلم يقينًا أن كل مفكر ممن ذكرت لعب دورًا أساسيًا ومحوريًا فى التأثير على فكر توماس كوينس وجروتسيس وفوكن دور وسواريز وروسو ولوك.



أيها الحضور الكريم: يعلم المتخصصون منكم أن من ذكرت من مفكرى العرب هم الآباء الفعليون لفكر حقوق الإنسان ولمبادئ حقوق الإنسان، ولولاهم لما عرف الغرب فكرة حقوق الإنسان أصلاً، ولكن مع السلفية الإسلامية التى طردت أمثال ابن طفيل وابن ماجه من الشريعة الإسلامية، يقابل هؤلاء السلفيين مباشرة متطرفون غربيون ممن تمسكوا بنظرية صراع الحضارات، فأنكروا فضل المفكرين المسلمين على الفكر الغربى وعلى المفكرين الغربيين أمثال بروتس وسواريز وغيرهما ممن جاءت كتاباتهم شاهدة على هذا التأثير. ولهذا تصوروا خطأ وظلمًا، أن حقوق الإنسان هى اختراع غربى بحت، أتى إليه المسلمون وكأنهم يدعون إلى فتات المائدة الإنسانية، رغم أنه لولا إلهام الشريعة الإسلامية لمفكرى الإسلام العظام كابن رشد وابن سينا وابن طفيل وابن ماجه وابن عقيل، لما اهتدى المفكرون الغربيون لنظرية حقوق الإنسان ممن تأثروا بأفكار هؤلاء العلماء المسلمين.

وبالمناسبة فإنه غير صحيح ما يتصوره البعض من أن الحضارة الإسلامية نقلت عن الفكر الإغريقى بغير إضافة أو استيعاب، وهو تصور متطرف وغير علمى، فالعلماء المسلمون ترجموا عن الإغريق ونقلوا عنهم، ولكنهم كانوا فى موقف المستوعب الذى أضاف إليه الكثير، بحيث يمكن القول بأن كلا من الحضارتين الغربية والإسلامية تشتركان فى سيمفونية متكاملة كونت مبادئ وحقوق الإنسان، ولا عجب فى ذلك، لأن الفكر الإنسانى عبارة عن غراس يؤازر بعضه بعضًا. فى منظومة يكمل بعضها البعض، ويضيف بعضها إلى الآخر، ومن الصعب وضع حدود فاصلة لها، فلم ولن تجد مظهرًا من مظاهر الحضارة إلا وجدت للحضارة الإسلامية مساهمة فى جذوره، التى كانت جزءًا لا يتجزأ من الواقع الإنسانى العام. ومن يدع أن الغرب هو الغرب والشرق هو الشرق ولا يلتقيان. لا يعرف شيئًا عن تاريخ الحركات الاجتماعية والحركة الفكرية للبشر.

أيها الحضور الكريم: ليس هدفى من هذه الكلمة أن أثبت فضل الإسلام، وقدر مساهمته فى تقرير حقوق الإنسان، ففضل الإسلام أمر مقرر لدى العلماء والمفكرين غير المنحازين وكتب فى شأنه الكثيرون من علماء الغرب المنصفين، ولكن هدفى هو أن أقرر أن من يخلقون صورًا متطرفة للواقع الإنسانى سواء فى الشرق أو الغرب، وسواء من المسلمين أو غير المسلمين يمثلون خطرًا على كل المعايير الخلقية والجمالية والحضارية للإنسان. ولتسمحوا لى أن أقدم مثلاً على هذا الفكر المتطرف الذى يقدمه أشخاص من أمثال برنارد لويس وصموييل هنتنجتون ممن يرون. وفى صراحة وبدون مواربة ـ أن كل ما هو خير وجميل يأتى من الحضارة الغربية، وأن كل ما هو سيئ وقبيح يأتى من الحضارة الإسلامية وغيرهما يوجد آخرون، ومن هؤلاء هذا الذى نشر نصًا مفزعًا أذيع ـ للأسف ـ من إحدى محطات الإذاعة الأمريكية. دعا فيه إلى ضرب العالم الإسلامى بالقنابل الذرية، وتهجير المسلمين من الغرب والحيلولة دون هجرة أى منهم إليه مجددًا. بل وصل إلى حد المطالبة بتنصير كل مسلم يقيم فى الغرب كرهًا عنه. ولعلكم تظنون أنى ألتقط نصًا تافهًا لشخص تافه، ولكنى أقول لكم وللأسف الشديد إن هذا النص يحظى برقم (٣) فى أمريكا من حيث إقبال الجمهور على البرنامج الذى يذيعه، بل استضاف هذا البرنامج نائب رئيس الجمهورية الأمريكية ديك تشينى ونيتنياهو وكذا عمدة مدينة نيويورك، بل وصل الحال بديك تشينى إلى شكر «مايكل سافج» مقدم هذا البرنامج، على أفكاره المفيدة والملهمة كما جاء فى ثناء ديك تشينى عليه.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل إن «مايكل سافج» هذا يبث برنامجًا يوميًا ينشر الكراهية للمسلمين، ووصل به الحال إلى حد وصف القرآن بأنه كتاب شيطانى مملوء برسالة واحدة وهى رسالة الكراهية، وأن المسلمين غير قادرين على استيعاب حقوق الإنسان بسبب هذا القرآن، لذا ففى رأيه أنه لا يجب أن يعامل المسلمون وفق معايير حقوق الإنسان، وإنما يجب أن يقتلوا تقتيلاً. وغير مايكل سافج كثيرون يرون أن الدولة الممثلة للحضارة فى الشرق الأوسط هى إسرائيل، وإنها هى التى تمثل الحضارة والقيم المحافظة على حقوق الإنسان فى مواجهة قوى الظلام والشر.



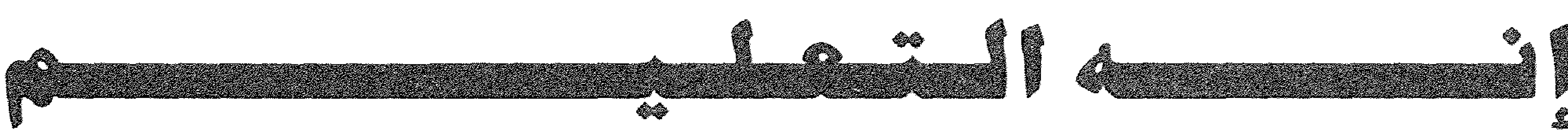
واسمحوا لى أيها السيدات والسادة أن أسألكم كيف يمكن لشخص يؤمن بأفكار كأفكار مايكل سافج أن يتهم الشريعة بأنها لا أخلاقية فى حين أنه هو نفسه يعد مثالاً حيًا لانعدام الأخلاق والقيم الإنسانية؟!

أيها السيدات والسادة: كنت أتمنى لو أن مايكل سافج كان مثالاً وحيدًا وفريدًا فى آرائه القبيحة المتطرفة. ولكن للأسف إنه يمثل تيارًا يصدر فى أمريكا وحدها كتابًا أو أكثر كل أسبوع ينهال بالشتائم والسباب على الإسلام والقرآن ورسول الإسلام ولو نظرتم إلى قائمة الكتب الأكثر مبيعًا. وهى قائمة النيويورك تايمز، ستجدون أن أكثر الكتب مبيعًا هى الكتب التى يؤلفها أشخاص يزعمون أنهم كانوا مسلمين ثم ارتدوا عن الإسلام بعدما تبينوا حقيقته السوداء البشعة.

على أن ثمة التباسًا يجدر التنبيه إليه فى هذا المقام. وهو أنه يوجد خلط متعمد بين احترام الدولة للحقوق المدنية لمواطنيها. وبين انتهاكها لحقوق الإنسان ويستغل هذا الخلط فى تمرير الثانية تحت غطاء من الأولى. فاحترام الدولة للحقوق المدنية لمواطنيها. لا يعنى البتة أنها دولة تحترم حقوق الإنسان، أو حتى أنها دولة ديمقراطية، لأنه لا يمكن أن يخرج من تحت عباءة القبح أى جمال.

فدولة مثل جنوب أفريقيا قبل أن تتولى الأغلبية مقاليد الحكم فيها، كانت تحترم وبكل دقة الحقوق المدنية لمواطنيها البيض، ولكن كانت على رأس القائمة فى انتهاك حقوق الإنسان. ونفس الشىء بالنسبة لإسرائيل التى تحترم بصورة دقيقة الحقوق المدنية لمواطنيها. ولكنها تمارس الانتهاك المستمر لحقوق الإنسان الفلسطينى وبصورة بشعة. وفى ظل التركيز الإعلامى المتحيز على احترام إسرائيل للحقوق المدنية لمواطنيها. يجرى التعتيم على انتهاكها المنهجى لحقوق غير مواطنيها من الفلسطينيين الذين يلقون على يديها أبشع أنواع الانتهاك لحقوق الإنسان.

أيها السيدات والسادة: الجمال لا يتجزأ. والقبح لا يتجزأ. وكل منهما يأتى من نبع واحد. وفى النهاية إما أن نكون بصدد حضارة إنسانية. أو لا إنسانية.



أنطـــوان زحـــلان



بلغ العدد الإجمالى للعرب الذين تسربوا إلى الدول الأعضاء لدى الـ (OECD) فى عام ١٩٩٩ نحو ٩٦٧,٥٤٨ بما يمثل زيادة عن عدد الهنود الذين تسربوا إلى تلك الدول بنحو ٣٠٠,٠٠٠



تعد كل من المعرفة والعلم بمثابة أنشطة عامة لسائر المجتمعات فى حين أن كل مجتمع لديه مشكلاته وتحدياته الخاصة. وتتمثل أحد أبرز ملامح المعرفة فى الحاجة إلى رأس المال البشرى وذلك لأغراض إنتاج وتطبيق تلك المعرفة[١] بينما تمثل الأنظمة القومية للتعليم العالى والأبحاث والتنمية أكثر الأدوات فاعلية لخلق وتطبيق المعرفة. فعلى الرغم من إمكانية الاحتفاظ بالمعرفة لآجال طويلة سواء فى شكل أوراق مكتوبة أو بطريقة إلكترونية؛ إلا أن تلك المعرفة ستكون فى هذه الحالة غير ذات قيمة ما لم تقم الكوادر التى تمتلك العلم والمهارات بالاطلاع عليها بهدف تشكيلها وتطويعها.

كذلك لن تكون المعرفة ذات فعالية ما لم يكن الأشخاص الذين يسعون إلى استخدامها أشخاصا يتسم سلوكهم بالتنظيم وتدعمهم هيئات وسياسات ملائمة. لذا، وبناء على ما سبق، يمكن إرجاع الفجوة المعرفية بين الدول إلى العديد من الأسباب، منها:

- قصور فى رأس المال البشرى.
- الاطلاع المحدود على المعرفة المحفوظة.
- غياب أو قصور المنظمات التى يتحتم وجودها لتوظيف رأس المال البشرى.
- غياب السياسات الاقتصادية والعلمية الفعالة التى يمكن من خلالها اكتساب وتراكم وتطبيق معرفة بعينها.
- غياب المنظمات و/أو الهيئات المدعمة التى تقوم بتقديم الخدمات القانونية والمالية المطلوبة.

يمكن تقسيم الدراسة التى نحن بصددها إلى قسمين:

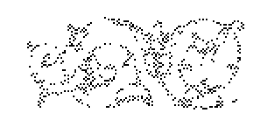
القسم الأول: يقوم بعرض البيانات والتحليلات التى يمكن الوقوف من خلالها على طبيعة ومدى الفجوة المعرفية لدى العرب.

القسم الثانى: يتناول الإجراءات التى - إذا تم تبنيها - سوف تمكن الدول العربية، منفردة أو مجتمعة، من العمل على تخطى الأزمات التنموية من خلال التوظيف الفعال لما لديها من رأس مال بشرى وموارد بشرية. إن المشكلة الرئيسية التى تنطوى عليها الصلة بين التعليم العالى والأبحاث والتنمية من جهة وتطبيق المعرفة من جهة أخرى تتمثل فى انعدام التأثير المباشر للجانب الأول على الجانب الثانى، حيث ينعكس التأثير الذى تمارسه نظم التعليم العالى على المجتمع واقتصادياته من خلال ما تنتجه تلك النظم من أبحاث وما يتم توظيفه من خريجى تلك النظم، ولكن ذلك

ترجمة: دعاء شندى

الصورة من مجموعة story of Z للفنان فؤاد الخورى

عندما كنت طالبا بالجامعة فى عام ١٩٤٩ كانت هناك عشر جامعات فقط بالعالم العربى وحوالى ٣٠,٠٠٠ من الخريجين. ثم تزايد عدد الجامعات إلى أن وصل إلى ما يزيد على ٣٠٠ جامعة تخرج فيها حوالى ١٥,٠٠٠,٠٠٠ طالب



التأثير يتضاءل بشكل كبير بسبب قلة الأبحاث وارتفاع معدل تسرب المتعلمين والمثقفين إلى خارج الدول العربية. على الرغم من ذلك، يمكن تغيير هذا الوضع إلى الأفضل.

القسم الأول: طبيعة الفجوة المعرفية لدى العرب:

المعرفة هى عملية معقدة بطبيعتها. هناك عدة مؤشرات محددة لوضع الدول تشمل: رأس المال البشرى، التمويل المقدم للأبحاث والتنمية، عدد الإصدارات السنوية التى يتم نشرها فى الصحف الدولية المتخصصة، عدد العاملين فى مجال العلوم والهندسة، درجة كفاءة النظام التعليمى، عدد براءات الاختراع التى يتم تسجيلها سنويا، الصادرات من المنتجات ذات التكنولوجيا المتطورة، وأيضا معدل التغير فى تلك المؤشرات. وسوف تتناول هذه الدراسة بالشرح المؤشرات الأربع الأولى من المؤشرات (اليونسكو) فى عام ٢٠٠٥ وصفا للموقف العلمى لدى العالم العربى[٣] وسوف نورد فى هذه الدراسة مصادر معلوماتية إضافية لتمكين القارئ من إجراء المقارنات والمقابلات بين أنماط الأداء لدى الدول العربية.

موقف رأس المال البشرى العربى:

خرجت الدول العربية من تحت وطأة الاستعمار بمستوى زهيد من رأس المال البشرى، حيث قامت كافة الدول العربية بعد الحصول على استقلالها بالتوسع الجذرى فى أنظمتها التعليمية. وأتذكر عندما كنت طالبا بالجامعة فى عام ١٩٤٩ أنه كان هناك عشر جامعات فقط بالعالم العربى وحوالى ٣٠,٠٠٠ من الخريجين، ثم تزايد عدد الجامعات إلى أن وصل إلى ما يزيد على ٣٠٠ جامعة تخرج فيها الجانب. ويقوم حوالى ٨٢٪ من هؤلاء الطلاب العرب باستكمال دراساتهم العليا فى الدول الأعضاء لدى منظمة التعاون الاقتصادى والتنمية (OECD) حيث تعد الجامعات الأوروبية أكثر الجامعات جذبا للطلاب العرب.

ويمكننى فى ضوء البيانات الإحصائية غير المكتملة المتوفرة من جانب اليونسكو تقدير عدد الدارسين العرب الذين يحصلون على شهادات الدكتوراه من جامعات بالخارج سنويا بنحو ١٢,٠٠٠ دارس وكذلك القول بأن ٨٥٪ أو أكثر من هؤلاء الدارسين يتسربون إلى خارج الدول العربية التى ينتمون إليها. أى بما يشكل خسارة للعالم العربى تتمثل فى فقدان حوالى عشرة آلاف من الدارسين الحاصلين على شهادات الدكتوراه سنويا. فهناك عدد من العرب الحاصلين على شهادات الدكتوراه يتراوح بين ٦٠,٠٠٠ و٧٠,٠٠٠ بين الدول النامية أو إلى نمو الدول العربية بشكل بطىء. ولكن سيتضح تفصيليا فيما بعد أن السياسات العلمية والاقتصادية القومية لدى الدول العربية هى ما يؤدى إلى حرمان تلك الدول من تعظيم الاستفادة من رأس المال البشرى لديها.

● تم تجميع بيانات هذا الجدول من الإحصائيات المعدة من جانب اليونسكو وغير ذلك من مصادر، حيث يشتمل العمود الثانى من الجدول على البيانات المتوفرة لدى اليونسكو فى حين يمثل العمود الثالث النسخة المنقحة من تلك البيانات بعد تصحيحها استنادا إلى الإحصائيات المعدة من جانب الاتحاد الأوروبى.

بلغ العدد الإجمالى للعرب الذين تسربوا إلى الدول الأعضاء لدى الـ (OECD) فى عام ١٩٩٩ نحو ٥٤٨ ٩٦٧ بما يمثل زيادة عن عدد الهنود الذين

يـا عـرب!!*

سالفة الذكر.

من الصعب تحديد حجم تلك المؤشرات المصاحبة لمستويات محددة للتنمية ولكن يوجد اجماع عالمى على أن هناك بعض الدول قد أحرزت انطلاقة فيما يتعلق بالنمو الاقتصادى. فمن المتفق عليه مثلا أن كلا من الصين والهند تمران بمرحلة الانطلاق تلك، حيث لم يعد العالم يتحدث اليوم عن النمو الاقتصادى غير المكتمل لدى الصين والهند بل صار مترقبا لانضمام كلتا الدولتين إلى مجموعة الدول الصناعية. لذلك أصبحت هاتان الدولتان بمثابة مقياس هام تقارن الدول الأخرى به.

قامت منظمة الدول الإسلامية بطرح دراسة بشأن الأنشطة العلمية فى كافة البلدان الإسلامية التى يشكل سكانها ٢٥٪ من إجمالى سكان العالم، وأقرت تلك المنظمة بأن إسهام الدول الإسلامية فى النتاج البحثى على مستوى العالم خلال العقد الماضى لا يتعدى نسبة ٢.٥٪[٢] كما أورد التقرير العلمى الصادر من منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة حوالى ١٥,٠٠٠,٠٠٠ طالب. ويتضح من الجدول رقم (١) أن معدل القيد بالجامعات العربية - محسوبا على أساس كل مليون فرد - يفوق معدل القيد بالجامعات لدى كل من الصين والهند (وذلك فى عام ٢٠٠٥).

و لكن على الرغم من ذلك لا يزال العمل البحثى يمارس لدى الجامعات العربية فى نطاق محدود. فتلك الجامعات مثقلة بالأعباء التعليمية بينما يعد تمويل الأبحاث بها (كما سأوضح فيما بعد) فى حكم المنعدم، ونتيجة لذلك ظل العرب دائما يعتمدون على السفر للخارج لاستكمال دراساتهم العليا. لقد بلغ إجمالى عدد العرب المقيدين بجامعات خارج الوطن العربى نحو (١٢٠,٦٠٢) دارس وذلك طبقا لآخر إحصائيات اليونسكو فى هذا الصدد فى عام ١٩٩٩ مقارنة بـ (١٠٦,٠٣٦) دارس من الصينيين و(٥٢,٩٣٢) دارس من الهنود مقيدين بتلك الجامعات (أنظر الجدول رقم ١)، ومن هنا يتضح أن عدد العرب الذين يقومون بعمل دراسات أجنبية يفوق عدد الصينيين والهنديين فى هذا عربى يعملون داخل العالم العربى مقارنة بـ ١٥٠,٠٠٠من العرب الحاصلين على شهادات الدكتوراه ويعملون خارجه.

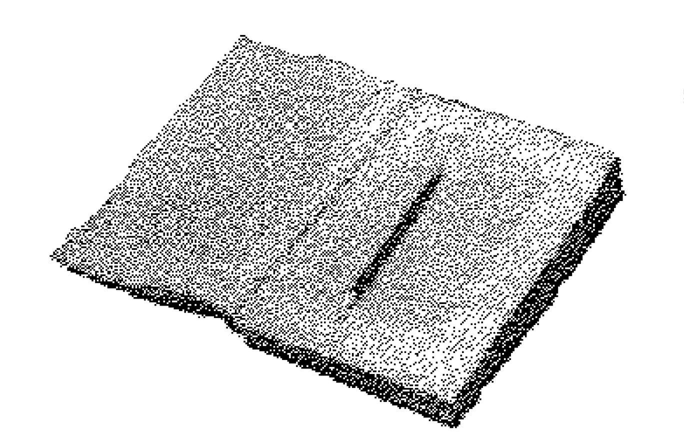
و من بين الحائزين لشهادات الدكتوراه فى العالم العربى يقوم حوالى ١٠,٠٠٠ فقط بنشر واحدا أو أكثر من الأبحاث أو الدراسات سنويا بأحد الدوريات الدولية المتخصصة. بينما لا يوجد لدى الباقى من حائزى شهادات الدكتوراه فرصة لإجراء الأبحاث النشطة وذلك نتيجة لبيئة العمل المجدبة والافتقار إلى التمويل الموجه نحو الأبحاث والتنمية.

تعد الصين والهند أكثر الدول التى تخطو خطى تنموية سريعة، حيث حلتا محل كوريا وتايوان اللتان أصبحتا الآن فى مصاف الدول الأعضاء لدى الـ(OECD). من خلال الجدول رقم (١) يلاحظ أن الدول العربية لديها اهتمام بطلب العلم - سواء داخل العالم العربى أو خارجه - بدرجة أكبر من الصين والهند، وهذا يعنى أن مقدار رأس المال البشرى ليس هو العامل الذى أدى إلى احتلال الصين والهند لمركز الصدارة تسربوا إلى تلك الدول بنحو ٣٠٠ ٠٠٠ ونقص عن عدد الصينيين الذين تسربوا إلى ذات الدول بمقدار ضئيل (الجدول رقم ٢).

● تم أخذ تلك البيانات من الجدول رقم (٦,II,A٢)، SOPEMI ٢٠٠٤ (التقرير السنوى عن مسارات الهجرة الدولية)، OECD، لعام ٢٠٠٤.

يمثل معدل تسرب العرب إلى الخارج - على أساس الفرد الواحد - أربعة أضعاف معدل تسرب الصينيين وخمسة أضعاف معدل تسرب الهنود إلى الخارج، ويصل عدد المهاجرين من الصينيين والهنود إلى ٣.٦ مليون فرد مقارنة بـ ٤.٥ مليون مهاجر عربى. بينما يقوم كل من العالم العربى والصين بتصدير أعداد متساوية من الكوادر فائقة المهارة إلا أن العالم العربى يفوق الصين والهند مجتمعتين من حيث المعدل الإجمالى للهجرة (بما يشمل الكوادر فائقة المهارة والكوادر متوسطة المهارة والكوادر التابعة).

يعمل المهنيون العرب بكفاءة كبيرة فى الدول الأعضاء لدى الـ (OECD) وهذا ما يتضح



من خلال استمرار تسرب العرب إلى تلك الدول والمناصب المرموقة التى يشغلها العرب هناك. لا توجد هناك دراسات تتناول المقارنة بين أداء مختلف الجاليات العربية وغير العربية فى تلك الدول، فعلى الرغم من وجود اختلافات جوهرية بين أداء تلك الجاليات إلا أنه لا يمكن القول بأن أداء أى منها يفوق أداء الأخريات.

يعتمد استنباط النمو الاقتصادى من رأس المال البشرى على الوسائل المستخدمة فى أداء النشاط الاقتصادى. فالاستثمارات التى تتم من خلال عقود المشروعات المتكاملة (أو ما يعرف بـ «عقود تسليم مفتاح») التى تسهم بالقليل فى عملية نقل التكنولوجيا إلى المنظمات القومية والإقليمية لا يتمخض عنها أى عمالة محلية إنما يترتب عليها معامل مضاعف منخفض. وإذا تمعنا فى السلوك الذى تتبعه كل من الهند والصين وكوريا وغيرها سنجد أن تلك الدول تتبع سياسات يتم من خلالها توظيف كل نشاط باعتباره آلية لاكتساب وتراكم التكنولوجيا. لذلك استطاعت تلك الدول أن تواصل كافة استثماراتها وتديرها وتبتكر فيها وتطور من أدائها وتضاعفها.

لقد كان ذلك بمثابة السبب الرئيسى وراء معدلات النمو السريع التى سجلتها كل من الصين والهند، حيث أن امتلاك كلتا الدولتين للعلوم الضرورية والسياسات الاقتصادية قد أدى إلى تفعيل توظيف وتنمية المؤسسات القومية لديها بغرض اكتساب وتراكم وتطبيق وتطويع التكنولوجيا، هذا فى حين أن الدول العربية لم تمتلك مثل تلك العلوم والسياسات[4].

من المتوقع دائما أن يتم تعويض التكلفة التى يتم تكبدها فى إطار تعليم رأس المال البشرى من خلال ما يقوم به الخريجون من إسهامات تجاه الاقتصاد القومى، لذا فإن القدرة على توظيف الخريجين بشكل فعال تحتل أهمية اقتصادية قصوى. وتنم ظاهرة تسرب المتعلمين والمثقفين عن الحقيقة القائلة بأنه بإمكان بعض الدول القيام بتعليم أبنائها ولكن دون القدرة على توظيفهم بشكل فعال، فهذه الدول لا تستطيع استخلاص المنافع الاقتصادية المرجوة من استثماراتها المبذولة فى التعليم.

إن السياسات القومية الخاصة بعمليات الإنتاج والابتكار والاستثمار هى أحد العوامل المحددة لمدى إمكانية استنباط النمو الاقتصادى من رأس المال البشرى. فالاستثمارات التى يتم تنفيذها من خلال عقود المشروعات المتكاملة (أو ما يعرف بـ «عقود تسليم مفتاح») والتى لا تتيح سوى مجال ضيق لتوظيف المؤسسات والعمالة القومية دائما ما ينتج عنها معامل مضاعف منخفض.

إلى جانب ذلك، يعد العالم العربى بمثابة مرتعا خصبا للاستثمارات التكنولوجية، حيث بلغ حجم الاستثمارات فى قطاع البترول والغاز وكذلك فى مجالات التشييد والبناء والنقل والتصنيع وتكنولوجيا الاتصالات والمعلومات، ما يزيد عن ٣٠٠٠ مليار دولار خلال الفترة من عام ١٩٨٠ حتى عام ٢٠٠٠. ولكن على الرغم من ذلك لم يقابل تلك الزيادة فى حجم الاستثمارات ارتفاع فى دخل الفرد. لذا ففى هذه الحالة قد يكون من شأن التوظيف الأكثر فعالية لرأس المال البشرى الإتيان بنتائج أفضل. وبالتالى يتضح مما سبق أن المشكلة التى يواجهها العالم العربى ليست نقصا فى رأس المال أو رأس المال البشرى أو حتى فى الأبحاث والتنمية، وأن حل تلك المشكلة التى يعانيها فى هذا الصدد يكمن - بما لا يدع مجالا للشك - فى توظيف رأس المال البشرى بصورة أفضل[5].

تمويل الأبحاث والتنمية:

إن السبيل الوحيد لامتلاك فريق من الباحثين على درجة عالية من الكفاءة (من بين الحاصلين على درجة الدكتوراه) ودعم استمرار هؤلاء الباحثين على تلك الدرجة من الكفاءة سيكون من خلال تمكينهم من إجراء الأبحاث وهذا ما يعنى أن تمويل الأبحاث والتنمية هو أمر حاسم فى هذا الصدد.

لقد قمت - من خلال الجدول رقم (٣) - بتلخيص بعض معلومات المقارنة الواردة فى تقرير اليونسكو، حيث يتضح أن الدول العربية إلى جانب الدول الأقل نموا (و هى الدول الأكثر فقرا على مستوى العالم) تقوم بتخصيص الجزء الأصغر من الناتج القومى الإجمالى الخاص بها لدعم الأبحاث والتنمية. وتعد دول مجلس التعاون الخليجى من أقل الدول دعما للأبحاث والتنمية على مستوى العالم العربى من حيث نسبة ما تخصصه للأبحاث والتنمية من الناتج المحلى الإجمالى الخاص بها. كما تعتبر عملية تمويل الأبحاث هى اكثر المناحى التى يبرز فيها قصور الدول العربية بالمقارنة بكل من الصين والهند، حيث تقوم حكومتى الصين والهند بتوفير مخصصات مالية لدعم الأبحاث والتنمية أكبر بكثير من المخصصات التى توفرها أى من الحكومات العربية فى هذا الصدد (انظر الجدول رقم ٣)، وهذا ما يؤدى بدوره إلى تسرب المتعلمين والمثقفين إلى خارج الدول العربية التى سجلت معدلات لهذا التسرب أعلى بكثير من المعدلات المسجلة لدى كل من الصين والهند وذلك على أساس الفرد الواحد. ويمثل التمويل المقدم من حكومتى الصين والهند - على التوالى - لدعم الأبحاث والتنمية بهما نحو عشرة أمثال وثلاثة أمثال التمويل المقدم من حكومات الدول العربية لدعم الأبحاث والتنمية بها وذلك على أساس الفرد الواحد.

الجدول رقم (٣): مقارنة بين الدول فيما يتعلق بدعم الأبحاث والتنمية (خلال عام ٢٠٠٢) المتمثل فى إجمالى المبالغ المنصرفة على الأبحاث والتنمية:

مقارنة النتاج البحثى:

إن من أهم الوسائل المتبعة لتقييم النشاط العلمى هو أن تعقد مقارنة بين أعداد الأبحاث التى يتم نشرها فى الصحف الدولية المتخصصة من جانب مختلف الدول على أساس كل مليون فرد من سكان كل واحدة من تلك الدول (الجدول رقم ٤). لقد اتضح من خلال تلك المقارنات أن النتاج البحثى العربى قد ارتفع من ١١ بحثا تم نشرها فى عام ١٩٨١ إلى ٣٣.٢ بحث تم نشرها فى عام ٢٠٠٣ وذلك على أساس كل مليون فرد. أما كوريا فقد وصل النتاج البحثى الخاص بها فى عام ١٩٨١ إلى ستة أبحاث فقط على أساس كل مليون فرد، وهو ما يساوى النتاج البحثى فى العالم العربى لعام ١٩٨٥، فى حين وصل النتاج البحثى لكوريا فى عام ٢٠٠٣ إلى ثلاثة عشر أمثال نتاجها البحثى لعام ١٩٨١. وبالنسبة للهند، فقد ظل كم النتاج البحثى الخاص بها مستقرا بما يتراوح بين ١٧ و١٩ بحث تم نشره خلال الفترة من عام ١٩٨١ حتى عام ٢٠٠٣ وذلك على أساس كل مليون فرد. أما الصين، فلقد ارتفع رصيد النتاج البحثى لديها من بحث واحد إلى ٣٦ بحث فى عام ٢٠٠٣، أى انه كان هناك شبه تعادل فى رصيد النتاج البحثى لدى كل من الصين والعالم العربى بالنسبة لعام ٢٠٠٣. منذ عام ٢٠٠٣ قامت كل من الصين والهند بزيادة المخصصات الموجهة للبحث والتنمية بشكل كبير وكذلك بتعميق السياسات العلمية الخاصة بها لإسراع معدلات التنمية الاقتصادية.

هذا فى حين أن كم النتاج البحثى والتنموى ورصيد رأس المال البشرى لدى الدول العربية قد وصل فى عام ٢٠٠٧ إلى ما وصلت إليه كل من الهند والصين فى تلك الجوانب خلال عام ٢٠٠٣. فالصين تخطو خطوات سريعة مثلها فى ذلك مثل كوريا التى سبقتها فى هذا المضمار، ومما لاشك فيه أنها قد سبقت العالم العربى خلال السنوات الأربع الأخيرة.

التعاون الدولى بين الباحثين العرب:

أن التعقيد والشمولية التى تتسم بهما العملية المعرفية جعل إيجاد مبدأ التعاون بين الباحثين العرب أمرا لا مفر منه، ولهذا فلا بد من تهيئة الظروف الاجتماعية والسياسية بما يمهد لخلق هذا التعاون.

الجدول رقم (١): الدراسة بالخارج بالنسبة للدول العربية مقارنة بالصين والهند

			السكان	الدراسة خارج الوطن	الدراسة داخل الوطن	
الدولة	عام ١٩٩٩	عام ١٩٩٩ (منقح)	عام ١٩٩٧ (بالمليون)	لكل مليون فرد		لكل مليون فرد
الدول العربية	١١١.٨٥٤	١٠٦.٦٠٢	٢٥٣.٤	٤٧٦	٣.١٦٨.٤٤٥	١٢.٤٧٤
الصين	٩٥.٨٩٩	١٠٦.٠٣٦	١.٢٢٧.٠	٨٦	٧.٣٦٤.٠٠٠	٦.٠٠٢
الهند	٤٨.٣٤٨	٥٢.٩٣٢	٩٦٢.٠	٥٥	٩.٨٣٤.٠٠٠	١٠.٢٢٣

و يتحدد مدى التعاون بين الباحثين من خلال كم الأبحاث المشتركة التى يتم إنتاجها. يوضح الجدول رقم (٥) فيما يلى حدوث تعاون دولى بين الباحثين فى كافة الدول العربية فى عام ١٩٩٥، ولكن هناك عدد من الاختلافات الجوهرية بين الدول العربية فيما يتعلق بمستوى وقوالب هذا التعاون.

يتسم التعاون فى مجالات العلم والتكنولوجيا بأهمية قصوى فيما يتعلق بجودة ونجاح المشروعات العلمية. فالتقدم العلمى يعتمد على الخبرات عالية المستوى والتى تعد فى حد ذاتها بمثابة سلعة نادرة وصعبة المنال، ولذلك فمن هنا تأتى أهمية التعاون بين عدد صغير نسبيا من العلماء الذين يعملون فى مجال بعينه. لقد دعمت العديد من الدراسات الحديثة التوجه نحو هيمنة فرق البحث على مجالات إنتاج المعرفة[١] حيث تنتمى فرق البحث تلك إلى العديد من الجهات والمنظمات.

يأخذ التعاون الدولى بين العلماء وأخصائيى التكنولوجيا أشكالا عدة من أبرزها المناقشات والمبادلات التى تتم من خلال اللقاءات العلمية. ففى عام ١٩٩٥ على سبيل المثال تم عقد حوالى ١٨.٠٠٠ لقاء علمى نشرت فعالياته على مستوى العالم، حيث توافرت للعلماء من خلال تلك اللقاءات فرص جيدة للنقاش وتبادل المعلومات.

ولكن يلاحظ أن العلماء المتخذين من الدول العربية مقار لهم لم تكن لهم نسبة مشاركة مرضية فى مثل تلك اللقاءات، حيث قاموا بتقديم ٢٠٠ ورقة بحث فقط على مدار ١٨.٠٠٠ لقاء علمى تم عقده على مستوى العالم فى عام ١٩٩٥، وهذا ما يعنى أن مستوى التواصل من جانب العلماء العرب مع المجتمع الدولى هو مستوى متضائل للغاية.

ومن الأشكال الأخرى التى يأخذها التعاون الدولى بين العلماء هو اشتراك العلماء من دولتين أو أكثر فى عمل الأبحاث. لقد قمت بعمل تحليل مفصل للنتاج البحثى العربى اتضح من خلاله أن التعاون بين العلماء العرب هو عنصر شبه منعدم تقريبا على الرغم من وجود عدد من المنظمات العربية الإقليمية التى تهدف إلى توطيد أواصر هذا التعاون، ذلك لأن المنظمات العربية القومية والإقليمية لا توفر موارد جادة وحقيقية لدعم هذا التعاون.

هناك عدد كبير من المشاكل العلمية والتكنولوجية المشتركة بين الدول العربية لذا لا بد من إيجاد عوامل محفزة لخلق التعاون العلمى بين تلك الدول. فمعظم الوطن العربى مثلا يقع ضمن منطقة صحراوية جافة تندر فيها

الجدول رقم (٢): أعداد الكوادر فائقة المهارة (HSP) بالدول الأعضاء لدى الـ (OECD) فى عام ١٩٩٩

الدولة	عدد المغتربين	نسبة الـ (HSP)	عدد الـ (OECD)
العالم العربية	٤.٤٦٢.٣٩١	٪ ٢٢	٩٦٧.٥٤٨
الصين	١.٩٢٨.١٩٩	٪ ٥١.٩	١.٠٠٠.٧٣٥
الهند	١.٦٤٩.٧١١	٪ ٣٩.٦	٦٥٣.٢٨٦

الجدول رقم (٣): مقارنة بين الدول فيما يتعلق بدعم الأبحاث والتنمية (خلال عام ٢٠٠٢) المتمثل فى إجمالى المبالغ المنصرفة على الأبحاث والتنمية:

الدولة	المبالغ المنصرفة (بالمليار دولار)	النسبة التى تمثلها المبالغ المنصرفة من الناتج المحلى الاجمالى	المبلغ المنصرف للفرد الواحد	عدد الباحثين لكل مليون فرد
كافة دول العالم	٨٢٩.٩	١.٧	١٣٤.٤	٨٩٤.٠
الدول المتقدمة	٦٤٥.٨	٢.٣	٥٤٠.٤	٣.٢٧٢.٧
الدول النامية	١٨٣.٦	١.٠	٤٢.٨	٣٧٤.٣
الدول الأقل نموا	٠.٥	٠.١	٠.٧	٤.٥
الدول العربية الأفريقية	١.٢	٠.٣	٦.٥	١٥٩.٤
الدول العربية الاسيوية	٠.٦	٠.١	٦.٢	٩٣.٥
كافة الدول العربية	١.٩	٠.٢	٦.٤	١٣٦.٠
البرازيل	١٣.١	١.٠	٧٥.٠	٣١٤.٩
الصين	٧٢.٠	١.٢	٥٦.٢	٦٣٣.٠
الهند	٢٠.٨	٠.٧	١٩.٨	١١٢.١
إسرائيل	٦.١	٤.٩	٩٢٢.٤	١٣٩٥.٢

● مصدر البيانات المدرجة بالجدول: UNESCO op.cit. table 1p.٤

الجدول رقم (٤): عدد الأبحاث التى تم إصدارها لدى بعض الدول على أساس كل مليون فرد

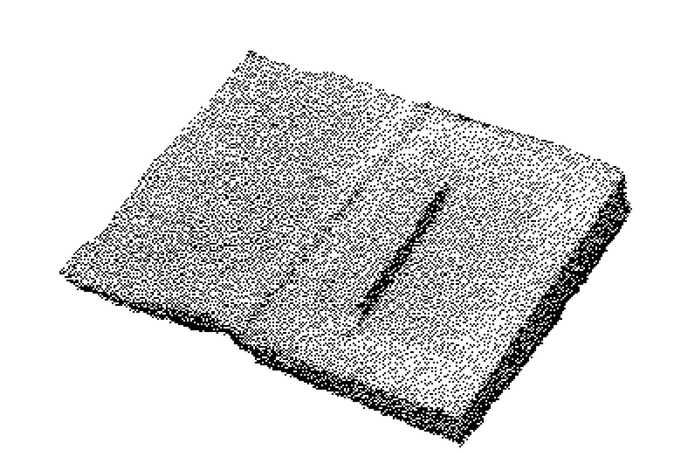
الدولة	١٩٨١	١٩٨٥	١٩٩٠	١٩٩١	١٩٩٢	١٩٩٣	١٩٩٤	١٩٩٥	٢٠٠٣
العالم العربى	١١	١٥	٢١	٢١	٢١	٢١	٢٤	٢٦	٣٣.٢
البرازيل	١٦	١٩	٢٥	٢٧	٣١	٣١	٣٤	٤٢	٧٤.٨
الصين	١	٣	٧	٧	٨	٨	٩	١١	٣٦.١
الهند	١٧	١٥	١٦	١٧	١٧	١٧	١٨	١٩	١٩.٤
كوريا	٦	١٥	٤٢	٤٨	٥٨	٧٤	٩٧	١٤٤	٤٣٣
فرنسا	٤٩٦	٥٩٣	٦٢٨	٦٢٧	٦٨٦	٧٢١	٧٦٨	٨٤٠	٨٢٦
هولندا	٥٦٧	٧٦٨	٩٣٢	٩٢٠	١٠٠٩	١٠٩٨	١١٦٦	١٢٥٢	١٢٠٩
سويسرا	١٢٠٢	١٤٠٦	١٣٥٢	١٣٦١	١٥٢٥	١٦٢٢	١٧٨٠	١٨٧٨	٢٠٠٥

● تم تجميع بيانات هذا الجدول من خلال المعلومات المتاحة لدى معهد المعلومات العلمية بمدينة فيلادلفيا بالولايات المتحدة الأمريكية

المياه مما يستلزم عمل الأبحاث حول استخدام المياه فى الزراعة وكذلك حول إدارة الموارد المائية. هذا بالإضافة إلى أن العديد من الدول العربية هى منتجة للبترول والغاز، مما يفرض تحديات تكنولوجية مشتركة تهيئ فرصة للتعاون العلمى وتبادل الخبرات فى تلك الجوانب. علاوة على ما سبق فإن هناك عدداً من المشكلات التى تجتمع عليها الدول العربية فى مجالات الصحة وتطبيق القوانين والمعايير المختلفة وغير ذلك من المجالات.

قام العلماء فى الجامعات لدى دول مجلس التعاون الخليجى بنشر ١٧٢٢ بحث فى عام ١٩٩٠ بالإضافة إلى ٢٧١٦ بحث فى عام ١٩٩٥، حيث تم عمل ٢٥٪ من تلك الأبحاث بالاشتراك مع علماء ينتمون لجهات غير عربية فى حين بلغ عدد ما تم عمله من تلك الأبحاث بالاشتراك مع دول مجلس التعاون الخليجى نحو ٧.٢٪ فى عام ١٩٩٠ و٦٪ فى عام ١٩٩٥[٢].

تحتل دول المغرب العربى أعلى نسب التعاون الدولى فى مجال عمل الأبحاث فى حين تعد نسبة التعاون الإقليمى لديها فى هذا الصدد من أقل النسب. لقد طرأت بعض التغيرات على معدلات التعاون الدولى فى مجال عمل الأبحاث لدى أربع من دول المغرب العربى فيما بين عامى ١٩٩٠ و١٩٩٥، حيث انخفض معدل التعاون الدولى لدى الجزائر من ٨٠٪ إلى ٦٩٪ من إجمالى عدد الأبحاث بينما ارتفع رصيد ليبيا من ٣١٪ إلى ٦٠٪ وكذلك رصيد المغرب من ٦٤٪ إلى ٧٤٪ وتونس من ٢٩٪ إلى ٦٤٪. وبذلك يكون متوسط معدلات التعاون الدولى فى مجال عمل الأبحاث لدى دول المغرب العربى قد ارتفع من ٥٤٪ إلى ٦٤٪ خلال تلك الفترة. لقد قام العلماء فى كل من الجزائر والمغرب وتونس بنشر عدد إجمالى من الأبحاث يصل إلى ١٢٦٤ بحث خلال عام ١٩٩٥ منها ٨٠٤ أبحاث تم عملها بالاشتراك مع علماء من خارج دولهم. ومما يثير الدهشة هنا هو أن ١١ بحثا فقط من جملة الـ ٨٠٤ أبحاث سالفة الذكر هو ما اشترك فى عمله علماء ينتمون لاثنتين من دول المغرب العربى فى حين أن واحدا فقط من تلك الأبحاث الأحد عشر قد تم عمله بواسطة علماء دول المغرب العربى فقط، ولذلك يمكن القول بأن معدل التعاون الإقليمى فى مجال



عمل الأبحاث هو معدل متضائل للغاية.

يصل معدل التعاون الدولى فى مجال عمل الأبحاث لدى دول المشرق العربى إلى ٢٥٪ من إجمالى ما يتم عمله لدى تلك الدول من أبحاث، فى حين أن معدل التعاون فيما بين تلك الدول فى هذا المجال هو معدل محدود للغاية.

النظم العلمية والتكنولوجية لدى العرب:

تعود الأزمة التى تمر بها التنمية العربية إلى أن الدول العربية لا تحصل على العوائد التى من المفترض أن تحصل عليها من خلال استثماراتها فى كل من الموارد البشرية وعمليات الأبحاث والتنمية وتكوين إجمالى رأس المال الثابت، وهذا ما يمكن إرجاعه بشكل كبير إلى تردى حالة النظم العلمية والتكنولوجية القومية.

النظم العلمية والتكنولوجية هى بطبيعتها نظم مكثفة من التكنولوجيا المعقدة تشمل الهيئات والمنظمات المختلفة. وتتمثل أهم وظائف تلك النظم فى إنتاج وتراكم واكتساب ونشر المعرفة وكذلك تحويلها إلى عناصر هامة ومفيدة.

إن جودة وكفاءة الروابط بين مختلف مكونات النظم العلمية والتكنولوجية تلعب دور حاسم لا يقل أهمية عن الدور الذى تلعبه مكونات تلك النظم فى حد ذاتها: أو بمعنى آخر، مكونات تلك النظم ستكون غير ذات أهمية ما لم توجد هذه الروابط[8].

من العوامل التى تحول دون تكوين الروابط سالفة الذكر هى تلك السياسات الاقتصادية والعلمية السائدة وما يصاحبها من ضعف (وفى أغلب الأحيان انعدام) الجمعيات والاتحادات المهنية العربية وكذلك الافتقار إلى التمويل الموجه لدعم تنقلات العلماء العرب للمشاركة فى المؤتمرات والأنشطة العلمية على المستويات القومية والإقليمية والدولية.

تتحدد كل من إنتاجية العمالة والقدرة على اكتساب وتراكم التقنيات الحديثة من خلال مدى الربط بين مهارات العمالة وتأهيلها وإدارتها من ناحية والنظم العلمية والتكنولوجية من ناحية أخرى. إن الالتفات إلى إنتاجية وأداء العمالة يعد من العوامل الأساسية فى بناء القدرة التنافسية لدى اقتصاد أى أمة.

فى عام ١٩٧٠ اقتربت الدول العربية من مستويات إنتاجية العمالة لدى كل من اليابان وأوروبا، ولكن من الغريب أن تأخذ مستويات إنتاجية العمالة لدى الدول العربية فى الانحدار مع بداية عصر ازدهار البترول فى عام ١٩٧٤ واستثمار ٢٠٠٠ بليون دولار فى تكوين إجمالى رأس المال الثابت مع حلول عام ٢٠٠٠ وكذلك التوسع الشامل فى الأنظمة التعليمية على كافة المستويات[9] وتشير التقديرات إلى أن الدول العربية تستثمر مبلغا يتراوح بين ٢٠٠٠ و٣٠٠٠ بليون دولار فى مشروعات جديدة تعتمد بشكل شبه حصرى على أسلوب عقود المشروعات المتكاملة (أو ما يعرف بعقود تسليم مفتاح).

يعد الانحدار فى معدل أداء العمالة العربية بمثابة ظاهرة متفردة وذلك نتيجة الاعتماد المتزايد على أنماط التعاقد القائمة على عقود المشروعات المتكاملة «عقود تسليم مفتاح» وأسلوب استحواذ العميل فى ذات الوقت الذى زادت فيه أعداد المتخصصين والموارد المالية؛ وهذا يرجع إلى انعدام التكامل فيما بين كل من النظام التعليمى والوضع الاقتصادى وسوق العمل.

يمكن تلخيص المعوقات التى تواجه عملية التنمية فيما يلى:

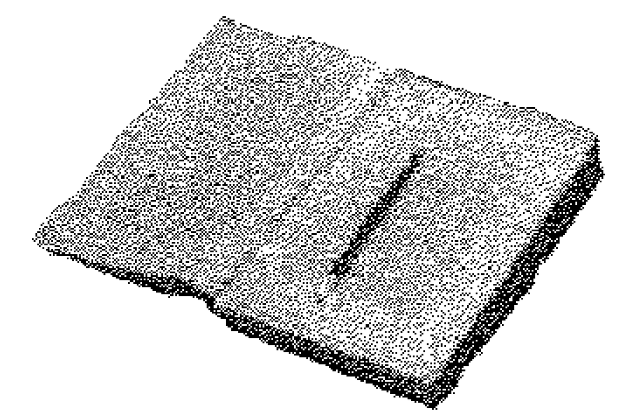
- السياسات المتبعة من قبل القطاع العام والمتمثلة فى إبرام عقود مشروعات متكاملة «عقود تسليم مفتاح» مع جهات استشارية دولية متخصصة فى التصميمات الهندسية مع توجيه اهتمام محدود نحو اكتساب المعرفة.
- التكامل الرأسى بين المؤسسات الصناعية القومية الرئيسية واعتمادها الكبير على موردى الخدمات المتصلة بالصناعة العالمية وبالتالى عدم الالتفات إلى الجهات القومية والإقليمية.
- التطبيق المحدود لأساليب إسناد الأعمال والتعاقد من الباطن من جانب الشركات المملوكة للدولة وشركات القطاع الخاص.
- أوجه القصور لدى الهيئات العلمية والمهنية قومية كانت أم إقليمية.
- محدودية الاهتمام الموجه نحو التكنولوجيا التفكيكية والهندسة العكسية.
- قلة الدراسات التى يتم إجراؤها إقليميا فيما يتعلق بالسياسة العلمية.
- ندرة الأماكن المخصصة للعلوم والتكنولوجيا حول الجامعات والمدارس الفنية. بغرض الترويج نقل التكنولوجيا إلى المشروعات الصغيرة والمتوسطة.

الجدول رقم (٥): التعاون الإقليمى والدولى بين الباحثين فى العالم العربى خلال عام ١٩٩٥

الدولة	العدد الإجمالى للأبحاث التى تم إنتاجها	عدد ونسبة الأبحاث المشتركة	الدول المشاركة فى أكبر عدد من الأبحاث المشتركة	عدد الأبحاث التى شاركت فيها منظمة التعاون الاقتصادى والتنمية	عدد الأبحاث التى شاركت فيها دول عربية	عدد الأبحاث التى شاركت فيها جهات متعددة الجنسيات
الجزائر	٣٢٨	٢٢٧ (٦٩٪)	فرنسا ١٥١ (٦٥٪)	١٨٧ (٨١٪)	٣ (١٪)	
البحرين	١٠٦	٢٩ (٢٧٪)	المملكة المتحدة ٧ (٢٤٪)	١١ (٣٨٪)	٣ (١٠٪)	٦ (٢١٪)
مصر	١٩٩٩	٥٨٥ (٢٩٪)	أمريكا ١٥٤ (٢٦٪)	٣٦٧ (٦٣٪)	١٢٣ (٢١٪)	٤٩ (٨٪)
العراق	١١٤	٣٤ (٣٠٪)	أمريكا ٥ (١٥٪)	٢٠ (٥٩٪)	١٢ (٣٥٪)	٠٠
الأردن	٢٦٦	٩٥ (٣٦٪)	أمريكا ٢٣ (٢٤٪)	٥٨ (٦١٪)	١٨ (١٩٪)	١٢ (١٣٪)
الكويت	٢٩٠	١١٧ (٤٠٪)	أمريكا ٢٥ (٢١٪)	٥٦ (٤٨٪)	٢٦ (٢٢٪)	١٧ (١٥٪)
لبنان	٧٣	٣٢ (٤٤٪)	أمريكا ١٤ (٤٤٪)	٢٧ (٨٤٪)	١ (٣٪)	٤ (١٣٪)
ليبيا	٥٨	٣٥ (٦٠٪)	المملكة المتحدة ٩ (٢٦٪)	١٦ (٤٦٪)	٧ (٢٠٪)	٤ (١١٪)
موريتانيا	٧					
المغرب	٥٣٦	٣٩٥ (٧٤٪)	فرنسا ٢١٤ (٦١٪)	٣١٤ (٨٠٪)	٢ (٥,٠٪)	٦١ (١٥٪)
عمان	٨٤	٣٧ (٤٥٪)				
فلسطين	١٦					
قطر	٥٩	٣٦ (٥٤٪)	مصر ٢٣ (٦٤٪)	٩ (٢٥٪)	٢٤ (٦٧٪)	٢ (٦٪)
السعودية	١٢٤٠	٢٩٤ (٢٤٪)	أمريكا ٧٢ (٢٥٪)	١٦١ (٥٥٪)	٧٩ (٢٧٪)	٢٦ (٩٪)
الصومال	٦					
السودان	١١٢	٧٤ (٦٦٪)	أمريكا ١٠ (١٤٪)	٤٥ (٦١٪)	١١ (١٥٪)	١٣ (١٨٪)
سوريا	١٣٤	٨١ (٦٠٪)●	فرنسا/المملكة المتحدة. ١٦	٤٤ (٨٦٪)		٢ (المركز الدولى للأبحاث الزراعية فى المناطق الجافة ICARADA)
تونس	٣٤٢	١٤٧ (٤٦٪)	فرنسا ٨٧ (٥٩٪)	١٢٢ (٨٣٪)	٣ (٢٪)	١٧ (١٢٪)
الإمارات	١٣٧	٥٥ (٤٠٪)	مصر ١١ (٢٠٪)	٢٦ (٤٧٪)	٢٢ (٤٠٪)	٦ (١١٪)
اليمن	٣٠	٢٨ (٨٣٪)	فرنسا/المملكة المتحدة. ١٦	١٥ (٥٤٪)	٨ (٢٩٪)	٤ (١٤٪)
الإجمالى	٥٩٣٧	٢٣٠١ (٣٩٪)	٧٥٤ (٣٣٪)	١٤٧٨ (٦٤٪)	٣٤٢ (١٥٪)	٢٢٣ (١٠٪)

● يشمل ذلك ٢٩ بحثًا تم إصدارها من جانب علماء لدى (ICARADA).

❖ مصدر بيانات هذا الجدول: المؤلف الخاص بالدكتور أ.ب.زحلان بعنوان «العلم والتكنولوجيا لدى العالم العربى: يمضيان بلا تغيير»، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت-١٩٩٩ (باللغة العربية)



• رداءة خدمات المعلومات الفنية والإحصائية[١٠].

• تدنى مستوى الحوافز الباعثة على الابتكار.

• ضعف الآليات المخصصة لدعم أفضل الممارسات.

• عدم توجيه الاهتمام المناسب نحو تشجيع المنافسة.

• توجيه قدر ضئيل من الاهتمام نحو إنتاجية العمالة ومراقبة الجودة[١١].

الإجراءات الواجب اتخاذها:

لقد لوحظ من القسم الأول من هذه الدراسة أن ما لدى العرب من رأس مال بشرى وإمكانات فى مجال البحث والتنمية وموارد طبيعية يضاهى أو أحيانا يفوق ما لدى كل من الصين والهند من تلك العوامل، وذلك على أساس الفرد الواحد، فى حين يقل مستوى أداء الدول العربية بكثير عن مستوى الأداء لدى كل من هاتين الدولتين. إن إصلاح السياسات الحالية لن يصبح ممكنا إلا فى ضوء الفهم المتعمق للأسباب الباعثة على تدنى مستوى الأداء لدى الدول العربية بالمقارنة بالدول الأخرى.

يتطلب تفهم الصعوبات الحالية بكل ما يكتنفها من تعقيد إجراء كم كبير من الأبحاث خاصة فى المجالات الاقتصادية والإدارية وكذلك فى مجال السياسة العلمية، بحيث يتسنى لنا كعرب تحديد ما يواجهنا من مشكلات عديدة وبالتالى إيجاد الحلول العملية لتلك المشكلات.

وهناك بعض السبل المتعارف عليها تتسم بعاملى السرعة وانخفاض التكلفة ويمكن من خلالها نشر الخبرات وتدعيم الأبحاث فى المجالات سالفة الذكر بشكل تدريجى. ومما يسهل اتباع تلك السبل توافر رأس المال البشرى وكثرة الجامعات لدى الدول العربية.

يعد تدريب وتأهيل القوى العاملة من أهم الإجراءات التى يجب اتباعها لزيادة العمالة وخفض التكاليف، حيث يهدف هذا الإجراء إلى تعزيز قدرات العمالة ورفع مستوى الإنتاجية فيما يتعلق بالتقنيات التى يوجد عليها طلب كبير وكذلك ضمان رواج تلك العمالة من خلال تأهيلهم بالشهادات التى تعكس مهاراتهم.

تعد مؤسسات الاستشارات والمقاولات العربية من أهم أدوات تحويل الاستثمارات الموجهة نحو التعليم والأبحاث والتنمية إلى منافع اقتصادية. لذلك يجب إعطاء الأولوية للإجراءات التى تمكن تلك المؤسسات من زيادة حصتها فى السوق، وهذا ما سوف يؤدى بدوره إلى دعم القدرة على منافسة شركات المقاولات الأجنبية فى الأسواق المحلية. وتشمل تلك الإجراءات تحسين الخدمات المالية، تأسيس نظام قانونى وتشريعى يتسم بالكفاءة، تدريب وتأهيل العمالة، وتوفير خدمات معلوماتية وإحصائية تتصف بالدقة والفعالية. من شأن الإجراءات سالفة الذكر تدعيم الروابط بين كل من مؤسسات الاستشارات والمقاولات، والمنظمات المهنية، والجامعات والموارد البشرية العربية[١٢]، كما يمكن من خلال تلك الإجراءات إحراز العديد من المنافع والأرباح على المستويين الاجتماعى والاقتصادى.

تمويل اللقاءات العلمية:

تعد ندرة التعاون بين العلماء فى الدول العربية من أهم العراقيل التى تحول دون الاستفادة من رأس المال البشرى المتاح. تمثل اللقاءات العلمية آلية منخفضة التكلفة لإجراء المناقشات والمبادلات العلمية بين المتخصصين، ولهذا فإن زيادة التمويل الموجه إلى المؤتمرات العلمية داخل الوطن العربى من شأنه تمكين العلماء من تضفير مجهوداتهم والعمل مجتمعين بشكل أفضل.

تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات:

تحتل الدول العربية مكانة متأخرة فى مصاف الدول فيما يتعلق بتطوير قطاعات تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات على الرغم من قيام الدول العربية بشراء كم هائل من الخدمات المتصلة بتلك التكنولوجيا والأجهزة اللازمة للعديد من المجالات والجهات كالاتصالات العسكرية، خدمات التليفزيون والإذاعة، الصناعات المختلفة، الهيئات الحكومية، المطارات والخطوط الجوية، والبنوك. لا بد من توجيه الجهود المشتركة نحو تحليل مكونات تكنولوجيا المعلومات والاتصالات الخاصة بعقود المشروعات الضخمة مما سيكفل دعم المشاركة المحلية فى مجال نقل التكنولوجيا والابتكار فى هذا المجال الحيوى.

لا بد أن يتم تضييق نطاق الفجوة المعرفية لدى العرب من خلال سبل سوية ومنخفضة التكلفة بما سيسهم بشكل كبير فى تحقيق المنفعة العامة والاعتماد على الذات والرخاء على المستوى القومى. ■



النتاج البحثى العربى قد ارتفع من ١١ بحثا تم نشرها فى عام ١٩٨١ إلى ٣٣,٢ بحث تم نشرها فى عام ٢٠٠٣ وذلك على أساس كل مليون فرد



هوامش:

(*) خلال حملته الانتخابية للفوز بالرئاسة الأمريكية عام ١٩٩١، استخدم الرئيس الأمريكى بيل كلينتون (تولى الرئاسة من ١٩٩٢ حتى ٢٠٠٠) شعار It's economy Stupid للتدليل على أهمية الاقتصاد فى تحديد توجهات الناخب الأمريكى.

١ - يستخدم المصطلح «رأس المال البشرى» للإشارة إلى «الأشخاص المتعلمين». ومن المصطلحات شائعة الاستخدام أيضا فى الآونة الأخيرة مصطلح «الكوادر فائقة المهارة - (HSP)»، وهو ما يطلق على خريجى الجامعات، حيث حل هذا المصطلح محل مصطلح آخر كان يستخدم فى الماضى بنفس المعنى ألا وهو «القوى العاملة عالية المستوى»، وهو ما يترجم بالإنجليزية إلى «High Level Manpower»، ولكن هذا المصطلح اندثر فى الوقت الحاضر بعد احتلت قضايا المرأة مركزا هاما على الساحة.

٢ - س. ت. ك نعيم وعطاء الرحمن (محررين)، «موقف البحث العلمى لدى الدول الأعضاء فى منظمة الدول الإسلامية»، COMESTECH، باكستان (إصدار عام ٢٠٠٦). يفرد هذا الإصدار فصل خاص بكل واحدة من الدول الأعضاء يستعرض أهم المعلومات عن سكانها، التغيرات التى طرأت على الوضع التعليمى لها خلال العقد المنقضى، معلومات عن أبرز عشرة فروع من العلم لديها، مجالات البحث العلمى الخاصة بها خلال الخمس أو العشر سنوات الماضية، الجامعات ذات الإنتاجية الموجودة فيها، أبرز مفكريها والجامعات التى ينتمون إليها، أعداد واتجاهات الإصدارات العلمية لديها خلال العقد المنقضى، وصادراتها والناتج المحلى الإجمالى الخاص بها.

٣ - اليونسكو، «التقرير العلمى الصادر عن اليونسكو فى عام ٢٠٠٥»، اليونسكو ٢٠٠٥.

٤ - أ.ب. زحلان، العلم والتكنولوجيا لدى العالم العربى: يمضيان بلا تغيير، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٩٩ (باللغة العربية).

٥ - أ.ب. زحلان، ibid.

٦ - ستيفان واشتى، بينجامين ف. جونز وبرايان أوزى، «تزايد هيمنة فرق البحث على مجالات إنتاج المعرفة»، Science ٣١٦، رقم ٥٨٢٧، الصفحات من ١٠٣٦-١٠٣٩، ١٨ مايو ٢٠٠٧.

٧ - يمكن الاطلاع على المزيد من المعلومات بشأن التعاون الإقليمى والدولى فى مجال الأبحاث والتنمية من خلال (زحلان - ١٩٩٩).

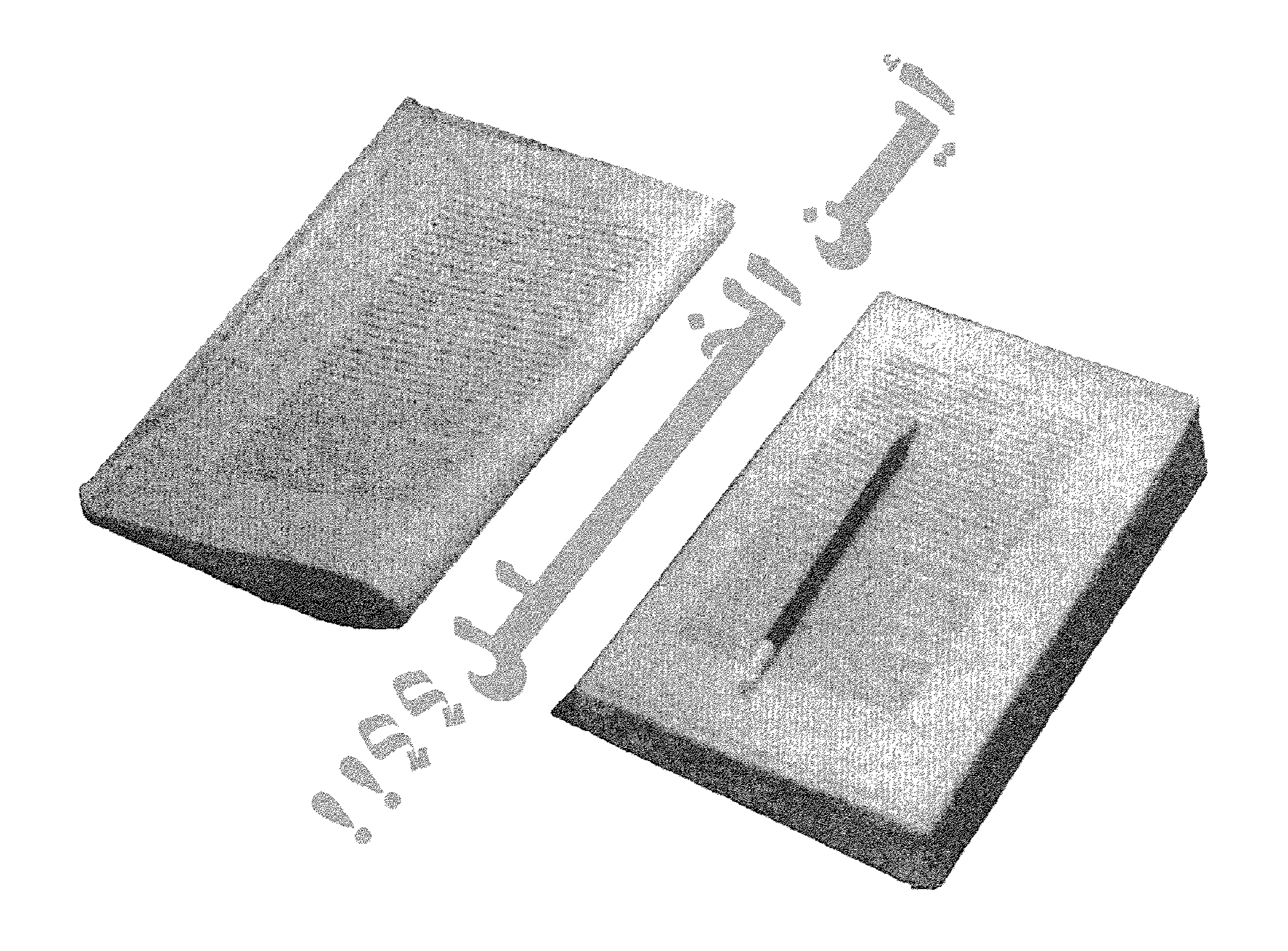
٨ - تم مناقشة تلك الموضوعات تفصيليا فى أحد إصدارات أ.ب زحلان بعنوان «صناعات البناء لدى العرب»، Croom Helm، لندن، ١٩٨٣، حيث تم نشر نفس الإصدار باللغة العربية من جانب مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٨٣. وكذلك من الإصدارات الأخرى الخاصة بزحلان فيما يتعلق بنفس الموضوعات هو إصدار بعنوان «اكتساب القدرات التكنولوجية: دراسة بشأن شركات الاستشارات والمقاولات العربية»، Macmillan، لندن، ١٩٩٠، حيث تم نشر نفس الإصدار باللغة العربية من جانب كل من مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٩٠ وزحلان (١٩٩٩).

٩ - أ.ب. زحلان، «إنتاجية العمالة والمنافسة»، المشرق العربى، رقم ٢، الصفحات من ٩٨-١١٢، ١٩٩٤.

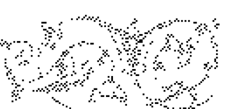
١٠ - بالطبع هناك بعض الاستثناءات من ذلك.

١١ - تم توجيه بعض الجهود فى العديد من الدول العربية نحو تحسين معايير ونظم مراقبة الجودة لديها.

١٢ - عماد مصطفى، «الإطار التنظيمى لعمليات اكتساب المعرفة ونقل وإدارة وتعريب التكنولوجيا» ٢٠٠٣.



معتز خورشيد



تعانى الجامعات الخاصة من نقص فى مواردها البشرية من هيئة التدريس والهيئة المعاونة، فى حين تمتلك الجامعات الحكومية كوادر تعليمية وبحثية أكثر عددا وقدرة علمية وتنوعًا أكاديميًا



تشهد مصر - فى الوقت الراهن - حواراً مجتمعياً متعدد الأطراف يدور حول الرؤى المستقبلية لتطوير منظومة التعليم العالى وتحديثها وإعادة هيكلتها وضمان جودة أدائها وتنظيم القدرة التنافسية لخريجيها على المستويين الإقليمى والعالمى. وتعود أهمية هذا الحوار إلى المكانة التى تحتلها منظومة التعليم فى أى مشروع قومى للتنمية الشاملة بمصر، وما يمكن ان تقوم به من دور محورى للارتقاء بالعنصر البشرى وتعظيم قدراته بغية اللحاق بعصر المعرفة ومجتمعات الحداثة بالألفية الثالثة.

وقد طُرحت - فى هذا الصدد - رؤى تطويرية متباينة ومقترحات إصلاحية بديلة على الأصعدة الأهلية والحزبية والحكومية الرسمية. كما نُظمت العديد من الندوات والحلقات النقاشية والمؤتمرات العلمية المتخصصة التى تسعى فى مجملها الى وضع استراتيجية متكاملة لإصلاح مسار العملية التعليمية والخروج بها من الحلقة المفرغة التى تحد من قدرتها على الانطلاق نحو تحقيق أهداف التنمية البشرية.

وبرغم الاختلافات فى الرؤى ومقترحات التطوير فقد اجتمعت الآراء على ضرورة ارتباط جهود الإصلاح بمعالجة الاختلالات الهيكلية فى منظومة التعليم العالى، حيث أفادت أدبيات التنمية الشاملة وبرامج الإصلاح الاقتصادى والاجتماعى - على المستوى العالمى - أن مشكلة الدول النامية تكمن أساساً فى ماتعانيه من اختلالات هيكلية فى بنية المجتمع وما ينتج عنها من انعكاسات سالبة على معدلات الأداء الاقتصادى والاجتماعى وعلى قدرة الدول النامية على تحقيق الأهداف التنموية والارتقاء بالمستوى المعيشى للمواطن.

أولاً: أنواع الاختلالات الهيكلية

تفرق برامج التنمية بين نوعين من التشوهات الهيكلية فى بنية الاقتصاد والمجتمع. يتمثل النوع الأول فى عدم اتساق - أو توازن - هيكل الإنتاج وتوزيع الدخل والتجارة الخارجية والعمالة والسكان... إلخ. فالدول الخليجية تعانى - على سبيل المثال - من عدم اتساق فى هيكلها السكانى وقوة العمل بها من حيث تنامى نسبة العمالة الوافدة وتراجع معدلات مشاركة قوة العمل الوطنية فى النشاط الاقتصادى والاجتماعى. فى حين تعانى دول نامية أخرى من تحيز فى هيكلها الإنتاجى تجاه النشاط الخدمى مع تقلص فى الدور التنموى لقطاعها الصناعى. ويلاحظ أيضاً تزايد اعتماد الدول النامية على الواردات من العالم الخارجى مع تدنى دور الإنتاج الوطنى فى إشباع الطلب المحلى على السلع والخدمات. كذلك تعتبر ظاهرة نقص موارد الدول النامية من النقد الأجنبى نتيجة مباشرة لاختلال العلاقة بين الصادرات والواردات فى ميزان المدفوعات.

أما النوع الثانى من الاختلالات البنيوية فيتمثل فى وجود ازدواجية بين قطاعات الاقتصاد وشرائح المجتمع بدول العالم الثالث. فتباين معدلات التنمية البشرية ومستوى الخدمات الاجتماعية بين المناطق الريفية والحضرية يمثل إحدى المشاكل الهيكلية للعديد من الدول النامية، كما يمثل

تباين مستوى الأجور السائدة فى القطاع الخاص عن مستوى الرواتب التى يتقاضاها العاملون بالقطاع العام نوعية أخرى من الازدواجية ذات التأثير السالب على جهود التنمية الشاملة. كذلك يمكن اعتبار اختلاف مستوى التكنولوجيا المطبقة فى القطاعات الصناعية المنظمة عن التقنيات السائدة فى قطاعات الاقتصاد غير المنظم ازدواجية تتطلب اتباع السياسات والتدابير الملائمة للتقليل من آثارها السالبة على الاداء الاقتصادى والاجتماعى.

ومن هنا فقد توجهت معظم الخطط الإنمائية - وما تتضمنها من برامج تنفيذية - إلى معالجة الاختلالات الهيكلية والقضاء على الازدواجية السائدة فى البنية الاجتماعية والاقتصادية بالدول النامية كأحد المتطلبات الرئيسية لإصلاح المسار الاقتصادى والاجتماعى وتحقيق أهداف التنمية الشاملة.

وبالمثل، يتسم نظام التعليم العالى بمصر بشيوع العديد من الاختلالات فى هيكله والتشوهات فى بنيته الأساسية بما يهدد جهود الإصلاح الراهنة ويحد من قدرتها على تحقيق الأهداف التعليمية المرغوبة.

ثانياً: الاختلال بين مخرجات التعليم وسوق العمل

يعتبر الاختلال بين مخرجات التعليم ومتطلبات سوق العمل من أهم المشاكل الهيكلية التى يتعين التصدى لها من قبل متخذ القرار التعليمى وخبراء التعليم العالى والبحث العلمى على المستوى الوطنى. إذ يمكن تفسير مشكلة البطالة الهيكلية ليس فقط بالفجوة الكمية بين حجم المخرجات التعليمية وما يمكن أن يوفره المجتمع وقطاعاته الإنتاجية من فرص عمل للخريجين، ولكن أيضاً بقصور مؤسسات التعليم العالى الوطنية فى إعداد خريج قادر على التفاعل مع متطلبات أسواق العمل والمنافسة على المستويين المحلى والإقليمى بما يتناسب مع عصر العلم والتكنولوجيا ومجتمعات المعرفة وعولمة الأنشطة الإنتاجية والخدمية..

وبناء على ما سبق فإن التغلب على هذه القضية الهيكلية يتطلب من قبل وزارة التعليم العالى والمجلس الأعلى للجامعات ومجلس الجامعات الخاصة فى مصر بالاشتراك مع وزارة التنمية الاقتصادية - المسئولة عن صياغة خطط التنمية الاقتصادية والاجتماعية - إعداد دراسة شاملة تقوم بقياس الفجوة المستقبلية بين مخرجات منظومة التعليم العالى (عرض قوة العمل) ومتطلبات القطاعات الإنتاجية والخدمية من الخريجين وفق الفئة المهنية للخريج موزعة على المحافظات والأقاليم الحضرية والريفية بمصر (الطلب على قوة العمل). وتعتبر هذه الفجوة بين قوى العرض وعناصر الطلب من المؤشرات التخطيطية الهامة لتخصيص الاستثمارات فى قطاعات التعليم العالى العامة والخاصة والأهلية، من حيث تأثيرها على المواءمة بين مخرجات العملية التعليمية ومتطلبات أسواق العمل. ويمكن بطبيعة الحال تبنى سياسات من شأنها إعداد طالب التعليم العالى وفق متطلبات المجتمع المعرفى بالألفية الثالثة من ناحية، وتوجيهه الى التخصصات العلمية الأكثر طلباً فى أسواق العمل الوطنية والإقليمية من ناحية أخرى.

ثالثاً: الازدواجية بين الجامعات الخاصة والعامة

تعانى منظومة التعليم من اختلال رئيسى يتمثل فى الازدواجية (Duality) بين الجامعات العامة ومؤسسات التعليم العالى الخاصة، ويمكن رصد هذه الازدواجية بين الجامعات الخاصة والعامة فى النقاط التالية:

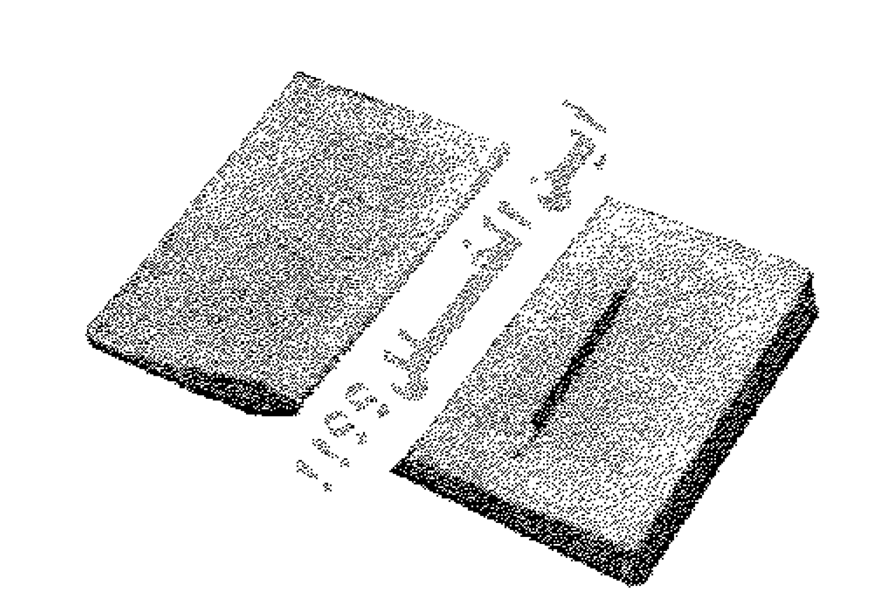
١ - تعانى الجامعات الخاصة من نقص فى مواردها البشرية من هيئة التدريس والهيئة المعاونة، فى حين تمتلك الجامعات الحكومية كوادر تعليمية وبحثية أكثر عدداً وقدرة علمية وتنوعاً أكاديمياً. ففى جامعة القاهرة - على سبيل المثال - يُقدر حجم هيئتها العلمية - فى عام ٢٠٠٤/٢٠٠٥ - بما يزيد على عشرة آلاف عضو منهم نحو ستة آلاف ونصف أستاذ جامعى، فى حين يتراوح عدد أعضاء هيئة التدريس المعينين بالجامعات الخاصة (١٠٠-٢٠٠) عضو فى المتوسط. وتنعكس هذه الازدواجية فى تعاظم طلب الجامعات الخاصة - التى يصل عددها فى الوقت الراهن إلى ١٦ جامعة - على أعضاء هيئة التدريس بالجامعات الحكومية، وعلى وجه الخصوص فى التخصصات العلمية الأكثر حداثة ومن أعضاء هيئة التدريس الأكثر خبرة وكفاءة علمية، وهو ما يمكن أن يؤدى إلى استنزاف الكوادر البشرية المتميزة بالجامعات الحكومية. وفى محاولته لعلاج هذا التباين، وضع مجلس الجامعات الخاصة قواعد حاكمة لتقدير أعداد هيئة التدريس المعينين بالجامعات الخاصة وتوازن هذا العدد مع حجم الإعارات والانتدابات من الجامعات الحكومية. بيد أن هذا التوجه المرغوب يتعين أن يصاحبه سياسة مكملة لاختيار أعضاء هيئة التدريس تضمن مستوى جودة التعيينات بالقطاع الخاص.

٢ - بالإضافة إلى التباين فى توافر الموارد البشرية بين القطاعين الخاص والعام، فإن منظومة التعليم المصرى تشهد اختلالاً واضحاً فى معدلات الأجور المطبقة بالجامعات الحكومية والخاصة. ففى حين يصل مرتب الأستاذ الجامعى بالجامعات الحكومية الى نحو ثلاثة آلاف جنيه فى المتوسط، فإن مرتبه بأى جامعة خاصة قد يصل إلى ثمانية أو عشرة آلاف جنيه شهرياً. وبصرف النظر عن الخلاف فى معدلات الاستخدام السائدة فى كل من الجامعات الخاصة والعامة، فإن هذا الاختلال فى منظومة الأجور من الممكن أن يساهم فى خلق مناخ غير صحى قد يهدد كفاءة أداء منظومة التعليم العالى ككل. وحيث ان الأجور بالقطاع الجامعى الخاص تعكس - إلى حد كبير - التكلفة السوقية لوظيفة الأستاذ الجامعى، ونظراً لتوجه الدولة السياسى والاقتصادى نحو تحرير الأسعار والأجور بشكل شامل والارتقاء بجودة التعليم العالى، فإنه يتعين إعادة النظر فى منظومة الأجور والمرتبات والمكافآت بقطاع التعليم العالى العام، والسعى إلى تذويب الفوارق بين ما يتقاضاه أعضاء هيئة التدريس فى كل من القطاعين العام والخاص.

٣ - تتميز الجامعات الخاصة بوفرة مواردها المالية مع تواضع أعداد الطلاب بها، فى حين تعانى الجامعات الحكومية من تكدس فى أعداد طلابها ونقص فى مواردها المالية المتاحة. ويعود التناقص فى أعداد الطلاب بالجامعات الخاصة إلى صغر الشريحة المجتمعية القادرة على سداد رسومها الدراسية المرتفعة من ناحية، وعدم سعيها إلى تنويع التخصصات العلمية بكلياتها ومعاهدها استكمالاً للمجالات الأكاديمية غير المتوافرة بالجامعات الحكومية، من ناحية أخرى. أما التكدس العددى بالجامعات الحكومية فيعود - بطبيعة الحال - إلى سياسة الحكومة الحالية للتوسع فى إتاحة التعليم العالى بمصر وفق التوجه العالمى نحو ديمقراطية التعليم وإتاحته للقادر وغير القادر من شرائح المجتمع. ويتطلب علاج هذه المشكلة الهيكلية أن تسعى الجامعات الخاصة إلى تطوير تخصصات علمية غير متوافرة (أو غير مكتملة) بالجامعات الحكومية. مع استكمال مواردها البشرية وربط مستوى رسومها الدراسية بمعدلات جودة أدائها والتكلفة المرتفعة لإمكاناتها المادية. كما يتطلب الأمر أن تتوجه الجامعات العامة إلى تعظيم جهودها فى مجال البحث عن مصادر بديلة - غير حكومية - لتمويل أنشطتها التعليمية والبحثية من خلال تقديم خدمات مجتمعية متميزة، مع توجه الحكومة إلى زيادة الطاقة الاستيعابية للجامعات الحكومية من خلال زيادة الاستثمارات فى قطاع التعليم وتحفيز القطاع الخاص على المشاركة فى دعم وتطوير منظومة التعليم العام.

٤ - مازالت الجامعات الحكومية - بحكم إمكاناتها البشرية وأعداد طلابها وخريجيها وبالتنوع فى مناهجها العلمية - تقوم بالدور الرئيسى فى منح الدرجات العلمية وتوفير الكفاءات المهنية التى تتطلبها سوق العمل المصرية والإقليمية العربية. ومازال دور الجامعات الخاصة محدوداً فى هذا الشأن نظراً لحداثة تجربة التعليم العالى الخاص فى مصر من ناحية، وتركيز الجامعات الخاصة على عدد محدد من التخصصات العلمية المتكررة بالتعليم العام دون الاجتهاد فى تطوير برامج حديثة تخدم متطلبات سوق العمل، من ناحية أخرى. وحيث إن التجارب الدولية تفيد أن الدول التى حققت نجاحات فى مجال تطوير التعليم العالى وتعظيم مساهمته فى مجال التنمية البشرية، قد ارتكزت على نظم تعليمية مشتركة تعتمد على كل من القطاعين العام والخاص فى تقديم الخدمات التعليمية، فإنه يتعين صياغة خطة قومية شاملة فى مجال التعليم تسعى - فى المدى الطويل - إلى الزيادة المخططة لمشاركة التعليم الخاص فى منظومة التعليم العالى وتنسيق الأدوار بين القطاعين الخاص والعام فيما يخص تحقيق متطلبات سوق العمل والارتقاء بجودة العملية التعليمية والحفاظ على معدلات الإتاحة المرغوبة وفق التوجه العالمى لديمقراطية التعليم العالى.

> أعداد الطلاب فى بعض كليات التجارة الحكومية يقدر بنحو (٥٠) ألف طالب فى المتوسط، فى حين يصل عدد الطلاب بكليات الحقوق والآداب إلى ما يقارب (٢٥) إلى (٣٠) ألف طالب.



رابعاً: اختلال أعداد الطلاب والإمكانات

إلى جانب الازدواجية السائدة فى منظومة التعليم العالى بين المؤسسات العامة والخاصة، فإن الجامعات الحكومية تواجه مشكلة هيكلية رئيسية تتمثل فى اختلال العلاقة بين أعداد الطلاب والإمكانات المتاحة من قاعات تدريسية ومعامل بحثية وأجهزة علمية ومكتبات رقمية ووسائل تدريبية.

وتفيد مؤشرات التعليم العالى أن أعداد الطلاب فى بعض كليات التجارة الحكومية يقدر بنحو (٥٠) ألف طالب فى المتوسط، فى حين يصل عدد الطلاب بكليات الحقوق والآداب الى ما يقارب (٢٥) إلى (٣٠) ألف طالب. هذا فى الكليات النظرية - أى العلوم الإنسانية والاجتماعية - أما الكليات العملية مثل الهندسة والطب والحاسبات والمعلومات فقد تزايدت أعداد طلابها بشكل كبير خلال حقبتى الثمانينيات والتسعينيات من القرن الماضى وبداية الألفية الثالثة. فقد خرجت كلية الحاسبات والمعلومات بجامعة القاهرة - وهى كلية حديثة أنشئت فى عام ١٩٩٦م - دفعتها الأولى فى عام ٢٠٠٠م وكان عدد الخريجين لا يتجاوز المائة خريج. بيد أن عدد الطلاب فى الدفعات التالية - خلال الأعوام العشر الماضية - قد قفز من مائة طالب فى عام ١٩٩٦م إلى نحو (٧٠٠) طالب فى عام ٢٠٠٧م. وبالطبع فإن النمو الكبير فى أعداد الطلاب لم يقابله زيادة مماثلة فى حجم الموارد المالية والطاقة الاستيعابية والإمكانات المادية والبشرية.

ومما لاشك فيه أن هذا الاختلال الهيكلى يمثل عائقاً أساسياً يقلل من فرص الجامعات الحكومية لتحقيق أهداف ضمان جودة العملية التعليمية والبحثية وتأهيل طلابها للتفاعل مع متطلبات عصر العلم والتكنولوجيا ومجتمعات المعرفة.

وحيث إن التوجه نحو تطوير الأداء الجامعى وضمان جودته يعتبر ضرورة يفرضها مناخ التعليم العالى وأسواق العمل على المستويين الوطنى والعالمى، فإن علاج هذا الاختلال بين كثرة الأعداد الطلابية والإمكانات المادية للجامعات، يجب أن يحتل مرتبة متقدمة فى سلم أولويات استراتيجية التعليم العالى والبحث العلمى. ويمكن تحقيق ذلك من خلال حزمة متكاملة من السياسات تتمحور حول زيادة قدرة الجامعات الخاصة والأهلية والمعاهد العليا الفنية على استيعاب جزء من طلاب الجامعات الحكومية، وزيادة حجم الاستثمارات الحكومية والمشتركة لتحقيق الزيادة المرغوبة فى الطاقة الاستيعابية للجامعات الحكومية فى ظل مستويات مقبولة من جودة الأداء، وخلق مناخ مناسب يسمح بتعظيم الموارد الذاتية للجامعات العامة، واستخدام طرق تعليمية غير تقليدية لتقليل الاعتماد على أسلوب التدريس وجهاً لوجه مثل التعليم الإلكترونى والتعلم عن بعد، وأخيراً وليس آخراً التوجه إلى أنماط ونظم تعليمية أكثر مرونة مثل مراكز التعليم المفتوح والجامعات الافتراضية.

خامساً: الاختلالات المالية

الجامعات المصرية تعانى - فى معظمها - من اختلالات مالية هيكلية على مستويات متعددة. فالجامعات الحكومية تعانى - بشكل أساسى - من عدم الاتساق بين إيراداتها الذاتية وما توفره الحكومة لها من دعم مالى وبين متطلباتها من الإنفاق على العملية التعليمية والبحثية فى ظل مستوى مرغوب من جودة الأداء. وتمثل هذه الفجوة المالية عائقاً رئيسياً فى طريق تحقيق أهداف التطوير والتحديث للعملية التعليمية بوجه عام. كذلك تتسم الجامعات والمعاهد الخاصة بوجود اختلالات مالية تكمن فى تباين المعايير المستخدمة فى تحديد العلاقة بين مستوى ما تقدمه الجامعة أو المعهد من خدمات تعليمية وبحثية، وقيمة ما تحصله من رسوم دراسية. وبرغم تأثر مستوى هذه الرسوم التعليمية - وفق آليات السوق - بحجم الطلب على الخدمات التعليمية والمجال الأكاديمى للدراسة ومعدلات الربحية المرغوب تحقيقها، فإن توافق الرسوم الدراسية مع مستوى جودة الخدمات التعليمية المقدمة - وما تتضمنه من إنفاق مادى - يعتبر أمراً ضرورياً لضمان سلامة المنظومة السعرية بسوق التعليم العالى، ومن ثم استخدامها فى اختيار الطالب للجامعة أو المعهد الذى سيلتحق به. ومن هنا فإننا نشهد تبايناً غير منضبط فى الرسوم الدراسية على مستوى الجامعات الخاصة والأهلية - لا يعكس بالضرورة فروق جودة الأداء - بدءاً من ثلاثة آلاف جنيه سنويا فى بعض المعاهد العليا وصولاً الى نحو (٧٥) ألف جنيه فى إحدى الجامعات الخاصة.

وعلى مستوى آخر، فإن ميزانية الجامعات المصرية تتضمن عدم اتساق فى توزيع بنودها على عناصر الإنفاق، إذ يحتل باب الأجور والمرتبات نسبة مرتفعة من جملة الإنفاق فى الجامعات الحكومية، فى حين يتراجع حجم الإنفاق على البحث العلمى والتطوير وهو الأمر الذى يخل بقدرة الجامعة على استكمال أنشطتها التعليمية والبحثية والخدمية المجتمعية بالجودة والكفاءة المرغوبة. وتشير المؤشرات المالية بجامعة القاهرة - على سبيل المثال - إلى أن بند الأجور والمرتبات (الباب الأول) يقدر بنحو (٦٥٠) مليون جنيه سنوياً، فى حين تصل معدلات الإنفاق الجارى على البحوث (٨٠٠) ألف جنيه فقط (بند ٣ بحوث بالميزانية). ومن هنا فإن إعادة هيكلة الموازنة المالية للجامعات الحكومية وزيادة حجم الإنفاق على بعض أبوابها من خلال تنويع مصادر تمويلها الذاتى والتخصيص الأمثل للدعم الحكومى يمثل خطوة ضرورية فى اتجاه التصحيح الهيكلى لمنظومة التعليم الحكومية.

سادساً: البرامج الخاصة والمتميزة

ومما يزيد عملية التصحيح الهيكلى صعوبة، توجه الدولة - فى الوقت الراهن - نحو تطبيق سياسات من شأنها تعميق حدة هذه الاختلالات. إذ تؤدى البرامج الخاصة أو المتميزة بالجامعات الحكومية - التى بدأ تطبيقها فى الآونة الأخيرة بغية توفير موارد ذاتية إضافية للجامعة - إلى وجود أنماط أو نظم تعليمية متباينة داخل الكلية الواحدة تختلف فى مستوى جودة الخدمة التعليمية والأساليب والتكنولوجيات المستخدمة ومستويات الإشراف العلمى والإرشاد الأكاديمى، كما أن هذه البرامج الخاصة من الممكن أن تؤدى إلى إرساء مبدأ يتنافى مع التوجه العالمى لإتاحة التعليم بالجودة المرغوبة للقادر وغير القادر مالياً على حد سواء، على الأقل بالجامعات الحكومية. كما أنه يصعب قبول مبدأ المفاضلة بين الطلاب المتساوين فى القدرة العلمية بنفس المعهد أو المؤسسة العلمية بناء على الإمكانات المالية لأولياء الأمور، إذ إن هذا التوجه من الممكن أن يؤدى إلى خلق مناخ اجتماعى غير موائم بين الطلاب.

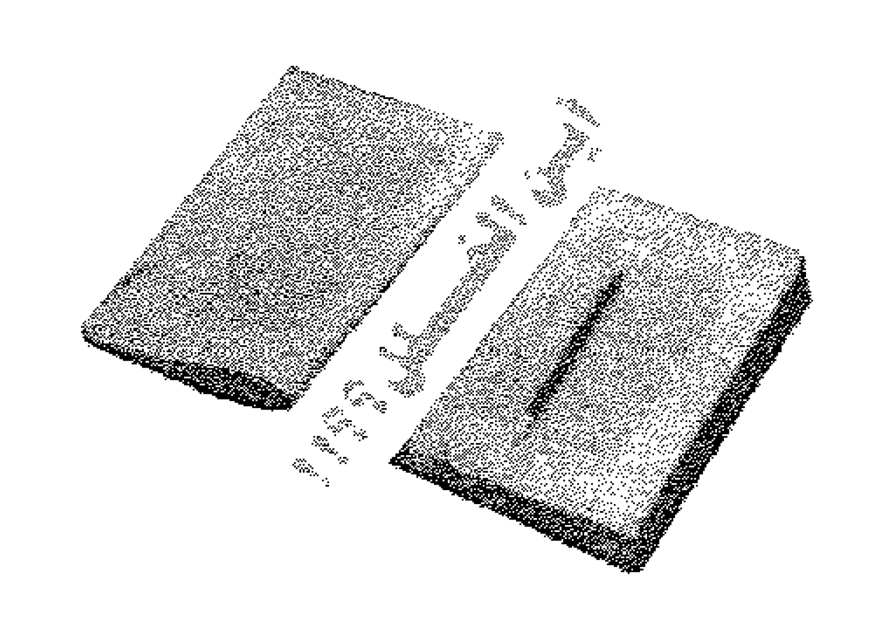
سابعاً: مهام الجامعة

يتعين الإشارة فى هذا الصدد إلى الاختلال فى دور الجامعات الذى قد ينشأ عن تباين الوزن النسبى لتوزيع جهودها بين مجالات التعليم والبحث العلمى وخدمة المجتمع وتنمية البيئة إلى جانب الدور التنويرى والثقافى. ومع قبول التوجه الراهن نحو تخصص بعض الجامعات فى مجال محدد مثل الجامعات ذات التوجه البحثى، أو جامعات الدراسات العليا، أو الجامعات التكنولوجية. غير أن الأمر المحقق - فى هذا الشأن - أن مسمى «الجامعة» قد نشأ أساساً بهدف تحقيق الحد الأدنى



ميزانية الجامعات المصرية تتضمن عدم اتساق فى توزيع بنودها على عناصر الإنفاق، إذ يحتل باب الأجور والمرتبات نسبة مرتفعة من جملة الإنفاق فى الجامعات الحكومية، فى حين يتراجع حجم الإنفاق على البحث العلمى





«للجمع» بين التعليم والبحث والتنوير المجتمعى. وهنا يجب الإشارة أيضاً إلى قصور مغاير فى الجامعات الحكومية من حيث سعيها إلى التعدد الكبير فى التخصصات العلمية دون توافر المقومات المطلوبة لتحقيق هذا التوسع غير المنضبط فى التخصصات. فتركيز الجامعات على مجالات تميزها العلمى والأكاديمى وفق ما تملكه من قدرات خاصة يعد توجهاً مرغوباً لتنمية القدرات وضمان جودة الأداء. ولا يعنى ذلك عدم قيامها بأنشطة متنوعة فى اطار التعليم والبحث العلمى والخدمة المجتمعية، ولكنها تقوم به فى مجال تميزها العلمى وبقدر ما تملكه من قدرات متطورة. ومن هنا فإن البدائل المطروحة فى الوقت الراهن لتقسيم الجامعات الحكومية الضخمة متعددة التخصصات إلى مجموعة من الجامعات المتخصصة ذات التميز النسبى يمثل ـ وفق المنطق السابق ـ توجهاً مرغوباً من الممكن أن يساهم فى تقليل الاختلالات الهيكلية فى منظومة التعليم العالى.

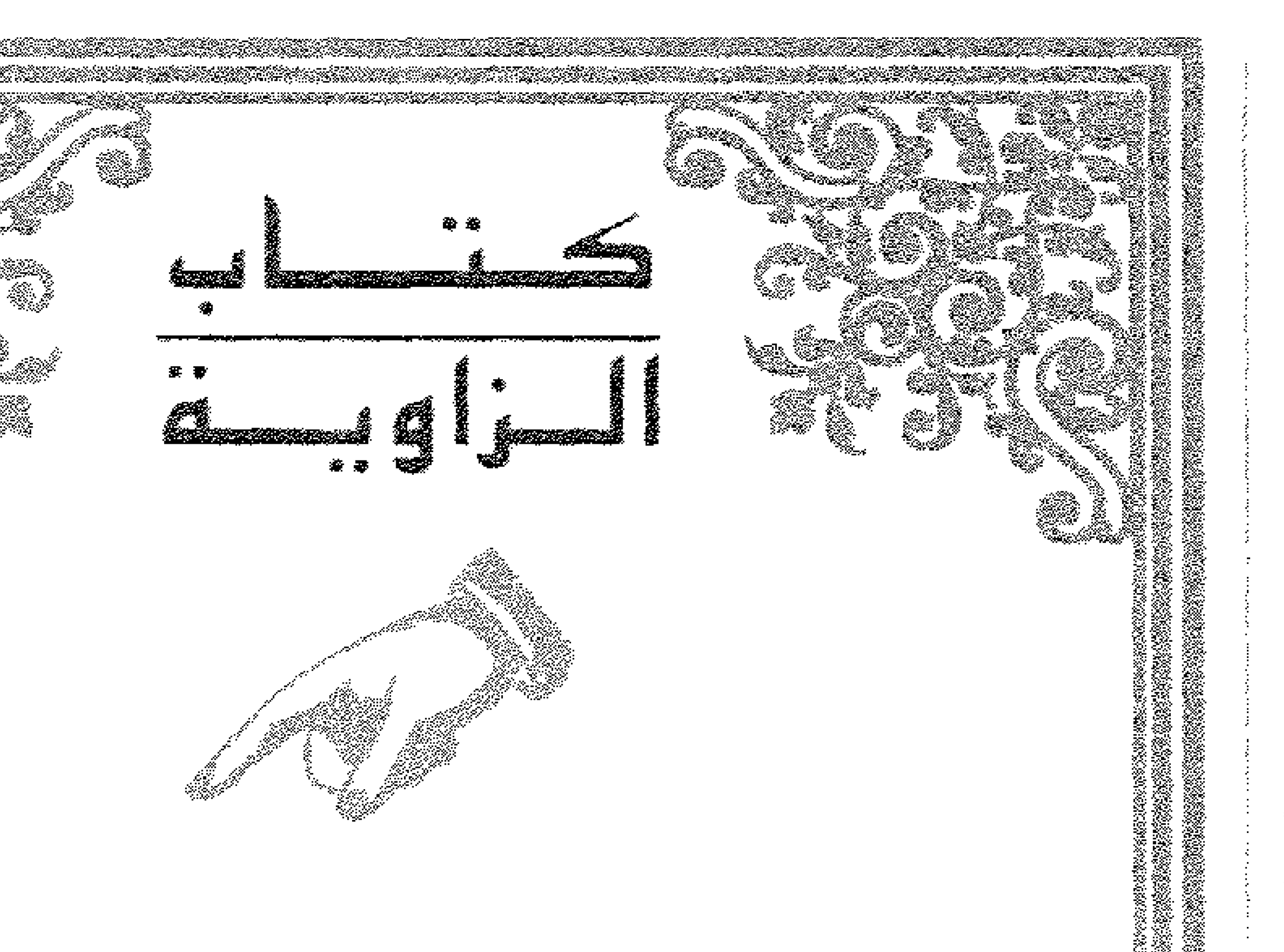
ثامناً: صعوبة الإتاحة مع الجودة

يتبقى أن نناقش ـ فى نهاية هذه الدراسة ـ إحدى القضايا الرئيسية المثارة على ساحة التعليم المصرى فى الوقت الحالى، وهى مشكلة «الإتاحة مع ضمان الجودة». إذ تبنت الحكومة المصرية ـ خلال النصف الثانى من القرن الماضى ـ سياسة رامية إلى التوسع فى إتاحة التعليم للراغبين فيه. وقد تناغمت هذه السياسة مع التوجه العالمى. وقرارات منظمة الأمم المتحدة. بأن التعليم يتعين أن يكون حقاً للقادر وغير القادر على حد سواء. وأن مفهوم «ديمقراطية التعليم» يجب أن يتسع ليشمل طبقات اجتماعية أكثر شمولاً. هذا وقد نجحت مصر فى تحقيق معدلات إتاحة مرتفعة ـ فى هذا المجال ـ وإن كان ذلك على حساب جودة الأداء، نظراً لقصور الموارد المالية والزيادة الكبيرة فى أعداد الطلاب بالجامعات الحكومية.

وفى ظل تنامى دور العلم والتكنولوجيا فى الألفية الثالثة والانتقال إلى المجتمعات المعرفية وتزايد حدة المنافسة فى ظل المناخ الجديد للعولمة، فقد تعاظمت الحاجة إلى الاهتمام بقضايا ضمان الجودة والاعتماد على مستوى التعليم ما قبل الجامعى والتعليم العالى على حد سواء. ومن هنا فقد طرحت وزارة التعليم العالى والحزب الوطنى رؤية تعليمية مغايرة مفادها أن السياسات التعليمية للدولة ـ خلال المرحلة المقبلة ـ يتعين أن تنتقل من التركيز على إتاحة فرص تعليمية لقاعدة عريضة من الطلاب ـ حتى وإن لم تتحقق مستويات الجودة المرغوبة ـ إلى التوجه نحو تعليم يسعى إلى ضمان جودة منظومة التعليم، حتى وإن نتج عن هذا التوجه انعكاسات سالبة على معدلات الإتاحة الحالية.

والمشكلة تكمن فى صعوبة تطبيق هذه الرؤية المستقبلية وعدم القدرة على تحقيق أهدافها فى ظل المناخ الاقتصادى والاجتماعى والثقافى المصرى الراهن، حيث يتعذر تقنين الجودة مع استمرار الإتاحة فى ظل الأعداد الكبيرة للراغبين فى الالتحاق بالمرحلة الجامعية. وإن النقص المتوقع فى الأعداد المقبولة بمؤسسات التعليم العالى الحكومية ـ الذى سينتج عن تطبيق معايير ضمان الجودة ـ سيتعذر تعويضه فى ظل محدودية الإنفاق القومى على التعليم والبحث العلمى.

أى أن هذا الاختلال الناجم عن صعوبة ـ أو تضارب ـ هدفى الجودة والإتاحة فى إطار منظومة التعليم العالى المصرية، يمكن اعتباره إحدى القضايا الهيكلية المطلوب مواجهتها. بيد أن هذه المشكلة تتطلب وضع استراتيجية قومية يشارك بها القطاعان الحكومى والخاص ومؤسسات المجتمع المدنى لتطوير الجامعات الحكومية وتعظيم إمكاناتها المالية، وزيادة الطاقة الاستيعابية للتعليم العالى من خلال زيادة حجم الاستثمارات فى التعليم العالى والتوسع فى الجامعات الأهلية والخاصة بما يسمح بتوزيع أفضل لخريجى المرحلة الثانوية الراغبين فى استكمال دراستهم العليا. كما يتطلب الأمر وضع سياسات تتضمن الاعتماد ـ بشكل أكبر ـ على أنماط ونماذج تعليمية مغايرة تسمح بدعم التوجه نحو الجودة دون التأثير سلباً على التوسع فى التعليم العالى. فمما لا شك فيه أن مراكز التعليم المفتوح والجامعات الافتراضية ومراكز التعليم الإلكترونى والتعلم عن بعد يمكن أن تمثل توجهاً مرغوباً لتحقيق هدف الجودة مع استمرار الإتاحة. ■



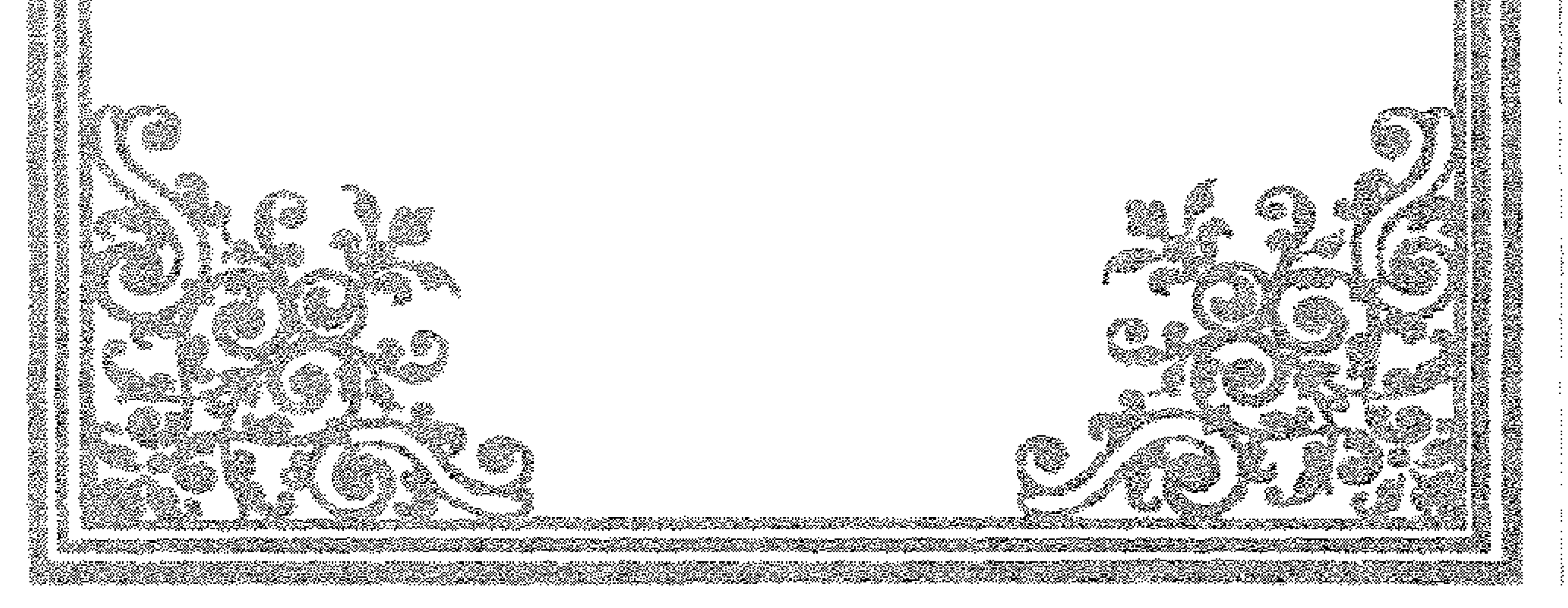
ابن العماد الأقفهسى

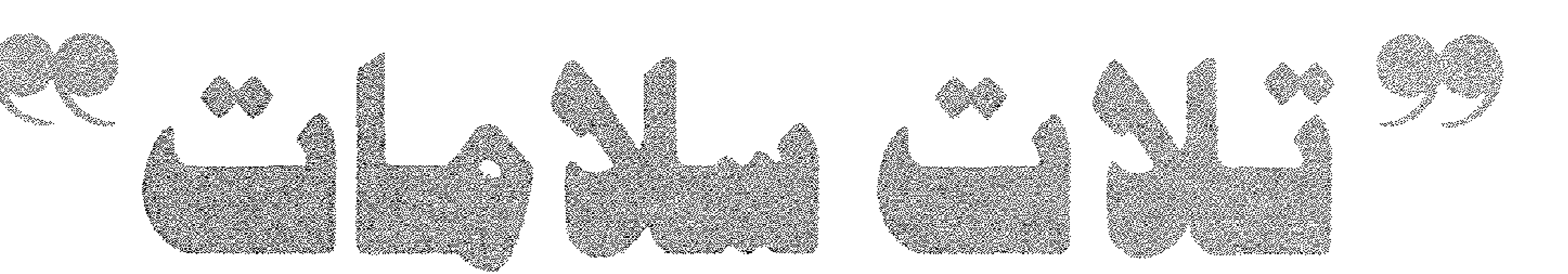
منابع النيل

إنه يخرج من جبل القمر، على ما ذكره الكندى، وذكره أيضاً المسعودى، وصاحب الأقاليم السبعة.قال: وإنه يخرج أصله من جبل القمر من عشرة عيون: خمسة تجتمع فى بطيحة، يعنى مكان مسطح من الأرض، ثم يجتمع بعد ذلك الماءان، وذكر صورة جبل القمر وأنه مقوس، وعلى رأسه شراريف هكذا.

وذكر المسعودى فى مروج الذهب: أن الفلاسفة قالوا: إنه يجرى على وجه الأرض تسعمائة فرسخ، وقيل ألف فرسخ فى عامرها وغامرها، من عمران وخراب، حتى يأتى إلى بلاد أسوان من صعيد مصر، وإلى هذا الموضع تصعد المراكب من فسطاط مصر. وعلى أميال من أسوان جبال وأحجار، يجرى النيل فى وسطها، فلا سبيل إلى جريان السفن فيه، وهذا الموضع فارق بين مواضع سفن الحبشة فى النيل، وبين سفن المسلمين، ويعرف هذا الموضع فى النيل بالجنادل والصخور. ثم يأتى (النيل) الفسطاط، فينقسم خلجانات إلى بلاد: تنيس، ودمياط، ورشيد، وإلى إسكندرية، كل يصب إلى البحر (الرومى).

قال: وأصل النيل ومنبعه من تحت جبل القمر، ومبدأ ظهوره من اثنتى عشرة عينا. وجبل القمر خلف خط الاستواء: يعنى الذى يستوى فيه الليل والنهار، وأضيف إلى القمر لأنه يظهر تأثيره فيه عند زيادته ونقصانه، بسبب النور والظلمة، والبدر والمحاق.





محمود الشريف

نبيل حنفى محمود



كانت أغنيات ابن مدينته: سيد درويش فى طليعة ما ردده محمود الشريف أيامها من أغنيات ليطابق بين ما تعلمه عن الغناء والموسيقى وما يردده الناس من غناء، فاكتشف ولاحظ أصدقاؤه أن صوته مقبول فى الغناء



لست أدرى متى استوقفتنى تلك الملاحظة، ولكن الأمر المؤكد... أن ذلك حدث منذ سنوات ليست بالكثيرة وفى أحد الأيام الأولى من شهر رمضان المعظم، كنت يومها أستمع إلى أغنية «رمضان جانا» التى لحنها محمود الشريف وتغنى بها محمد عبدالمطلب، عندما قفزت تلك الملاحظة إلى عقلى فى صورة التساؤل التالى: كيف صنع محمود الشريف لحنا كهذا عاش بين الناس لأكثر من نصف قرن؟. فإذا بهاتف من داخلى يرد على تساؤلى بتساؤل آخر: وهل كانت «رمضان جانا» وحدها من بين أعمال محمود الشريف التى عاشت بين الجماهير وقاومت الزمن والنسيان؟. بدا التساؤل الأخير آنذاك كلمعة البرق، فبدد ما أحاط باسم محمود الشريف فى عقلى من ظلال وحجب، ووجدت نفسى أردد أسماء ومطالع أغنيات كثيرة اختزنها عقلى فى مستويات الوعى المختلفة وكانت جميعها من تلحين محمود الشريف، تذكرت يومها الأغنيات التالية: «ياحمام البر» لأحلام - «تلات سلامات» لمحمد قنديل - «أبيض ياوردى» لشادية - «يا سيدى أمرك» لعبد الحليم حافظ - «القلب والا العين» لسعاد محمد - «ياوله يا وله» لعبد الغنى السيد - «عاد السلام يا نيل» لفايدة كامل و«الله أكبر» للمجموعة. أغنيات حفظتها الذاكرة... فهى لا تغيب ولا تنسى لأنها تشكل للمرء والأمة تراثاً وهوية. محمود الشريف.. هذا العبقرى.. كيف نسيناه فى زحمة الحياة وهجمة الأغانى الشبابية والفيديو كليب؟، وكيف أصبح لقب الموسيقار فى أيامنا هذه يطلق على كل من هب ودب ومن لم يأت بواحدة - واحدة فقط - من مثل روائع محمود الشريف التى لا تموت؟. والمقال الحالى يهتم برصد أهم المراحل فى مسيرة محمود الشريف الفنية ويحاول أيضاً أن يجلو بعض الخصائص المميزة لإبداعاته الغنائية والموسيقية.

الميلاد والنشأة

خيمت أجواء من الحزن والقلق على الإسكندرية فى صباح السبت الثالث من جمادى الأولى من سنة ١٣٣٠ هـ والموافق العشرين من أبريل عام ١٩١٢م، كان مبعث الحزن ما تناقلته الصحف عن حادث غرق السفينة تيتانك خلال رحلتها الأولى والأخيرة فى مساء الاثنين الخامس عشر من أبريل ١٩١٢ م. بينما جاء القلق مما حملته الصحف من برقيات تلغرافية عن مهاجمة الأسطول الإيطالى لبعض مناطق الدولة العثمانية فى اليوم السابق وهو الجمعة الموافق التاسع عشر من أبريل، ومصر أيامها كانت ولاية عثمانية. وفى نفس اليوم - الجمعة ١٩/٤/١٩١٢م - شاهد الإسكندرانيون كسوفا للشمس فى الثانية من بعد الظهر. فى تلك الأجواء المشحونة بالخوف والتوتر والقلق، وفى منزل صغير بحى باكوس برمل الإسكندرية، وضعت زوجة مقيم الشعائر بمسجد سيدى العجمى: حسين إبراهيم ولداً أسماه والده محمود الشريف، وعندما روعت مجموعة من المهربين واللصوص والد محمود الشريف، وكان ذلك بغية اتخاذ مسجد سيدى العجمى - الذى يقع فى حى العجمى عند الأطراف الغربية لمدينة الإسكندرية - وكرا لأعمالهم المشينة، هجر مقيم الشعائر الطيب حى العجمى، واتخذ لنفسه مشتلاً للزهور فى منطقة بعيدة. آنذاك.. كان الفتى محمود الشريف يتلقى تعليمه الأولى فى الكتّاب، وبعد أن أتم حفظ بعض من أجزاء القرآن الكريم بالكتّاب، التحق بمدرسة حجر النواتية الأولية فى حىّ باكوس، وجاءت وفاة والده بعد أيام من انتظامه بدراسته الأولية لتغير من مسار حياته، حيث قرر أخوه الأكبر. والذى أصبح مسئولاً عن الأسرة . أن أوان مشاركة الصبى محمود الشريف فى توفير الرزق لنفسه وللأسرة قد حان، مما ترتب عليه انقطاع محمود الشريف عن الدراسة بعد انتظامه فيها لستة أشهر فقط، ولتشهد شوارع حىّ باكوس وحاراته بعد ذلك تنقل الصبى محمود الشريف بين مهن بسيطة بحثاً عن قروش قليلة يقيم بها أوده وينفق منها على أسرته، حيث عمل لفترة كصبىّ جزار، وقضى فترة أخرى يدفع عربة بطيخ ينادى عليه فى شوارع باكوس، لقد أكسبت خشونة البداية بين أهل باكوس من البسطاء والكادحين الفتى محمود الشريف إحساساً صادقاً بالرجولة والأصالة والقوة، وانطبعت قسوة انتزاعه من صفوف الدراسة وإلقائه المبكر لمعترك الحياة فى مظهر متجهم وملامح صارمة، ولكن ذلك لم يكن إلا ستاراً يخفى قلباً يفيض برقة تشبه نسمات الإسكندرية فى لياليها الصيفية!.

تدور حياة البسطاء من ساكنى الأحياء الشعبية المصرية حول محور واحد يتمثل فى الكفاح من أجل لقمة العيش ومواصلة الحياة، وهو كفاح كثيراً ما تتخلله المشاحنات والمعارك التى تعد بمثابة ملح الحياة فى تلك الأحياء، ولما كان محمود الشريف يميل للرياضة بطبعه ويتميز ببنيان جسدى قوى، فإنه اتجه منذ صباه لتعلم رياضة المصارعة حتى أتقنها، وقد جاء تحول مشاعره تجاه الفن وبالتحديد فن الغناء والموسيقى كنتيجة لموقفين، تمثل الموقف الأول فى مصاحبته لأخيه إسماعيل إلى قصر الأمير عمر طوسون بحى باكوس فى الإسكندرية، حيث كان الأخ يعمل عازفاً فى الفرقة الموسيقية بالقصر، وهناك فى قصر الأمير عمر طوسون صافحت مؤلفات كبار الموسيقيين الغربيين أسماع الفتى محمود الشريف، فبهرته تلك الأعمال من نوعية السيمفونية والكونشرتو والسوناتة وغيرها من أشكال التأليف الآلى العالمى، وجاء الموقف الثانى عندما استمع محمود الشريف إلى درس فى العزف على العود يتلقاه حلاق من حى باكوس على يد مدرس للعود، فأرهف سمعه لما يدور فى درس العود، ورويدا وجد نفسه يتدخل فيما يلقيه المدرس على الحلاق من أمور فنية، ولم يلبث حتى انضم إلى الحلاق فى دروس تعلم العزف على العود، ثم أتقن عزف العود على يد اثنين من كبار الموسيقيين الإسكندرانيين الهواة هما محمد فخرى وجورج طانيوس، وقطع محمود الشريف شوطاً آخر فى سعيه لتعلم الغناء والموسيقى مع اثنين من مطربى الإسكندرية، أولهما هو الشيخ على الحارس والذى أخذ عنه الأدوار والموشحات القديمة، وأما الآخر فهو الشيخ فؤاد محفوظ الذى تلقى عنه علوم وقواعد الموسيقى الشرقية، وعندما استكمل محمود الشريف أدواته فى فنى الغناء والموسيقى، مضى يطابق بين ما تعلمه من علوم الغناء والموسيقى على ما يستمع إليه من أغنيات، وكانت أغنيات ابن مدينته: سيد درويش فى طليعة ما ردده محمود الشريف أيامها من أغنيات ليطابق بين ما تعلمه عن الغناء والموسيقى وما يردده الناس من غناء، فاكتشف





لم تكن نجاحات محمود الشريف مع فرقة بديعة مصابنى هى كل مطمحه من عمله بالفن، ولكن عينه كانت على السواد الأعظم من جمهور الغناء



ولاحظ أصدقاؤه أن صوته مقبول فى الغناء، فانطلق يردد ما يحفظ من أغنيات سيد درويش ومحمد عبدالوهاب وغيرهم من رواد الغناء فى حفلات الأصدقاء وأفراح حى باكوس، حتى شاع ذكره بين الناس فى الحى الشعبى كنجم بازغ فى دنيا الغناء.

بين الفرق المتجولة والصالات

كانت الإسكندرية فى مطلع الثلاثينيات . وعندما احترف محمود الشريف العمل بالموسيقى والغناء ـ مقراً لعديد من فرق التمثيل والغناء المتجولة، جاء ظهور تلك الفرق مواكباً لبدء انهيار المسرح الغنائى بمصر فى أعقاب أزمة ١٩٣٠م الاقتصادية الكبرى، ويتذكر محمود الشريف بدايته مع إحدى الفرق المتجولة بالإسكندرية فيقول عن ذلك: «ثم احترفت بالانضمام إلى مسرح شعبى فى الإسكندرية، وكان هذا المسرح يحشر فى رواياته ألحان سيد درويش، فبدأت أحفظها، وكان صاحب المسرح يفرض على أن أغنى أثناء الاستراحة، فكنت أغنى أدوار عبدالوهاب وسيد درويش وأتصرف فيها تصرفاً يعجبنى ويعجب الناس، ومن هنا اكتشفت أننى أستطيع أن أكون ملحناً». لم يذكر محمود الشريف فى حديثه لمجلة «الراديو المصرى» عن حياته اسم صاحب المسرح الذى شهد خطوته الأولى فى احتراف الغناء، وإن كانت بعض المصادر قد أشارت إلى أنه عمل فى عام ١٩٢٨م وعند بداية رحلته مع الغناء فى فرقة «أحمد المسيرى» كممثل ومطرب وملحن، وأنه تنقل بعد ذلك بين عدة فرق بالإسكندرية منها: «فرقة فوزى الجزايرلى» ـ «فرقة على الحاج» ـ «فرقة خميس سكر» ـ «وفرقة فوزى منيب». وقد اتفقت جميع المصادر التاريخية التى اهتمت بالحديث عن محمود الشريف على نزوحه إلى القاهرة فى مطلع الثلاثينيات بعد سنوات قضاها متنقلاً بين فرق الإسكندرية المتجولة.

ولدت فكرة انتقال محمود الشريف إلى القاهرة لعرض فنه خلال حديث له مع أحد ممثلى فرقة عمل بها لفترة من الوقت، دار الحديث فى مدينة العريش التى انتهى إليها مطاف الفرقة، حيث تحدث إليه زميله الممثل حسن راشد عما يمكن أن يحققه من نجاح فى مسارح القاهرة وإذاعاتها، وعندما اتخذ الشريف قراره بالذهاب إلى القاهرة، استضافه حسن راشد ـ وكما ذكر محمود الشريف نفسه ـ بمنزله فى القاهرة، ثم تولى الرجل مهمة تقديمه إلى ملكة الاستعراضات: بديعة مصابنى: كانت بديعة مصابنى تدير آنذاك صالتين للاستعراضات، إحداهما شتوية فى شارع عماد الدين الذى كان يغص بالمسارح والملاهى، والأخرى صيفية بجوار كوبرى الانجليز (الجلاء حالياً) وفى الأرض التى يرتفع عليها الآن فندق شيراتون القاهرة، وبعد أن استمعت بديعة مصابنى إلى غناء محمود الشريف وعزفه على العود، وافقت على ضمه إلى أعضاء فرقتها، حيث أسندت إليه مهمة المشاركة مع مجموعة أصوات الرجال فى تأدية أدوار الغناء الجماعية التى تفيض بها استعراضات الفرقة، وكان أول أجر تقاضاه محمود الشريف من عمله فى فرقة بديعة مصابنى هو اثنا عشر جنيها فى الشهر، كانت بداية عمل محمود الشريف فى مسرح بديعة مصابنى الاستعراضى قرابة نهاية عام ١٩٣٤م، حيث ظهر اسمه فى إعلانات فرقة بديعة مصابنى بصحافة ذلك العهد وبين أسماء المشاركين فى برامج الفرقة منذ شهر نوفمبر فى عام ١٩٣٤م.

الإذاعة والشهرة

لم تكن نجاحات محمود الشريف مع فرقة بديعة مصابنى هى كل مطمحه من عمله بالفن، ولكن عينه ـ شأنه فى ذلك شأن جميع من احترفوا الغناء ـ كانت على السواد الأعظم من جمهور الغناء، وهو الجمهور القابع فى الريف والحضر وفى الأكواخ والقصور، ولم يكن جمهور فرقة بديعة مصابنى ليمثل بأى حال من الأحوال السواد الأعظم من جمهور الغناء، وإنما كان ذلك السواد يمثل بجمهور الإذاعات التى كانت قد توحدت فى محطة حكومية مع بداية عمل محمود الشريف عند بديعة مصابنى، فلما أصاب الشريف ما أصاب من شهرة بألحانه لفرقة بديعة مصابنى، اتجه إلى الإذاعة لتكون هى وسيلته للوصول الى الجماهير العريضة التى خرج منها ويعتقد فى قرارة نفسه أنه يغنى ويلحن لها، وسرعان ما عرفت ألحان محمود الشريف طريقها إلى آذان مستمعى محطة الإذاعة المصرية الحكومية، وقد غلب قالب المونولوج الفكاهى على معظم أعمال محمود الشريف الأولى بالإذاعة، وذلك ربما لانتشار هذا القالب من خلال صالات الملاهى والمسارح المنتشرة فى ذلك العهد، وربما أيضاً لأن ذلك القالب كان مقارباً لما قدمه الشريف لفرقة بديعة مصابنى أو لأنه الأقرب إلى قلوب البسطاء من الناس، ومن مونولوجات محمود الشريف الفكاهية الأولى بالإذاعة نذكر ما يلى حيث يقرن باسم المونولوج اسما المؤلف والمؤدى بالإضافة إلى تاريخ الإذاعة الأولى: (مغازلة فى الطريق: يونس القاضى ـ حسين ابراهيم، ١٩٣٦/٤/١٥م) ـ (المرايا: أبوالسعود الإبيارى ـ فتحية شريف، ١٩٣٧/٦/٨م) ـ (أنا عقلى احتار: زكى إبراهيم ـ فتحية شريف، ١٩٣٧/٦/٨م) ـ (عايزة أحبك: أبوالسعود الإبيارى ـ فتحية محمود، ١٩٣٨/٢/١٢ م) ـ (أعيط لك: أبوالسعود الإبيارى ـ فتحية محمود، ١٩٣٨/٢/١٢م) و(آخر الشهر: أمين صدقى ـ حسين المليجى ونعمات المليجى، ١٩٣٨/٢/١٢م)، لم تكن الأعمال الإذاعية الأولى لمحمود الشريف كلها مونولوجات فكاهية، ولكنها تضمنت أيضاً أول أغانيه الوطنية، ونعنى بذلك أغنية «الوطن» التى كتبها أبوالسعود الإبيارى وتغنت بها علية فوزى من أستوديو الإذاعة بالإسكندرية فى العاشرة وخمس وخمسين دقيقة من صباح الأحد الموافق ١٩٣٧/٤/٢٥م.

لم تحقق أى من الأعمال الأولى لمحمود الشريف الشهرة لاسمه، سواء تلك التى أذيعت عبر ميكروفون الإذاعة أو غيرها من أعماله لفرقة بديعة مصابنى، ولكن الشهرة جاءته عندما استمع من الشاعر الغنائى محمد عثمان خليفة الشهير بابن الليل إلى المذهب والمقطع الأول من طقطوقة جديدة، كان نص المذهب والمقطع الأول كما يلى:

بتسألينى بحبك ليه
سؤال غريب ما أجاويش عليه
الدنيا ليل ساكن هادى
وأنا غريب فى الدنيا دى
وأنت القمر نورك بادى
لقيت فى ضيك إرشادى
إلى طريق الأمل
إلى الأمانى
نورك يابدر اكتمل
فى الليل هدانى
بتسألنى بحبك ليه
سؤال غريب ما أجاويش عليه

أعجب محمود الشريف بكلمات ابن الليل وقرر أن يلحنها، اتخذ محمود الشريف صيغة التحميلة لوضع مقدمة قصيرة للحنه لهذه الطقطوقة، والتحميلة فى الموسيقى العربية هى لحن موزون بالإيقاع تؤديه الآلات مجتمعة ويتخلل أجزاءها ارتجالات لحنية من كل آلة على حدة، قسم الشريف المقطع الأول من الطقطوقة إلى جزءين، تكون الجزء الأول منهما من البيتين التاليين: (الدنيا ليل ساكن هادى / وأنا غريب فى الدنيا دى ـ وانت القمر نورك بادى / لقيت فى ضيك إرشادى)، وقد أعطى الشريف ذلك المقطع لحناً من مقام البياتى، ثم لحن الجزء الثانى والذى يتضمن البيتين المتبقيين من المقطع الأول وهما: (إلى طريق الأمل / إلى الأمانى ـ نورك يابدر اكتمل / فى الليل هدانى) من مقام الراست الشجى، وكرر الأمر نفسه مع الجزء الثانى من الطقطوقة، لقد جدد محمود الشريف فى قالب الطقطوقة عندما ابتكر التقسيم السابق، لكنه فى نفس الوقت أعطى للأغنية لحناً أصولياً فائق الجمال.



يضم تراث الغناء المصرى عدداً كبيراً من المونولوجات الفكاهية التى لحنها محمود الشريف وتغنى بها محمود شكوكو على امتداد سنوات كثيرة

ثنائية الملحن / المطرب

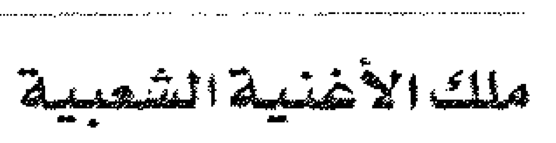
لم يكن محمود الشريف ليقنع بما تحقق لشق الملحن فى شخصيته الفنية من نجاح، وبينما هناك شق المطرب من تلك الشخصية لم يستمع إليه جمهور الغناء الكبير بالإذاعة بعد، لذا... يمكن القول بأنه وطبقاً للنظام المعتمد بالإذاعة فى ذلك العهد، قام محمود الشريف بعرض صوته أمام لجنة اختبار الأصوات الجديدة بالإذاعة، فأجازته اللجنة ليغنى فى الإذاعة بين كوكبة من أجمل الأصوات فى كل تاريخ الغناء المصرى، نذكر من أصوات الرجال فى هذه الكوكبة أسماء مثل: محمد عبدالوهاب. فريد الأطرش. صالح عبدالحى. محمد بخيت. محمد عبدالمطلب. عبدالغنى السيد. عبداللطيف عمر. محمد صادق وعباس البليدى، وجاءت الإذاعة الأولى لمحمود الشريف كمطرب فى وصلتين قدمتهما الإذاعة فى مساء الخميس ١٣/٤/١٩٣٩م، غنى محمود الشريف من ألحانه فى الوصلة الأولى التى بدأت فى السادسة والنصف أغنيتين من تأليف السيد زيادة، كانت الأغنية الأولى هى نشيد «روح الشباب»، بينما حملت الأغنية الثانية اسم «ليلة فى الصحراء»، وفى الوصلة الثانية لمحمود الشريف فى ليلة الخميس ١٣/٤/١٩٣٩م والتى بدأت قبل الثامنة بعشر دقائق وكانت مدتها عشرين دقيقة، تغنى الشريف بنشيد وأغنية من ألحانه أيضاً، كان النشيد هو نشيد «الوطن» من كلمات أبوالسعود الابيارى، وقد سبق للمطربة علية فوزى أن تغنت به فى ٢٥/٤/١٩٣٧م، بينما كانت الأغنية وهى «روحى بتنادى عليك» من تأليف السيد زيادة.

أكد محمود الشريف. وللمرة الثانية فى بدايته مع الغناء كمطرب - انحيازه الواضح للغناء الوطنى، وذلك عندما قدم بالإذاعة وفى العاشرة من مساء يوم الاثنين ٢٢/٥/١٩٣٩م أول نشيد قومى وطنى من ألحانه وغنائه، وكان مطلع ذلك النشيد الذى كتبه السيد زيادة كما يلى:

يامصر ياكل الرجاء
أنت مهد الأوفياء
اطلبى منا الفداء
واصعدى نحو السماء
وانشدى أعلى القمم

لم تحفظ الإذاعة وشركات الصوتيات شيئاً من الأعمال التى تغنى بها محمود الشريف فى بداية ومعظم مرحلة (الملحن / المطرب) من مشواره مع الغناء، تلك المرحلة التى استغرقت سنوات عقد كامل فيما بين عامى ١٩٣٩ و١٩٤٩م، وضاعت هذه الأعمال بين ما ضاع من تراث الإذاعة المصرية، ومن الغريب أن ما يسمعه جمهور الغناء حتى الآن من الغنائيات التى أداها محمود الشريف بصوته هو - وعلى الأرجح - آخر ما غنى بالإذاعة، والمعنى بذلك غنائياته الجميلة فى البرنامج الغنائى: «قسم»، وهو البرنامج الذى اشتهر بين الناس وطوال اكثر من نصف قرن من الزمان باسم «السلطانية»، وقد أذيع البرنامج لأول مرة من الإذاعة فى العاشرة من مساء السبت ٤/٦/١٩٤٩م، قدم محمود الشريف فى هذا البرنامج الذى تدور فكرته حول المثل الشعبى «اجرى يا ابن آدم جرى الوحوش... غير رزقك لم تحوش»، قدم أربعة ألحان تغنى بها جميعاً وشاركته فى بعضها أصوات مجموعة المنشدين (الكورس)، والألحان الأربعة هى: موال «إن طال عليه الليل». طقطوقة «يا خال أنا خالى». واللحنان الجماعيان «هيلا هيلا» و«الدنيا أرزاق».

تكشف الأعمال الغنائية الأربعة الباقية لمحمود الشريف فى التسجيل المتداول للبرنامج الغنائى «قسم»، أن الشريف كان يغنى بصوت مقبول محمل بشحنة من الإحساس العميق والتعبير الصادق، فضلا عن أن أداءه كان يتسم بالسلاسة والدقة، ولعل السبب فى خصائص غنائه تلك يرجع إلى كونه ملحناً، لم يكن صوت الشريف فيما يستشف من أدائه لألحان برنامج «قسم» الأربعة من الأصوات الصادحة الرخيمة كأصوات كبار المطربين، ولم يكن صوته أيضاً قادراً على التطريب بنفس قدرته على التعبير والتصرف والنابعة من شق الملحن فى شخصيته الفنية، ولم يكن صوته كذلك من الأصوات العالية ذات المساحة الكبيرة والمقامات الكثيرة، وإنما دار غناؤه لهذه الأعمال فى طبقات القرار من صوته والتى تنتمى إلى فئة الباص من التقسيم الغربى لأصوات الرجال، لذلك لم يقدم أعمالاً غنائية أخرى بصوته. فيما تم رصده من أعماله أثناء إعداد هذا المقال. وبعد ألحانه الأربعة فى البرنامج الغنائى «قسم»، ولعله أدرك بعد إذاعة ذلك البرنامج فى صيف عام ١٩٤٩م، أن صوته قد أعطى كل ما يستطيع أن يعطيه فى مجال الغناء، وأنه ليس هناك ما يمكن لذلك الصوت أن يضيفه إلى تراث الغناء المصرى والعربى فى عصره الذهبى، وهو العصر الذى قلنا ونكرر أنه امتد لنصف قرن فيما بين عشرينيات القرن العشرين وسبعينياته.



ملك الأغنية الشعبية

عندما توقف محمود الشريف عن الغناء أو كاد فى مطلع الأربعينيات، كان جانب الملحن فى شخصيته الفنية ما زال ناضراً ويختزن الكثير من الأفكار والأنغام، فانطلق ومنذ السنوات الأولى من الأربعينيات ينفث طاقاته الثرية فى ألحان ترنمت بها معظم الأصوات الجميلة التى كانت تملأ سوق الغناء شدواً وترجيعاً، وقد بلغ إنتاج الشريف فيما بين الأربعينيات ونهاية الثمانينيات من القرن الماضى المئات من الألحان التى صاغها فى القوالب الآتية: الطقطوقة - الموال - المونولوج الفكاهى - النشيد - القصيدة - البرنامج الغنائى والمقطوعة الموسيقية، ويمكن القول بأن جنس الأغنية الشعبية والتى تجىء فى القوالب الثلاثة الأولى (الطقطوقة - الموال والمونولوج الفكاهى) كان هو الغالب على إنتاج الشريف من الألحان، حيث قدم عبر مشواره مع الغناء عشرات بل مئات من الأغنيات الشعبية التى تناقلتها الألسن منذ إذاعتها الأولى واستقرت فى القلوب حتى أيامنا هذه.

اختلف أهل الغناء كثيراً حول مفهوم الأغنية الشعبية. وبالرغم من ذلك فقد أظهر الخلاف نقاط اتفاق يمكن أن تشكل تعريفاً أولياً للأغنية الشعبية، فالأغنية الشعبية - من وجهة نظر الجميع - هى أغنية تتكون من كلمات بسيطة مما يتردد على ألسنة الناس وفى قالب نظمى بسيط، وتلحن هذه الكلمات البسيطة بألحان سهلة التراكيب النغمية مما يمكن أن تردده أصوات الناس العادية ولا يتطلب أداء هذه الألحان أصواتاً مدربة أو موهوبة، لقد كان سيد درويش خير مثال على نقاط الاتفاق هذه حول الأغنية الشعبية. فقد خرج كما نعرف جميعاً من بين جماهير الشعب، ولما كان فناناً صادقاً وموهوباً بالفطرة، فإن أغنياته تميزت بكلماتها البسيطة وتراكيبها السهلة وألحانها التى تتردد على شفاه الجميع بسهولة.

اختلف إسهام الشريف بالتلحين فى فرعى الأغنية الشعبية الآخرين عن إسهامه فى الفرع الرئيسى وهو الطقطوقة، والمعنى بالفرعين الآخرين من الأغنية الشعبية هما المونولوج الفكاهى والموال، فبينما غلب قالب الطقطوقة على معظم ما قدم من أغنيات شعبية خلال مشواره مع الغناء، فإن ما قدمه من مونولوجات فكاهية يجىء تاليا فى مجال الأغنية الشعبية لما قدمه من طقاطيق، ويحل الموال ثالثاً فى ترتيب القوالب التى استخدمها الشريف فى معالجة الأغنية الشعبية. ويرجع اهتمام الشريف بتقديم المونولوجات الفكاهية إلى فترة بدايته مع الفرق المتجولة بالإسكندرية وغيرها من مدن ومسرح بديعة مصابنى بالقاهرة، حيث كانت المونولوجات الفكاهية تشكل آنذاك ركناً أساسياً فيما تقدمه الفرق المتجولة وفرقة بديعة مصابنى من غناء، ولعل السبب فى ذلك يرجع إلى كون هذا القالب الغنائى أقرب الى أذواق الغالبية من جمهور الغناء فى ذلك العهد، تلك الغالبية التى تشكلت فى تلك الفترة من العمال وصغار الموظفين والمهنيين، مما جعل رواج



هذا العبقرى.. كيف نسيناه فى زحمة الحياة وهجمة الأغانى الشبابية والفيديو كليب؟، وكيف أصبح لقب الموسيقار يطلق على كل من هب ودب



قالب المونولوج الفكاهى فى تلك الفترة عظيماً، ولنضرب مثلاً هنا بواحد من أوائل المونولوجات الانتقادية الهادفة التى قدمها محمود الشريف، ونعنى بذلك مونولوج «تصفر... تخضر... تحمر» الذى كتبه أبوالسعود الابيارى ولحنه محمود الشريف وتغنت به ثريا حلمى للمرة الأولى من الإذاعة فى الخامسة والربع من مساء الاثنين ١٠/١/١٩٤٤م، ويبدأ المونولوج بالمذهب والمقطع التاليين:

وشك أحياناً يصفر
وساعات يخضر ويحمر
علشان إيه والنبى ليه
قلبنا عندك بعد الشر
تلهف من واحد سلفية
وتماطل شهر وشهرين
فقشك يوم ومعاك نقدية
تحتار تهرب وتروح فين
إن قال لك سلامات تصفر
وأما يقول لك هات تخضر
وتشوف الوصلات تحمر
عينك ما تفتحش ف عينه
ولزومه إيه
ربح نفسك وادفع دينه
يا فلان بيـــه ولا تصفر... ولا تخضر... ولا تحمر

يعد محمود شكوكو أكثر الأصوات الغنائية تقديماً لمونولوجات محمود الشريف الفكاهية، ومن أوائل المونولوجات التى قدمها الشريف لشكوكو المجموعة التالية التى أذيعت من الإذاعة المصرية فى السابعة وعشر دقائق من مساء الاثنين ٣١/١/١٩٤٤م، كانت هذه المجموعة من المونولوجات التى تغنى بها محمود شكوكو. كما كانت تعرفه الإذاعة فى الأربعينيات - من ألحان الشريف تتضمن الآتى متبوعاً باسم مؤلفه: (الجدعنة: فتحى قورة) - (آه م القبض: خليل موافى) - (الحق على: إبراهيم جكلة) و(حدق ولبق: محمد الشاطبى)، وتتميز هذه المونولوجات بالمواقف الضاحكة وتعتمد كثيراً على المفارقات اللغوية التى تدفع المستمع اليها للضحك والإغراق فيه، ومن خلال هذا الضحك يعالج الشاعر الأفكار التى يريد أن يطرحها على مستمعى المونولوج.

يضم تراث الغناء المصرى عدداً كبيراً من المونولوجات الفكاهية التى لحنها محمود الشريف وتغنى بها محمود شكوكو على امتداد سنوات كثيرة بعد المونولوجات الأربعة المشار إليها هنا قبلاً، ومن هذه المونولوجات نذكر الآتى: «ياسلام يا خوها» من تأليف أحمد فهمى وجاء بفيلم «تاكسى حنطور» الذى عرض لأول مرة فى ٣/٩/١٩٤٥م - «الأباريق» الذى قدمته الإذاعة مع مونولوج «وراك وراك» لأول مرة فى ٢٥/٢/١٩٤٦م (المونولوجان من تأليف فتحى قورة) - «حمودة فايت يابنت الجيران» من كلمات عباس كامل وتضمنه فيلم «صاحب بالين» الذى عرض لأول مرة فى ٢٣/١٢/١٩٤٦م (اشتركت سعاد مكاوى مع شكوكو فى أداء المونولوج) - «الحارس الله» من تأليف أحمد فهمى وأذيع فى ٢٩/٦/١٩٥٥م و«جرجونى وقفلوا الأجزاخانات» الذى كتبه محمود الكمشوشى وقدمته الإذاعة لأول مرة بعد خمس وثلاثين دقيقة من الساعة الحادية عشرة فى صباح الاثنين ١١/٨/١٩٥٨م، لقد حقق كثيراً مما لحنه الشريف لشكوكو من مونولوجات نجاحاً ساحقاً لم يتوفر ولو جزء منه لأغنيات جميلة تغنت بها أكبر الأصوات الغنائية، ولعل البعض من كبار السن ما زال يذكر ترديد المصريين وراء شكوكو لمونولوجات مثل «الأباريق» و«حمودة فايت». لقد حقق هذان المونولوجان نجاحاً يفوق الوصف، حيث رددهما الجميع بمصر، وتغنى بهما محمود شكوكو فى حفلاته ولسنوات طوال.

الغناء للوطن

أكد محمود الشريف منذ خطواته الأولى فى عالم الغناء المصرى انحيازه الواضح للغناء لمصر أو للوطن، وقدم نشيدان وطنيان بين أعماله الأولى، وعندما قامت ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢م لتسقط النظام الملكى بمصر، غير أهل الغناء معتقداتهم بين يوم وليلة، فالأغانى التى كانت تضاف فى كل عام إلى رصيد مكتبة الإذاعة من خلال احتفالات المناسبات الملكية، تحولت ببساطة إلى أغان ثورية عندما تم استبدال اسم الملك بالحركة (وهو الاسم الأول للثورة)، وقد شارك محمود الشريف فى مجموعة الأغنيات التى أطلقها أهل الغناء بعد أيام قليلة من نجاح الثورة للترحيب بالنظام الجديد وإدانة النظام السابق، جاء مضمون أغنيات الشريف الأولى بعد نجاح ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢م مقارباً فى مجمله لمضمون أغلب الأغنيات التى قدمت فى نفس الفترة، ومن بواكير الأعمال الغنائية التى لحنها محمود الشريف بعد نجاح الثورة نذكر المجموعة التالية موضحاً بها أسماء الشعراء والأصوات الغنائية وتاريخ الإذاعة الأولى: (مونولوج «قف من أنت»: أبوالسعود الإبيارى - ثريا حلمى، ٢٧/٩/٢٠٠٥م) - (يا ابن مصر: الصول محمود جاد - محمد عبدالمطلب، ٢٨/٩/١٩٥٢م) - (جيش الكرامة: عبدالفتاح مصطفى - محمد عبدالمطلب، ٢/١٠/١٩٥٢م) و(قولوا بإذن الله: إبراهيم رجب - عباس البليدى، ٧/١٠/١٩٥٢م).

قدم محمود الشريف خلال السنوات الثلاث الأولى من عمر الثورة مجموعة صغيرة من الأغنيات الوطنية، نذكر من هذه المجموعة الآتى: «إلى وطنى» التى كانت من نظم الدكتور مختار الوكيل وغناء فايدة كامل - «ودينا على أسوان» التى كتبها على زهران وانطلق بها صوت محمد قنديل ونشيد «ارفع راسك» الذى أنشده سيد إسماعيل وكانت كلماته لمأمون الشناوى، إن أغنيات كهذه وربما غيرها لم تترك أثراً فى سجلات الغناء الوطنى وانمحت من ذاكرة الناس، ولكن الشريف قدم أيضاً أغنيات وطنية أخرى تعد بمثابة معالم لتاريخ وتطور الأغنية الوطنية المصرية، ومن هذه الأغنيات ما قدمته الإذاعة لأول مرة قبل عشر دقائق من منتصف ليل الاثنين الموافق ٢١/١١/١٩٥٥ م، ليلتها قدمت الإذاعة - وللمرة الأولى - رائعة الشريف (وطنى)، كانت هذه الرائعة من تأليف أحمد مخيمر وشدت بها نجاة الصغيرة مع عبدالرءوف اسماعيل، وفيما يلى نقدم الأبيات التالية التى تشكل المقطع الأول من هذه الأغنية التى تزداد بهاء مع كر الأيام:

وطنى وصباى وأحلامى
وطنى وهواى وأيامــى
ورضـا أمــــــــــــى
وحـنـان أبـــــــــى
وخـطـى ولــــــــدى
عـنـد الـلـعـــــب
يخطو برجاء بسام
وطنى وصباى وأحلامى

مثلت قصيدة «وطنى» للرباعى (مخيمر - الشريف - نجاة وعبدالرءوف) نهجاً جديداً فى صياغة الأغنية الوطنية، حيث تخلص الشاعر ومن بعده الملحن ومن ثم المؤديان من المباشرة والصياح السائدين فى وطنيات هذه الفترة، لذلك جاءت المعانى جديدة والصوت رائقاً وواثقاً، لقد اعتقد الناس عندما ذاعت تلك الأغنية أن صوت عبدالرؤوف اسماعيل هو صوت المطرب الصاعد إلى آفاق الشهرة أيامها: عبدالحليم حافظ، وظل هذا الاعتقاد مسيطراً على البعض حتى فى عقد الستينيات، وذلك للتشابه الكبير والواضح بين صوتى المطربين، ومن أغنيات الشريف التى تعد من علامات تطور الأغنية الوطنية المصرية نذكر أيضاً أغنيته الرائعة «يا حمام البر»، تلك الأغنية التى قدمتها الإذاعة المصرية ولأول مرة مساء يوم الاثنين الموافق ١٨/٦/١٩٥٢م، جاءت الأغنية بين مجموعة من الأغنيات أطلقتها الإذاعة ابتهاجاً برحيل آخر جنود الاحتلال البريطانى لمصر فى يوم الأربعاء الموافق ١٣/٦/١٩٥٦م.

كانت صياغة صلاح جاهين العبقرية لهذه الأغنية باستخدام بعض المأثورات



لم يجد الشريف فى حياته درويشاً واحدا ينصفه من أولئك الذين أحلوا السرقات الفنية لغيره أو هللوا لاستعلاء الصغار



الشعبية والوطنية. هى كل ما يحتاجه محمود الشريف ليضع لهذه الأغنية واحداً من أجمل وأعذب الألحان الغنائية (الميلودية) فى تاريخ الغناء المصرى كله، ولينطلق بذلك اللحن البالغ العذوبة والشجن صوت المطربة أحلام الذى جمع فى نبراته بين العاطفية والشعبية. مما جعلها وبحق أجمل أغنيات تلك المرحلة من نضال الشعب المصرى.

لم تهنأ مصر بجلاء الاحتلال البريطانى أكثر من أربعة أشهر ونصف الشهر، حتى هاجمت قوات العدوان الثلاثى الأراضى المصرية فى يوم الاثنين التاسع والعشرين من شهر أكتوبر عام ١٩٥٦م. فسطرت الأغنية الوطنية المصرية واحداً من أمجد فصول تاريخها عندما تصدت لمقاومة العدوان، وبالطبع لم يتخلف محمود الشريف عن الإسهام فى تسطير هذا الفصل، حيث قدم على وقع دوى غارات طائرات العدوان على القاهرة أحد أهم أناشيد المرحلة والغناء الوطنى المصرى فى كل عصوره، والمعنى بذلك هو نشيد «الله أكبر».

اختار محمود الشريف إيقاع المارش لنشيد «الله أكبر»، وجعل لحن النشيد الغنائى من مقام عجم مع تلوين درجة المقام وكذلك التلوين الكروماتيكى، لقد استغرق انتاج هذا النشيد يوماً واحداً انقضى فى تأليفه وتلحينه وتوزيعه - الذى قام به عطية شرارة - وتحفيظه لمجموعة أصوات الرجال بالإذاعة وتسجيله فى النهاية، وبالرغم من ذلك حقق النشيد نجاحاً امتد حتى أيامنا هذه، تمثلت أول مظاهر هذا النجاح فى إقبال الجماهير عليه منذ إذاعته الأولى، وجاء ثانى هذه المظاهر يوم أن فاز هذا النشيد بالمركز الأول فى استفتاء أجرته مجلة «الإذاعة» مطلع عام ١٩٥٧م، ويتبقى ثالث هذه المظاهر وأهمها على الإطلاق فى استمرار بقائه بأسماع الناس، وذلك عندما اختارته دولة ليبيا الشقيقة سلاماً وطنياً لها منذ عام ١٩٦٩م وحتى الآن.

واكبت أغنيات محمود الشريف الوطنية جميع المناسبات الوطنية التى كانت بمثابة السمة المميزة لمصر الخمسينيات، ومن هذه المناسبات نذكر كلاً من الوحدة بين مصر وسوريا وبناء السد العالى وتسليح الجيش المصرى، لقد سجلت تلك الأغنيات التى لحنها محمود الشريف وتغنت بها أصوات كثيرة كفاح وآمال المصريين خلال حقبة من أهم وأحرج حقب تاريخ مصر الحديث، وأفصحت هذه الأغنيات فى نفس الوقت عن مفهوم الأغنية الوطنية عند محمود الشريف، فإذا به مفهوم يحتوى هموم الوطن والمواطن ويسخر مواهب المشاركين فى إنتاج الأغنية للتغنى بتاريخ الوطن ونضال الشعب.

تكريم ورحيل

إن الدارس للغناء المصرى فى عصره الذهبى لا يجد ملحناً أنتج قدر ما أنتج محمود الشريف من أغنيات شعبية ووطنية، وكأن رسالة الرجل فى الحياة كانت هى «الغناء للشعب والوطن»، لقد كان محمود الشريف صاحب موهبة متفردة بين مواهب عدة تميز بها ذلك العصر، ومما يعلى من قيمة هذه الموهبة أن الرجل لم يضعف - ولو لمرة واحدة - أمام إغراءات الاقتباس أو الأخذ من الغرب، كانت إبداعاته جميعاً - وأن تسربل بعضها بأستار التوزيع الموسيقى - محلية قحة تعبر عن البسطاء من الناس، ولنأخذ هنا مثالاً واحداً لفكرة محلية واحدة أعطت لواحد من ألحانه ملامح عبقرية لا مرية فيها، فعندما أراد محمود الشريف أن يعبر فى رائعته «يا حمام البر» عن صوت الحمام ومرحه الذى يعرفه كل فلاح مصرى، فإنه أعطى دوراً منفرداً (صولو) لآلة القانون فى الفواصل الموسيقية بين مقاطع الأغنية، حيث حاكى العازف لهذا الدور المنفرد على آلة القانون صوت هديل الحمام!، إن أمثال هذه الفكرة فى أعمال محمود الشريف أكثر من أن تعد أو تحصى، ولقد تعددت القوالب الموسيقية التى أفرغ فيها محمود الشريف أعماله، وبالرغم من ذلك ظل المسرح الغنائى هو حلم مشواره الطويل مع الغناء، وهو ما عبر عنه فى عشرات البرامج الغنائية الإذاعية والمسرحية التى اشتهرت بين الناس وواظب الشريف على تقديمها. ومن هذه البرامج ما تحدثت عنه صحيفة الأهرام فى الصفحة العاشرة من عددها الصادر فى يوم الاثنين الموافق ١٩٦٠/٧/٤ م. حيث أوردت الصحيفة فى تلك الصفحة خبراً عن أوبريت غنائى يدعى «ثورة بلدنا» يجرى الإعداد لتقديمه فى عيد الثورة الثامن (١٩٦٠/٧/٢٣م)، وقالت الصحيفة فى ثنايا الخبر أن خمسة ملحنين يعكفون على تلحين الصور الغنائية للأوبريت وهم: عبدالحليم على - محمود الشريف - سيد مصطفى - حسين جنيد وسيد اسماعيل، إن أحداً يتأمل أعمال محمود الشريف أو يحللها، لن يخرج من ذلك سوى بانطباع واحد عن غلبة الأصالة على كل ما أنتج من غناء وموسيقى.



لكل ذلك ولأسباب كثيرة يضيق المجال بذكرها، تعددت أشكال التكريم الذى لقيه محمود الشريف عبر مشواره مع الغناء، فمن هذه الأشكال عضويته لكثير من اللجان والهيئات المهتمة بالموسيقى، ومن ذلك عضويته فى كل من: لجنة الموسيقى بالاتحاد الاشتراكى العربى - لجنة معهد الموسيقى العربية - جمعية المؤلفين والملحنين بباريس والقاهرة، بالإضافة لانتخابه وكيلاً لنقابة الموسيقيين لسنوات طوال، ومن أشكال التكريم الذى لقيه محمود الشريف ما أهدى إليه من أوسمة وميداليات وشهادات مثل: وسام العلوم والفنون المصرى من الطبقة الأولى - وسام الاستحقاق السورى - وسام الكوكب الأردنى - ميدالية السد العالى - ميدالية الجلاء - ميدالية معركة بورسعيد - شهادات تقدير من الكلية الحربية والكلية الجوية - شهادة تقدير من الإذاعة فى الاحتفال بيوبيلها الذهبى «١٩٨٤»، وشهادة تقدير فى يوبيل التليفزيون الفضى «١٩٨٥»، وقد نال محمود الشريف جائزة الجدارة فى الفنون لعام ١٩٧٨م. بينما تأخرت عنه جائزة الدولة التقديرية - كالعهد بها - حتى جاءته فى عام ١٩٩٠ م. كانت الأمراض قد أقعدت محمود الشريف فى تلك الأيام من صيف عام ١٩٩٠م عندما أدركته الجائزة. حتى أنه لم يستطع الخروج من بيته لاستلام الجائزة التى تأخرت عنه كثيراً، فذهبت ابنته الوحيدة السيدة إكرام لتلقى الجائزة نيابة عن الفارس الذى أقعده المرض، وفى يوم الأحد الموافق ١٩٩٠/٧/٢٩ م لقى محمود الشريف وجه ربه فى شقته الكائنة بإحدى البنايات القريبة من قصر عابدين، وهى الشقة التى استقر بها قبل سنوات طويلة ولم يستبدلها بشقة أكبر أو بعمارة يبنيها. مات محمود الشريف فى شقته المؤجرة بين ذراعى وحيدته إكرام، وليدفن بعد ذلك بمسقط رأسه: مدينة الإسكندرية وطبقاً لوصيته.

لم يجد محمود الشريف فى حياته درويشاً واحداً من أولئك الذين أحلوا السرقات الفنية لغيره أو من الذين هللوا لاستعلاء الصغار، لم يجد الرجل واحداً من هؤلاء ينصفه ويكتب عنه ولو سطراً واحداً فى حياته، ولعل السبب فى ذلك هو ما فرضه الرجل على حياته الخاصة من عزلة، بالإضافة إلى ما أثر عنه من صراحة وحدة، وإنما اندفع الجميع ليكتبوا عنه بعد رحيله ممتلئاً بالغصة من تأخر التكريم ونكران الجميع. وهى كتابات تأتى وليدة الحدث وتعبر عن انفعالات وقتية، وعندما تنقشع سحابة الحزن التى يخلفها الرحيل، يجد المرء أن شيئاً حقيقياً لم يصنع لتكريم من رحل، والمقال الحالى إن هو إلا مقتطفات من بعض فصول كتاب يجرى إعداده الآن عن محمود الشريف، كتاب نرجو أن يفى الرجل بعض حقه الذى ندين له به جميعاً. ■

صحراء الرهبنة

مينا بديع عبدالملك

كيليا ثانى أقدم تجمع رهبانى فى العالم. وقد بنيت كنائسها باستخدام الطوب الرملى. وأكثر مبانيها قدماً يعود للقرنين الرابع والخامس الميلاديين



رسم للصليب به عدد من الزخارف

تعد منطقة كيليا[*] (أو القلالى) هي ثاني أقدم تجمع رهباني فى العالم. وقد أقامها الأب آمون عام ٣٣٥ ميلاديا أي بعد عشر سنوات من تأسيسه منطقة نتريا للرهبنة. وتقع كيليا في منتصف المسافة بين مدينتي دمنهور والسادات.

كان الغرض من تأسيس منطقة كيليا توفير مكان إضافى للرهبان الذين تزايد عددهم في منطقة نتريا وضاق بهم المكان بحيث أصبح غير مناسب للصلاة والوحدة الانفرادية، بالإضافة إلى إيجاد موقع للتوقف بين نتريا وصحراء الأسقيط الموحشة (وادي النطرون حاليا. والذي يعد ثالث أقدم تجمع رهباني في العالم بعد كيليا).

هذه المنطقة التي ازدهرت منذ القرن الرابع الميلادي وحتى السابع الميلادي عانت من هجوم الزراعات العشوائية عليها والتي قضت على كثير من الآثار المتبقية فيها، وجاء ذكرها في كتابات المؤرخين والرحالة مثل: يوحنا كاسيان، روفينوس، بلاديوس، ساويرس بن المقفع مؤلف كتاب تاريخ البطاركة، وكتابات اليعقوبى في القرن التاسع الميلادي، والرحالة العربي البكري في القرن الحادي عشر الميلادي والتي ذكرها كمكان مهجور.

فى عام ١٩٣٢ قام عالم الآثار الايطالي بريشيا Bereccia برسم خريطة للمنطقة، ثم دى كوسون De Cosson عام ١٩٣٧ الذي نبه إلى أهمية منطقة «قصور الربيعات» بكيليا. لكن الموضوع لم يأخذ شكلا جديا إلا في عام ١٩٦٤ على أيدي أعضاء بعثة المعهد الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة وبعثة جامعة جنيف بسويسرا حيث اكتشفوا وحددوا المكان وقاموا بالحفائر في أكوام مختلفة من الآثار وتم ترقيم كل كوم منها، كما تم تحديد حوالي



لكل قلاية رغم بساطتها، حجرة للصلاة وأيضا لكي يمارس فيها الراهب قوانينه التي تشمل الواجبات التي ينبغي عليه أن يؤديها يوميا. وتشتمل بعض الوحدات على مبان ضخمة مثل أبراج المأوى (الحصون) والكنائس

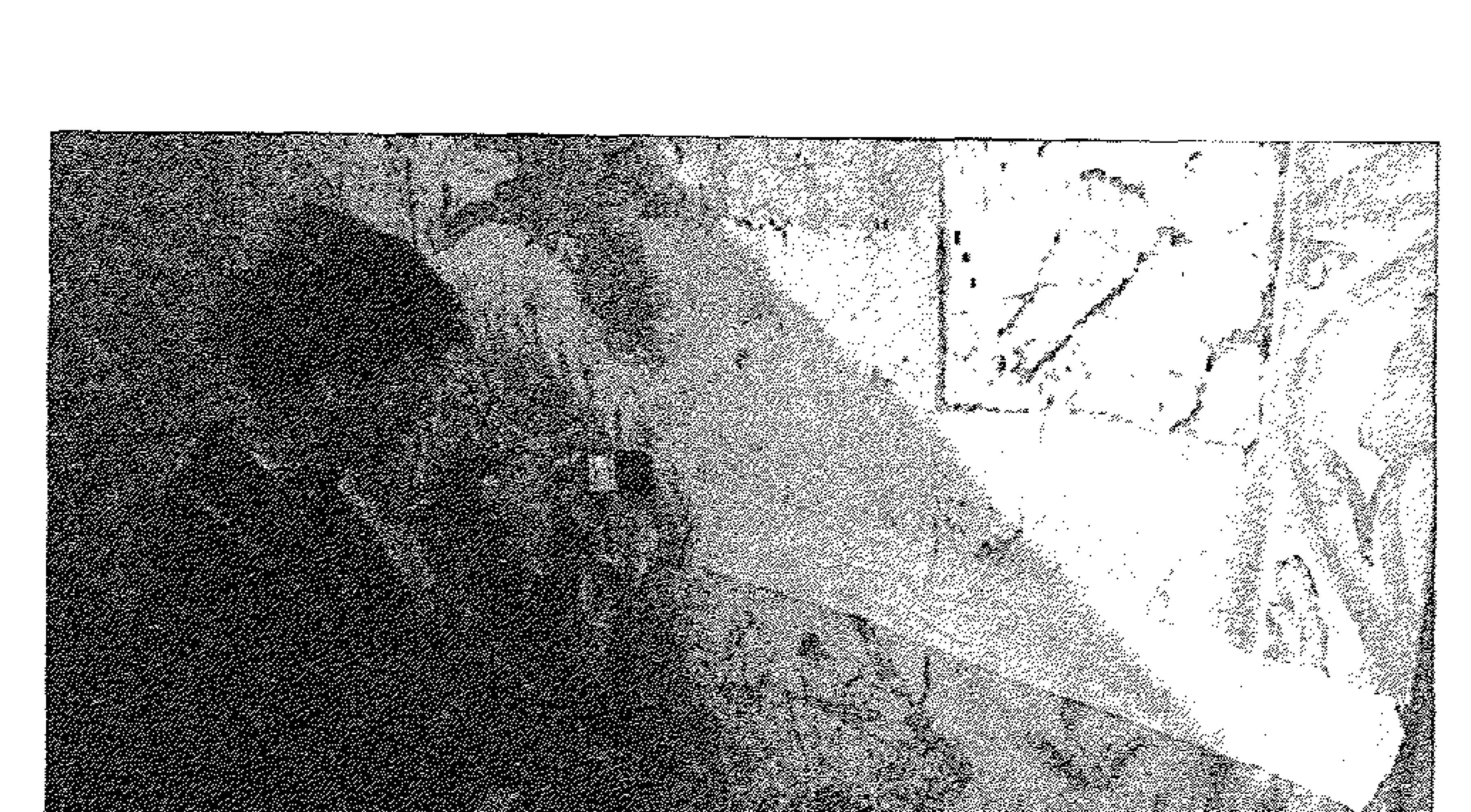


١٥٠٠ كوم أثري للنساك في مساحة ستة عشر كيلومترا مربعا.

قلاية لكل راهب

كان موقع كيليا - مع بداية نشأته - يغطي مساحة أكثر من مائة كيلومتر مربع، ويشتمل على خمسة مجمعات من المباني تسمى قصورا وهي: قصور الربيعات، قصور العزيلة، قصور عيسى، قصور الحجيلة، قصور العريمة. هذه المجمعات الكثيفة تفصلها أحيانا مسافة تقل عن عشرين مترا، مما يوحي للنظرة الأولى أنها مدن أو قرى أقيمت بطريقة عشوائية لم يخطط لتطورها. إلا أن حقيقتها قد تكشفت عند التنقيب في أحد هذه المجمعات الرهبانية. فقد وجد أن كل مبنى عبارة عن وحدة متكاملة قائمة بذاتها. فهي تحتوي على بئر وحديقة داخلية ومكان للصلاة وكذلك مكان للتخزين. والمباني الوحيدة ذات الطابع الاجتماعي هي بيوت الصلاة التي يتراوح عددها بين الواحد والثلاثة لكل تجمع، وتمثل جزءا مكملا للتجمع. روعي في انتشار التجمع الحفاظ على النظام الأساسي للقلاية، بالرغم من أن بعض المساكن كانت مترامية الأطراف ككهوف مظلمة تحت الأرض التي كان يأوي إليها رهبان مصر الأوائل.







أعضاء من البعثة السويسرية يعملون بالمنطقة

وقد بنيت قلالي وكنائس كيليا باستخدام الطوب الرملي المصنوع من الرمال المجاورة والذى يعتمد تماسكه على درجة تركيز الأملاح المعدنية الموجودة به، كما غطيت الحوائط الخارجية بطبقة من الملاط تقيها من هطول مطر الشتاء المتكرر. أما حوائط الحجرات فقد غطتها طبقة من الملاط الخشن وزينت ببعض الرسومات. واستخدمت طريقة البناء هذه أيضا في المباني الكبيرة ذات العقود نظرا لندرة الحصول في مصر على الخشب اللازم لإقامتها.

أكثر المباني قدما من القرنين الرابع والخامس طمرت تحت الرمال، وحجراتها من الحجم المتوسط تصلها بعضها ببعض مجموعة من الممرات الضيقة. ومن المعتقد أن الرهبان قد قاموا بأنفسهم ببناء القلالي الأولى. وكانت زخارفها بدائية لا تتعدى بضعة أشكال على سطح الجدران، تمثل في معظمها رسم الصليب، الذي يعد الرسم المشترك في أنحاء مباني منطقة كيليا. كانت هذه القلالي القديمة يسكنها راهب واحد فقط لديه رغبة صادقة في حياة الوحدة. هذه القلالي قليلة العدد، وبقاياها القليلة صمدت عبر الزمن.

بحلول القرن السادس أصبح بناء التجمعات أكثر مشقة، كما أن اتساع الحجرات يدل على رغبة شاغليها في درجة أكبر من الراحة. وعلى هذا أصبحت طرق البناء أكثر تعقيدا مما تطلب إسناد العمل إلى حرفيين حقيقيين، من معماريين ونجارين ونقاشين، وبذلك أصبح المجمع التقليدي مستطيل الشكل تحيطه جدران سميكة ترتفع عدة أمتار تعزله عن العالم الخارجي وتحميه من العواصف الرملية. وتبلغ مساحة المباني ٢٥ - ٣٥ مترا، ويحتل فناؤها الجزء الأكبر منها. وتوجد في الفناء تجهيزات متعددة كالبئر المحاطة بقنوات عديدة مصنوعة من الطوب المحروق والتي توزع الماء على الحديقة الداخلية وتمتد أحيانا إلى حديقة خارجية. وتشغل حجرة المعيشة الركن الشمالي الغربي والتي تعتبر قلب المبنى حيث تشتمل على وحدة أو أكثر تتكون كل منها من حجرات عديدة يمكن الوصول إليها عن طريق باب في الفناء. وهكذا أصبح لكل راهب في هذا المجمع قلايته الخاصة التي يمكن اللجوء إليها للاعتزال عن بقية الرهبان.

وتحيط القلالي بالكنيسة التي تعتبر أهم المباني، والتي يسمح في بعض الأحيان للزائرين بدخولها بعد أن يمر الزائر بعدد من الحواجز التي يشرف عليها كبير رهبان التجمع الرهباني - يطلق عليه اسم «ربيتة الدير» - ومنها البوابة الخارجية التي تغلق من الداخل. ومن خلال مجموعة من الأبواب يمكن أن يصل الزائر إلى الرواق المزين بالزخارف المتنوعة، ومنه ينزل إلى ممر مزود بباب ذي ضلفتين يؤدي في النهاية إلى الكنيسة، وذلك إذا كان قد سمح له أصلا بالزيارة، إذ إنه من المعتاد في خلال فترة الأصوام تغلق الأديرة أبوابها حتى يتفرغ الآباء الرهبان للعبادة وعدم الانشغال بزيارات وأحاديث الزوار وأخبار العالم المتنوعة.

لكل قلاية رغم بساطتها، حجرة للصلاة وأيضا لكي يمارس فيها الراهب قوانينه التي تشمل الواجبات التي ينبغي عليه أن يؤديها يوميا. وتشتمل بعض الوحدات على مبان ضخمة مثل أبراج المأوى (الحصون) والكنائس. ولم يظهر الحصن المربع الشكل ذو الجدران السميكة في كيليا حتى القرن السابع. وقد يرتفع الحصن إلى سبعة أو ثمانية أمتار، وملحق به كوبري متحرك مرتفع عن الأرض بحيث يمكن الوصول إليه عن طريق سلم في الفناء. ومن الواضح أن الغرض من بناء الحصون هو الالتجاء



إليها درءا للأخطار التي تمثلها هجمات بدو الصحراء بغرض السرقات.

عانت منطقة كيليا من نقص الأخشاب والطوب المحروق والملاط أو الجير وتم استخدام الطوب المحروق في تدعيم أماكن حفظ المياه وغيرها من الأماكن المعرضة للماء. وجاء على لسان أحد رهبان منطقة كيليا، وهو الأب بيمن Pimen ، ذكر للأخشاب حينما قال: (لم نتعلم أن نغلق الأبواب الخشبية وإنما بالأحرى فمنا).

عالم من الفخار

استخدم الصانع في منطقة القلالي كثيرا من الأوعية الفخارية داخل الجدران. ويرجح الباحثون أن استخدام هذه الأواني ربما لتقليل الرطوبة في تلك المنطقة أي لعزل المبنى عن الخارج. وهنا تكشف الباحثة السويسرية ماري-ايزابيل كاتن Marie-Isabelle Cattin النقاب عن فخار منطقة كيليا. فقد عوض الفخار النقص الشديد في المعادن والأخشاب. فهو يمثل نحو ٩٨٪ من مجموع متاع الرهبان في ذلك التجمع، وكانت قد جرت العادة في منطقة كيليا أن يتخلص الرهبان من الفخار القديم أو المكسور في مكان مخصص لذلك مما أدى إلى تراكم أنواع من الفخار فوق بعضها كل منها يمثل عصرا أو فترة من الزمن مما يمكن العلماء من دراستها.

ومن الاستخدامات التي شاعت للسيراميك من هذا الفخار استخدامه في أرضية المطبخ بما يشبه السيراميك الحديث. كذلك تم تصنيع جميع أدوات المطبخ من هذا الفخار مثل أوعية الطهي أو أوعية ذات أغطية لحفظ الطعام. وأوعية تخزين الماء والأطباق والأقداح والمغارف، والأوعية ذات المسامية العالية لحفظ الحبوب. وبعض الأدوات الكنسية مثل قارورة زيت الميرون (أو الزيت المقدس) وعلبة البخور. كما شهدت مباني كيليا تجهيزات متقدمة من الصرف الصحي باستخدام مواسير من الفخار مكونة من قدور طويلة بدون قاع داخل بعضها البعض تسير عبر الحوائط لطرد مياه الصرف خارج المباني للتهوية وتلطيف الجو، وقد بلغ فهم قاطني منطقة كيليا لطبيعة البيئة أن استخدموا كسر الفخار في تكسية الجزء السفلي من حوائط المباني لمقاومة عوامل التعرية وخاصة في حالة هطول الأمطار الشديدة.

كنائس المحبة

لم يتبق من كنائس منطقة كيليا إلا القليل جدا، فمن بين ١٥٠٠ مبنى في كيليا لم تتمكن البعثة السويسرية من التعرف إلا على عشرة منها فقط. وقد أقيمت الكنائس دائما داخل أسوار المجمعات القديمة، وجرت العادة على أن يقتصر استخدامها مرة واحدة في الأسبوع من ليلة السبت وحتى فجر الأحد لأداء صلوات القداس الإلهي لجميع الرهبان من قاطني منطقة كيليا. وكانت الكنائس تتميز ببساطة تخطيطها البدائي، فهي تتكون من صحن كبير ذي عقود، مقسم إلى جناحين أو ثلاثة، تمتد في اتجاه الشرق لتصل إلى الهيكل الذي يوجد على جانبيه خورسان في الناحيتين البحرية (أي الشمالية) والقبلية (أي الجنوبية).

وتتصل بالكنائس أحيانا عدة حجرات منفصلة عن بقية المجمع، ومن المرجح أنها كانت تستعمل في خدمة حاجات الكنيسة، وبالأخص في إعداد وليمة الأغابى Agapi (كلمة يونانية تعنى المحبة)، وهى الوجبة التي يشترك فيها جميع أعضاء المجمع المتواجدين في صلاة القداس الإلهي.



بازدحام المنطقة بالوافدين في النصف الثاني من القرن السابع، حدثت طفرة في البناء في معظم مناطق كيليا، فتم تجديد وتوسيع التجمعات القديمة. فبلغ اتساع الحجرات إلى المدى الذي يسمح به البناء بالطوب الرملي، وبلغ اتساع عقود صالاتها إلى أكثر من ثمانية أمتار، وغطيت جميعها بطبقة من الملاط.

وبحلول القرن الثامن الميلادي، لم يتبق من مباني كيليا سوى مبان قليلة يسكنها رهبان مسنون يقدمون خدماتهم للحجاج المسلمين المارين بهذا الطريق. وفيما بعد استخدمها البدو للاحتماء بها من تقلبات الجو إلى أن طمرتها الرمال وظلت المنطقة في صمت وسكون طوال اثنى عشر قرنا من الزمان !! حتى تم اكتشافها على أيدي أعضاء البعثتين الأثريتين السويسرية والفرنسية في عام ١٩٦٤.

مهارة الفنان القبطي

على جداريات قلالي الرهبان بمنطقة كيليا، تسجل العديد من الرسومات المتعددة منها أشكال الصليب المختلفة وأنواع من الزخارف النباتية والطيور وصور القديسين بالإضافة إلى الرموز ذات المعنى الروحي. ونظرا لافتقار منطقة كيليا في الخامات الحجرية المتميزة مثل الرخام والحجر الجيري الجيد، لجأ الفنان إلى الرسومات والزخارف لكي يعوض هذا النقص، وبدلا من نحت أعمدة حقيقية عالية التكلفة فإنه قام برسم هذه الأعمدة بحرفية عالية جدا، بالإضافة لاستخدام تقنية حسب القوالب الجصية.

كانت أكثر الأماكن بمنطقة كيليا غنية بالزخارف والرسومات هي الكنائس وقاعات الصلاة وحنية الصلاة بقلاية الراهب؛ فقد كان الحائط الشرقي (يطلق عليها اسم الشرقية) يحمل الكثير من رسومات العهد الجديد مثل رسم السيد المسيح يحوط به الآباء الرسل وبعض الآباء من مؤسسى منطقة كيليا مثل القديس أنطونيوس أب الرهبان (الذى حدد موقعها ووضع بها الأساس الأول وهو الصليب عندما زارها بصحبة الأب آمون عام ٣٣٥ م)، والقديس آمون (مؤسس



شهدت مباني كيليا تجهيزات متقدمة من الصرف الصحي باستخدام مواسير من الفخار مكونة من قدور طويلة بدون قاع داخل بعضها البعض تسير عبر الحوائط لطرد مياه الصرف خارج المباني للتهوية وتلطيف الجو



المنطقة الرهبانية)، والقديس مكاريوس الإسكندري (الذي تولى رئاسة رهبان المنطقة).

استعمل الفنان أكاسيد المعادن في التلوين بعد أن أذابها في ماء الجير، مع ترطيب السطح المراد الرسم عليه بالماء، وكانت مجموعة الألوان المستخدمة هي الأخضر والأسود والأصفر وقليل من الأبيض والأزرق.

أما قاعات وحنيات الصلاة فقد ازدانت بصليب داخل الحنية تحيط به رسومات للأزهار ورسومات لأعمدة تحيط بهذه الحنيات على الجانبين، وهذه الزخارف على قدر بساطتها فإنها مريحة للعين وتشير إلى تخصيص المكان للصلاة. أما أشكال الصليب فهي كثيرة ومتنوعة ولها شكل يميزها عن بقية المناطق الرهبانية الأخرى في مصر، وخاصة أن بعض رسومات الصليب الملونة يحف بها على الجانبين طيور ملونة تظهر وكأنها تقف أمام الصليب بخشوع.

هذه الرسومات المختلفة الموجودة على حوائط مجمعات كيليا تمثل إضافة أساسية للتعرف على خصائص الفن القبطى الذائع الصيت فى المنسوجات والعمارة. فقد كشفت الرسومات والزخارف المتعددة، التي أظهرتها عمليات التنقيب، التي أجريت على أيدي أعضاء البعثتين السويسرية والفرنسية، النقاب عن أصل علم الأيقونات. أنواع هذه الرسومات تعود في الغالب إلى الاتجاه الديني حيث رسم الصليب في المقام الأول، إلا أن الدافع الفني كان يغلب المغزى الديني للعمل.

المجتمع الرهباني

كذلك حفلت جدران منطقة كيليا بكثير من النصوص القبطية وأيضا اليونانية، وهى في مجملها صلوات وتذكارات للرهبان المنتقلين مثل: (رقد في الرب أبونا الصالح بوهى Pohy في ١٥ من شهر بؤونة، وأبونا سرابيون Serapion فى اليوم الرابع من شهر برمودة، وأبونا أورى Ory فى ٢١ من شهر طوبة، وأبونا أبرآم Abraam من جبل الأسقيط فى ٢٠ من شهر هاتور). بالإضافة إلى نصوص أخرى بها صلوات وطلبات من أجل بعض العائلات، وفى الغالب تكون عائلات الرهبان أو من زوار منطقة كيليا.

والحقائق التي اكتشفت في كيليا ترتب عليها أمران، فمن ناحية قد أمدتنا بمادة موثقة لدراسة العامية القبطية لهذه المنطقة (اللهجة البحيرية) فيما قبل القرن التاسع الميلادي، ومن جانب آخر أمكن الاستفادة من التواريخ المدونة على النقوش في التأريخ لهذه المنطقة مما له بالغ الأهمية في فهم التطور التاريخي لها.

لقد كشفت أعمال التنقيب بمنطقة كيليا عن معلومات غزيرة منها العلاقات التي ربطت المجمع الرهباني في كيليا والمواقع الأخرى في الدلتا وكذلك عالم البحر المتوسط عامة. كما أمدتنا بصورة متكاملة عن مدن الصحراء التي سكنها رجال يسعون إلى التقرب من الله نابذين الحياة الدنيوية، للبعد عن الضغوط السياسية.

من خلال هذه الدراسات وجدنا أن الرهبنة المثالية قد تغيرت رويدا رويدا من خلال التطور المعماري وفن الزخرفة في المجمعات الرهبانية. فقد تطورت حياة البؤس والفقر للرواد الأوائل شيئا فشيئا وفتحت المجال إلى حياة التجمعات التقليدية دون المساس بالغرض الأساسي للرهبنة وهو الاعتزال عن العالم والتفرغ للعبادة والعمل اليدوي. وبذلك وضعوا حجر الأساس للحياة الاجتماعية والروحية التي تدين لها بالكثير حركة الرهبنة المسيحية. وهذا ما أهدته مصر للعالم كله. ■

هوامش

(*) كتالوج كيليا - منطقة الأديرة القبطية بالوجه البحري. إصدار جامعة جنيف بسويسرا عام ١٩٨٩ بمناسبة معرض الآثار القبطية لمنطقة القلالى بمتحف الفن والتاريخ في الفترة (١٢ أكتوبر ١٩٨٩ - ٧ يناير ١٩٩٠).
Ermitages Coptes en Basse-Les Kellia Egypte



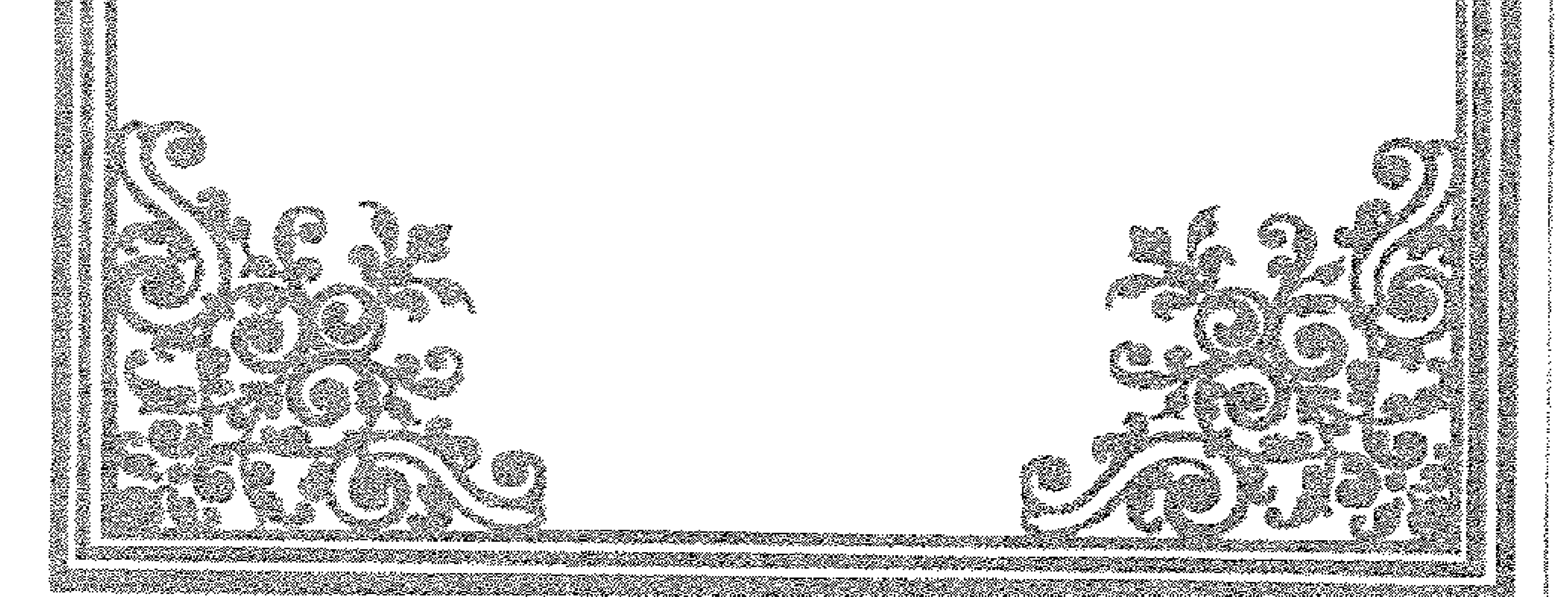
ابن العماد الأقفهسى


حائط حول النيل

وأما الحائط الممتد بالجانب الشرقى عن النيل، فذكر المسعودى: أنه لما أغرق الله فرعون ومن معه من الجنود، خشى ما بقى بأرض مصر من الذرارى والنساء والعبيد، أن يغزوهم ملوك الشام والغرب، فملكوا عليهم امرأة ذات رأى وحزم، يقال لها دلوكة. فبنت على بلاد مصر حائطًا يحيط بجميع البلدان، وجعلت عليهم المحارس والأجراس، والرجال متصلة أصواتهم بقرب بعضهم من بعض. وأثر هذا الحائط موجود إلى هذا الوقت، وهو سنة ثمانين وسبعمائة، ويعرف بحائط العجوز.

قال المسعودى: وقيل إنما بنته خوفاً على ولد لها كان كثير القنص، فخافت عليه من سباع البر والبحر، واغتيال من جاوز أرضهم من الملوك وأهل البوادى، فحوطت الحائط من التماسيح وغيرها. وقيل غير ذلك.

فملكتهم ثلاثين سنة، واتخذت بمصر البرابى والصور، وأحكمت آلات السحر وغير ذلك.





سجاد ماك لكل الأغراض .. لكل الأجيال
Starfish
دواسات حمام
متواجد في مراكز بيع بواقي ال
قطع موكيت


سجاد أطفال
ISO 9001:2000
SGS
ISO 14001
SGS
ISO 18001
SGS
دير المنتشرة في كل ارجاء مصر
شرقى
مطبوع
مشايات
دة صلى
www.maccarpet.com


Bernard Partridge

ها نحن فى واقع الأمر نكتشف شيئا فشيئا أن دولة الإسلام قد عاملت المسيحيين وشعائرهم بقدر من التسامح، مثلهم فى ذلك مثل اليهود



■■ ما بين نداء البابا أوربان الثانى لشن الحملة الصليبية الأولى فى الخامس والعشرين من نوفمبر ١٠٩٥ وبين دعوة الرئيس جورج دبليو بوش لإطلاق ما وصفه بالـ «حملة الصليبية» الانتقامية على «الإرهاب الدولى» فى أعقاب هجمات الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١، يبدو الزمان وكأنه قد توقف. فالتناظرات والتوازيات التى يجوز رصدها بين «الحروب المقدسة» القروسطية ونزاعات الألفية الثالثة توحى بأن عقارب الساعة قد أصابها اختلال. لكن الزمان لم يتوقف، وساعة الدهر لم تفقد صوابها، بل الإنسانية هى التى تمشى القهقرى، وكأنها سرطان بحر مذعور يخطو إلى الوراء على شاطئ ملتهب الرمال متلاطم الأمواج. تلك هى الدلالة الرمزية التى يبثها الروائى والأكاديمى الإيطالى أمبرتو إكو فى عنوان كتابه الجديد: «على خطو سرطان البحر القهقار. الحروب الساخنة والشعبوية الإعلامية» (A Reculons, comme une écrevisse,Guerres chaudes et populisme médiatique). فى هذا الكتاب، جمع إكو سلسلة من المقالات والدراسات التى كان قد نشرها ما بين عامى ٢٠٠٠و٢٠٠٥، فى فترة استتبع فيها اللا نظام العالمى الجديد موجة من التوترات التى وشت بحلول ردّة فى مسيرة الحضارة الإنسانية. ولعل من أبرز تجليات ذلك السعى الحثيث إلى الوراء، التى يفرد لها الكاتب حيزاً كبيرا، هو عودة الحديث الموسع عن «موسم جديد للحروب الصليبية مع تجدد الصدام بين الإسلام والغرب»، وعودة فوران الحروب الساخنة ممثلة فى حربى العراق وأفغانستان بعد نصف قرن من المسالمة المتوترة، صنيعة الحرب الباردة.

والمعروف لقارئ أمبرتو إكو أن كتاباته تدعو إلى نبذ العنف والتعصب، وتعمد إلى النقد الموضوعى لأخلاقيات الحضارة الغربية، وتسعى - كما هو خليق بكتابات أستاذ علم السيميائيات والباحث فى دروب الفلسفة وعلم الجمال- إلى تفكيك قوالب المتناقضات الجدلية الجاهزة، القائمة على التبسيط المخل من قبيل «نحن وهم»، «الطيبون والأشرار»، «البيض والسود»... وهى معلومة بدا ذكرها واجباً فى هذا الاستهلال الذى استطال، ذلك أن النصين اللذين اجتزأناهما من الكتاب يُظهران وكأن الكاتب الذى اختطهما شخص موغل فى العنصرية، مبغض كل البغض للإسلام والمسلمين. لكن الحق هو أن إكو يسعى فى المقالين إلى تقديم نوع من المسرحة الفكرية لنظريات صمويل هنتنجتون- الرائجة وقت كتابة النصين- حول صدام الحضارات، ليبين مبلغ الضرر الذى يقع على الإنسانية جمعاء من جراء استبطان تلك النظريات وتطبيقها. فكلا المقالين مزاج خيال الروائى الحر وبصيرة المفكر الممحصة. ذلك المزاج الذى يتجلى حين يتخلى الكاتب عن نسق التجريد الجاف لينطق بأفكاره من وراء قناع السخرية السوداء. فهو فى النص الأول، وتحت عنوان «الاستيلاء على القدس»، يؤدى دور مراسل صحفى يعود به الزمان ألف عام إلى الوراء، ليقدم لنا بثاً إذاعياً مباشراً من مدينة القدس عام ١٠٩٩م، مسجلاً وقائع استيلاء أجداده الصليبيين على المدينة المقدسة، وكاشفاً عن لحظة من أهم لحظات بناء الجدار العازل بين الشرق والغرب. أما النص الثانى («سيناريو حرب صليبية جديدة»)، فيجسد فيه إكو دور محامى الشيطان، الذى يؤمن بحتمية صدام الحضارات، ويتنبأ بحملة صليبية جديدة. ولكنه لا يملك سوى حث الغرب على المهادنة، إذعاناً لإملاءات عقلية برجماتية لا أخلاقية، وتحقيقاً لرؤية مادية نفعية.

ومابين وقائع ماض محقّق وترهات مستقبل معلّق، يمضى خيال كاتب المقالتين محاكياً مشية سرطان البحر القهقار، الذى أصابه ذعر وصَفار، أمام أمواج العنف المتعاظمة، على الشاطئ الغربى الذى شهد - وما فتئ يشهد - إبحار سفن فرسان الرب باتجاه ممالك جنة الشرق.

داليا توفيق سعودى



الإنسانية تتقدم إلى الوراء!

رجال التحالف الصليبي راحوا يذبحون الناس بلا شفقة؛ آه يا إلهي! هناك من يضربون رؤوس الأطفال في الحوائط حتى تتهشم...



الاستيلاء على القدس

بث مباشر(١)

■■ ١٤ يوليو، صباحا. ألو! ستوديوهاتنا، هل تسمعونني؟ هكذا! أسمعكم جيدا OK. هنا أورشليم، وإليكم بث مباشر من جبل صهيون، نحن هنا خارج الأسوار. مع أول خيوط ضوء الفجر بدأ الهجوم. من المرتقى الذي وصلت إليه بوسعي أن أشرف على شبه المربع الذي ترسمه أضلاع المدينة المسوّرة: إلى الشرق، تمتد ساحة الهيكل القديم، حيث تقع قبة الصخرة، وإلى الشمال الغربي، توجد بوابة هيرودس، وإلى الشمال الشرقي، خارج الأسوار، يتراءى بستان أشجار الزيتون، وفي الجنوب الغربي يقوم برج داود.. هنا، فضلا عما للأسوار من مهابة، تجدها تشرف من جهة المشرق على شفا جرف وادي الأرز، أما من جهة المغرب، فيتراءى من ورائها واد آخر. لذلك، لا تستطيع قوات التحالف الصليبي شن هجومها إلا من جهتي الجنوب الغربي والشمال.

الآن وقد أشرقت الشمس، بوسعي أن ألمح جليا الأبراج الخشبية العملاقة وآلات المنجنيق وقاذفات اللهب وهي تحاول اجتياز الخندق الذي يفصلها عن الأسوار. تذكرون جميعا إلى أي مدى مثلت آلات الهجوم مشكلة حرجة. فلقد كانت المدينة محاصرة منذ السابع من يونيو (حزيران)، فلما كان الثاني عشر منه، أصغت جيوشنا لمشورة عراف مشبوب الحماسة، أخذ يبشر بأن النصر بات وشيكا، فكانت محاولة الهجوم الأولى؛ لكنها ما لبثت أن تحولت إلى كارثة، إذ افتضح مبلغ افتقار الجيش الصليبي للعدة الملائمة لغرض تسلق الأسوار. ولقد كان القادة العسكريون على سابق علم بتلك النقيصة، لكن هذه الحرب تشهد تداخل اعتبارات متباينة. فالنبلاء والفرسان يعرفون أن الحرب قد تُدار أيضا بواسطة المهادنات والمعاهدات المبرمة مع العدو، وأنها - الحرب- منوطة بقدر من السكون والمسالمة. ولكن، في أذيال الجيش، ثمة حشد هائل من الحجاج والفقراء المعدمين الذين غذتهم النزعات الروحية وشفَّهم شوق إلى النهب والتخريب. هؤلاء هم أنفسهم الذين عمدوا، أثناء مرورهم بمحاذاة نهري الراين والدانوب، إلى إشاعة القتل والدمار في جيتوات اليهود. إنهم صنف من البشر جد خطر، والسيطرة عليهم من الصعوبة بمكان.

أحسب أن ذلك هو السبب الرئيس لفشل هجوم الثاني عشر من حزيران. ولذلك أيضا لم يتحرك ساكن طوال الشهر المنصرم. فلقد عم خمول تام، بعد أن قام والي القدس، «افتخار الدولة»، بتسميم الآبار الخارجية (أما المدينة فتنعم بشبكة ممتازة من صهاريج المياه)، ولم يسع الصليبيين -لاسيما أولئك المثقلين بدروعهم المعدنية- أن يتحملوا لهيب ذلك الصيف القائظ، وما استطاعوا إلا امتياح بعض المياه الآسنة، قد بلغوها بشق الأنفس. إذ لم تكن المياه العذبة موجودة إلا في الجنوب، على مقربة من أسوار العدو. وطوال تلك الفترة، كان لزاما على جيوشنا إيجاد الأخشاب والأدوات اللازمة لصنع آلات الحصار. لكن ههنا، وفي أرباض المكان، بدت التلال جرداء المحاسر، لذا استوجب جلب الأخشاب الذهاب بعيدا. أما الأدوات، فلم تصل إلى ميناء يافا إلا مع انتصاف شهر حزيران، حين أقبلت سفنٌ حربيةٌ من جنوة وأربع بارجات من إنجلترا، محملة بحبال ومسامير وبراغي وكل مستلزمات النجارة الحربية. هكذا، والآن فقط، أضحى بمقدورنا شن هجوم يأزرنا فيه عتادٌ من صنوف السلاح المتطور تقنيا.

هاأنا ألمح الآن ثلاثة أبراج عملاقة، لكل منها ثلاثة طوابق، قد تحركت متجهة صوب أسوار المدينة، وامتلأت عن آخرها برجال مدججين بالسلاح، وضمت بين مزاياها قابلية إنزال جسر متحرك فوق الحوائط. لكن بقيت مشكلة الوصول أمام الأسوار، بما يعني ضرورة اجتياز الخندق...

كم يبلغ عدد الجنود المقاتلين في صفوفنا؟ قد تبدو لكم إجابتي غير معقولة، ولكنني حقا لم أتوصل إلى تحديد عددهم. إذ يتكون التحالف الصليبي من جحافل عدة، قد قدم على رؤوسها قادةٌ عدة، جلُّهم قد انخرط في القتال طمعا في إصابة حظ من الحظوة والنفوذ، وهو ما قد يحملهم على اختلاق الأرقام وتزييف البيانات. ثم إن هناك حشود الحجاج. يتحدث البعض عن خمسين ألف نفس في المحصلة. لكنني أحسب أن ذلك تقدير فيه مبالغة. فهُم على وفق أقصى تقديراتنا اثنا عشر ألفا من المشاة مع ألف وثلاثمائة من الفرسان، أما التقدير الأدنى فيورد ذكر ألف فارس وخمسة آلاف راجل. أما المسلمون، فهم بضعة آلاف من العرب والسودانيين، فضلا عن سكان المدينة، المتأهبين جميعهم للقتال. ولقد واتت افتخار الدولة فكرة عبقرية، إذ أخرج من المدينة كل المسيحيين من أهلها، حتى لقد آل عبء إطعامهم إلى قواتنا، وهو بذلك الإجراء الحصيف لم يتخلص من أفواه عديمة الفائدة فحسب، وإنما هو أيضا قد أمن مكر أناس قد يقترفون - لو بقوا بالمدينة - بعضا من أعمال التخريب. ولقد أبقى افتخار الدولة على اليهود، ربما لقاء فدية عظيمة من المال، فلو أنه كان قد أخرجهم لكان حجاجنا قد مزقوهم إربا.

إن كثيرا منكم - مستمعينا- قد ترسخ لديهم الاعتقاد في أن تلك الحملة قد شُنت من أجل إرجاع الشعائر المسيحية إلى الأراضي المقدسة، لذا ستتعجبون من أن أناسا مسيحيين كان قد استقام لهم العيش آمنين مطمئنين في القدس، حتى أنهم قد شيدوا كنائسهم على أرضها؛ ومن جهة أخرى، تذكرون أن قوات التحالف الصليبي قد احتلت مؤخرا مدينة بيت لحم بناء على طلب الطائفة المسيحية المحلية، وهو ما يعني بالضرورة أن ثمة طائفة مسيحية كانت تحيا هنا. وها نحن في واقع الأمر نكتشف شيئا فشيئا أن دولة الإسلام قد عاملت المسيحيين وشعائرهم بقدر من التسامح، مثلهم في ذلك مثل اليهود. ها نحن إذن نُحكم الطوق على مدينة يحكمها الكفار بهدف إتاحة الفرصة أمام المسيحيين لزيارتها، فتكون العاقبة الأولى لمبادرتنا أن يتعرض للطرد من تلك المدينة قاطنوها من المسيحيين. إن ذلك ليس التناقض الأوحد الذي تنجلي عنه هذه الحرب، فهي بالنسبة للبعض تحقيق لمبدأ احتكار المسيحيين للأراضي المقدسة، وللبعض الآخر هي فرصة لتحصيل المغانم، وهناك آخرون، الله وحده أعلم بهم، يرونها أشبه بمهرجان عظيم لإراقة الدم...

وفقا لمصادري المطلعة، تثير المعركة الدائرة عند بوابة هيرودس، الواقعة جهة الشمال الغربي، قدرا أوفر من الاهتمام. لذا، سأركب بغلتي وأجتهد في بلوغ الطرف الآخر للمدينة المحاصرة. عودة مؤقتة إلى ستوديوهاتنا. آسف لقطع الإرسال.

١٤ يوليو مساء. ألو، ستوديوهاتنا، هل تسمعونني؟حسنا، أنفقت بضع ساعات للوصول إلى جوار بوابة هيرودس، فقد كان لزاما على أن أمضي متحرفا عن الأسوار نظرا لأمطار الحجارة التي كانت تنهال فوق الرؤوس بلا هوادة. كنت أمر خلال أدخنة الحرائق. يالمشهد ألسنة النار في جوف الليل! هو السحر والرهبة معا. فقذائف اللهب حيلة حربية بيزنطية يتقنها المسلمون، فجعلوا يرسلون الكرات الملتهبة مدرارا على أبراج الحصار الخشبية. حسنا، على الآن أن أبتعد، فلقد خرج إلينا جمع غفير من المسلمين الذين يبتغون حرق أسلحتنا.. ها هو أحد الأبراج قد طالته النار، فطفق جنودنا يقفزون من علٍ طلبا للنجاة، لكن سهام الأعداء سوطتهم بعنف. ها هو النصف الأعلى من البرج ينهار ناشرا حوله سحابة كثيفة من الشرر المتطايرة، لكن لحسن الحظ أن دُفن تحت الركام العسكر المسلمون الذين كانوا يتأهبون للعودة إلى داخل الأسوار، كما طالت النيران مصراعي البوابة. ولكن لماذا لا يأتي جنودنا بكل القاذفات إلى هنا؟ أحدهم أخبرني بأن بقية الآلات قد تضررت هي الأخرى من كرات اللهب. قد أضعنا إذن معركة اليوم، وعلينا أن نمضي الليل في إصلاح أسلحتنا. عودة إلى ستوديوهاتنا، على أن أقطع البث.

١٥ يوليو، صباحا.عفوا، لا أسمعكم

A Reculons, comme une écrevisse,Guerres chaudes et populisme médiatique.

(على خطو سرطان البحر القهقار. الحروب الساخنة والشعبوية الإعلامية)

تأليف: أمبرتو إكو

الترجمة الفرنسية: ميريام بوزاهر، ماريو فوسكو،بيار لاروش، ديان مينار، روبرتو نجري.

باريس، جراسيه، سبتمبر ٢٠٠٦، ٤٢٢ صفحة، ٢١ يورو.

بيانات الطبعة الإيطالية:

PASSO DI GAMBERO,Guerre calde e populismo mediatico

Umberto ECO

Milan, Bompiani, 2006.

ترجمة: داليا توفيق سعودي



الإنسانية تتقدم إلى الوراء!

فى زمن الحملات الصليبية، لم يكن المسيحيون يحتاجون إلى الحديد العربى لصنع سيوفهم، أما اليوم، فما ننتجه يقوم على النفط، وهم يملكونه



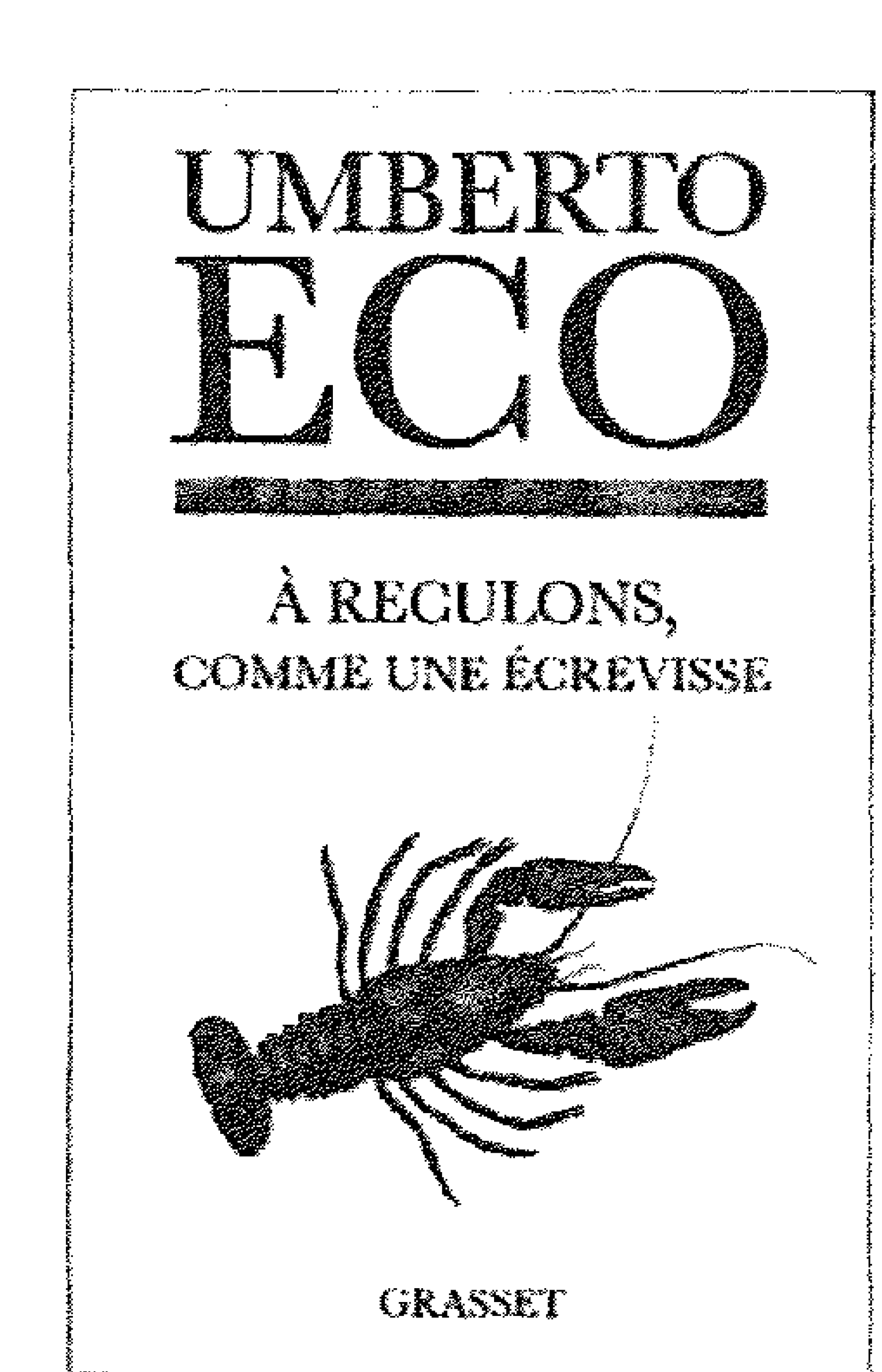
جيدا... هكذا، أسمعكم الآن. يبدو أن جيشنا قد تمكن من ترميم جزء كبير من سلاحه. ها هو يعاود الكر، وها هى أمطار الحجارة تنهال فوق الأسوار، إذ تمكنت آلات المنجنيق التى حشدناها من اجتياز الخندق... ها هى ضرباتنا ترجف تحت وطأتها القدس بأسرها...

من موقعى هذا بوسعى أن أرى بمنتهى الوضوح جودفروا دو بويون وهو يقود الهجوم الأخير من على قمة أحد الأبراج.. أخيرا، بدأت طلائع جنود الرب فى القفز فوق الأسوار. يقولون لى هنا أن هؤلاء هم عسكر ليتولد وجيلبير دو تورنى، تبعهم بعد ذلك جودفروا والآخرون، وها هم المسلمون يتقاطرون صرعى تحت ضرباتنا، ومنهم من يسقطون من فوق الأسوار لتتكسر عظامهم على الأرض. وانهارت بوابة هيرودس، كلا - عفوا- بل يبدو أنه قد تم فتحها من الداخل بأيدى الرجال الذين تسوروا الحوائط، والآن ها هم رجال قوات التحالف الصليبى يداهمون المدينة رجالا وركبانا!

علمت إن المعركة ما تزال تدور بضراوة قرب بوابة صهيون.. عفوا، إليكم آخر الأنباء، يبدو أن جنود ريمون دو صنجيل قد تمكنوا من إحداث ثغرة عند بوابة صهيون. ولقد اجتاح ريمون برج داود وأسر افتخار الدولة وحاميته، وأمنه على حياته لقاء فدية من المال، ثم ما لبث أن أرسل معه من يوصله إلى عسقلان التى ما تزال تحت إمرة السراسنة. إنه اندحار العدو! قد انتصرنا! إنها لحظة تاريخية! ويا للعجب، فالساعة الآن الثالثة بعد الظهر، وهو ما يوافق ساعة آلام المسيح!!! يا لها من مصادفة عجيبة!!! أحاول الآن الاندماج مع كتلة الجند المندفعين إلى داخل المدينة، وهو ليس بالأمر الهين، إذ أوشكت أن أقع عدة مرات تحت سنابك الخيول!.. هل تسمعوننى؟ أنا لا أسمعكم، ولكننى سأواصل الحديث...



ها أنا أيضا قد اجتزت أسوار أورشليم، ووجدتنى أتسلق جبالا لا تنتهى من جثث داكنة البشرة، رغم ما قيل عن انعدام المقاومة إثر سقوط المدينة. ووقفت أستجوب رقيبا بدا لى عائدا إلى المعسكر الصليبى، وقد غطت ملابسه الدماء، وحمل على عاتقه كميات من الخز الثمين. سألته فرد قائلا: «مقاومة؟ كلا البتة، فما إن وطئنا المدينة حتى استثفر



هؤلاء الملاعين ثيابهم وفروا، ثم لاذوا بالمسجد الأقصى لكن القائد العظيم تانكرد دو أوتفيل باغتهم قبل أن يتمكنوا من إعادة تنظيم المقاومة، فما كان منهم إلا أن استسلموا. ولقد أمر تانكرد برفع علمه فوق المسجد لكى يضعهم تحت حمايته». فسألته من أين أتت إذن كل تلك الجثث، فأجابنى: «من أين أنت أيها الرجل؟أما ترى أننا نقتحم مدينة، وأن المدينة فوق ذلك مدينة كفرة؟فما الغرابة إذن فى أن نُثخن فيهم، فنُقتّلهم أجمعين، شبابا وشيوخا، رجالا ونساء وأطفالا؟ أوليست تلك هى القاعدة؟» فعدت وسألته: «فما كان مصير أولئك الذين منحهم تانكرد حمايته؟» فأجاب الرجل بإشارة لم أفهمها ثم أضاف قائلا: «كما تعلم، للقادة أهواؤهم».

مازلت لا أفلح فى شق طريقى، وقد غشينى الآن جمع مُستَنفر من العرب من جميع الأعمار، راحوا يفرون فى كل اتجاه، ومن ورائهم جنودنا يحسونهم حسا... معذرة، إن صوتى يتهدج وأنا أصف لكم ما أشهده الآن، إذ أن رجال التحالف الصليبى راحوا يذبحون الناس بلا شفقة: آه يا إلهى! هناك من يضربون رؤوس الأطفال فى الحوائط حتى تتهشم... والأمر لا يقتصر على حملة السلاح من الجند، لكننى أرى أيضا عصابات الحجاج الذين راحوا يتكالبون على الجرحى.. لحظة واحدة!.. وصلتنى أنباء من المعبد اليهودى حيث تحصن كل يهود أورشليم. قد تم إضرام النار فيه، وهلكت كل الطائفة اليهودية فى الحريق. رأيت راهباً افرنجيا مسناً يقول متباكيا: «هم يهود سفلة لا ريب، ولكن لم نقذف بهم اليوم إلى النار ونيران الجحيم كانت بانتظارهم؟ آه! لقد صار مسيحيونا وحوشا مجنونة، فهم لا ينصاعون حتى لأوامر قادتهم».

ألو! هل تسمعوننى؟ بالتأكيد، ولا ريب أنكم تسمعون طقطقة المبانى وقد باتت فريسة تأكلها النيران، قبل أن تتهاوى فى كل مكان، وهناك أيضا صرخات البشر الذين راح جنودنا يُعملون فيهم السيف.يا إلهى، ما عدت أحتمل، فلنواصل حديثنا غدا... فإلى ستوديوهاتنا. سأقطع البث.

١٦ يوليو. ألو! ستوديوهاتنا؟ لم يبق لى إلا القليل لأذكره. فثمة أحيان يخبر المراسل فيها معنى الخزى وهو يحاول أن يؤدى عمله الصحفى... كان تانكرد قد تعهد بحفظ دماء المسلمين داخل المسجد، لكن جماعة أخرى ممن فلت زمامهم (وهم من الفلمنديين على الأرجح) لم يحترموا أوامره، فكان أن وقعت هناك أيضا مذبحة مروعة. ولقد ذهب بعض الفرسان إلى اتهام ريمون دو صنجيل بالخيانة، لكونه قد حفظ دماء افتخار الدولة ومن معه. لكأن مساً من الجنون قد أصاب الجميع ههنا، وراحت الدماء تغلى فى العروق. أتحدث الآن إلى ريمون داجيلار الذى أفاد قائلا: «فيما حول مسجد الصخرة، وصل الدم المسفوح إلى الركب. وقد استشاط تانكرد غضبا لما ثبت عليه من عجز فى الوفاء بكلمته، لكن الذنب ليس ذنبه. ولا أحسب أن تَبقَى بالقدس مسلم واحد أو يهودى على قيد الحياة». فسألته عن تقديره لعدد الضحايا ككل؟ فأشار إلى سقوط ما لا يقل عن سبعين ألف قتيل، لكننى أعتقد أنه يبالغ. فهو لا يزال واقعا تحت أثر الصدمة. وتبعا لما نمى إلى علمى من آراء، فبعد أن تم إقصاء المسيحيين من أهل المدينة، تبقى بها بضعة آلاف من العسكر وخمسون ألف مدنى. وقد سرت أخبارٌ عن تمكن بعضهم من النجاة بأنفسهم بالتسلل عبر فلجات فى الأسوار. لذا فأنا أميل إلى القول بأن مجموع من قضوا خلال اليومين الأخيرين يقدر بأربعين ألف قتيل. ولربما جاء يوم يشاع فيه إن حصيلة القتلى كانت أقل، وإنه يتعذر عمليا أن يتم تنفيذ مَقتَلة بهذا الحجم فى يومين اثنين فقط. لكن الجثث قد تناثرت من حولى على مد البصر، وانتشرت رائحة العفونة تحت أشعة الشمس حتى أضحت تزكم الأنوف.

وكان أحد الرهبان ممن تحدثت إليهم هذا الصباح قد أفاد بأن هذه المجزرة تعدل فى حقيقة الأمر هزيمة. فلو أننا أردنا إقامة مملكة مسيحية على هذه الأراضى، فالأولى أن نعول على تقبل المسلمين هناك لنا، وعلى تقبلنا نحن للممالك من حولنا. أما تلك المذبحة، فلقد خلقت شرخا عميقا من الكراهية مابين مسلميهم ومسيحيينا، شرخٌ سيستمر لسنوات، أو ربما لقرون. إذ لن يكون استيلاؤنا اليوم على القدس بمثابة نهاية للصراع، بل هو بدايةٌ لحرب طويلة جداً...

سيناريو حرب صليبية جديدة[٢]

لنتخيل مواجهةً شاملة بين العالم المسيحى والعالم الإسلامى، تتخذ صورة مجابهة صدامية على غرار ما جرى فى الماضى. ولكن، فى الماضى، كانت أوروبا محصورة داخل حدود شديدة الوضوح. فكان البحر الأبيض المتوسط يفصل بين المسيحيين والكفار، وكانت جبال البرانس تعزل ذلك الامتداد الغربى من القارة الذى كان لا يزال عربيا فى أجزاء منه. إضافة إلى ذلك، كان أن اتخذ الصدام إحدى صورتين: إما الهجوم أو الاحتواء.

ولقد تمثل الهجوم فى الحملات الصليبية. لكنا قد علمنا مآلها ومحصلتها. فالحملة الصليبية الأولى هى الوحيدة التى استتبعت فتحا حقيقيا، وحققت استقرارا للفرنجة فى الشرق الأوسط. وبعد أقل من قرن من الزمان، سقطت القدس مجددا فى أيدى المسلمين، وعلى مدار قرن ونصف القرن، وقعت سبع حملات أخرى لم تحقق أية تسوية.

أما العملية العسكرية الوحيدة التى صادفت نجاحا فلقد كانت عملية استعادة إسبانيا فيما بعد، بيد أنها لم تكن حملة تستهدف ما وراء البحار، وإنما كانت أقرب إلى نضال من أجل استعادة الوحدة القومية، نضال لم يبلغ المواجهة بين العالمين



الإنسانية تتقدم إلى الوراء!

هل نقول - مثلا - لمبارك والقذافى: «هل لكما أن تستقبلا، هؤلاء الملايين الثلاثة من الأتراك الذين نسعى لإخراجهم من ألمانيا؟»



المتصارعين، بل عمل على تغيير أرض الصراع وإزاحة حدوده. أما عن الاحتواء، فلقد تمثل فى إيقاف توغل الأتراك على مشارف فيينا، وهزيمتهم فى موقعة «ليبانت»، وتشييد الأبراج على السواحل لرصد قراصنة السراسنة، وعليه ،لم يفلح الأتراك فى حيازة أوروبا، ولكن بقى الصراع واستمرت المواجهة.

ثم كان أن قام الغرب باستعمار الشرق الذى خارت قواه. ولقد توجت هذه العملية على الصعيد العسكرى بنجاح طويل الأمد، ولكن ماذا عن نتائجها التى مازلنا نعيشها إلى اليوم؟ لم يتم حل الصراع، ولم تنته المواجهة، بل تم إذكاؤها.

واليوم، إذا ما قرنا العودة إلى المواجهة الصدامية، أى اختلاف ستشهده مجريات الأمور مقارنة بنزاعات الماضى؟ فى زمن الحروب الصليبية، لم تكن قدرة المسلمين العسكرية تختلف كثيرا عن قدرة المسيحيين، فلقد كان الطرفان على السواء يمتلكان السيوف وآلات الحصار. أما اليوم، فالغرب متفوق فى تلك ناصية تكنولوجيا الحرب. صحيح أن باكستان، فى حال وقوعها تحت سيطرة الأصوليين، بوسعها استخدام السلاح الذرى، ولكنها عندئذ قد تفلح فى ضرب باريس على أقصى تقدير، وسرعان ما سينفد احتياطيها النووى. فلو أن طائرة أمريكية سقطت، لن يلبث أن يصنع الأمريكيون طائرة غيرها، لكن لو سقطت طائرة سورية، فسيصعب على السوريين استجلاب غيرها من الغرب. وهكذا، يدك الشرق باريس فيلقى الغرب بقنبلة ذرية على مكة. ويعمد الشرق إلى نشر سم «بوتوليزم» عبر البريد فيسمم الغرب الجزيرة العربية بأكملها، بنفس السهولة التى ترش بها المبيدات الحشرية فى حقول الغرب الأوسط الشاسعة، عندئذ، حتى الإبل ستنفق. ممتاز! بل إن ذلك قد لا يستغرق زمنا طويلا، فقد لا يتطلب الأمر أكثر من عام على أقصى تقدير، بعدها سيكمل العالم بأسره التراشق باستخدام الحجارة، ولربما خسر الأعداء.

ولكن، ثمة اختلاف ما بين الحاضر والماضى. ففى زمن الحملات الصليبية، لم يكن المسيحيون يحتاجون إلى الحديد العربى لصنع سيوفهم، وكذا المسلمون ما كانوا بحاجة إلى حديد المسيحيين. أما اليوم، فما ننتجه من تكنولوجيا فائقة التقدم إنما يقوم أساسا على النفط، والنفط إنما هم الذين يملكونه، أو لنقل إنهم يملكون النصيب الأوفر منه. ولو أنهم بقوا وحدهم من دون مساعدة، لاسيما لو قمنا بقصف آبارهم، فلن يتمكنوا من استخراج النفط، ولكننا بدورنا لن نحصل عليه. عندها، سيتحتم على الغرب إعادة هيكلة كافة تقنياته بحيث يتمكن من الاستغناء عن النفط. وإذ أننا لم نتوصل بعد لتصنيع سيارة كهربائية تسير بسرعة تفوق ثمانين كيلومترا فى الساعة ولا تستلزم ليلة كاملة لإعادة شحن بطارياتها، فلا علم لى كم من الوقت سنحتاج من أجل إتمام عملية إعادة الهيكلة التقنية تلك. ويسرى ذلك بالمثل على استخدام الطاقة النووية لتحريك الطائرات والدبابات ولتشغيل محطاتنا الكهربائية- من دون الخوض فى حساسية تلك المنشآت-فكل ذلك سيستغرق وقتا طويلا.

كما سيكون من المفيد أن نعلم إن كانت الشقيقات السبع الكبرى سيوافقن على هذا التحول. ولن أندهش لو أن مؤسسات نفطية غربية قد ساقها إلحاح الرغبة فى مواصلة تحقيق الأرباح إلى إبداء استعداد لتقبل عالم متأسلم.



ولكن لنشرع فى المزيد من المقارنة. فى زمن الماضى الجميل، كان السراسنة فى جانب، يمتد ما وراء البحر، والمسيحيون فى جانب مقابل. أما اليوم،فأوروبا تعج بالمسلمين، الذين يتحدثون بألسنتنا ويتعلمون فى مدارسنا. وإن كان من بينهم اليوم من ينحازون بالفعل إلى الأصوليين، فلنتخيل مآل الحال لو وقعت مواجهة شاملة. فلسوف تكون هذه هى الحرب الأولى التى يكون فيها العدو ليس فقط بين ظهرانينا وإنما أيضا مستفيدا بغطاء الضمان الاجتماعى.

ولنلحظ أيضا أن المشكلة ذاتها ستتبدى فى العالم الإسلامى، الذى تقوم على أراضيه صناعات غربية بل يضم أيضا بؤرا مسيحية، مثلما فى إثيوبيا.

ونظرا لكون العدو شريرا بمقتضى التعريف، فلنضع فى حسباننا أن كافة مسيحيى ما وراء البحر سيصبحون فى خبر كان. فالحرب هى الحرب. وعليه، سيحكم عليهم منذ البداية بأن مصيرهم هو الموت. ولسوف نعمد، فى وقت لاحق، إلى إدراجهم جميعاً فى عداد القديسين فى احتفالية تقام فى ساحة كاتدرائية سان پيار.

ولكن ماذا عسانا أن نفعل فى المقابل داخل بلداننا؟ لو تفاقم النزاع بصورة محتدمة، وانهارت ناطحتا سحاب أخريان أو ثلاث أو حتى انهارت كاتدرائية سان پيار، عندها سنعلن ملاحقة كل مسلم على أرضنا. ولسوف يكون ذلك أشبه بمقتلة ليلة السانت بارتيليمى أو بمذبحة صلوات الستار الصقلية، فنقوم بالقبض على أى شخص طويل اللحية أو بشرته غير بيضاء، ونقتله. وسيلزم التخلص من ملايين المسلمين بهذه الطريقة، لكن العامة سيتكفلون بهذه المهمة من دون إزعاج القوات المسلحة.

وقد يعلو صوت العقل، فلا نقتل أحدا. ولكن حتى الأمريكيين المتناهين فى ليبراليتهم كانوا قد قاموا، فى بداية الحرب العالمية الثانية، بإرسال اليابانيين والإيطاليين المقيمين بينهم إلى معسكرات الاعتقال، وإن كان من بين المعتقلين من ولدوا على الأراضى الأمريكية، وإن تم ذلك فى ظروف إنسانية. إذن ومن دون الاسترسال فى التفاصيل، سنمسك بكل من يبدو من هيئتهم أنهم من المسلمين- ولو كان منهم على سبيل المثال بعض الإثيوبيين المسيحيين فلا يهم- سنمسك بهم ونودعهم فى مكان ما. ولكن أين؟ فلكى يتم بناء معسكرات اعتقال تتسع لكل أولئك الدخلاء على مجتمعاتنا الذين يتنقلون فى ربوع أوروبا، ثمة حاجة إلى مساحة، وتنظيم، ومراقبة، وتغذية، ورعاية طبية هائلة، بغض النظر عن كون مثيلة تلك المعسكرات ستكون أشبه بقنابل موقوتة.

أو من الممكن أن نأخذهم جميعا (وذلك ليس بالأمر اليسير لأنه يتطلب التقبض عليهم كلهم دفعة واحدة)، ونشحنهم على متن أسطول من السفن لننزلهم فى مكان ما... ولكن أين؟هل نقول مثلا: «عفوا، سيادة الرئيس «القذافى»، عفوا سيادة الرئيس «مبارك»، هل لكما- لو تكرمتما- أن تستقبلا فى بلديكما، هؤلاء الملايين الثلاثة من الأتراك الذين نسعى لإخراجهم من ألمانيا؟».

أو قد يكون الحل الوحيد هو ذلك الذى يلجأ إليه مهربو العمالة غير القانونية، فنلقى بهم إلى البحر. وهو حل نهائى ذو أصداء هتلرية. لتطفو ملايين الجثث على مياه المتوسط. وددت فقط لو علمتُ أية حكومة تلك التى ستقدم على مثيل هذا الفعل؛ فحتى هتلر كان يقتل عددا قليلا فى المرة الواحدة وكان يفعل فعلاته فى الخفاء.

وإذ أننا صالحو الطوية، فالحل البديل هو أن نتركهم آمنين فى بلداننا، على أن نُسير خلف كل واحد منهم مخبرا من قوات الشرطة الخاصة لمراقبتهم. ولكن.. أين لنا أن نجد هذا الكم من المستخدمين؟ هل نختارهم من بين صفوف المهاجرين الدخلاء على مجتمعاتنا؟ ولكن ماذا لو تبين لنا بعد ذلك أن هؤلاء العملاء غير جديرين بالثقة، مثلما حدث فى الولايات المتحدة، حين كانت شركات الطيران تسعى لخفض التكاليف بالعهود بمهام التفتيش فى المطارات إلى المهاجرين الوافدين من بلدان العالم الثالث.

بطبيعة الحال، من الجائز أن تخالج كلُ تلك الأفكار رجلا مسلما ذا حكمة ورشاد، وهو قابع فى موقعه على الجانب الآخر من المتراس. فالجبهة الأصولية لن يتحقق لها بالطبع النصر الكامل على أرضها، وعليه فسنرى فى بلدانهم سلسلة من الحروب الأهلية الدامية، وهو ما سيسفر عن مذابح مروعة، كما ستثقلهم العواقب الاقتصادية الوخيمة لتلك الحروب، وسيزداد افتقارهم إلى الغذاء والدواء عما هو عليه اليوم، وسيتساقطون صرعى كما الذباب. ولكن من مقتضيات المواجهة الصدامية ألا نعبأ بمشكلاتهم هم بل بمشكلاتنا نحن.



وعودة إلى الوضع فى الغرب، فستتكون داخل معسكرنا جماعات مؤيدة للإسلاميين، لا لأسباب عقائدية وإنما اعتراضا على الحرب، وسنرى طوائف جديدة ممن يرفضون خيارات الغرب، وأشخاصا ممن ينبذون العنف ويربأون بأنفسهم عن التعاون مع حكوماتهم، وسنرى متطرفين ينهجون على غرار متطرفى حركة «واكو» (WACO)، الذين- وإن لم يكونوا أصوليين مسلمين - سيشرعون فى إشاعة الإرهاب من أجل



الإنسانية تتقدم إلى الوراء!

تطهير الغرب الفاسد. وعلى طول طرقات أوروبا، ستنتشر جماعات من المصلين القانتين المستسلمين للدَّعة في انتظار نهاية العالم.

لكن ينبغي ألا نحصر تفكيرنا في تلك الفئات المهمشة من المعتوهين. فهل سيتقبل العالم فكرة الحصول على نصيب أقل من الطاقة الكهربية إضافة إلى استحالة الاستعانة حتى بلمبات الجاز؟ هل سنتقبل إصابة وسائل الاتصالات بالشلل التام، أو سنكتفي بساعة واحدة من البث التليفزيوني كل يوم. هل سنرتضي ركوب الدراجة عوضا عن السيارة، أو نطيق إغلاق دور السينما وصالات الرقص، أو نتحمل الوقوف في الطابور أمام مطاعم «ماكدونالد» ليحصل كل منا على حصته الغذائية اليومية المكونة من شريحة صغيرة من خبز النخالة وورقة خس؟ باختصار هل سنرتضي التخلي عن اقتصاديات الرفاهية والتبذير؟ أي وقع يمكن أن يكون لهذا الحال - حال الحياة تحت وطأة اقتصاد الحرب - على رجل أفغاني أو على لاجئ فلسطيني؟ بالنسبة لمثليهما لن يتغير شيء. ولكن ماذا عنا نحن؟ أي انهيار وإحباط سنهوى إليه!

وإلى أي مدى سيشعر السود في هارلم، والمعدمون في برونكس، والمهاجرون المكسيكيون في كاليفورنيا، إلى أي مدى سيشعر كل هؤلاء عندئذ بالتجانس مع الغرب!

وأخيرا، كيف ستتصرف دول أمريكا اللاتينية حيث الكثيرون - وإن لم يكونوا مسلمين- قد نمت بداخلهم مشاعر الحقد والكراهية تجاه من يسمونهم الـ «جرينجوز» (Gringos) أو سكان أمريكا الشمالية، إلى الدرجة التي تبدت بعد سقوط مبنى مركز التجارة العالمي، حين تهامس البعض في تلك الدول مدعين أن الـ «جرينجوز» أنفسهم هم الذين سعوا إلى إحداث تلك الكارثة.

إجمالا، من شأن الحرب الشاملة أن تكشف عن إسلام أقل تكتلا وصلابة مما كنا نظن، ولكن الحرب الشاملة ستسفر من دون أدنى شك عن مسيحية متجزئة وعصابية، مسيحية تفتقر بصورة لافتة إلى أشخاص مؤهلين لأن يكونوا فرسان الرب الجدد، أو استشهاديي الغرب.

كان ذلك سيناريو فيلم خيال علمي لا أرجو أن أراه محققا أبدا. لكن وجب تمثله لإثبات أنه في حال تحققه فهو لن يفضي إلى انتصار أي أحد. وبناء عليه، حتى لو عادت الحرب الجديدة (La néoguerre) إلى صورتها القديمة (La paléoguerre)[٣] المتمثلة في حرب شاملة فهي لن تسفر عن أية نتيجة، وستستمر بصورة لا نهاية لها في سياق مؤسف يشبه إلى حد كبير سياق فيلم «كونان البربري».

ويعني ذلك أنه في زمن العولمة، صارت الحرب الشاملة مستحيلة لأنها ستفضي إلى هزيمة العالم بأسره. ■

هوامش أضافتها المترجمة:

(١) نشر هذا المقال أول ما نشر في صحيفة «لاريبوبليكا» (La Repubblica) الإيطالية في يوليو ١٩٩٩، بمناسبة ذكرى ألفية استيلاء الصليبيين على مدينة القدس، وهو يظهر في الكتاب في موضع الفصل الثالث من الباب الرابع الذي اختار له الكاتب عنوان «العودة إلى الحروب الصليبية» «Le retour aux croisades».

(٢) كان هذا المقال جزءا من محاضرة ألقاها إكو في جمعية سانت اجيديو بميلانو، في يوليو ٢٠٠٢. وهو يظهر في الكتاب في الفصل الأول من الباب الأول الذي اختار له الكاتب عنوان «عن الحرب والسلام وأشياء أخرى» («De la guerre, de la paix et d'autres choses»).

(٣) يطرح إكو مفهوم الحرب الجديدة (La néoguerre) في مقابل مفهوم الحرب التقليدية القديمة (La paléoguerre)، يفصل بينهما زمنيا مفهوم الحرب الباردة، التي انتفت شروط بقائها بسقوط الإمبراطورية السوفيتية. ويضرب الكاتب المثل بحرب الخليج، وحرب كوسوفو، والحرب على أفغانستان بوصفها نماذج للحرب الجديدة. وتتلخص خصائصها - وفق إكو- في كون تعيين العدو فيها يشوبه شيء من الإبهام. فهل العدو هو العراقيون كلهم؟ أو الصرب كلهم؟ أو الأفغان كلهم؟ فمن غير الواضح من الذي ينبغي تدميره على وجه التحديد. كما أن الحرب الجديدة ليست مجابهة صدامية بين جيشين في مكان وزمان محددين. وفي هذا النوع من الحروب تلعب الرأسمالية العابرة للقارات دورا رئيسياً في توجيه الطرفين المتحاربين. وعليه يخضع منطق الدول المتنازعة لإملاءات ومصالح الشركات الكبرى، وتتشعب أذرع القوى المتصارعة وتتحكم في سير النزاع توازنات خفية. وفي الحرب الجديدة تجددت ملامح صناعة الإعلام بصورة غير مسبوقة. فلم يعد هنالك مجال للتعتيم على أخبار العدو بل صارت وسائل الإعلام تفسح المجال لعرض رأي العدو على شاشاتها. وصار تداول فيض المعلومات عبر وسائل الإعلام يلعب- وفق الكاتب- دوراً كانت تضطلع به فيما مضى أجهزة الاستخبارات العسكرية. فبحسب تعبير إكو «عمدت الحرب الجديدة إلى إضفاء طابع مؤسساتي على دور ماتا هاري بأن عممت فكرة التخابر الإعلامي مع العدو». (ص١٩). وفي الحرب الجديدة صارت فكرة التضحية بأرواح الجند فداء الوطن مرفوضة، ليس ذلك فحسب، بل صار المطلوب أيضا تقليل عدد القتلى إلى حده الأدنى فكان ابتداع ما سمي بالقنابل الذكية. صارت الحرب - كما يقول إكو - منتَجاً إعلامياً، أو هي بالأحرى- وفق تعبير بودريار الشهير- حرب لم تتم بل كانت تمثيلية بثها التلفاز.



ابن العماد الأقفهسي

زيادة النيل

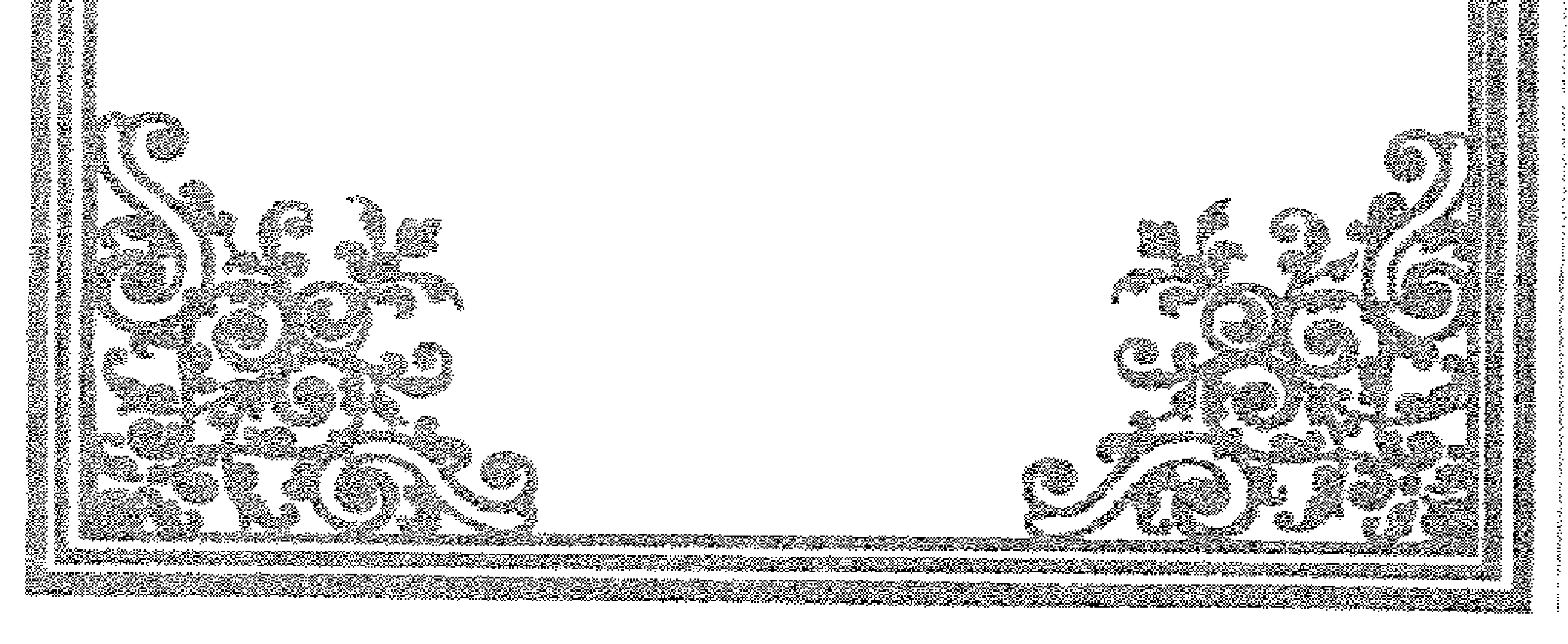
قال المسعودي: قالت العرب في النيل: إنه إذا زاد غاضت له البحار، أي نقصت. قال الله تعالى (وغيض الماء) أي نقص وذهب. قال تعالى: (وما تغيض الأرحام). وغاضت له العيون والآبار. وإذا غاض هو زادت هي. فزيادتها من غيضه، وغيضه من زيادتها.

قال: وقالت الهند: زيادته ونقصه بالسيول. ونحن نقول ذلك بتوالي الأنواء، وكثرة الأمطار، وركود السحاب.

وقالت الروم: لم يزد قط ولم ينقص، وإنما زيادته بريح الشمال إذا كثرت واتصلت به.

وقالت القبط: زيادته و(نقصانه) من عيون في شاطئه، يراها من سافر ولحق بأعاليه. وقد تقدم على أبي قبيل أن نيل مصر في زيادته يفور كله، من أوله إلى آخره.

وحكى لي من أقام بالحبشة: أن الغمام والمطر مستمر عندهم في أيام زيادة النيل ليلاً ونهاراً في أعلى النيل. وأن في بعض السنين يكثر المطر جداً، وفي بعضها يقل، فيعرفون كثرة النيل بمصر وقلته بسبب ذلك.



■ بوتين وكيلن كلاهما عاش فى غير زمانه، الأول فى القرن التاسع عشر، وكانت مهمته إحياء أطماع نابليون وحملته على مصر من موقع آخر هو الجزائر فى زمن كشفت فيه العروبة المهمة الحضارية الفرنسية فى الشرق. والثانى عاش فى القرن العشرين وكانت مهمته تجديد الأطماع الاستعمارية فى الجزائر بامتلاك ثروة ذلك الزمان وهو البترول فى زمن كشفت فيه العروبة التعاون بين «الشرق» الثروة مع الغفلة، و«الغرب» العلم مع اليقظة.

ايف بوتين

«إنها تريد تفسير كل شىء والتعمق فيه وتقديره، إنها لا تقبل أى شىء غامض، ولا أى شىء لا يمكن إدراكه، وهى لا تؤمن بوجود شىء ما فى تلك المناطق التى لا تستطيع أن تضيئها بشعلتها».

كتب الشاعر الألمانى شيللر هذه العبارة فى وصف أديبة فرنسية «مدام دى ستايل» أيام الثورة الفرنسية (قامت عام ١٧٨٩) وأيام نابليون.. وصف يكاد ينطبق على فرنسا نفسها. أو نفسية إنسان الثورة الفرنسية. التراوح بين العقل والعاطفة بين فولتير وروسو. تفوق العقل على العاطفة فى الثورة. صنعوا تمثالاً للعقل وقدسوه.. والتقديس فى هذا الموقف يعنى ردة فعل باتجاه العاطفة.. عاطفة اتجهت إلى الشرق تستكمل به عدل الميزان المضطرب.

ولا يمكن أن نفسر اتجاه نابليون إلى الشرق أو عشقه له لأسباب سياسية فقط.. فكتاب «بونابرت فى مصر» يكشف عن عاطفية جامحة فى نفس نابليون، وسلوكه فى أوروبا عن حدة صارخة فى تقديس العقل.

بين العقل والعاطفة خلال هذه المرحلة ظهرت شخصيات تراوحت بين الجدة والطرافة والأهم بالنسبة لنا أنها لعبت دوراً خطيراً فى التسلل إلى شعاب حياتنا الاجتماعية والاقتصادية والسياسية باسم التجارة أو عشق الآثار أو البحث عن منابع الحضارة.

أطماع

أتحدث هنا عن وثيقة حية. عميل نابليون فى الشرق العربى اسمه «ايف بوتين» YVES BOUTIN لم يحظ الدارسون بالاهتمام، كما حظى لورنس. العرب رغم الدور الخطير الذى لعبه فى تاريخنا. أرسله نابليون فى مهمة تجسسية إلى الجزائر عام ١٨٠٨. رسم فيها المعالم التى كانت الأساس فى وضع خطة احتلالها عام ١٨٣٠. وأرسله فى مهمة تجسسية أخرى عام ١٨١٠ إلى مصر والشام. جمع العديد من المعلومات بدءاً من حياة البسطاء إلى حياة القصور إلى إقامة الحصون إلى عتاد الناس النفسى والمادى.. أرسلها فى تقارير متعاقبة إلى سيده الإمبراطور. لم يقدر له الاستفادة منها لتحقيق حلم عودته إلى الشرق. ظلت محفوظة إلى أن أثارت شهية المهندس «ديليسبس» فى نهاية القرن التاسع عشر. أيام نابليون الثالث وفتح قناة السويس عام ١٨٦٩. حين وضع مقعد الغرب الجاثم على صدر المنطقة العربية ودارت لعبة الكراسى الموسيقية حوله إلى أن انفرد الإنجليز به آنذاك.

ولد «أيف بوتين» فى أول يناير عام ١٧٧٢ فى قرية صغيرة بمنطقة اللوار، والده كان طبيباً بيطرياً متواضعاً وأمه كانت ريفية مائة بالمائة. له شقيقان يعملان بالفلاحة وثالث بحار ورابع خباز وخامس خلت حياته من أى عمل خاص سوى مساعدة أمه فى شئون المنزل.

وسط هذه الأسرة المكافحة تميز ايف بموهبة خاصة وحيوية متدفقة. شاء حظه أن يصحبه والده إلى مدرسة القرية. واظب وأحسن الإصغاء والتقط بسهولة مدهشة دروسه. وعندما انتهت مرحلته الأولية فى التعليم توالت النصائح على والده تدفعه لإكمال تعليم ابنه. أرسله إلى كلية «نانت» هناك اتسعت دائرة معرفته فشملت «جوزيف فوشيه» الذى سيقدر له الاقتراب من نابليون ويصير وزيراً للشرطة فى دولته.

أنهى «أيف» دراسته الكلاسيكية فى التاسعة عشرة ووصف فى هذه السن بأنه. صاحب روح حية، يحب خمر المسك ويعشق



الكولونيل ايف بوتين.. جاسوس نابليون من الجزائر إلى الشام

عميل نابليون فى الشرق كان اسمه بوتين لكنه لم يحظ بالاهتمام مثل البريطانى لورانس العرب



فرنسية!

الرياضيات - فى هذه المرحلة اتخذ «أيف» قراره.. الانتظام فى سلك العسكرية. بدأ بدراسة تمهيدية لمدة ثمانية أشهر أهلته لدخول المدرسة العسكرية ميزيير MEZIERES عام ١٧٩٣ . تخرج بعد اثنى عشر شهراً برتبة ملازم ثان وجاء فى تقرير تخرجه «مهندس جيد فى إقامة الحصون. يحسن تشييد السياجات الضخمة والصغيرة».

هذه المهارة الخاصة هى التى حددت مستقبل «أيف» سواء فى حروب أوروبا مع نابليون أو فى مهمته الخاصة التى شغلت حياته فى شرقنا الغربى من الجزائر إلى الشام.

فرنسى يتجسس على «البرابرة»

بدأ بوتين حياته العسكرية على صورة عادية، لم تخل من مهمات تدريبية فى البحث وجمع المعلومات أو التجسس. فى خريف عام ١٧٩٨ وأوائل ١٨٠٠ قام التحالف الأوروبى الثانى واندلعت الحرب ضد فرنسا فى وسط أوروبا، ظهرت مهارة «بوتين» فى القيام بمهمات عديدة لدراسة ممرات الأنهار، حدد بها بوتين مواضع نفاذ الخطر من قوات أوروبا إلى داخل فرنسا.. وجرح فى معركة مع القوات النمساوية.

فى عام ١٨٠١ كان نابليون يفكر جدياً فى إرسال حملة مشابهة لحملته السابقة على مصر عام ١٧٩٨.. يرسلها هذه المرة إلى الجزائر وتونس وطرابلس «ليبيا» كان يفكر أيضاً فى احتلال مالطة وكريت والبحر اليونانى بكامله. يحلم ببحيرة فرنسية فى البحر المتوسط. يحاصر بها الإنجليز ويغرق فيها قوات - الجزائر البحرية أو ما كانوا يسمونها بقوة البرابرة.

فى عام ١٨٠٢ عقد صلح «أميان» بين فرنسا وإنجلترا كان بمثابة هدنة مؤقتة بينما ساءت العلاقات مع قوات شمال أفريقيا البحرية. نشطت عمليات ضرب السفن الفرنسية خاصة القريبة من الساحل الأفريقى. تأكدت هدنة نابليون مع إنجلترا بعد عقد صلح آخر عام ١٨٠٧. واعتبرها نابليون فرصته المحكمة الأطراف لتحقيق حلم غزو الجزائر واحتلالها.

فى أبريل عام ١٨٠٨ كتب نابليون إلى الاميرال «ديكر» وزير البحرية والمستعمرات - «تصور قيام حملة الجزائر، أن قدماً توضع على هذه الأرض الأفريقية ستعيد الموازين مع إنجلترا.. لن أطلب منك الرد إلا بعد شهر وخلال هذه الفترة عليك بإعداد العدة اللازمة بحيث لا يكون هناك (لكن).. أو.. (إذا).. أو.. (لأن).. أرسل واحداً من مهندسيك إلى الساحل عليه أن يتجول داخل وخارج الأسوار ويعود إلينا ليكتب ملاحظاته الدقيقة حتى لا نضرب فى الوهم».

اختير العميل المطلوب من بين مائة مرشح.. وكان الكومندان «بوتين» تلقى أمر الحضور إلى طولون فى ٢ مايو ١٨٠٨ لينفذ الخطة المعدة والتى كان يجهلها إلى هذه اللحظة.

أبلغه الأميرال «جانتيوم» بأوامر الرحيل وسلمه رسالة سرية من وزير البحرية فى تفصيلات بمهمته الخاصة. على ظهر السفينة المتجهة إلى الجزائر اختفى الكومندان بوتين. فقد ارتدى «ريدنجوت» أنيقاً واعتمر قبعة لاتينية واسعة الأطراف. وأخذ يتحدث عن هوايته فى جمع الآثار. وصل إلى الشاطئ الأفريقى الجزائرى ونزل فى منزل القنصل الفرنسى «ديبوا تننفيل» بصفته قريباً له جاء إلى الجزائر باحثاً ودارساً للآثار.

إقامة - بوتين - أو مهمته السرية استمرت فى الجزائر من ٢٤ مايو إلى ١٧ يوليو ١٨٠٨ . مهمة صعبة وسط توتر الجزائريين وعدم ثقتهم فى كل من يأتى من أوروبا. وخطره فى مواجهة السلطات التركية التى راقبت هذا الزائر الكثير التساؤل عن أحوال المدينة الدفاعية. وكانت قد أصدرت أوامرها بعدم تخطى الأجنبى لعتبات حددتها داخل المدينة ولأبواب معينة خارجها.

لم يمنع ذلك القنصل الفرنسى من تقديم مساعداته لبوتين فأخذ يتجول فى جرأة وبوسائل ملتوية داخل المناطق الممنوعة. ظل يزحف إلى أن وصل لمنطقة «سيدى فرج» متجاوزاً أربع مناطق ممنوع ارتيادها على الأوروبيين. وصل للشاطئ بحجة صيد السمك. سجل معالمه مستخدماً مسباراً رصاصياً لقياس عمق الأرض. أحياناً كان يختفى فى زى صياد برى يتوقف ليرسم بعض المواقع. يعود فى المساء إلى القنصلية الفرنسية ويبدأ فى كتابة تقاريره اليومية.

بوتين، كان يحسن التخفى وراء عدة أقنعة، ولكن ذلك لم يمنعه من التهور أحياناً بما يثير الشك فى رجل يعتبر عضواً فى القنصلية الفرنسية. جولاته الجريئة وصلت أخبارها إلى «الداى» حاكم الجزائر، فهدد بدفنه حياً إن لم يتوقف عن تسريه اليومى فى أزقة - سيدى فرج - ولم يرجع بوتين عن خطته فقد استمر فى تجسسه لمدة ٢٥ يوماً أخرى.

فى ١٧ يوليو ١٨٠٨ أنهى بوتين مهمته ورحل على ظهر سفينة إلى إحدى جزر البحر المتوسط فى لحظة تعرضت فيها لهجوم إنجليزى. سارع بوتين إلى التخلص من وثائقه وتقاريره وألقاها فى الماء. قبض عليه الإنجليز وظل سجيناً فى جزيرة مالطة عدة أيام استطاع بعدها الهروب مع مجموعة من المعتقلين وظل ينتقل فى عدة جزر إلى أن انتهى إلى شاطئ مدينة. أزمير - التركى.

من تركيا رحل إلى باريس. دخلها فى يوم خروج نابليون منها متوجهاً إلى إسبانيا.. فى ٢٩ أغسطس عام ١٨٠٨ . عكف بوتين على بقايا أوراقه واعتمد على قوة ذاكرته فى كتابة تقرير مفصل لما شاهده أو عايشه. انتهى من تقريره وكتب على غلاف ملفه السرى «مشروع نزول واحتلال نهائى لهذه البلاد.. الجزائر».

مصير «بوتين»

تقرير بوتين السرى يثير الدهشة، لدقته فى تسجيل الأحداث والأرقام والتفاصيل رغم صياغته من الذاكرة. يحدد تحصينات مدينة الجزائر الرئيسية وضواحيها. يحدد الأماكن الصالحة لرسو السفن. القوة الحربية. للداى - فى وقت السلم ووقت الحرب. أماكن تجمع هذه القوة عند الحاجة. القوة البحرية والقوة البرية، الذخيرة والمؤن. يحدد أيضاً طرق الوصول إلى تونس ووهران وغيرهما براً وبحراً. يتحدث عن مصادر المياه - وهى مسألة مهمة فى هذه المناطق - ودرجة الحرارة والهواء والأمراض المعدية أو المحلية. يحدد أفضل الأوقات لوصول القوات الفرنسية. ولا يترك التقرير تحديد إنتاج البلاد الزراعى والحيوانى والعملة والموازين والمقاييس. خرائط وخطط ولوح دقيقة مفصلة للقوات الجزائرية من مدفعية إلى غيرها.

يذكر التقرير أن أفضل الأماكن لنزول القوات الفرنسية هى - سيدى فرج - وجاء هذا الاقتراح الأول من نوعه منذ عدة قرون دار فيها الصراع بين القوات الأوروبية وقوات شمال أفريقيا البحرية. لم يجرؤ أحد خلالها على التفكير فى القيام بهجمة برية على الجزائر. كان الصراع دائماً يدور فى البحر وينتهى لصالح البحرية الجزائرية أيام الأخوين عروج وخير الدين بربروسا.

لم يطلع نابليون على تقرير بوتين إلا بعد ثلاثة أشهر عندما عاد من إسبانيا. ورغم حماسه السابق لمهمة عميله الخاص فى أرض الجزائر، إلا أنه أهمل تقريره، فقد انشغل بقيام التحالف الأوروبى الخامس وحرب إسبانيا. حفظ التقرير فى أرشيف وزارة الحربية الفرنسية وظل نائماً هنالك مدة عشرين عاماً كاملة. عندما قام بورمونت، وأركان حربه بنبش التقارير القديمة حول الشاطئ الأفريقى عام ١٨٣٠. عثروا على تقرير بوتين عميل الإمبراطور نابليون. عثروا فيه على ثروة هائلة من المعلومات التفصيلية حددت لهم بشكل أساسى السبيل لاحتلال مدينة الجزائر.

وقد شارك بوتين فى حروب نابليون الأوروبية بعد عودته ولمدة عامين.. قاتل فى ألمانيا وقام بإنشاء عدة حصون وجسور على نهر الدانوب. وفى عام ١٨٠٩ جرح فى إحدى المعارك.. بعد شفائه نقله نابليون إلى مدينة - أوستند البلجيكية الآن - لإقامة تحصينات جديدة، ثم نقل إلى باريس. هنالك تجددت مهمته القديمة، حصل على رتبة كولونيل بقرار إمبراطورى فى ٢ أغسطس ١٨١٠. وصدرت له الأوامر بالرحيل إلى الشرق للقيام بمهمة تجسسية جديدة.

المهمة الجديدة للعميل الإمبراطورى

لم ينس نابليون أحلامه الاستعمارية ولكنه انشغل عنها بحروبه الأوروبية، كان موقناً بأن هذه الأحلام جزء مهم فى صراعه مع إنجلترا. كان يدرك أيضاً أهمية هذه الأحلام فى شغل الجماهير الفرنسية وإثارة حماسهم خاصة لتحويل ثروات المستعمرات إلى جيوب البرجوازية المتطلعة إلى الصعود الأرستقراطى.. وربما الإمبراطورى.

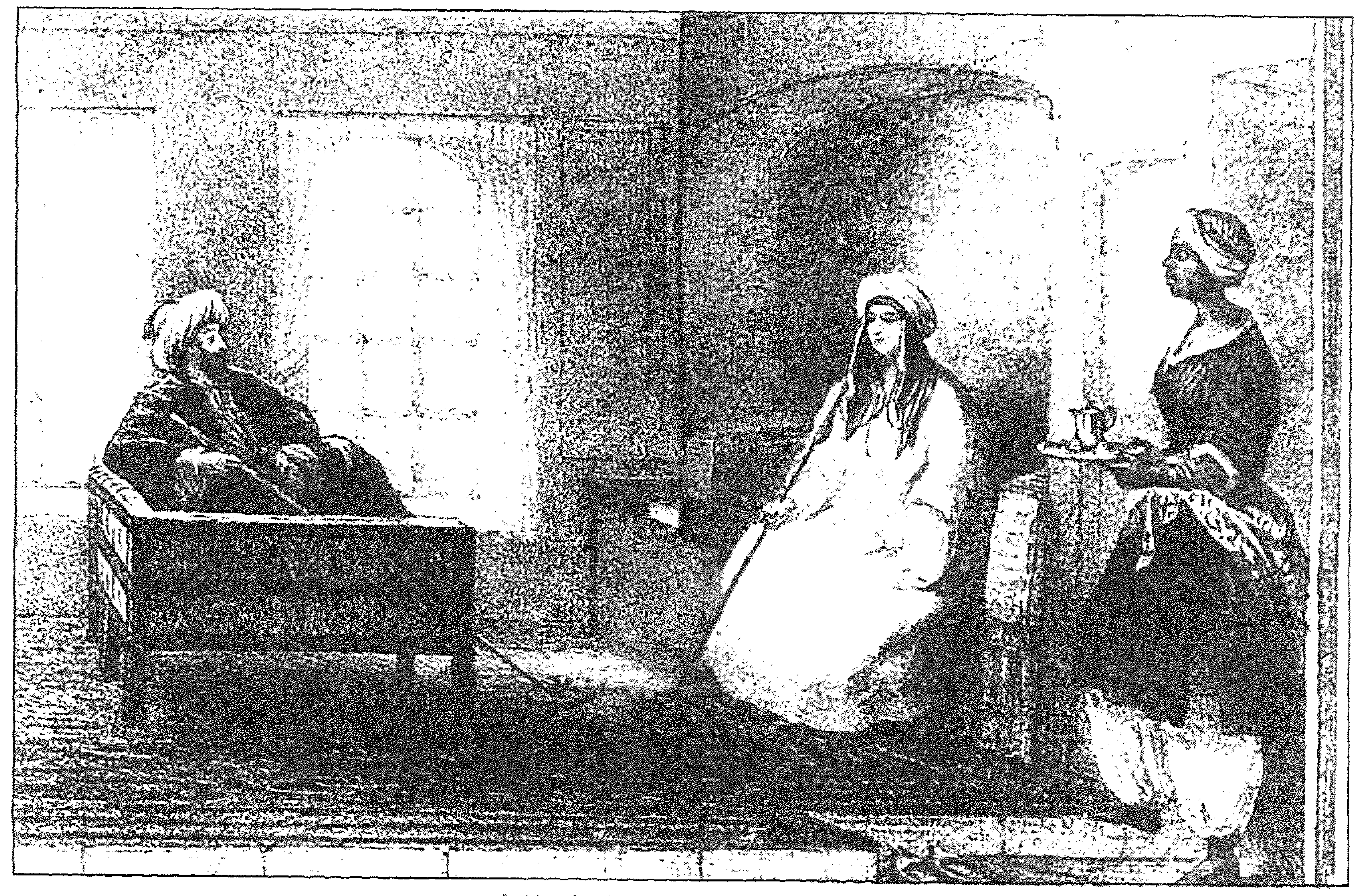
ظل نابليون مأخوذاً بالشرق. يحلم دائماً بعودته إلى مصر، يفكر بحملة جديدة على أسس مختلفة ومن مصر يدخل إلى سوريا ومنها إلى الهند لتحقيق الحلم. إذن لابد من دراسة أرض الواقع الجديد.. جمع المعلومات.. وليس هنالك أفضل من بوتين للقيام بهذه المهمة.

فى نوفمبر ١٨٠١ ترك بوتين باريس يحمل أوامر وتعليمات صريحة من الإمبراطور نقلها إليه وزير الحرب الدوق. فيلتر FELTRE. تأخر بوتين فى الرحيل عن فرنسا فثار نابليون وكتب لوزيره: «لقد اعتقدت أن الضابط بوتين قد رحل إلى مصر وسوريا لتغطية مهمته السرية. لابد أن يمضى الشتاء وجزء من الصيف هنالك حتى يجمع المعلومات الواجبة التى تحدد الموقف السياسى والعسكرى فى هذه البلاد. عليك بتجاوز كل العقبات فلا تحدثنى بعد ذلك عنها».

وفى ١٥ نوفمبر ١٨١٠ كتب نابليون خطاباً إمبراطورياً من عدة نسخ موجهاً إلى قناصل فرنسا فى الشرق.



من المهم أن تحصل



هستر استنهوب حبيبة بوتين فى صيدا بملابس شامية

أطماع فرنسية

الحكومة الفرنسية على معلومات مؤكدة ودقيقة حول علاقاتنا التجارية، بناء على هذه المعلومات يمكن تحديد السبل التى يجب سلوكها لإعطاء دفعة تطور خاصة.. تحتاجها ظروفنا الحالية، لقد كلفت السيد بوتين بمراجعة قنصليتكم بصفته عميلاً تجارياً داخلياً.

هكذا تحول أو تخفى بوتين فى هيئة عميل تجارى وبصفة رسمية إمبراطورية حتى يقوم بمهمته الأبعد، والأكثر خطورة التجسس حول المواقع الحربية.. قلعة صلاح الدين فى القاهرة، مدينة دمياط، قلعة عكا، مدينة حلب.. الإسكندرية.. الإجابة على أسئلة حددتها له المهمة حول الأحوال المادية والمعنوية فى مصر والشام.

وصل عميل الإمبراطور إلى الإسكندرية فى نهاية مايو ١٨١٠. متخفياً فى زيه التجارى وادعائه الاهتمام بالآثار ودراسة حضارات الشرق العربى القديمة. فى القاهرة أقام فى منزل القنصل الفرنسى - دروفيتى - قنصل عجيب فى مهمته. ليس العجب فى قيامه كغيره من القناصل بالتجسس أو النهب لحساب بلده أو شخصه. ولكن العجب فى أنه دخل فى صراع صريح مع القنصل الإنجليزى لسرقة الآثار المصرية القديمة. كون كل واحد عصابة خاصة، تتلون لتنداح فى شعاب مصر المجهولة لجمع الآثار.

تشتبك العصابتان بالخناجر والعصى والرصاص، وصف قصتهما فى صورة طريفة المستشرق الفنان الفرنسى - بريس دافين - فى مذكراته، فقد عاصر طرفًا منها فى فترة متقدمة.

شخصية القنصل - دروفيتى - ناسبت تماماً شخصية بوتين. دبر له القنصل مقابلة مع محمد على وكان إلى هذا التاريخ لا يزال معترفاً بحضن الأستانة. فاوضه عميل نابليون بصفته التجارية فى صفقة قمح، ولمهارته حصل على موافقة فورية برغم خبث وذكاء محمد على. أرفق بطلبه التجارى طلباً شخصياً. تصريح يعطيه الحق فى الوصول إلى أقصى الصعيد حتى يستكمل على حد قوله معلوماته وإعجابه بالآثار المصرية القديمة.. تصريح محمد على فتح له البر والبحر وكان البحر الأحمر على وجه التحديد هو مثار قلق واهتمام الإنجليز.

روميو وجولييت فى الشرق

استثمر بوتين تصريح محمد على جيداً، صعد إلى أسوان وكتب عنها معلومات وافية، ثم خاض فى صحراء سيناء ووصل لجبل موسى. لم تكن سياحة دينية، فقد درس جيداً موقع الجبل والمناطق المحيطة. كانت محطته القادمة السويس ومنها صحراء سيوة. بقى بوتين فى مصر مدة عامين متنقلاً كيفما شاء مواظباً على إرسال تقاريره أولاً بأول إلى نابليون.

طالت مدة بوتين فى مصر ولم يستكمل مهمته فى سوريا، فقد تأخر رحيله بسبب انتشار مرض الطاعون آنذاك، ومنع السفر براً وبحراً إلى الشام وبرغم ما وصله من أخبار حول التحالف العام للدول الأوروبية ضد نابليون فى يناير عام ١٨١٤ واضطراب موقف سيده، إلا أنه أصر على استكمال مهمته.

فى ٢٨ مارس عام ١٨١٤ وصل لميناء صيدا، أقام كما هو متفق عليه فى منزل القنصل الفرنسى - تيبوت - وتخفى فى زى وصنعة الباحث عن الآثار. وكانت هذه المهمة تكلفه عادة حمل حقيبة ثقيلة من الأحجار والتماثيل دليلاً على عشقه الخاص.

فى صيدا ارتبط بشخصية عجيبة، سيدة اسمها - هيستر استنهوب - HESTER STANHOPE ابنة شقيق (وليم بت) رئيس وزراء إنجلترا الشهير الذى قاد الإنجليز إلى النصر فى حرب الصراع الاستعمارى الإنجليزى الفرنسى فى أمريكا. حرب السنوات السبع ١٧٥٦ - ١٧٦٣.. السيدة استنهوب كانت مساعدة لعمها فى بطولاته الاستعمارية وعندما توفى فجأة قررت اعتزال الحياة. تنقلت فى عدة أماكن وأخيراً استقرت نهائياً فى الشرق.. فى صيدا.

تم اللقاء الأول بين بوتين الفرنسى والسيدة استنهوب الإنجليزية عابراً فى القاهرة، أدركت بخبرتها أن بوتين لا يمكن أن يكون وسيطاً تجارياً أو هاوياً أثرياً. لكن استنتاجها الذكى لم يمنع قلبها من لقاء بوتين على طريقة روميو وجولييت. الأسر تتعارك والأبناء يعبون من كؤوس الحب.

بادرت هى بتوثيق العلاقة، فقد دعت



لورنس الجزائر.. كيلن مع رفيقه الجزائرى (بشير)

بوتين إلى مسكنها فى صيدا. أثارت دعوتها شكوكه. هل هى محاورة خبيثة بين جاسوس وسيدة سياسية؟

قرر بوتين قبول الدعوة وكانت مقدمة سريعة فما لبث أن صارت إقامة بوتين موزعة بين بيت القنصل وبيتها فى صيدا. درس بعض الباحثين علاقة بوتين الفرنسى بسيدة سياسية إنجليزية. قال البعض إنه كان تعاون الخبثاء، واستند آخرون على واحد وعشرين رسالة أرسلتها السيدة استنهوب إلى بوتين تؤكد وجود علاقة حب ساخنة بينهما.

فى أبريل ١٧١٤ قرر بوتين بعناد ترك صيدا نهائياً بعد أن عاد وباء الطاعون فى الظهور. حاولت استنهوب استبقاءه. أرسلت تطلب مقابلته رفض أرسلت من جديد تبلغه بأنها حصلت على معلومات أكيدة من ترجمان مملوكى تقول إن معركة عنيفة تدور حالياً فى فرنسا ضد نابليون.

لم يقاوم بوتين فعاد إلى مقر صديقته فى صيدا واحتفظ بهدوئه أمام أخبار سقوط إمبراطوره نابليون، أما استنهوب فكانت سعيدة بعودته وإن كانت موقنة بحتمية رحيله.

الاختفاء الغامض

رغم تأكد بوتين من انتهاء قوة نابليون، إلا أنه أصر على إتمام مهمته.. استقر فى دمشق، استمر فى جمع المعلومات، وفجأة يكتب لصديقته استنهوب - أن الظروف يا سيدتى تدعونى للرحيل إلى فارس -. أجابته بكلمات مختصرة. إذا مت فإن عيوناً طيبة ستبكيك. أينما ذهبت فإن تمنياتى الطيبة تصحبك..

قبل رحيل بوتين عن الشام قرر أن يقوم برحلة انتحار. هل كان اختيارها مؤشراً لحالته النفسية بعد سقوط نابليون؟

رحل بوتين إلى جبل الأنصاريين الواقع بين طرابلس وانطاكية، منطقة شديدة الوعورة جغرافياً وبشرياً.. منطقة متمردة دائماً على الدولة العثمانية. لم يكن لوالى طرابلس أو دمشق سيطرة عليها، ولم تغامر القوات العثمانية ولا أتباعها بالدخول إليها لتحصيل الضرائب.

رحل بوتين مع خادم، كلاهما على ظهر حصان واحد. يحملان زاداً قليلاً، وكأنهما مسوقان إلى قدرهما دون تردد. مرت الأيام واختفت أخبار بوتين تماماً. ترددت شائعات حول انتحاره وقيل إنه قتل هو وخادمه. لم يترك من أثر سوى ساعته وبعض حاجياته وجدت معروضة للبيع فى محل صغير بأحد أسواق دمشق.

لم تيأس حبيبة بوتين من البحث عنه. أخذت وعداً من الباشا بأن يرسل جماعة مسلحة للبحث، ولكنه لم يجد من يجرؤ على القيام بالمهمة.. سعت بنفسها لكشف اللغز. استأجرت ثلاثة رجال وأرسلتهم للبحث واستحضار الدليل على مقتله. عاد الرجال حاملين الدليل على مقتله هو وخادمه عند قرية البلاطة. وكان هذا هو آخر ما وصلت إليه تحريات البحث عن بوتين.

نتساءل عن هذه الشخصية العجيبة ماذا أرادت؟

الجاسوسية أم العدمية أم العناد أو بعد النظر؟

تاريخه السابق يثبت لنا شدة طموحه بما يتنافى مع الروح العدمية، وإصراره على الدخول فى أخطار خارج مهمته تضعف من احتمال طموحه. والمعلومات التى جمعها عن الجزائر ومصر والشام وخروجها بعد ذلك من أرشيف الحروب الفرنسية ودورها الرئيسى فى وضع خطة غزو الجزائر عام ١٩٣٠ تثبت بعد نظره فى خدمة الخطط الاستعمارية الفرنسية.

بوتين نتاج الثورة الفرنسية.. نتاج المثالية القومية كما صاغتها البرجوازية الفرنسية. أحلام تتراوح بين الاندفاع وراء البطولة الفردية كرمز للبطولة القومية حتى لو جاءت على حساب القوميات الأخرى.

كونراد كيلن

فى شتاء عام ١٩٤٩.. وفى أحد طرقات باريس ذات الإضاءة الضعيفة كان هنالك صديقان يسيران فى هدوء.. وفجأة تقدمت سيارة مسرعة.. اندفعت إلى أحدهما. فلجأ بقفزة سريعة إلى ركن بناء قريب.. لمسته السيارة ثم تراجعت مسرعة وولت هاربة..

الرجل الذى نجا بعمره اسمه «كونراد كيلن» CONRAD KILIAN.. اقترب منه صديقه ليطمئن.. فقال كونراد:

- هل صدقت الآن؟..

كونراد لم يكن رجل نضال، أو رجل سياسة، أو عضواً فى عصابة دولية، أو له عداوات شخصية.. كونراد كان عالماً فى البترول.. وكان ذلك كافياً لمطاردته عام ١٩٤٩..

كان يعرف أنه مطارد.. لقد أمضى غالبية حياته العملية فى صحراء الجزائر، وعبر حدودها من الجنوب إلى ليبيا. وهناك بشر بالبترول فى منطقة «فزان»، بمنطق زمانه، وبمنطق مكانه، الجزائر وليبيا والخليج العربى والعالم الثالث كله فرصة لا تعوض لدول العالم الأول.. الشاطر يصل أولاً.. الشاطر يضع علمه أولاً.. وقد وصل كونراد الفرنسى إلى «فزان» قبل غيره، فكان طبيعياً أن يقضى حياته - بشعور وطنى صادق - يحث الفرنسيين لإلحاقها بملكية فرنسا قبل أن يصل إليها الإيطاليون أو الإنجليز أو هؤلاء المحدثون البارعون فى سوق الحركة والشراء.. الأمريكيون..

كونراد كيلن كان جيولوجيا اجتذبته الصحراء فدرسها وأحبها وعاش بها لسنوات طويلة.. يلبس ملابسها، ويأكل من طعامها، ويمارس عادات أهلها.. كان لورنس الجزائر. لورنس الذى ادعى حباً صادقاً للعرب، ولكنه بالتأكيد كان هائماً بالتاج البريطانى

كذلك، كان كونراد.. محبًا للصحراء، ولكن أيضًا لتلحق بالجمهورية الفرنسية سليلة الإمبراطورية النابوليونية.

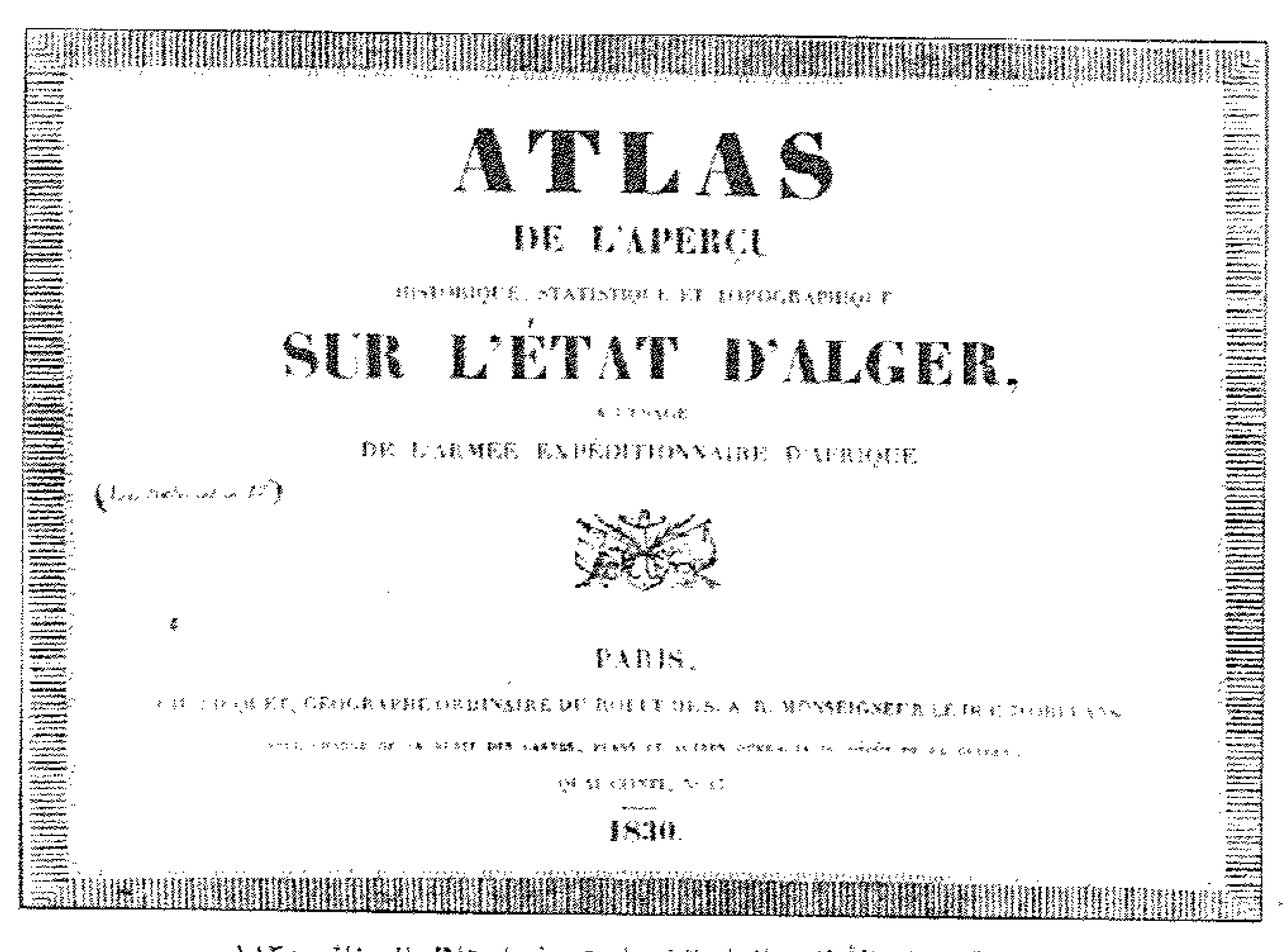
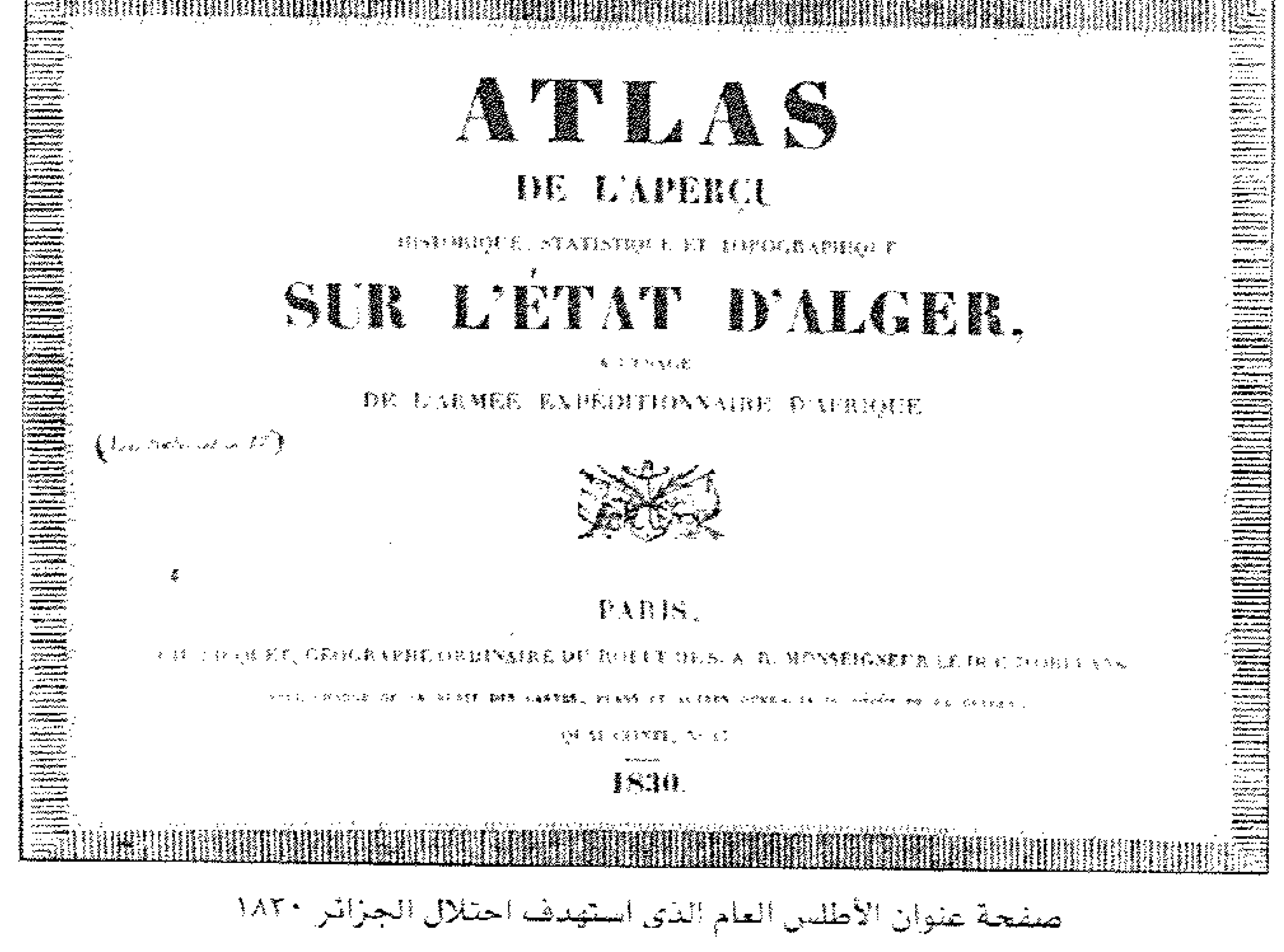
لم يكن ببراعة لورنس الذى كان يهيم كالصوفية، ويرتب أموره كرجال الأعمال.. كان يعيش فى غير زمانه فلم يعرف الدعاية، والعلاقات، وأصحاب الكلمة الأخيرة.. عاش دارسًا للصحراء متنبئًا بثروتها من خلال نسيج رومانتيكى يلتحم بأحلام نابليون فى مصر.

ظل يصرخ معلنًا نبوءته دون صدى.. ضاع صوته، ومن سمعه اعتبره مجنونًا وإن أنصفه اعتبره صاحب خيال قصصى لا يليق برجل جغرافى وجيولوجى.. لم ينصفه الفرنسيون، والتقطت أجهزة الخبرة صوته فضاعت «فزان» من فرنسا بمنطق الاستعمار فى زمان كان لا يحسب حساب ضياعها بمنطق الاحتلال والاستقلال..

وكونراد كيلن اسم ألمانى، جاءه من مسقط رأس عائلته.. الالزاس وعندما سقطت فى يد الألمان ١٨٧٠ رحلت العائلة إلى «جرينوبل».. والده كان جيولوجيًا معروفًا، ورث كونراد عنه حبه للعلوم الطبيعية، فكتب وهو فى التاسعة من عمره بحثًا صغيرًا فى سبعين صفحة بعنوان «الأرض والكائنات».. كتب فى صفحته الأولى: «غدًا ستصبح كل القارات - ما تحت الأرض وما فوقها - فى خدمة الإنسان.. سيظل هنالك سر واحد.. وهو أفريقيا»..

فى سن العاشرة كان يثير دهشة أساتذته بقدرته على الحفظ والقراءة والاستنتاج.. أصدقاؤه بالمدرسة كانوا يعتبرونه صاحب مزاج خاص، وأيضًا قدرات خاصة.. يجمع بين الشراسة المتناهية، ورهافة الحس الحالم.. يخرج دون افتعال بآراء جديدة وتصرفات غير متوقعة..

حمل ذات يوم فأرًا أبيض على كتفه وكان يسيره كحيوان أليف.. عقد صداقة خاصة مع أخيه رغم اختلاف الأمزجة.. كان شغوفًا بقراءة المؤرخ القديم «هيرودوت».. جاء فى قصصه أن هنالك ثروة هائلة مطمورة فى الصحراء.. ثروة تعود لشعب يسمى «الجارامانيين»، فكان كونراد يعلق: «حينما أنهى دراستى سأذهب للبحث عن زمرد الجارامانيين» ظل اهتمامه بالعلم ملتهبًا.. فنشر عدة مقالات.. وحينما اندلعت الحرب الأولى شارك فيها كمقاتل فى سلاح المدفعية، وانتهت الحرب وهو فى حالة صحية سيئة، فقضى فترة نقاهة تعرف فيها على الفتاة «كورين»، وأعلن خطبته على أن ينتهى من مشروع زواجه بعد انتهاء دراسته..

ATLAS

DE L'APERÇU

HISTORIQUE, STATISTIQUE ET TOPOGRAPHIQUE

SUR L'ÉTAT D'ALGER,

A L'USAGE

DE L'ARMÉE EXPÉDITIONNAIRE D'AFRIQUE

PARIS,

CH. PICQUET, GÉOGRAPHE ORDINAIRE DU ROI ET DE S. A. R. MONSEIGNEUR LE DUC D'ORLÉANS

1830.

صفحة عنوان الأطلس العام الذى استهدف احتلال الجزائر ١٨٣٠



كونراد كيلن

كورين خطيبة كيلن

وفى عام ١٩٢٠ بدأ الدراسة ولكن سرعان ما ضاق بها، فأرسل أستاذه إلى والده يخبره بالأمر فى وقت وصل إلى الوالد خطاب من صديق سويسرى ثرى يعيش فى الجزائر، يحلم بالحصول على زمرد أو ثروة الجارامانتيين.

صديق والد كونراد سمع بهذه الثروة من سكان الصحراء وسمع أن شخصًا مغامرًا استطاع أن يحصل على زمرد بحجم بيضة الحمامة حينما غاص فى الصحراء.. أعد حملة يقودها خبير صحراوى يدعى «لاكروا» ولكنه يحتاج إلى خبير جيولوجى فأرسل إلى صديقه وليفرد كيلن والد كونراد يأخذ رأيه.. رشح الوالد ابنه للقيام بالمهمة رغم علمه بمدى خطورتها ومدى ارتفاع نسبة الخيال فيها.. الخيال والمخاطرة شيئان يناسبان كونراد.. رحب على الفور، ورحبت بتبعية المشاركة خطيبته..

وفى ٨ يناير عام ١٩٢٢ تحركت القافلة تقصد منطقة الأحجار فى جنوب الجزائر يقودها لاكروا.. ضخم بلحية حمراء وملامح عنيفة، ولعنات وشتائم متتابعة من فمه عندما يأمر أتباعه.. أو تجشأ شبه مستمر عندما يلوذ بالصمت.. يصحب معه فتاة يتصور أنها من ملكيته الخاصة.

بدأت الرحلة بحقد دفين لكونراد، فقد حصل من حاكم إقليم الواحات على حق ارتداء الزى العسكرى، وتابع أو مساعد من أبناء الصحراء يدعى «محمد بن حمولة».. وفى الليلة الأولى نامت فتاة لاكروا فى خيمة كونراد..

كونراد كان يبحث عن شىء آخر غير زمرد صاحب الحملة وفتاة لاكروا.. كان يدرس كل منطقة بعناية.. يجمع الأحجار ويسجل الملاحظات، وينفرد دائمًا للدراسة.. زاد هذا التصرف من حقد زميله فرفع ذات ليلة خنجره فى وجه كونراد.. استل كونراد مسدسه وسدده فى هدوء إلى رقبة لاكروا فاستكان.

وصلت القافلة إلى مرتفعات الأحجار جنوب الصحراء.. إلى ارتفاع ألفى ميل.. هنا حدد صاحب الحملة مكان الزمرد.. دخلت الجماعة إلى كهوف غامضة واستطاعت وسط الدهشة أن تلمح أحجار خضراء تلمع فى وهج الشمس.. أخيراً الزمرد.. الزمرد.. تناولها كونراد فى هدوء.. وضع بعضها على النار، سحق البعض الآخر.. إنه نوع من الامزونى الذى يقرب فى شكله من الزمرد.

لاكروا كان فى عالم آخر.. صرخ وهلل، وتمرغت صاحبته على الأحجار فى حالة عصبية من الفرح.. بعد لحظات شرح لهم كونراد الأمر.. ليست هذه الحجارة بالزمرد، ولكن من الصعب كشفها.. زمجر لاكروا، وسخطت صاحبته وقررا التخلص من كونراد.. أدرك الأمر وقرر بدوره الانفصال عنهما بمؤنته وأتباعه وجماله..

الثروة البترولية

قرار الانفصال عن القافلة كان ضربة من ضربات القدر التى وجهت كونراد جهة أخرى وقدرت عليه قدرًا آخر.. قرر أن يغوص فى الصحراء ليتابع دراسة طبقات الأرض. تردد رفاقه ولكنه أصر.. حذروه من سكان المنطقة ولكنه استمر.. وقع فى يد زعيم القبائل، ولكنه استطاع أن يتخلص بظرف ولباقة، وتابع السير فاجتاز منطقة الأحجار وشارف مركز إقامة الملكة «زارا»..

الملكة «زارا» زعيمة المنطقة.. اشتهرت.. بجمالها وسطوتها.. وحينما التقيا دار بينهما ما يحكى من قصص ألف ليلة وليلة أو فيلم من أفلام النظرة، فالكلمة فالحب فال.. استقر كونراد عند الملكة، وارتدى زى الصحراء وتفنن فى التأنق به فبدا كأنه من سلالة بدوية أصيلة.

صورة كونراد ولورنس فى الصحراء كانت تثير خيال شباب أوروبا فى العشرينيات، دخلت المنازل، وفصول الدراسة فى المدارس، وقاعات الدرس فى الأكاديميات العسكرية.. كانت مثالاً لغزو الغربى العالم الشرقى فى مجاهله على حصان أو جمل.. مثال للمسطوة.. وعند البعض مثال لرسالة إنسانية فى عالم يحتاج إلى وصلة حضارية غربية.. وعند آخرين هروب من عالم مجنون قتل الملايين فى حرب عالمية مدمرة.. نعم صار كونراد على جمله مثالاً يحتذى فى ذلك الوقت..

كتب كونراد فى مذكراته عام ١٩٢٢ لأول مرة عن نبوءته البترولية فى الصحراء «إننى أنام على مليارات من براميل النفط فى هذا النسيج الرملى بالصحراء».. وبعد تأكده بعدة أسابيع من

كشفه كان عليه الإعلان.. كان عليه ترك الصحراء فكتب يقول «من السخف العودة إلى عالم الحضارة الحديثة.. سأبحث محاولاً إيجاد طعم لحياتى الأوروبية».

وصل فرنسا وحمل والدد أبحاثه إلى المؤتمر الجيولوجى الدولى فى بروكسل.. أثارت أبحاثه الكثير من الدهشة، وأعادت النظر فى كثير من الأحكام على الصحراء جغرافياً وجيولوجياً.. ولكنهم نظروا إليه نظرة شك وربما اتهام بالتهور حول حديثه عن البترول..

حديثه عن البترول كان يأتى فى المرتبة الأولى عنده، قبل الاعتراف بعبقريته الجغرافية أو الجيولوجية أو دراسة الشعوب.. لكنه لم يجد إلا الصمت، فقرر العودة إلى الصحراء، ويقال إنه ذكر قبل رحيله عن إمكان وجود «ثلاجات» طبيعية فوق قمم جبال الأحجار.. وقد أثبتت الدراسات والصور الجوية الحديثة صحة هذا الرأى..

حاول قبل الرحيل إغراء خطيبته بالرحيل معه فقد يطول غيابه الى ثلاث أو أربع سنوات، ولكنها رفضت.. وعندما وصل الجزائر أعد قافلته لاستئناف بحوثه فى أقصى جنوب الصحراء الجزائرية.. كان عليه أولاً المرور فى منطقة «توجرت» حيث تحكم جماعة الأولاد نائل الملكة عيوشة تتشا. ويذكر فى مذكراته أن سكان هذه المناطق كان بعضهم يستبيح الدعارة المقدسة «لا أدرى مدى صحة هذا القول».. المهم أن الملكة وقعت فى غرامه وأهدته ثروتها من المجوهرات وزاد هيامها به فارتضت أن تحيك بنفسها على رايتها الخاصة «العبيد يتولون عادة الحياكة عند هذه القبائل» رمزاً خاصاً باسمه. كتبت على رايتها «مع الشجاع دائماً كيلن».. لقد قبلت بهذا التصرف ضمناً أن تكون «أمة» له..

تحقيق الحلم

نحن الآن فى ٤ أبريل عام ١٩٢٧.. كونراد يستأنف طريقه إلى الجنوب، كان عليه أن يمر ثانية على منطقة الأحجار.. أن يعاود الذكريات مع الملكة «زارا».. رحبت به.. رجته أن يبقى.. ولكنه أصر على استئناف طريقه إلى أقصى الجنوب.. صحب معه دليلاً صحراوياً آخر فى منطقة لم يدخلها أحد من قبل..

بدأت مأساة الجماعة.. فى النهار ترتفع درجة الحرارة إلى ستين، وفى الليل تنخفض إلى صفر.. انقطعت صلتهم بمظاهر الحياة، لم يبق لهم سوى أمل العثور على آخر بئر يعرفه الدليل حتى يتلمسوا طريق العودة.. بعد ثلاثة أيام عثروا على البئر. وجدوه خالياً فصاح «البشير» إنها النهاية.. أقرب خط حياة أو أقرب بئر على بعد ثمانين كيلو متراً.. أيام وأيام من السير دون ماء.. أصدر كونراد أوامره ببقر بطن أوهن الجمال وتفريغ ما اختزنه من الماء.. أفرغوا من بطن الجمل ما يقرب من ١٢ لتر ماء برائحة لا تطاق.. وحذرهم كونراد من شربه.. لقد قتل كثيرون من قبل بشربهم الماء المخزون فى بطون الجمال.. أوقد النار وترك فوقها الماء لطرد السم والرائحة.. وأخيراً شربوا وحملوا الباقى واستأنفوا الرحلة..

دخلت الجماعة إلى «فزان» منطقة جديدة لا يعرف عنها شيئاً.. الحد الفاصل بين النفوذ الفرنسى والنفوذ الإيطالى. وبعد أن سجل ملاحظاته الجغرافية والجيولوجية استأنف توغله.. فجأة عادت إليه أحلام الصبا حية أو قل متحجرة.. آثار حوافر جياد، آثار سير عربات باقية متحجرة وكأنها مرسومة على الحجارة.. ماذا حدث؟.. من سكن هذه المنطقة؟.. إن آثارها تدل على مرور ما يقرب من أربعة آلاف سنة على الأقل.. هذه الحوافر وهذه العربات لابد أنها لجماعة الجارامانيين.. ولكن كيف تأتى الجياد وتكون الحياة وسط الصحراء؟..

من قراءة ما تركوه من رسومات حائطية داخل الكهوف وجدت صور مراع.. نعم مراع خضراء، وماء وحياة فى وسط هذا الخواء. إنها إحدى خرافات التاريخ الحى الساخر مسجلة واقعية لا تقبل الشك.. هذه أيضاً زمردة وجدها فى أحد الكهوف.. هيرودوت كان على حق فيما روى وجد كونراد أخيراً ثروته التاريخية بعد أن دون ثروته الجغرافية والجيولوجية.. واستأنف الرحلة..

وصل فى داخل «فزان» إلى منطقة نفوذ جماعة «مرزوق» الثائرين على الاستعمار الإيطالى.. وعقد معهم صداقة، وطالبه سلطانهم أن يشترك معهم فى القتال أو كما ذكر فى مذكراته أن يقود قوة من عشرة آلاف مقاتل لقتال الإيطاليين. ولكنه اعتذر لأن دولته فرنسا حذرته من قتال الإيطاليين فليس بينهما حرب.. ويقول إنهم قبلوا منطقه. فهم كبدو يحترمون كلمة «الأم» يقصد الوطن..

الخيبة والعودة

بعد غيبة ثلاث سنوات عاد كونراد إلى «الحضارة».. ولكن الحضارة نسيته. فقد أنفق على الرحلة من جيبه وصار مفلساً.. ولم يحصل على التقدير الذى كان يأمله لا أدبياً ولا مادياً. فعثر على وثيقة قديمة تركها نابليون تذكر أن علماءه الذين صحبهم معه فى حملتهم على مصر كانوا يحصلون عند نبوغهم على لقب «العاهل المكتشف» وأعجبه اللقب فصار يوقع خطاباته باسم «كونراد كيلن العاهل المكتشف»..

عاش بأحلامه وتصور بهذه الأحلام أنه يستطيع أن يستعيد خطيبته بعد أن تزوجت، وأعلن فى جدية أن زواجها سفاح. وذهب إلى زوجها يطالبه بتركها، وترك الزوج فى هدوء أمر الاختيار للزوجة الخطيبة.. خذلت كونراد كما خذلته الحضارة وقررت الاستمرار مع زوجها..

قد يكون تصرف كونراد مع خطيبته جنوناً، ولكن ما حاوله مع حكومته لم يكن جنوناً بمنطق المصلحة القومية بمفهوم استعمارى أوروبى.. كتب تقارير وتقارير يحاول بها أن يقنع حكومته بالتمسك بمنطقة «فزان» عند عقد معاهدة الحدود مع إيطاليا.. فهى مصدر ثروة بترولية هائلة من حق فرنسا، ألا يكفى كحق أن أول من وصل لهذه الحقيقة مواطن فرنسى.

اندلعت الحرب العالمية الثانية وجعلت كونراد يتمسك أكثر بضرورة البحث عن الثروة حتى يضمن لبلاده النصر والسطوة. ودخل الإنجليز والأمريكيون فى اللعبة، وحاولوا إغراءه حتى يعمل لحسابهم، ولكنه رفض واستأنف أبحاثه فى منطقة «تمانراست» معلناً أن بها قدراً هائلاً من المعادن.. وكتب فى مذكراته عام ١٩٤٤ «لقد حاولوا من قبل الرئيس روزفلت أن أعمل لحساب الولايات المتحدة حتى أضمن لها ثروة هائلة وكتب للجنرال ديجول وكان فى ذلك الوقت يتولى رئيس لجنة التحرير.. ولكن دون صدى..

استمرت محاولات كونراد فى إثارة القضية من جديد بعد الحرب العالمية الثانية وكاد بنك باريس والأراضى المنخفضة أن يعقد احتكاراً مع البنوك الأمريكية لمنطقة فزان.. ثم تقدمت كندا بمشروع آخر أكثر سخاء، وفجأة عارضه روبرت شومان وزير خارجية فرنسا فتوقف المشروع..

ضاعت آخر آمال كونراد. وجرت بعدها محاولة قتله بالسيارة عام ٤٩ فنصحه الأصدقاء بالانسحاب إلى مسقط رأسه «جرينوبل» متفرغاً لأبحاثه.. هناك عاش حياة متواضعة تعتمد على منحة قليلة، واقتصر فى يومه على الخروج فى الصباح من فندقه مرتدياً ملابس ممزقة تسترها سترة عسكرية، متوجهاً إلى المكتبة حيث يقضى يومه ويعود فى السادسة بعد الظهر..

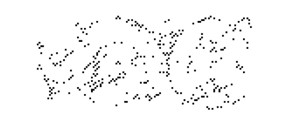
وفى ٢٩ أبريل عام ١٩٥٠ اقتحمت الخادمة غرفته فى الصباح بعد خوفها لطول غيابه، فوجدته معلقاً من رقبته فى مصراع النافذة..

هل انتحر كونراد؟.. هل قتل؟..

البوليس وجد شرايين يده ممزقة بسكين وربما بقطعة زجاج من زجاجة عطر ووجدت مهشمة وكلمة قصيرة كتبها «زهرة بانسيه لكورين - (خطيبته).. قبل كل شىء عاشت فرنسا بارك الله فى كل من أحببت»..

اندهش رجل البوليس لأول مرة يجد منتحراً بعيون مغمضة.. ولأول مرة يجد منتحراً معلقاً فى مصراع النافذة الأقصر منه بكثير.. ويقول صديق له شاهد أن كونراد قال له: إذا مت بطريقة عنيفة فاعلم أن ذلك سيكون بيد جماعة بترولية أجنبية».. وقال شاهد آخر أن كونراد قال له «سيتحدثون فى المستقبل عن انتحارى.. ولكنى لست ممن يفكر بهذه الطريقة المتطرفة.. ليست هناك حالة توصلنى إلى هذا الحد»..

كونراد عاش فى غير زمانه.. كان استعمارياً بطريقة فيكتوريا ونابليون الثالث فى زمان كان الاستعمار فيه بطريقة فورد وجنرال موتورز. ابتلعته الاحتكارات الدولية لرفضه الثروة على طريقتها.. طريقتها عالمية وطريقته كانت قومية. ■



كان كونراد مهووساً بالبحث عـــن البتـــرول وحـــاول الإنجليـــز والأمريكيـــون إغـــراءه لكنــــه ظـــل وفيـــاً لبلاده فرنســـا.. وعنـــدما ضـــاعت أحلامه انتحر عام ١٩٥٠



الحرب على الفساد «الأفريقى»

يواكيم تشيسانو

▪ أود فى البداية أن أعبر عن شكرى الجزيل والعميق للجنة جائزة مؤسسة مو إبراهيم على منحى أولى جوائز مو إبراهيم للإنجاز فى القيادة الأفريقية. وإنى أمتدح الدكتور مو إبراهيم لرؤيته الخاصة بتأسيس الجائزة. كما أقبل الجائزة بتواضع وبشرف كبير. فأنا أقبلها باعتبارها تبجيلاً لملايين النساء والرجال فى موزمبيق، شباباً وشيوخاً، لالتزامهم الذى لا يكل بالحرية والسلام والديمقراطية والرخاء فى بلدنا.

عندما توليت القيادة كرئيس لموزمبيق فى عام ١٩٨٦ كانت البلاد تواجه حرب زعزعة للاستقرار دمرت البلاد وشعبها. وإمعاناً فى السوء، كان للكوارث الطبيعية أثرها القاسى على البلاد. وكان هناك تفاهم مشترك بين شعبنا والقيادة على أن أهم هدف يجب بلوغه هو إنهاء الحرب. وقد ألزمنا أنفسنا بإنهاء الحرب وإقامة السلام والتحول الاقتصادى.

وفى هذا الصدد، بدأنا العمل ببرنامج لإعادة التأهيل الاقتصادى فى عام ١٩٨٧ فى مسعى لتشجيع النمو الاقتصادى وتغيير مجتمعنا. وشمل البرنامج خصخصة المشروعات المملوكة للدولة وخلق الأطر القانونية والاقتصادية الكلية الممكّنة للاستثمار الخاص، الأجنبى والمحلى.

وفى عام ١٩٨٩ كان هناك جدل على مستوى الأمة بشأن الإصلاحات الدستورية. وكانت غالبية كبيرة من الشعب الموزمبيقى ضد فتح البلاد للنظام السياسى متعدد الأحزاب. ولكن قيادة البلاد شعرت بأن الدستور الجديد ينبغى أن يُدخل الديمقراطية متعددة الأحزاب وكذلك اقتصاد السوق، وتوسيع حقوق المواطنين. وأُقر الدستور فى عام ١٩٩٠ .



على هذه الخلفية، وسعنا اتصالاتنا، وتفاوضنا مع المتمردين. وبدأنا فى الوقت نفسه محادثات مع العديد من الجماعات الموزمبيقية، المقيمة داخل البلاد وخارجها. وشمل ذلك هؤلاء الذين كنا نعلم أنهم يدعمون حركة رينامو المتمردة. وكان هدفنا هو جمع الموزمبيقيين جميعاً على المسار نفسه: ذلك المسار الذى يصل بالبلاد إلى السلام والاستقرار والتنمية.

نجحت تلك الجهود فى أكتوبر من عام ١٩٩٢ عندما وُقعت اتفاقية السلام بين الحكومة ورينامو فى روما. وقد أتاحت تلك الاتفاقية الفرصة للعمل والأمل للأمة بكاملها.

ولكى يكون للسلام معنى، ولكى نستغل مكاسب السلام ذات القاعدة العريضة، فقد جرى إعادة تأهيل البنية الأساسية وتحديثها وتوسيعها، وإعادة توطين اللاجئين والنازحين، وكذلك إعادة الدمج الاقتصادى والاجتماعى للمقاتلين السابقين باعتبار تلك أموراً ذات الأولوية. كما جرى تعزيز المؤسسات الديمقراطية والمساواة بين الرجل

كلمة ألقاها الرئيس الموزمبيقى السابق فى مكتبة الإسكندرية يوم ٢٦ نوفمبر الماضى بمناسبة تسلمه جائزة «مو إبراهيم» للحكم الرشيد فى أفريقيا.

مؤشر الحكم الرشيد

فى ٢٦ نوفمبر الماضى منحت مؤسسة مو إبراهيم للحكم الرشيد فى أفريقيا جائزتها للمرة الأولى للرئيس الموزمبيقى الأسبق جواكيم تشيسانو، ونظراً لجهوده فى تحسين أحوال شعبه وتخليه عن الحكم طواعية فى سابقة نادرة من الزعماء الأفارقة.

والجائزة، وهى الأعلى قيمة فى العالم تمنحها المؤسسة التى أسسها رجل الأعمال السودانى الشهير عام ٢٠٠٦ للقادة فى جنوب القارة السمراء، بناء على اختيار لجنة تضم شخصيات رفيعة المستوى تتألف من سكرتيرعام الأمم المتحدة السابق كوفى أنان والرئيس الفنلندى السابق مارتى اهيتسارى، ومارى روبنسون رئيسة أيرلندا السابقة، وسالم أحمد سالم السكرتير العام للاتحاد الأفريقى، وعائشة ديالو المستشار الخاص لليونسكو حول أفريقيا ونوجوزو ايويلا وزير المالية النيجيرى السابق.

وقد وضعت مؤسسة مو إبراهيم للحكم الرشيد مؤشراً علمياً بتصنيف الدول الأفريقية جنوب الصحراء الكبرى وهو يستهدف:

❖ توفير المعايير الموضوعية التى يمكن بها للمواطنين إخضاع حكوماتهم للمحاسبة.

❖ تشجيع مناقشة الحكم الرشيد عبر إفريقيا جنوب الصحراء الكبرى والعالم.

كما يهدف المؤشر إلى تعزيز الحكم الرشيد فى إفريقيا لتحسين حياة الأفارقة فى كل مكان. وقد نُشر مؤشر إبراهيم الأول فى سبتمبر من عام ٢٠٠٧ وسوف يجرى تحديثه بشكل سنوى، ليكون بمثابة سجل للتقدم الوطنى فى إفريقيا جنوب الصحراء الكبرى.

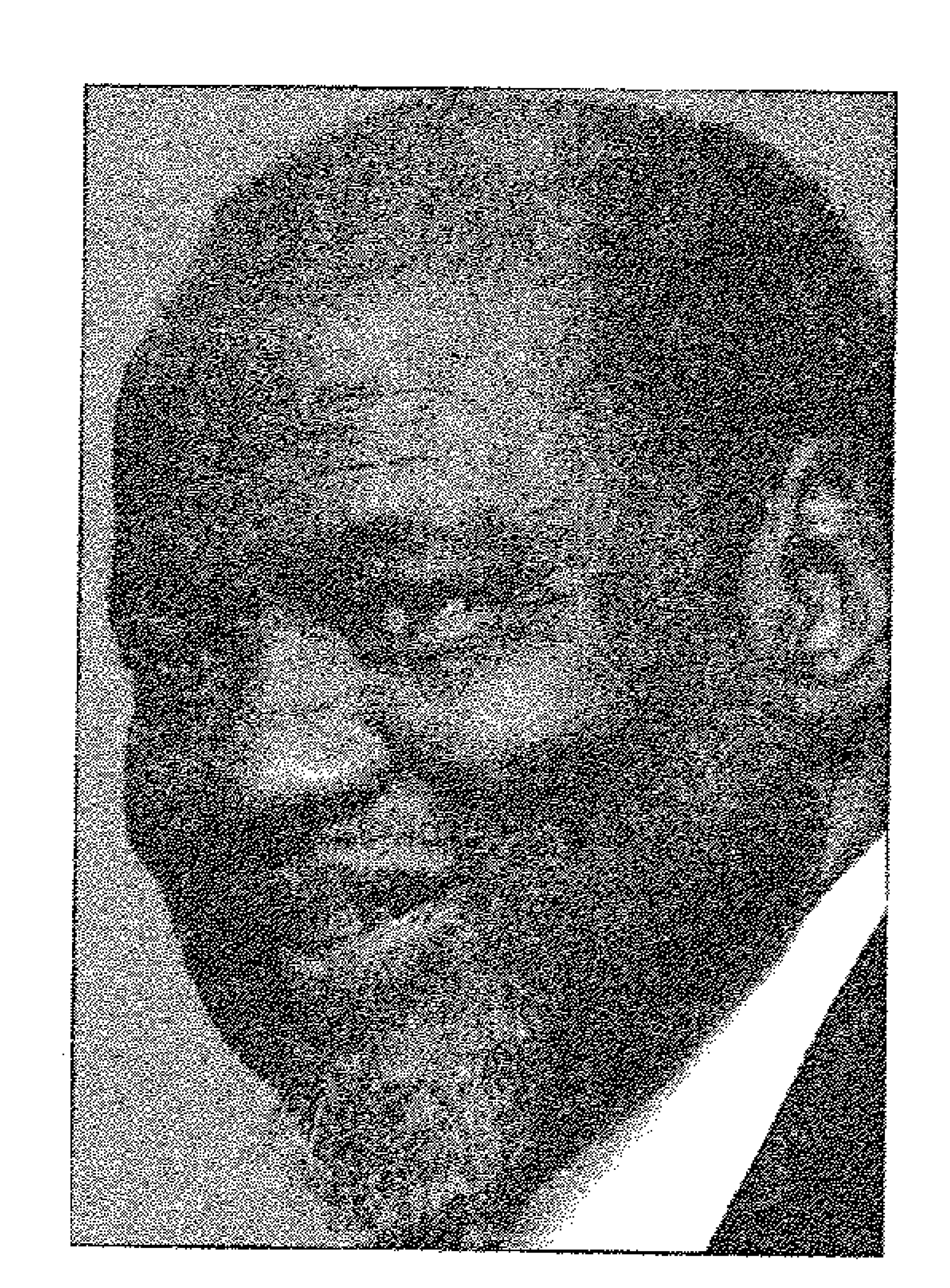
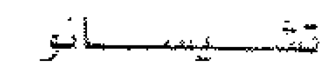
وقد أعد المؤشر بتوجيه من مدرسة كنيدى للحكم الرشيد فى جامعة هارفارد، وبقيادة البروفيسور روبرت روتبرج مدير برنامج الصراع داخل الدول وحل الصراعات، كما شارك فى الإعداد المجلس الاستشارى الذى يضم مجموعة من الباحثين والممارسين الأفارقة المميزين.

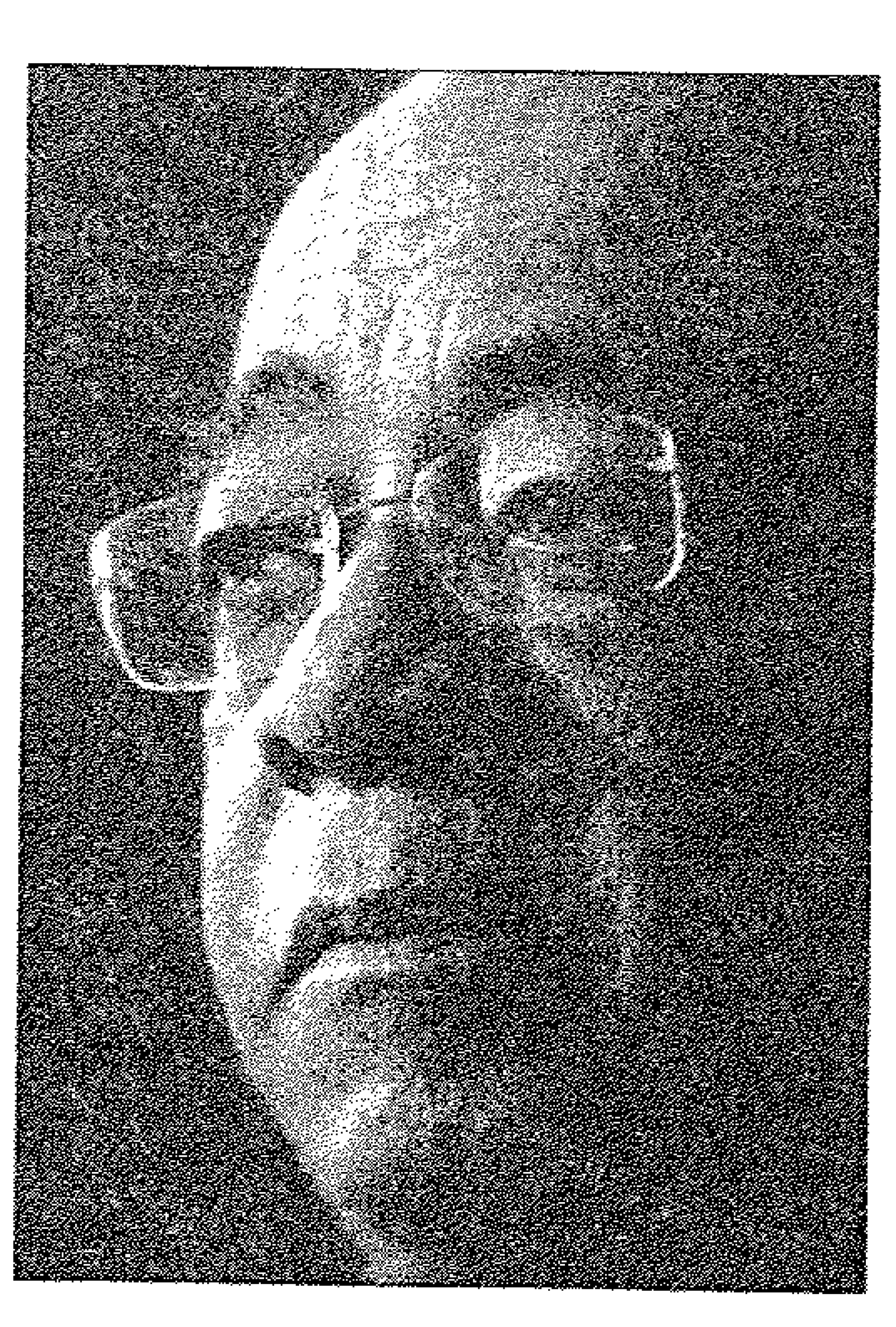
ويقيس مؤشر إبراهيم مدى توافر المصالح السياسية الأساسية التى يمكن تجميعها فى خمس فئات:

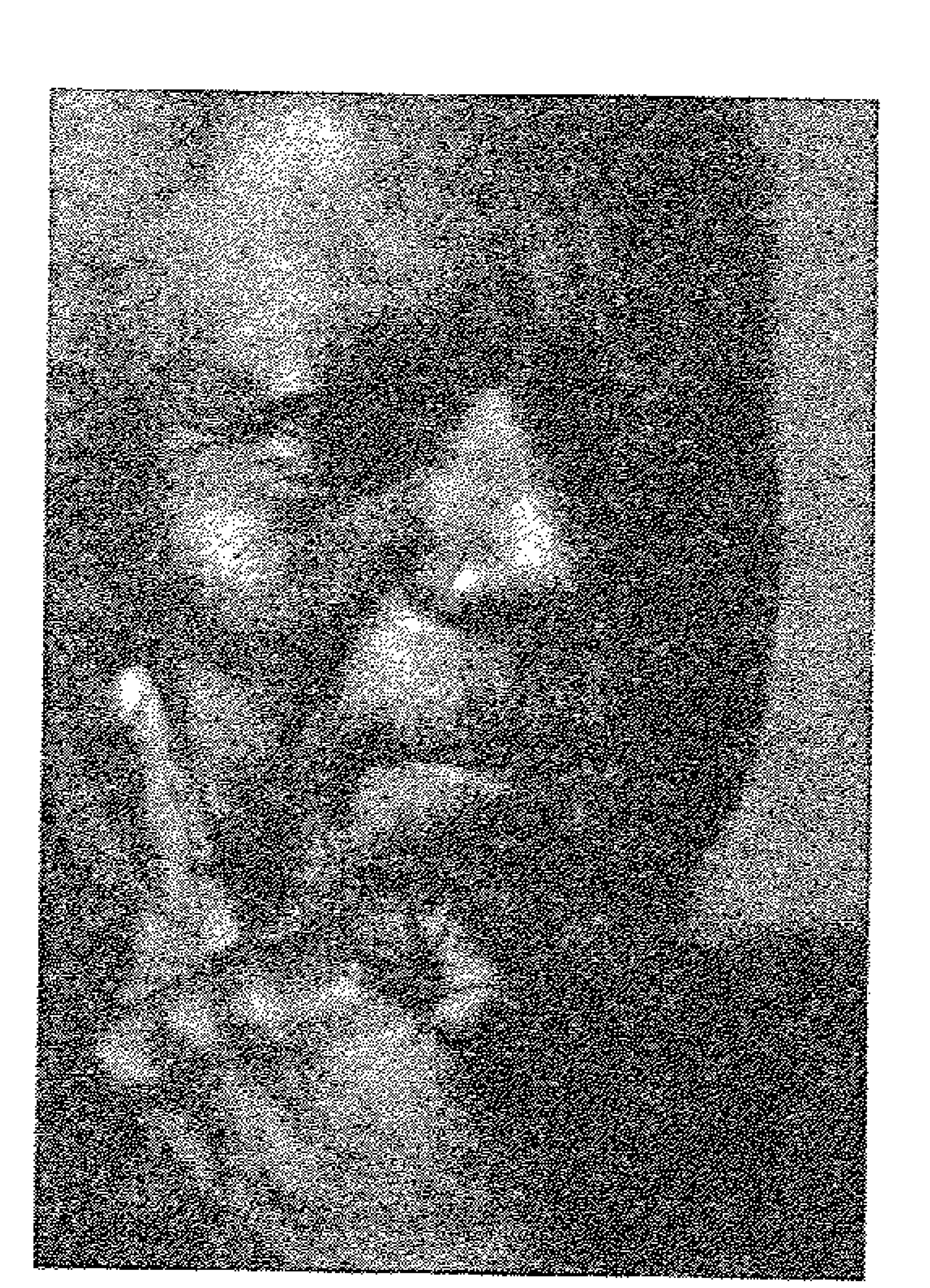
❖ الأمن والأمان
❖ حكم القانون، والشفافية والفساد
❖ المشاركة وحقوق الإنسان
❖ الفرصة الاقتصادية المستدامة
❖ التنمية البشرية

وبصورة عامة هناك ٥٨ قياساً منفصلاً تطبق على كل بلد لتوليد نقاط للفئات الخمس. ويولد متوسط مجموع نقاط الفئات الخمس التقدير العام للبلد، الذى يكون بمثابة الأساس للترتيب النهائى.

وقد اعتمد مؤشر ٢٠٠٧ على بيانات من عام ٢٠٠٥ و٢٠٠٦ وطبقاً لهذا المؤشر، فقد جاءت موريشيوس فى المركز الأول بـ ٨٦,٢ نقطة تلتها سيشل، ثم بوتسوانا والرأس الأخضر وجنوب أفريقيا والجابون وناميبيا وغانا والسنغال وساوتومى وبرنسيت، بينما جاءت الصومال فى المركز الثامن والأربعين وهى الأخير فى المؤشر بـ ٢٨,٢ نقطة وسبقتها الكونغو الديمقراطية وتشاد والسودان وغينيا بيساو وليبيريا وأنجولا.



تشيسانو


مو إبراهيم


كوفي أنان

والمرأة. وهو ما تم في إطار المصالحة الوطنية وبناء السلام وترسيخ الإصلاحات السياسية والاجتماعية، وأدى إلى ظهور ثقافة التسامح وسياسة الاحتواء.

بالإضافة إلى ذلك فقد أعطيت الأولوية للزراعة من أجل إنتاج المحاصيل الغذائية والنقدية بواسطة الفلاحين بغرض إنعاش الاقتصاد. وكانت نتيجة ذلك، وبالرغم من الفيضانات الشديدة في عامي ٢٠٠٠ و٢٠٠١، أن زاد إجمالي الناتج المحلي بمعدل سنوي مقداره ٨.١٪ ومع أن الفقر مازال التحدي الرئيسي الذي يواجه البلاد، فإننا على ثقة من أننا نسير على طريق تحقيق معظم أهداف التنمية الألفية.



بالرغم من أن دستور موزمبيق كان يسمح لي بالترشح لفترة ثالثة في الانتخابات الرئاسية لعام ٢٠٠٤، فقد قررت ألا أرشح نفسي. وكانت نتيجة ذلك أن أعلنت قراري بعدم السعي لتولي منصب الرئيس لفترة ثالثة قبل موعد الانتخابات بثلاث سنوات. وذلك من أجل أن تعد البلاد نفسها لانتقال سلمي للسلطة.

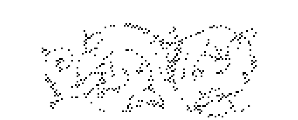
لقد تأثر قراري إلى حد كبير بفهم أن البلاد في سلام وأن الاقتصاد ينمو باطراد. كما كانت الديمقراطية تتأصل. إلى جانب أني أدركت أن الوقت قد حان وباتت الظروف مواتية للسماح لقيادة جديدة بتولي الحكم ودفع البلاد إلى الأمام.

ويسعدني أن خلفي الرئيس أرماندو جيبوزا قد عزز مكاسب السلام وأدخل ديناميكيات جديدة خاصة بالتحول الاجتماعي والاقتصادي للبلاد. والواقع أن التقدم مازال في ازدهار في موزمبيق.

ومع أني لم أعد في الحكم، فما زلت أقدم دعمي وتأييدي للتنمية السياسية والاجتماعية والاقتصادية للدولة، من خلال مؤسسة يواكيم تشيسانو التي بدأت عملها في نوفمبر من عام ٢٠٠٥. وأعمدة المؤسسة الثلاثة هي تعزيز السلام، والتنمية الاجتماعية والاقتصادية، وكذلك الثقافة.

ومازلت أشارك في الأمور المحلية والإفريقية لأني أعلم جيداً مقدار مازلنا بحاجة إلى القيام به للارتقاء ببلدنا وقارتنا. فها هو الفقر لا يزال تحدياً كبيراً. كما أنه لابد من القضاء على مرض نقص المناعة البشرية المكتسبة/الإيدز، والملاريا، والسل. ولابد من استكمال عملية بناء الأمة في إفريقيا. ومازال السلام مراوغاً.

لابد لنا من تنمية وتأصيل ثقافة السلام في مجتمعاتنا. ولابد من تعزيز سلامة الأراضي. ولابد من تشجيع الشراكة بين العام والخاص وإعطاء دور أقوى لقطاعنا الخاص. ولابد من محاربة الفساد وتعزيز الأمانة والحكم الرشيد. ولابد من بدء واستدامة عملية الحوار الوطني والمصالحة في البلدان كافة التي خرجت من الصراع. باختصار، لابد لنا من العمل في اتجاه بناء دول تتمتع بالقدرة والكفاءة في أفريقيا.



لكي يكون للسلام معنى، ولكي نستغل مكاسب السلام ذات القاعدة العريضة، فقد جرى إعادة تأهيل البنية الأساسية وتحديثها وتوسيعها، وإعادة توطين اللاجئين والنازحين



في الختام يسعدني قبول هذه الجائزة من مؤسسة مو إبراهيم، ويشرفني أن أكون أول من يحصل على جائزة مو إبراهيم. إن هدف المؤسسة الخاص بالاعتراف والاحتفاء بالقيادات الأفريقية هدف نبيل. وإني أتطلع إلى الاستفادة من الجائزة في عمل ما يمكنني لتعزيز الحكم الرشيد في القارة التي تتغير بسرعة للأفضل. وشكراً للمؤسسة وللجنة الجائزة. ■


مراجعة
"المراجعات"

هذه المراجعات خطوة إيجابية وشجاعة، ولكنها بدائية تحتاج لاستكمال وتطوير وإنضاج كما فعلت «الجماعة الإسلامية» في مراجعاتها في مراحلها الأخيرة.

أبو العلا ماضي

كانت مجموعات الجهاد تؤسس لشروعية قيامها باستخدام العنف أو «القوة» في تغيير الأنظمة على أساس تكفير هذه الأنظمة وبالتالي استحلال قتلهم ودمائهم



نشرت عدة صحف مصرية وعربية سلسلة أجزاء من دراسة للدكتور سيد إمام عبد العزيز الشريف المعروف باسم د. فضل تحت عنوان ذي دلالة وهو المراجعات الفقهية لـ «الجهاد»، وبالطبع يقصدون حركة «الجهاد» المصرية أو بعضا من رموز جهادية، واسم هذه الوثيقة هو «ترشيد الجهاد في مصر والعالم». والحقيقة أن هذا الموضوع بالغ الأهمية سواء على المستوى المحلي (مصر) أو العربي والدولي. وبالتالي الأمر يحتاج لنقاش طويل ومعمق سأحاول أن أساهم فيه مع كثيرين غيري ممن لهم صلة بهذا الشأن، وقد ساهمت بجهد متواضع طوال السنوات الماضية في رصد الظاهرة الإسلامية بكل تكويناتها ودراساتها بشكل نقدي ومحاولاً أن أكون موضوعياً، وكان من ضمن من شملتهم هذه الرؤية «الجماعة الإسلامية الجهادية» في مصر وخاصة بعد مراجعاتهم الشاملة، التي تصلح لأن تكون الآن وبعد أكثر من ٥ سنوات من نشر أولى كتبهم الأربعة والتي نشرت تحت عنوان «سلسلة تصحيح المفاهيم» في يناير عام ٢٠٠٢ مشروعاً متكاملاً للمراجعات، وقد كتبت كتاباً عن هذا الموضوع «جماعات العنف المصرية وتأويلاتها للإسلام» وكذلك عدة دراسات نشرت في أماكن مختلفة وآخرها فصل في كتاب سيصدر قريباً بإذن الله مع مجموعة من كبار العلماء والمفكرين والمهتمين بالظاهرة في العالم العربي والإسلامي، ولذلك وجدت من الأهمية بمكان أن أشارك في رصد هذه الظاهرة الهامة وقراءة المشروع الجديد للمراجعات الخاصة بمجموعة أو أكثر من مجموعات «الجهاد»، وسأبدأ بملاحظات عامة ومنهجية قبل الدخول في مناقشة المراجعات ذاتها:

أولاً: أول من كتب بشكل حقيقي وعلني وعميق في هذه المراجعات هو الأخ والصديق الدكتور كمال حبيب في دراسة هامة له نشرتها مجلة «المنار الجديد» في عدد يناير ١٩٩٨ م بعنوان «الحركة الإسلامية المعاصرة» وبالطبع هذا المقال سبق نشر مراجعات «الجماعة الإسلامية» بثلاث سنوات ثم بعد ذلك كتابه الهام أيضاً «الحركة الإسلامية من المواجهة إلى المراجعة».

ثانياً: يلي ذلك مراجعات «الجماعة الإسلامية» التي انتهجت العنف بالكتب الأربعة الأولى السابق الإشارة إليها ثم تكرر صدور عدد كبير منها حتى وصل عدد الكتب والكتيبات الصغيرة إلى مايقرب من ثلاثين إصداراً، ولقد لاحظت تطور ونضج الكتابة والأفكار في الكتب الأخيرة أكثر من الكتب الأربعة الأولى.

ثالثاً: يجب التنبيه إلى المدخل الصحيح لمراجعة أحداث العنف التي تمت من قبل عدد من الجماعات والمجموعات التي مارسته وخاصة في أوطانها وضد مواطنيها أو سلطاتها لم يكن أبداً «جهاداً» بقدر ما كان افتئاتاً على السلطة وعدواناً وبالتالي لا يجب مناقشة هذه الأفعال على أنها من باب «الجهاد» ولكنها من باب «الفتنة».

رابعاً: أنه لم يكن هناك جماعة «الجهاد» بالتعريف المستقر عن «الجماعة» بمعنى الانتشار في معظم أنحاء القطر وتنظيم هرمي... إلخ، ولكنها كانت مجموعات صغيرة منتشرة في مناطقها فقط وليست مرتبطة ببعضها البعض سوى بالمغذيات الفكرية شديدة التقارب والشبه وبالتالي لا يمكن القول أن شخصا من رموز هذه المجموعات زعيم أو قائد جماعة «الجهاد» ولكن زعيم وقائد مجموعة جهادية محددة.

خامساً: من بعض هذه الرموز الجهادية من حظي بتأييد يتجاوز حدود مجموعته الصغيرة ولعل منهم صاحب هذه المراجعات الأخيرة الدكتور سيد إمام أو (د. فضل)، وكتبه السابقة وخاصة «العمدة في إعداد العدة» ١٩٨٨م، و«الجامع في طلب العلم الشريف» ١٩٩٣م كانت شديدة الانتشار والتأثير على مجموعات جهادية متعددة سواء في مصر أو العالم العربي ولذلك تحمل مراجعاته أهمية خاصة بالرغم من محدودية مجموعته السابقة التي انفصل عنها منذ مدة.

سادساً: بالرغم من الانتقادات التي سنوجهها أحياناً لهذه المراجعات فإن الصبر عليها لتطويرها أمر واجب، ولقد كان الأمر نفسه في مراجعات «الجماعة الإسلامية» حيث بدأت أولى إصداراتهم ضعيفة وغير كافية، لكن مع النقد والتصويب من خارجهم استجابوا مشكورين في الكتابات التالية وأصبحت كتبهم أكثر نضجاً وأكثر استجابة لهذا النقد والتقويم، وبالتالي يجب أن نكرر الأمر نفسه مع مراجعات «الجهاد».

سابعاً: أن ظاهرة العنف لها مستوى محلي ومستوى دولي ويساهم فيها بالإضافة للأفكار والأفهام الخاطئة للنصوص الإسلامية من كل هذه الجماعات والمجموعات أسباب محلية وأسباب خارجية معاً لكنها في العنف المحلي تتعاظم الأسباب المحلية عن الخارجية وفي العنف الدولي تتعاظم الأسباب الخارجية عن المحلية.

ثامناً: من الأسباب المحلية التي تساهم في تغذية ظاهرة العنف غياب الحريات السياسية بكافة أنواعها وانتهاك حقوق الإنسان وغياب العدالة واحترام القانون، والأوضاع الاقتصادية المتردية وغياب العدالة الاجتماعية... إلخ، ومن أهم الأسباب الخارجية هو سيطرة النظرة الغربية الاستعمارية على المنطقة العربية والعالم الإسلامي والكيل بمكيالين في كل القضايا العربية والإسلامية، ودعم المشروع الصهيوني في فلسطين، واحتلال العراق وأفغانستان والعدوان على الدول العربية المختلفة، والنظرة فقط للمصالح الغربية دون مصالح المنطقة العربية، والحفاظ على الفجوة الهائلة في كل شيء في العلم والتكنولوجيا والاقتصاد.. إلخ مع العالم العربي والإسلامي والعالم الثالث أو (أهل الجنوب).

تاسعاً: حين نقوّم هذه المراجعات لابد من معيار أو «مسطرة» نستعملها في تقويم هذه المراجعات لنقول أنها كافية أو غير كافية، مناسبة أو ناقصة، صحيحة أو خاطئة.. إلخ، ولقد كتبت في عدة دراسات لي حول هذا الموضوع حوالي ٩ مرتكزات استندت إليها جماعات العنف والتكفير وغيرها في تأسيس أعمالها، وسوف نستعمل هذه المرتكزات التسعة بإذن الله في تقويم المراجعات.



ولقد ثار تساؤل مشروع حول: هل كل استخدام للعنف والقوة غير مشروع؟ والإجابة تتوقف على نوع الاستخدام وليس على أصل الاستخدام، ولقد فرق العقلاء دائماً بين استخدام القوة والعنف في الدفاع عن النفس والمال والعرض والوطن، وكل هذا مشروع شرعاً وعقلاً وكمبادئ قانونية مستقرة سواء في التشريعات المحلية أو الدولية، وهي الفكرة التي تعرف حديثاً «بالمقاومة» تمييزاً لها عن العنف غير المشروع وغير المبرر وهو العنف الذي تستخدمه جماعات أو مجموعات مسلحة أو حتى أفراد وخاصة في الصراع السياسي كأحد أساليب الوصول للسلطة أو التخلص من المخالفين في الرأي، وهو المقصود بالعنف غير المشروع وغير المبرر والذي اصطلح الناس على تسميته «بالإرهاب» ولذلك النزاع دائماً حول التفريق بين «المقاومة» و«الإرهاب» وعن تعريف كل منهما.

نعود إلى المرتكزات الفكرية السابقة لمجموعات العنف ومنها مجموعات الجهاد التي يعبر عن مراجعاتها الآن د. سيد إمام، لقد كانت مجموعات الجهاد تؤسس لشروعية قيامها باستخدام العنف أو «القوة» في تغيير الأنظمة على أساس تكفير هذه الأنظمة وبالتالي استحلال قتلهم ودمائهم ومنهم من كفر الأنظمة وكفر أعضاء هذه الحكومات والعاملين فيها من رؤساء ووزراء ونواب بالبرلمان وقضاة ورجال أحزاب... إلخ، كما فعل د. صالح سرية قائد تنظيم «الفنية العسكرية» في رسالته «الإيمان»، وكذلك فعل ذلك أي كفر الحكام محمد عبد السلام فرج في كتابه «الفريضة الغائبة» وهو نفسه صاحب هذه المراجعات أي د. سيد إمام في كتابه «الجامع في طلب العلم الشريف» الذي كفر فيه أيضاً من يشارك في مجلس الشعب (البرلمان) واعتبر أن وظيفة هذه المجالس شركية (كما جاء في مقال د. أسامة رشدي في تعليقه على مراجعات د. سيد إمام «بالمصري اليوم»)، والحقيقة أنني قرأت كل الحلقات فلم أجد فيها رداً على هذا المرتكز أي تكفير الحكام ونظم الحكم، ولكن ما جاء في هذه الحلقات كان فقط

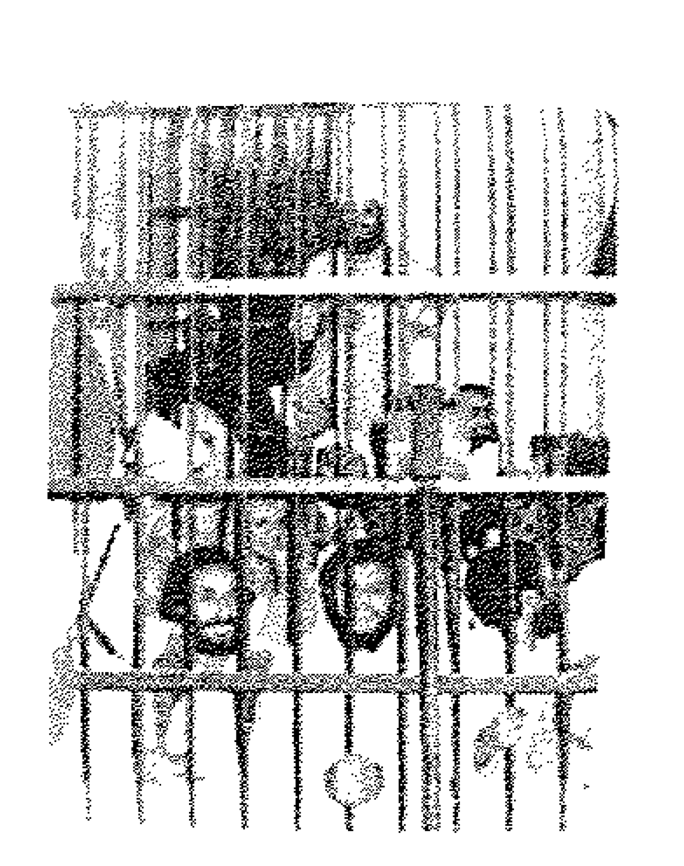


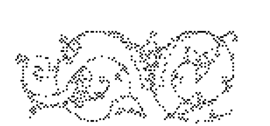
على قضية التكفير بشكل عام وحدد فيها أنواع الكفر الأكبر الذى يخرج صاحبه من الملة والكفر الأصغر الذى لا يخرج صاحبه من الملة (الحلقة الأولى) والإشارة الثانية كانت فى الحلقة الخامسة وفرق فيها بين العلم بكفر السلطان وبين وجوب الخروج عليه ومنع الخروج فقط عند العجز أو إذا غلبت المفسدة فى الخروج ثم أضاف فى نفس الحلقة الخامسة مقولة «وسواء كان ترك الحاكم الشريعة كفراً أو كفراً دون كفر أو معصية - فإننا لا نرى أن الصدام مع السلطات الحاكمة فى بلاد المسلمين باسم الجهاد هو الخيار المناسب للسعى لتطبق الشريعة» وهو قول غير كاف لأنه لم يحسم رأيه فى المسألة، حيث أورد الرأيين فى بداية الفقرة المشار إليها، والحقيقة أن مراجعة هذا المرتكز أمر بالغ الأهمية قبل الحديث عن العجز عن مقاومة السلطات أو غلبة المفسدة فى الخروج عليه، ثم تحدث فى الحلقة التاسعة عن «ضوابط التكفير فى الشريعة» وهو أيضاً يتحدث عن تكفير الأفراد وهى قضية هامة فى فكر «جماعة التكفير والهجرة» وليس فى فكر جماعات الجهاد كلها وإن كان بعضها تأثر بهذه الأفكار. واستكمل الحديث عن ضوابط التكفير فى الحلقة العاشرة بكلام منقول ولكن أيضاً عن تكفير عامة المسلمين وليس نظم الحكم والقائمين عليها وهو أمر أتمنى أن يستوفيه د. سيد إمام فى مراجعاته فالأمر يستدعى خروج دراسات أخرى معمقة كما فعلت رموز الجماعة الإسلامية الجهادية فى مراحل لاحقة من مراجعاتهم وخاصة كتاب «الحاكمية» للدكتور ناجح إبراهيم الصادر عام ٢٠٠٤م.

والمرتكز الثانى الذى تأسست عليه أفكار مجموعات الجهاد هو:

«وجوب استعمال القوة فى تغيير أنظمة الحكم على أنه هو الجهاد الصحيح» وبالطبع كانت كل الوثائق القديمة لكل المجموعات الجهادية ومنهم المجموعة التى كان ينتمى إليها د. فضل وكذلك «الجماعة الإسلامية الجهادية» تتحدث عن تغيير الأنظمة الحاكمة بالقوة على أنه الجهاد الحقيقى والصحيح، وقد تم استدعاء كل النصوص القرآنية التى تتحدث عن الجهاد وتحض عليه وتم استخدامها لتبرير هذا الصدام والقتال مع الحكومات العربية لأنهم كفَّروها واستحلوا قتالها، وهذا الذى أحدث لبساً مع مفهوم الجهاد الصحيح فى الإسلام الذى هو ذروة سنامه وهو قتال المعتدين على الأنفس والأعراض والمحتلين للعباد والبلاد، وبالتالى ما وقع من هذه الجماعات والمجموعات لم يكن جهاداً ولكنه عدوان، فكيف عالج د. فضل هذا المرتكز فى حلقاته وخاصة أن فى مخيلته ما وقع من صدام مع الحكومات العربية والمسلمة وما وقع من أحداث عنف على مستوى عربى ودولى فى بلاد الغرب، فهو يتحدث عن هذه الوقائع على أنها أخطاء وقعت فى «الجهاد»، وهو أمر تكرر من قبل

مراجعة المراجعات ٢٠٠٧





الأمر يستدعى خروج دراسات أخرى معمقة كما فعلت رموز الجماعة الإسلامية الجهادية فى مراحل لاحقة من مراجعاتهم وخاصة كتاب «الحاكمية» للدكتور ناجح إبراهيم



فى بداية مراجعات «الجماعة الإسلامية الجهادية» وانتقدناه فى حينه حينما كتبوا كتيباً بعنوان «تسليط الأضواء على ما وقع فى الجهاد من أخطاء» ولكنهم استدركوا الأمر فى الكتابات اللاحقة، والأمر يتكرر بالنسبة لدكتور/ فضل عند بداية المراجعات فهو يعدد الأفكار والجرائم التى ارتكبت سواء على مستوى محلى أو مستوى دولى ويستنكرها (الحلقة الأولى) ثم يناقش الأسباب التى تمنع من الجهاد كعدم القدرة والاستضعاف وعدم القدرة على النفقة (سماها فاقد النفقة) ورفض استحلال المال الحرام بزعم الجهاد (الحلقة الثالثة) وأضاف شروط وجوب الجهاد ومنها إذن الوالدين وإذن الدائن واعتبر أن المحافظة على نفوس المسلمين من مقاصد الشريعة وربط الجهاد بالقدرة وتحقيق المصلحة (الحلقة الرابعة) ورد على من قال بجهاد المنفرد (الحلقة الحادية عشرة) وكذلك نهى عن أن يشتمل الجهاد على عدوان (نفس الحلقة) واشترط فى الجهاد التكافؤ (الحلقة الحادية عشرة) وهى كلها آراء جيدة فى فقه الجهاد الحقيقى، وبقى أن يقول بشكل صريح أن ما وقع تحت هذا العنوان «الجهاد» كان عدواناً وليس جهاداً، ويجب عليه فى المستقبل أن ينقض تأسيس فكرة استعمال القوة فى التغيير ويرد على من استخدم ما عرفت بـ «آية السيف» وهو قوله تعالى «فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد» آية ٥ سورة التوبة، على أنها نسخت كل آيات الصفح والعفو كما ورد فى كتيب «الفريضة الغائبة» لمحمد عبد السلام فرج فإذا فعل د. فضل ذلك يكون قد أكمل ما بدأ من تقبيح للأفعال التى وقعت باسم الجهاد.

المرتكز الثالث الذى استندت إليه جماعات العنف فى أعمالها ومنها مجموعات الجهاد هو تفسيرهم لمفهوم «الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر» وهو ما يُعرف فى الفقه الإسلامى بالحسبة، وهو مفهوم إسلامى أصيل فالدين جزء كبير منه إما أمر بمعروف أو نهى عن منكر، فالتوحيد معروف والأمر به هو أمر بالمعروف وكذلك الشرك بالله منكر والنهى عنه نهى عن المنكر، والأخلاق الحميدة معروف والأمر بها أمر بالمعروف وكذلك الأخلاق السيئة منكر والنهى عنها نهى عن المنكر، وكل أفعال الخير معروف وكل أفعال الشر منكر وهكذا، لكن المشكلة كانت فى تفسير المجموعات التى انتهجت العنف فى درجات تغيير المنكر ومن يقوم بها، والحديث العمدة فى هذا الشأن هو قول الرسول صلى الله عليه وسلم: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلكم أضعف الإيمان».

وقد قسم العلماء التغيير بناء على هذا الحديث إلى ثلاثة مستويات (وبعد التأكد من كونه منكراً، لأنه أحياناً يظن البعض فعلاً على أنه منكر وهو أمر مختلف فى تفسيره أى لا جزم بكونه منكراً كالموسيقى مثلاً): والمستوى الأول التغيير بالقلب أو الإنكار بالقلب وهو فى قدرة كل الناس، والمستوى الثانى فى التغيير أو الإنكار باللسان وهى مسئولية من يقدر عليه من العلماء والمفكرين والمثقفين وجمعيات المجتمع المدنى، فهو فى العصر الحديث اتسع الأمر وخاصة فيما يتعلق بالشأن العام سواء السياسى أو الاقتصادى أو الثقافى... إلخ، والمستوى الثالث هو التغيير باليد أو بالقوة وهو أمر يتوقف على كل مسئول فى سلطانه كالأب مع أولاده أو القائد مع جنوده أى له سلطان معروف ومقبول أما فيما يتعلق بسلوك الأفراد بين الناس، فهذا واجب السلطان أو الحكومة ولها أن تنيب عنها من يقوم بهذا الواجب بإذنها وهو المكلف بالحسبة، أما من يتطوع من نفسه ويقوم بتغيير المنكر باليد على غير سلطانه فهو المفتئت على السلطة وهو باب كبير للشرور وقعت فيه تلك الجماعات فى ممارساتها السابقة، إذن المطلوب عند المراجعة مراجعة فكرة تغيير المنكر باليد فى خارج سلطانهم الشخصى وأخذ سلطة الدولة أو الحكومة ممن هو مكلف بشكل طبيعى أو رسمى، وهو أمر قامت به «الجماعة الإسلامية» فى مراجعاتها الأخيرة بشكل جيد، ولكن ماذا قال د. فضل فى هذه المراجعات؟ لم يرد فى كل الحلقات التى نُشرت ذكر مباشر لتغيير المنكر باليد إلا فى الحلقة الرابعة يذكرها فى معرض «أن الله لم يوجب الجهاد ولا تغيير المنكر باليد على المسلمين حال ضعفهم بمكة قبل الهجرة» وقرر منع ما أسماها هذه الواجبات الشرعية فى حالة الاستضعاف أو فى حالة وقوع ضرر على المسلمين وهى إشارة غير كافية وغير واضحة، كما وردت إشارة كذلك فى الحلقة الخامسة لذات الموضوع ولكن فى موضوع: النهى عن الخروج على الحكام فى بلاد المسلمين وحينما أراد ان يستدل على أن الخروج على الحكام ليس من باب تغيير المنكر باليد وهو أمر جيد، ولكنه أباح فى نفس الوقت تغيير المنكر باليد بين الرعية فقال نصاً حين تحدث عن فهم أن تغيير المنكر باليد هو إجازة للخروج على الحكام «وهذا خطأ لأنه إذا جاز تغيير المنكر باليد عند القدرة بين الرعية فإنه لا يجوز مع السلطان...»، وإن كانت جماعات ومجموعات الجهاد لم تكن تقوم بعمليات تغيير المنكر باليد بين الناس بشكل واسع كما كانت تفعل «الجماعة الإسلامية الجهادية».



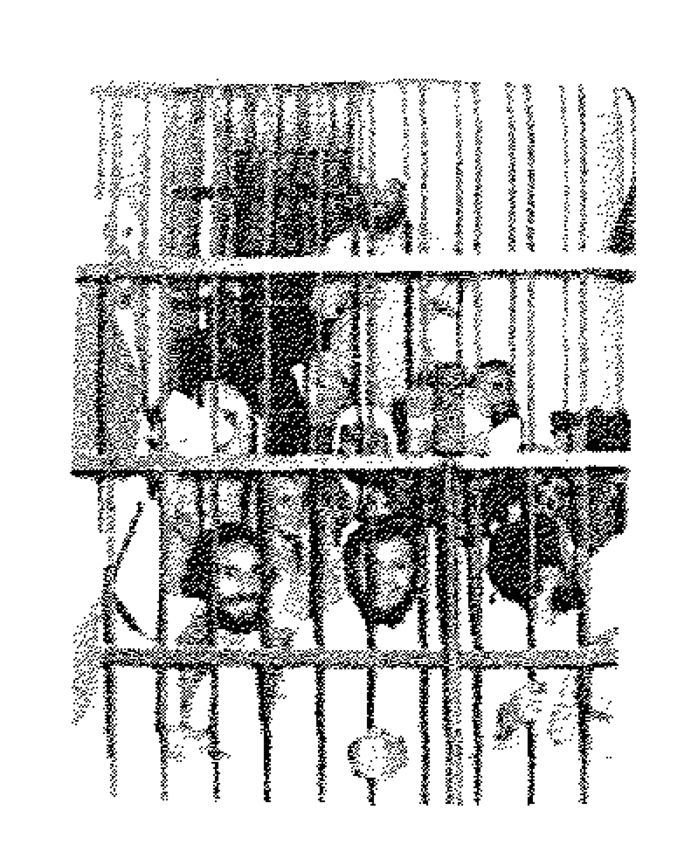
كذلك من المرتكزات الهامة فى فكر مجموعات العنف والجهاد فكرة «الحاكمية» (المرتكز الرابع)، وكذلك نموذج الدولة التى يسعون

لتطبيقها (المرتكز الخامس)، ففكرة الحاكمية أى الاحتكام لله ولحكمه توسعت فيها كل المجموعات التى استعملت هذا المصطلح بدءاً من الأستاذ أبو الأعلى المودودى فى باكستان إلى الأستاذ/ سيد قطب، فجماعات القطبيين ومن سار على دربهم من مجموعات الجهاد المختلفة : فكل هؤلاء اعتبروا أن أى حكم لم يأت من كتاب الله أو تشريع كان مصدره لم يرد فى المصادر الإلهية فهو احتكام لغير الله وللطاغوت، واعتبروه كفراً يوجب مقاتلة من قام به، وخالفوا بذلك أهل العلم الصحيح الذين يرون أن هناك أحكاماً كثيرة لم يأت بها نص لا فى كتاب ولا سنة صحيحة وبالتالى متروك للناس الاجتهاد فيها بما شاءوا بشرط عدم اصطدامها بقاعدة إسلامية صحيحة، وكذلك مازال عند كثير من الجماعات الإسلامية وفى القلب منها مجموعات الجهاد أن هناك شكلا واحدا للدولة الإسلامية القديمة والحديثة هو تنصيب خليفة واحد لكل المسلمين فى العالم فى دولة واحدة تحكم بالشريعة الإسلامية وتطبق الحاكمية وفق مفهومهم الخاص، وهو أمر ليس صحيحاً عند أكثر أهل العلم من العلماء الوسطيين الذين يرون أن شكل الدولة لم يرد به نص محدد فى القرآن الكريم أو السنة الصحيحة، وأن الذى ورد هى القيم التى تحكم هذه الدولة من الشورى والعدل والمساواة...إلخ، وأن كلمة خليفة كانت اجتهاداً من المسلمين بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم فلقد اختاروا الصديق أبا بكر رضى الله عنه وأسموه خليفة رسول الله (أى من خلفه)، ثم اختاروا الفاروق عمر وتحيروا فى تسميته: هل يسمونه خليفة خليفة رسول الله؟ فوجدوا أن هذا الأمر سيطول كلما مات رئيس وقائد وحاكم للمسلمين فى ذلك الوقت فأسموه «أمير المؤمنين»، وبالتالى تطورت الدولة إلى أشكال عدة حديثة منها ما هو ملكى أو جمهورى أو إمارة..إلخ، فلا يوجد شكل واحد كما يعلن هؤلاء للدولة الإسلامية، والمفكرون العدول أسموا الشكلين القديم والحديث بالدولة الإسلامية فقالوا عن الدولة القديمة الدولة الإسلامية القديمة وعن الموجودة الآن الدولة الإسلامية الحديثة، ونظراً لهذين المفهومين الحاكمية وشكل الدولة عملت جماعات العنف والجهاد على ممارسة العنف لتغيير هذه الدولة لشكل الدولة الإسلامية فى مفهومهم ولتطبيق الحاكمية كما فهموها أيضاً، ولقد قامت أيضاً «الجماعة الإسلامية» فى مراجعاتها بمراجعة هذين المفهومين بشكل معقول وخاصة مفهوم الحاكمية وأصدروا كما سبق ذكره كتاب «الحاكمية»، وهو أفضل من عالج فكرة الحاكمية عند تلك الجماعات، فماذا فعل د. فضل فى هذه المراجعات؟

الحقيقة أن د. فضل مازال يتحدث عن الأشكال الفقهية القديمة لتصنيف الدول والبلاد فهو يتكلم فى الحلقة السادسة عن دار الإسلام ودار الحرب، ويتحدث عن عدم القدرة على إلزام الكفار فى بلاد الإسلام بالتمييز فى المظهر ويبرر ذلك بقوله «بسبب العجز أصلاً عن إقامة الحكم الإسلامى» وهو مفهوم مبطن عن الشكل القديم للدولة الإسلامية، كما ورد كذلك فى الحلقة الأخيرة من هذه المراجعات (الحلقة الخامسة عشرة) إشارة إلى أن الخلافة قد تنقطع من الدنيا بعض الأزمنة، واستدل على ذلك بسؤال حذيفة رضى الله عنه للنبى صلى الله عليه وسلم بقوله: «فإن لم تكن لهم جماعة ولا إمام»، والحقيقة أن العلماء أجمعوا على وجوب تنصيب الأمير أو الحاكم لدى الجماعة وهى الأمة أو الدولة، أما اسم هذا الأمير أو الحاكم فيكون يسمى خليفة أو أمير المؤمنين أو رئيس أو ملك أو حتى أمير فقط فكلها تحقق المراد من الشريعة بتنظيم شئون الناس وجماعتهم أى دولتهم، وهو أمر يحتاج لمراجعة حقيقية من الدكتور فضل ومن معه، كما أنه لم يرد لفظ «الحاكمية» فى هذه المراجعات من قريب أو بعيد وبالتالى تظل هذه المسألة فى انتظار المراجعة.

يقوم المرتكز السادس الذى استندت إليه جماعات العنف فى تأسيس فكرها على أساس أن غير المسلمين(كالأقباط المسيحيين فى مصر) فى بلاد المسلمين نقضوا عهد الذمة الذى بموجبه فى مفهومهم يدفعون الجزية وعليه فدمهم مباح وكذلك أموالهم ولذلك استحلوا دماءهم وكذلك استحلوا أموالهم، ولقد كانت «الجماعة الإسلامية الجهادية» أكبر المجموعات التى قامت بهذا الاستحلال للدماء فى صراعها مع السلطة وكذلك استحلال الأموال ومثالها سرقة محلات الذهب الخاصة بالمسيحيين فى بعض المناطق، وكذلك مجموعة «الناجون من النار» قاموا بسرقة محلات ذهب مملوكة لمسيحيين، وحينما قامت «الجماعة الإسلامية» بمراجعاتها راجعت فكرة الاستحلال تلك وغيرتها واعتبرتهم أهل ذمة حتى لو لم يدفعوا الجزية سواء بسبب عدم مطالبة الحكام بها أو إسقاطهم عنها فى بعض العصور مثل الخديو إسماعيل، ولكنهم لم يصلوا بعد إلى مفهوم المواطنة الذى استقر عليه الفقه الحديث للعلماء والمفكرين الإسلاميين الوسطيين الذى يسوى بين المواطنين مسلمين ومسيحيين فى الحقوق والواجبات، فماذا قال د. فضل فى مراجعاته تلك بهذا الخصوص؟ لقد كان أول ذكر لهذا الموضوع فى حلقاته التى نُشرت فى الحلقة الثامنة، وجدير بالذكر فإن جماعات العنف مارست عدوانها على الأقباط المسيحيين فى مصر بسببين: السبب الأول يتعلق بالفهم الخاطئ للنصوص وتأويلها فيما يتعلق بأهل الكتاب وأهل الذمة وغيرها، والسبب الثانى: كنوع من الضغط على السلطة وإظهارها فى مظهر الضعيف

مراجعة المراجعات ٢٠٠٧





ينهى فضل عن الغدر لمن دخل بلاد الأجانب بإذنهم واعتبر أن العمليات التى تتم من هذه المجموعات فى بلاد الأجانب غدر لا يجوز شرعا



عن حماية أبناء الوطن من غير المسلمين أى هدفا سياسيا، ولذلك فى إشارة د. فضل عن هذا الموضوع فى الحلقة الثامنة أشار تحت عنوان: النهى عن قتل المدنيين فى بلاد المسلمين، وهى إشارة يمكن فهمها على أنه يقصد العدوان على المسيحيين لأنه يقول: «وقد عجز البعض عن الصدام مع هذه السلطات فلجأ إلى إزعاجها بارتكاب ما لا يحل له من قتل عامة الناس (المدنيين) لأنهم أهداف سهلة لا حراسة لهم ولا هم مسلحون»، وبالطبع لم تستهدف هذه الجماعات مدنيين مسلمين لإزعاج السلطات بل كانت تستهدف رموز الدولة وأجهزة الشرطة والمتعاونين معها من المسلمين ومن قتل من المدنيين المسلمين كان بسبب الخطأ فى الاستهداف، أما استهداف المدنيين لإزعاج السلطات فكان للأقباط المسيحيين وكذلك السياح الأجانب وهو تكلم عن السياحة والاعتداء على السياح بشكل مفصل وواضح فى أماكن عدة من هذه المراجعات وبالطبع رفضها وهو أمر جيد.

والموضع الآخر الذى ورد فيه كلام مباشر عن هذا الموضوع كان فى الحلقة العاشرة وكان بعنوان: فى معاملة أهل الكتاب المقيمين ببلاد المسلمين، فهو مازال يتردد فى اعتبارهم أهل ذمة أم أنهم مواطنون بنص الدستور فهو يقول: «وقال البعض (إن النصارى مازالوا أهل ذمة)، والقول بأنهم أهل ذمة يتعارض تماماً مع مبدأ المواطنة المعمول به فى هذه الدول، وذلك لأن المواطنة تساوى بين المواطنين سكان البلد الواحد فى الحقوق والواجبات، وهذا بخلاف عقد الذمة الذى يلزم أهل الكتاب المقيمين فى دار الإسلام بشروط تميزهم عن المسلمين وتفرق بينهم وبين المسلمين»، وهو قول غير دقيق فيما يتعلق بفهمه لأهل الذمة فى الزمن القديم فهو لم يفرق بين المسلمين وغير المسلمين ولكنه فقط استثناهم من المشاركة فى القتال إذا دفعوا ضريبة صغيرة فرضت على القادر فقط وسميت «الجزية» ومن شارك فى القتال سقطت عنهم «الجزية»، وكان إعفاؤهم من المشاركة فى القتال فى ذلك الوقت لأن معظم الحروب كانت بدوافع دينية إسلامية فلم يفرض عليهم المشاركة فيها إلا من رغب فأسقط عنهم الجزية، وكانت «الجزية» كما قال الدكتور العوا «عقد» وليست «وضع» أى عقد بين طرفين يخضع لشروط العقد وبإرادة الطرفين الموافقين على العقد، فلما تغيرت الأوضاع وسقط هذا العقد اتفق أهل البلاد من مسلمين ومسيحيين على عقد جديد أسموه «الدستور» قائم على المواطنة وليس أهل الذمة، وهو يساوى كما ذكرنا فى الحقوق والواجبات بين المواطنين أياً كانت دياناتهم، وهو عقد شرعى ولا يخالف الإسلام،ومع هذا فقد انتهى د. فضل بهذا الشأن فى نفس الحلقة العاشرة



ابن العماد الأقفهسى

مصب النيل

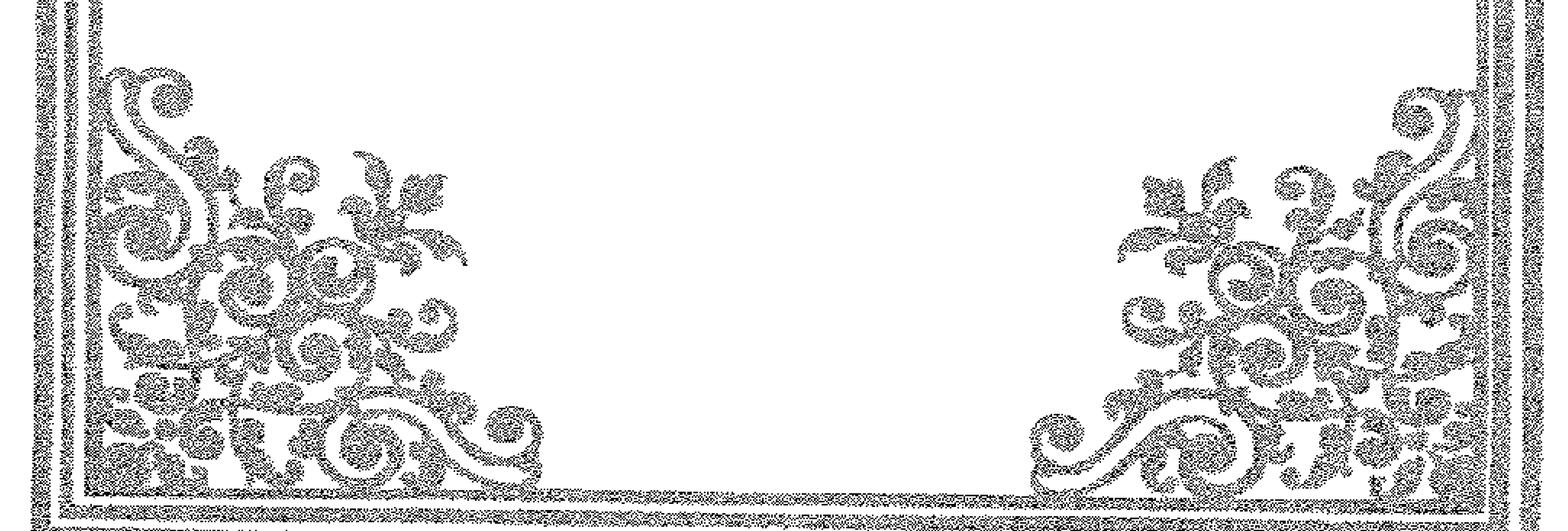
قالت الحكماء: إن النيل إذا صب فى بحر الملح انتهى فيه إلى مواضع، ثم يرتفع بخاراً ويجتمع فى الجو، فتحمله الغمام والريح إلى الأماكن التى يريد الله تعالى بالمطر فيها من سائر البلاد. ولهذا تجد الأماكن القريبة من البحر أكثر مطراً من غيرها، ويشاهد الغمام قريباً من بحر الملح، عند دمياط وغيرها مما (جاور) البحر.

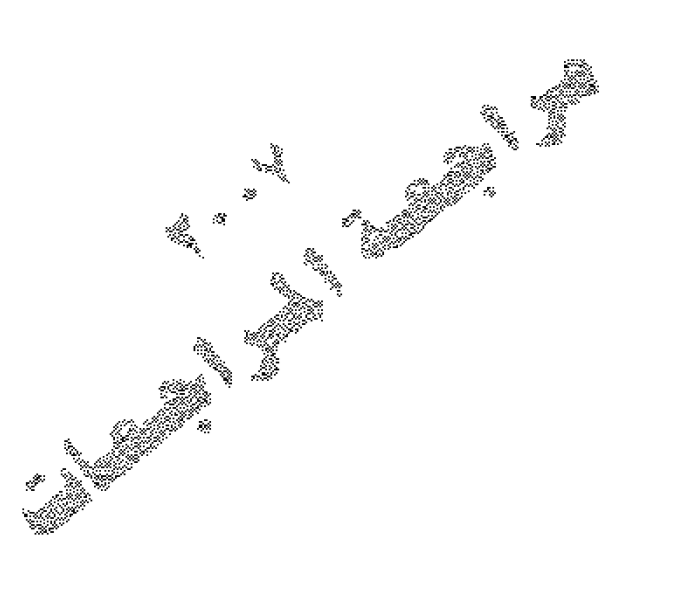
قالوا: وإذا وقع المطر فى البلاد اتصل بالبحر من عيون وغيرها، حتى ينتهى إلى البحر أيضاً، ثم يصير مطراً. وهذا قد أشار إليه الزمخشرى فى قوله تعالى: (والسماء ذات الرجع) والمراد بالسماء: الغمام، والرجع: المطر.

قال: سمى رجعاً على عادة العرب فى معتقدهم، أن الغمام يحمل ماء المطر من البحر، ثم يرجع إليها، فهو رجع إلى الأرض بعدما أُخذ منها مرة بعد مرة.

وذكر الواحدى: أنها إنما سميت رجعاً لأنها ترجع إلى الأرض مرة بعد أخرى. وما ذكره الحكماء وجهوه بأن (كل ما) على الأرض من خشب، وحجر، ونحاس، ورصاص، وحيوان، يصير تراباً ثم يعود خلقاً جديداً، وهكذا إلى يوم (القيامة) قالوا: والفلك دوّار.

وذكر المفسرون فى قوله سبحانه وتعالى: (وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكُمُوه): أن الله تعالى يرسل الرياح فتلقح السحاب بالماء كما تلقح البقرة باللبن.





إلى «وجوب معاملتهم (أهل الكتاب المقيمين ببلاد المسلمين) بالحسنى وعدم التعرض لهم بأذى ونصح جميع المسلمين بذلك» لأسباب عددها، ونصح كذلك نصارى مصر بمعاملة المسلمين بالحسنى وأكد على أن نصارى مصر لهم وضع خاص فقد أوصى بهم الرسول صلى الله عليه وسلم وانتهى كذلك فى نفس الحلقة إلى عدم وجوب قتل كل اليهود والنصارى بالجملة الذين يسميهم البعض بالصليبيين وانتهى إلى أن القتال الصحيح هو على من اعتدى منهم فيما سمى «جهاد الدفع».



كذلك من المرتكزات التى أسست للعنف فى تلك الجماعات استخدام فتاوى قديمة فى ظروف مختلفة وإسقاطها على واقع حديث وظروف مختلفة أيضاً، مثل فتوى الإمام ابن تيمية فى قتال التتار، فيما عُرف فى كتابات محمد عبد السلام فرج فى «الفريضة الغائبة» وكذلك «الجماعة الإسلامية» ببحث «وجوب قتال الطائفة الممتنعة عن تطبيق شريعة من شرائع المسلمين».

فالدكتور فضل أفرد حلقة كاملة عن هذا الموضوع (الحلقة الثانية) فهو يشرح فيها أهمية العلم بالشرع وكذلك أنه لا يجوز لغير المؤهلين شرعياً من أفراد الجماعات الجهادية تنزيل ما فى بطون كتب السلف من أحكام مطلقة على واقعنا الحاضر، وكذلك لا يجوز الفتوى إلا للمؤهل لذلك، ويؤكد على أن الفتوى تتغير بتغير الأزمان والأحوال، ولا يجوز نقل الأحكام وفتاوى من غير المؤهلين عن طريق شبكة المعلومات الدولية (internet) لأنها جلبت صداماً فى غير موضعه وأطلقت أحكاماً على الأنفس والأموال غير صحيحة، وهى مراجعة معقولة فى هذا الجانب وإن لم تكن مفصلة تفصيلاً كبيراً كما ورد فى كتاب صدر عن «الجماعة الإسلامية» مؤخراً بعنوان «فتوى الإمام ابن تيمية عن التتار دراسة وتحليل» ولعل ذلك يحدث فى استكمال هذه المراجعات فى المستقبل بإذن الله.

بقى أن نقول أن مجموعات الجهاد التى انتشرت وتأثرت بأفكار مثل أفكار د. سيد إمام (د. فضل) كانت منتشرة فى بلاد عربية وإسلامية عديدة وفى بلاد غربية كذلك، ولهذا مارست ما عُرف «بالإرهاب الدولى»، أو ما أسموه هم «الجهاد الدولى»؛ ولذلك أفرد د. فضل مساحة كبيرة فى مراجعاته لهذا النوع من «الجهاد» وفند كل مزاعمه وهو أمر محمود (ففى الحلقة السابعة كلها يتحدث فيها عن هذا الموضوع وجزء من الحلقة الثامنة) وفيها ينهى فضل عن الغدر لمن دخل بلاد الأجانب بإذنهم واعتبر أن العمليات التى تتم من هذه المجموعات فى بلاد الأجانب غدر لا يجوز شرعاً، وأقر بخطأ الجرائم التى ارتكبها بعض المسلمين فى بلاد المهجر من تفجيرات وقتل وإتلاف الممتلكات العامة والخاصة والاحتيال للاستيلاء على الأموال والاحتيال على شركات التأمين والهروب من المساكن قبل دفع الإيجار وتسديد فواتير التليفونات وغيره بحجة أنهم كفار وقال: «نعلم أن هذا كله حرام لا يجوز شرعاً وهو غدر والغدر نفاق ومن الكبائر».

ونهى كذلك عن قتل المدنيين فى تلك البلاد وإن كان مازال يسميها «بلاد الكفار» وهى تسمية تحتاج لمراجعة أيضاً.

ويؤكد على نفس المعنى فى الحلقة الثامنة بقوله «إنه ليس من المروءة أن تنزل بقوم ولو كانوا كافرين غير معاهدين يأذنون لك فى دخول دارهم والإقامة بها ويؤمنونك على نفسك ومالك ويمنحونك فرصة العمل أو التعليم لديهم أو يمنحونك حق اللجوء السياسى مع الحياة الكريمة لديهم ونحو ذلك من أعمال المعروف ثم تغدر بهم تقتيلاً وتخريباً».

كما أفرد كما سبق أن أشرنا إلى حرمة قتل السياح الأجانب فى بلادنا بتأويل من التأويلات وهو أمر محمود أيضاً فى هذه المراجعات.

ملاحظة ختامية:

أود التأكيد على ما أشرنا إليه من أن هذه المراجعات خطوة إيجابية وشجاعة، ولكنها بدائية تحتاج لاستكمال وتطوير وإنضاج كما فعلت «الجماعة الإسلامية» فى مراجعاتها فى مراحلها الأخيرة، ولست من المشككين فى هذه المراجعات، ولكن مع الترحيب بها وتشجيع الاستمرار فيها مع نقد ما فيها من قصور ونقص حتى تستكمل لوجه الله ولصالح الوطن والبشرية كلها.

والله من وراء القصد ■

رحلات أكثر .. بمواعيد أنسب
فى جدول الشتاء .. إلى مدن الشرق الأقصى

مع مصر للطيران

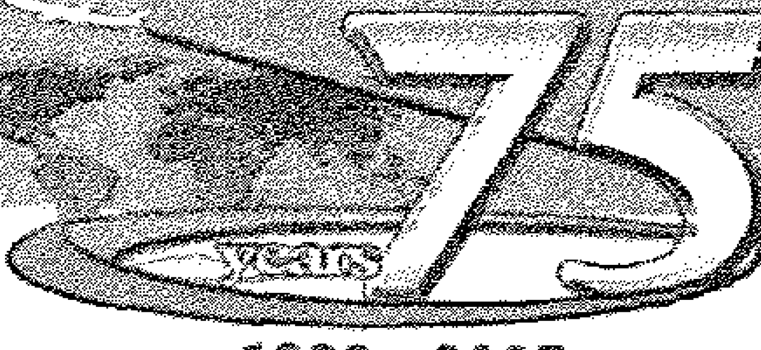
حالياً ٢٦ رحلة اسبوعياً بدلاً من ١٦ رحلة

بانجكوك	يوميا
بكين	الأحد / الثلاثاء / الخميس / الجمعة
اوزاكا	السبت / الأثنين / الخميس
طوكيو	الأحد / الثلاثاء / الجمعة
جوانزو	السبت / الأثنين / الأربعاء
كوالالمبور	السبت / الأثنين / الأربعاء
بومباى	السبت / الأثنين / الأربعاء

للحجز والأستعلام رجاء الأتصال بمركز الخدمة التليفونية

من اى محمول ١٧١٧ / ٠٩٠٠٧٠٠٠٠ من اى خط ارضى

نسعد بضيافتكم بأحدث طائرات مصر للطيران



مصر للطيران
EGYPTAIR

اول شركة طيران فى الشرق الأوسط و أفريقيا و سابع شركة عالمياً

www.egyptair.com



يعرف المهتمون بالفكر والثقافة، كما يعرف الناشرون، أن الكتب الأكثر مبيعا ليست بالضرورة الأكثر أهمية أو تأثيرا؛ فكتاب بوب وودوارد State of Denial أو كتاب «ميرشيمر» الذي أقام الدنيا ولم يقعدها The Israel Lobby & US Foreign Policy لم يحتل أيهما أبدا مكانه الملائم على قائمة الكتب الأكثر مبيعا في الولايات المتحدة على رغم التأثير الذي أحدثه كل منهما. وإن كان هذا صحيحا «إلى حد ما» في دول استقرت فيها «ثقافة القراءة»، فإنه يبقى صحيحا «بالمطلق» في مجتمعات تحكمها للأسف «ثقافة الأرصفة» وشاشات التلفاز. ويتحدث البعض عن انتشار «مفهوم» لكتب التنجيم والتراث والمداواة بالأعشاب. كما يشيرون إلى المكانة التي احتلتها قنوات الفيديو كليب «العارية» والقنوات «الدينية» على حساب قنوات مثل «الجزيرة» أو «العربية».

عندما قررت «وجهات نظر» - كعادتها السنوية - أن تخصص هذه الصفحات «لأهم» الكتب التي صدرت في العام المنقضي ٢٠٠٧ وأكثرها تأثيرا لم نشأ أن نترك الأمر رهن اختيارات لنا قد لاتحيط - واقعيا - بكل ما صدر من عناوين هنا أو هناك. كما لم نطمئن إلى فكرة أن نوكل الأمر إلى من قد يلحق خياراتهم حيف مجاملة اعتدناها في وسطنا الثقافي العربي. أو على الأقل «يتهم» بتلك المجاملة.

■ وهو اتهام أيضا صار من «توابع» أي جائزة عربية أو أي اختيار.

كيف تختار الصحف العريقة «الرصينة» قوائمها؟

في هذا العدد اخترنا قائمتين أحدهما للأمريكية «نيويورك تايمز» والتي أفردت ملفا كاملا لعشرة نقاد محترمين كتب فيه كل منهم عن الكتاب الذي يرى أنه الأفضل أو الذي كان الأكثر تأثيرا في عام ٢٠٠٧. والقائمة الأخرى لمجلة «لير» الفرنسية. والتي اعتمدت أسلوبا مختلفا حين شكلت لجنة من ٢٧ كاتبا ليختاروا الكتاب «الأول» في كل مجال من المجالات العشرين التي حددوها لاختياراتهم. كما نشرت المجلة أيضا أسماء الكتب التي كان لها شرف المنافسة على المراكز الأولى.

الطريف أن رئيس تحرير لير «فرانسوا بوسنيل» حكى في تقديمه للملف أجواء الحماسة التى رافقت عملية الاختيار والتي شهدت كثيرا من الخلاف وكثيرا من الضحك. قبل الاتفاق «أخيرا» على قائمة.

هل يستدعي الأمر كل هذا العناء؟!

لا أحد يعلم. ففي نهاية المطاف ومهما كان أمر القوائم. ومهما كانت القيمة الفكرية للذين سهروا على اختيارها سيبقى لكل قارئ ذوقه الخاص.. وستبقى حقيقة أنه في كل اختيار «وجهات نظر»

كل عام أنتم بخير...

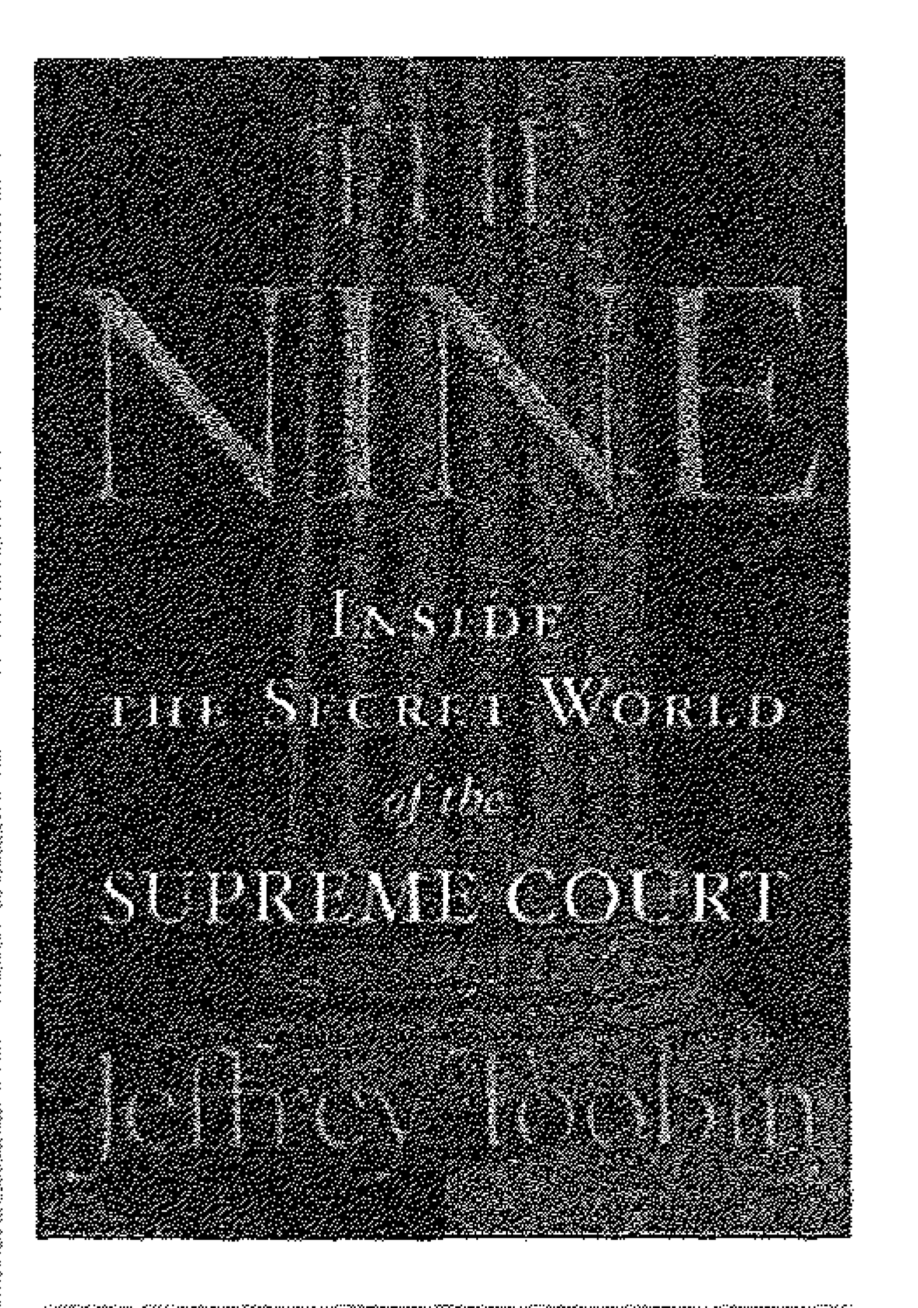
المحــــرر

الترجمات:
من الإنجليزية: بثينة الناصرى وهالة صلاح الدين حسين
من الفرنسية: داليا سعودى

The New York Times

وجها لوجه مع قضاة المحكمة العليا

ديفيد مارجوليك



THE NINE
Inside the Secret World of the Supreme Court
(التسعة: داخل العالم السرى للمحكمة العليا)
Jeffrey Toobin
Illustrated. 369 pp. Doubleday
$27.95

■ احتفال توديع رئيس القضاة وليام رينكويست فى المحكمة الأمريكية العليا، فى سبتمبر ٢٠٠٥، يقدم لنا نوع اللقطة التاريخية التى يعشقها المؤلفون. كان القضاة يصطفون بترتيب مناسب فى ذلك اليوم على السلم المرمرى الذى يفضى إلى المبنى. وكما حمل بعض الموظفين القانونيين السابقين (ومن بينهم خليفته المنتظر جون روبرتس)، تابوت الفقيد مارين بزملائه القدامى، يتقفى جيفرى توبن فى كتابه أثر الجنازة، متوقفا عند كل قاض، يقدمهم لنا واحدا إثر آخر.

ولكن سرد توبن يقدم لنا شيئا آخر أكثر إمتاعا وهو فرصة تخمين من من هؤلاء القضاء باح له بما أورده فى كتابه ومن لم يفعل.

هناك طبعا خرافة أن القضاة يجلسون على ذرى الأولمب صامتين صمت الأبدى. ولكن واقع الحال أن بعضهم يتكلم حين يناسبه ذلك. يتكلمون بانتقائية شديدة حسب شهرة وانتشار الصحفى أو صحيفته. وعادة يمكن للمتابع أن يخمن من الذى يثرثر. دعونا اذن، مع أخذ هذا بنظر الاعتبار - نرافق توبن صعودا على ذلك السلم المرمرى.

أولا: هناك ستيفن براير المتصف بما يسميه توبن «طبيعته العشرية السمحاء»، وأكثر الاحتمال أنه تكلم كثيرا. ثم هناك روث بادر غينسبرغ، يصفها توبن بأنها «هشة، وخجولة»، ولها تأثير هامشى على زملائها. احتمال. ولكن مثلها لن يتحدث إلا بالنزر القليل. كلارينس توماس، كما يقول لنا الكتاب، ازداد شيخوخة وسمنة منذ معركة تنصيبه الدموية الشهيرة. مستحيل. ديفد سوتر «يكره واشنطن»، ولايهمه ما يظنه الآخرون فيه». ربما لم يفعل. ولكنه، بسبب نزقه، قد يكون طوح بكلمة هنا وكلمة هناك. وهناك أنطونى كندى، وهو أكثر تجربة وتأثيرا من الشخص «التقليدى بل الممل» الذى كنا نحسبه فى أول ظهوره، هو على أكثر احتمال.

فى ذلك اليوم، كان أنطونين سكاليا يبدو «تائها ووحيدا»: ليس هو على الإطلاق. وهناك ساندرا داى أوكونر، التى ستعهد بمقعدها للرئيس جورج بوش الذى كانت تعتبره «متكبرا، مارقا، عاجزا، ومتطرفا»، وطبعات أصابعها، أو بالأحرى طبعات صوتها، تكاد تتقافز من صفحات الكتاب: ولولاها لما كان يمكن لتوبن أن يكتب شيئا بهذا الاضطرام والتفاصيل السرية. وأخيرا هناك جون بول ستيفنز «المحترم من زملائه وإن كان مجهولا لديهم». احتمال ضعيف جدا.

لدى قراءة كتاب توبن البارع والممتع، تتأكد مؤشرات الحدس هذه. فعبر صفحات الكتاب تتناثر الاقتباسات والوقائع والحقائق والرؤى والحوارات الداخلية التى لا يمكن أن تأتى إلا من قضاة محددين. والأكثر احتمالا: أوكونر وبراير وكندى. الذين يهيل المؤلف كلمات الإطراء، على كل منهم.

المحكمة العليا تغطى أخبارها مثل أى مؤسسة حكومية مثل البيت الأبيض أو وزارة الخارجية، عبر مؤتمرات صحفية أو تصريحات مطبوعة بدون الإشارة إلى المجريات الداخلية. فالصحفيون المنتدبون إلى المحكمة نادرا ما يجازفون بالتطرق إلى ما وراء القرارات المنطوقة، والتصريحات الصحفية. وتفسير أكوام من هذه الآراء فى وقت واحد ومحدد، أمر صعب جدا (صعوبة مقصودة غالبا). ومن يجيد إنجاز ذلك هم قلة نادرة وعادة لايملكون وقتا يضيعونه.

ولكن هذا ليس السبب الوحيد للالتزام بما توزعه أو تعلنه المحكمة من أخبارها. إذ إن نقد القضاة، وتقييم نوعية أوصواب أو نزاهة أعمالهم، مسألة خطرة: فأنت تخاطر بفقدان أية فرصة ضئيلة تملكها لانتزاع نتفة حديث من أحدهم أو فتافيت كلمات يرميها إليك بين حين وآخر. أما تفاصيل الدراما والعاطفة والتفاهات التى يعج بها المكان - بكلمات أخرى، الطريقة التى تعمل بها المحكمة، فذلك لايخرج إلى العلن إلا بعد سنوات من الواقعة، وفى حالة واحدة هى حين ترفع عنها السرية لاطلاع الجمهور عليها.

وفى حين يتغير رؤساء مكاتب صحفنا فى بغداد ومراسلو البيت الأبيض كل بضع سنوات لسبب هو أنه مع مرور الوقت يتخندق هؤلاء المراسلون أو يتملقون أو يحترقون. ولكن لأن تغطية المحكمة مسألة عسيرة، أو لأن الجميع يحبون إبقاء الأشياء دون تغيير، لهذا فالمراسلون هناك يتمتعون بحالة أشبه بالإقطاعية. بعضهم - بسبب عملهم هناك منذ عشرات السنين - يصبحون جزءا لا يتجزأ من المحكمة، متطبعين بطباعها ومهللين لقراراتها. بل يصبح بعضهم أشباه قضاة يناقشون قرارات المحكمة بأنفسهم دون أن يتجشموا عناء رفع سماعة الهاتف.

وهذا التجمع الاحتكارى مغلق تقريبا على أصحابه وآخذ فى الانكماش.

ولهذا، يأتى، كل بضع سنوات أو ما شابه، شخص من خارج الدائرة، مقدام وذكى مثل توبن ليلقى ضوءا نحتاجه على المحكمة. إنه لا يجلس فى كشك الصحفيين فى المحكمة، ويتميز عنهم بأنه يملك استقلالية ورؤية، وهو لا يرهب المكان، ولا يميل إلى تغطيته بنبرات هامسة أو الاستطراد إلى ما لا نهاية فى وصف الستائر المخملية الحمراء أو الأرواب السوداء.

ولهذا لا ندهش أن كتاب «التسعة» يتميز بالجاذبية وسعة الاطلاع والصدق ويسر القراءة، وغالبا لايستطيع القارئ تركه جانبا. توبن راوى قصة بالفطرة، والقصص التى يسردها تأسر الألباب.

من الواضح أن أوكونور كانت أفضل مصادر توبن وأيضا - يمكن للقارئ أن يقرر إذا كان هذا صدفة. كانت بطلته: استطاعت القاضية بشكل منفرد - كما يقول - من خلال اجتهاداتها البراغماتية أن تبقى على المحكمة أقرب إلى التيار العام الأمريكى خاصة فى قضايا مثل الحرية المنتجة وإتاحة الفرص المتساوية للجميع. ولكن كان لها أخطاؤها.

بصفتها جمهورية متحمسة، فقد كانت اتخذت قرارها مبكرا فى دعوى إيقاف إعادة حساب أصوات فلوريدا (عند انتخاب بوش للمرة الأولى)، وفى قرار خمسة إلى أربعة الذى تبع ذلك كان صوتها حاسما.

ووسط عاصفة النقد، من الواضح أن أوكونور - فى محاولة لتبرير موقفها - سمحت بالكثير من الأحاديث الجانبية مع الصحفيين. توبن لا يذكر هذا، ولا يذكر القضية الأعم لعلاقات القضاة الخفية مع الصحافة.

الكتاب يحوى مقالات مكتوبة بأسلوب جميل عن كل قاض من هؤلاء القضاة التسعة، محبوكة بسرد فنى، والكتاب حافل بالجمل البليغة والشذرات البلورية والمقتطفات البديعة. ولكن هناك فراغات مهمة. توبن يصف العلاقات بين القضاة على أنها «ودية»، ولكنه، لسوء الحظ لا يتوسع فى هذا كثيرا.

يكرس الكاتب الكثير من المساحة لمواضيع بالية أكل الدهر عليها وشرب. إن تصفح (التسعة) يشبه قليلا قراءة إحدى مقالات روجر أنجل فى سلسلة ظهرت حديثا بعنوان «العالم»: الكتابة بديعة ولكن اللعبة انتهت منذ فترة.

وباعتبار السرية التى تغلف المكان، فإن خيار توبن الوحيد المتبقى كان أن يتقفى أثر الصحفيين بوب وودوارد وسكوت أرمسترونج فى كتاب «الإخوة» الذى صدر قبل جيل: أن يلجأ إلى الموظفين القانونيين السابقين.

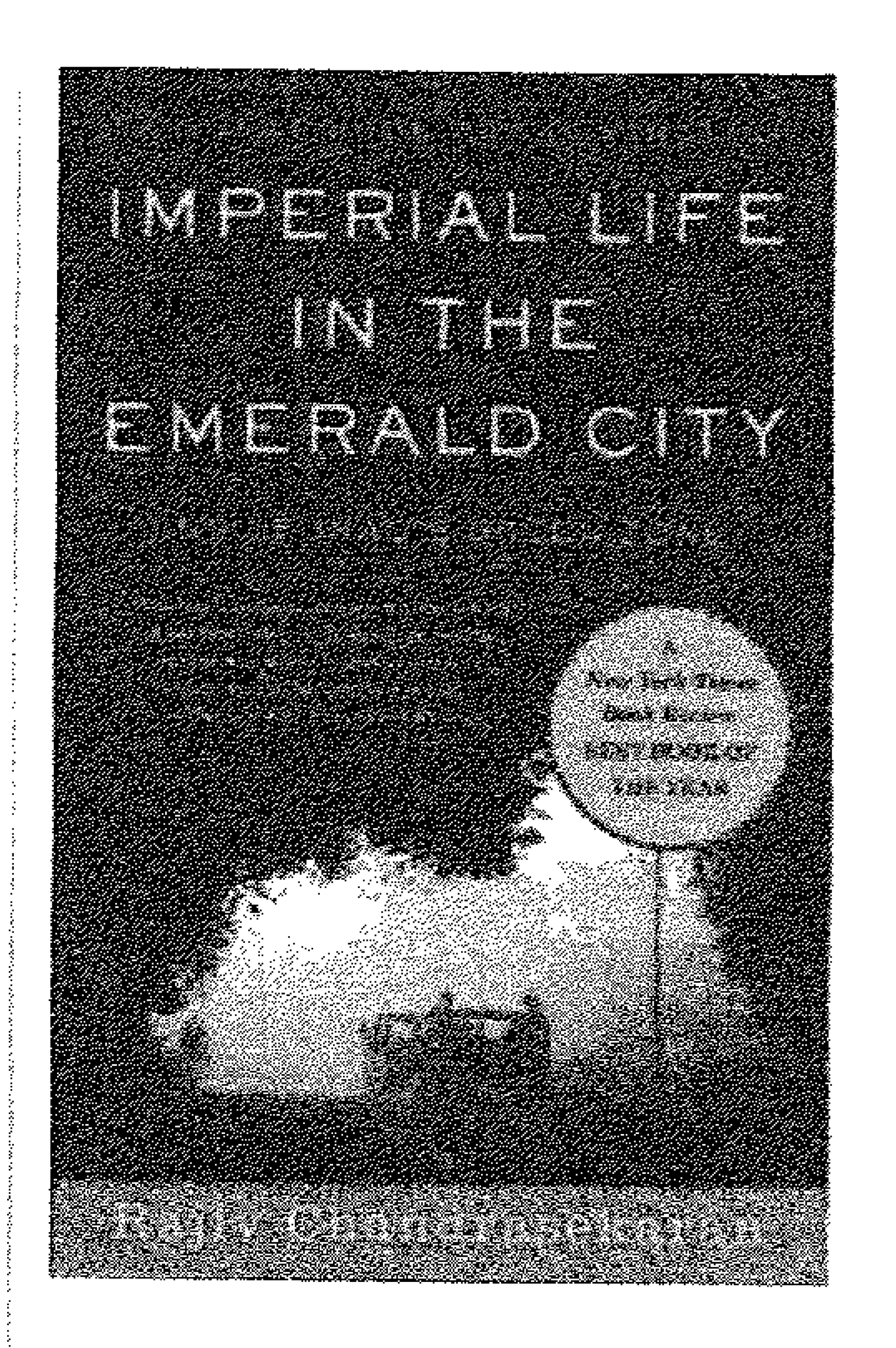
ولكنه لم يتحدث إلى الكثير منهم، ولو كان توبن قد فعل ذلك، لقدم لنا كتابا أفضل. ومع هذا ففيما يتعلق الأمر بتغطية المحكمة الأمريكية العليا كمؤسسة إنسانية حية تتنفس بدلا من تقديمها كمجموعة من الأيقونات، فإن كتاب (التسعة) هو قطعة فنية، ولكنها فن بحاجة إلى رينيسانس.

❖ رينيسانس، أبقيت على الكلمة بدلا من ترجمتها (النهضة) لأن الكاتب يتلاعب على الكلمة للإشارة إلى (عهد النهضة) فى تاريخ الفن والأدب والسياسة. المترجمة. ■

● ديفيد مارجوليك رئيس تحرير مشارك فى مجلة فانتى فير ومؤلف كتاب «مابعد المجد: جو لويس ضد ماكس شميلنج، وعالم على الحافة» وفى وقت من الأوقات كان يغطى شئونا قانونية لصحيفة التايمز.

كيف انهار العراق؟!

مايكل جولدفارب



IMPERIAL LIFE IN THE EMERALD CITY
Inside Iraq's Green Zone
(الحياة الامبراطورية فى مدينة الزمرد داخل المنطقة الخضراء فى بغداد)
Rajiv Chandrasekaran
Alfred A. Knopf. 320pp., $25.95

■ بغض النظر عن نهاية الحرب، العراق ليس فيتنام. يصح هذا عسكريا وسياسيا وينطبق كذلك على التغطية الصحفية للحربين. بالنسبة لكثير من الصحفيين الذين غطوا فيتنام ومن بعد ذلك، نشروا كتبا عن الحرب، لم يكن من الممكن استيعاب تلك التجربة إلا باعتبارها كابوسا من الهلاوس، وكانوا يصفونه بأسلوب غرائبى يناسبه. واقع حرب العراق أكثر رعبا من مجرد مغامرة فاشلة، ولكن أسلوب وصف هذا الفشل المستمر كان أكثر صفاء وجدية. وكتاب راجيف تشاندراسكاران «الحياة الامبراطورية فى مدينة الزمرد: داخل المنطقة الخضراء فى بغداد» مثال جيد على ذلك.

يسرد هذا الكتاب قصة إدارة السنة الأولى للحرب، بعد عام من الغزو، حين أصبحت الولايات المتحدة - حسب القانون الدولى - القوة المحتلة والمسئولة عن إدارة البلاد. وكانت الآلية الرئيسية لتلك المهمة هى سلطة الائتلاف المؤقتة ومقرها المنطقة الخضراء: مجمع مسوّر بجدران ضد الانفجار يقع فى نطاق القصر الرئاسى العراقى على الضفة الغربية لنهر دجلة وكان تشاندراسكاران آنذاك مدير مكتب واشنطن بوست فى بغداد، وفى كتابه، يصف مزيجا قاتلا من العنجهية وانعدام الكفاءة المهنية خلف تلك الجدران التى ساهمت - مثل نقص العدد الكافى من القوات - فى كتابة مصير العراق الدموى.

بدءا كانت سياسة التوظيف لدى سلطة الائتلاف المؤقتة مخجلة. كان الولاء لجورج بوش والحزب الجمهورى هو المعيار الأساسى للعمل فى سلطة الائتلاف المؤقتة. ومن أجل تقرير تأهلهم للوظيفة فى العراق كان الاختبار عبارة عن أسئلة للبعض حول آرائهم فى قضايا تافهة. وآخرون سئلوا لمن صوتوا فى انتخابات ٢٠٠٠. وكان منسق البيت الأبيض لدى البنتاجون جيمس أوبيرن قد طلب من أعضاء كونجرس جمهوريين ومن مفكرين محافظين ومن ناشطى الحزب ترشيح موظفين للعراق.

قبل أن تبدأ الحرب، كان فردريك ام بركل جونيور قد أسند إليه مهمة الإشراف على نظام الرعاية الصحية فى العراق. وكانت سيرته الذاتية حافلة: طبيب بشهادة ماجستير فى الصحة العامة، وشهادات بكالوريوس من جامعات هارفارد وييل ودارتموث وبيركلى. وكان يحمل نجمتى برونز للخدمة العسكرية فى البحرية إضافة إلى تجربة ميدانية مع أكراد شمال العراق بعد حرب الخليج فى ١٩٩١. بعد أسبوع من (التحرير) قيل له إنه سوف يستبدل وكما كتب تشاندراسكاران «فقد أخبره موظف كبير فى وكالة التنمية الأمريكية الدولية USAID أن البيت الأبيض يريد «أحد الموالين» فى هذه الوظيفة».

الموالى كان جيمس كى هافمان جونيور الذى رشحه حاكم ميشيغان السابق جون انجلر. وتضمنت سيرته الذاتية إدارة هيئة تبنى أطفال مسيحية وكانت تقدم الاستشارات للفتيات ضد الإجهاض. وقد قضى معظم وقته فى العراق يهيئ لخصخصة شركة الأدوية الحكومية - مع أن ذلك لم يكن أولوية قصوى طالما أن كل مستشفى تقريبا فى البلاد قد نهب تماما بعد الغزو.

فى صفحة بعد أخرى، يسرد تشاندراسكاران بالتفاصيل، مشاريع سلطة الائتلاف الأخرى التى يقوم بها شباب الجمهوريين - مثل تحديث بورصة بغداد، أو الخصخصة السريعة لكل خدمة كانت تقدمها الدولة للشعب. وبعض تلك الأفكار كان يمكن الإعجاب بها، لو كانت قد خططت لدولة فيها كهرباء وماء، دولة لا تتأرجح على حافة الفوضى.

ولكن كيف يمكن لهؤلاء الشباب أن يعرفوا كيف هو شكل حياة العراقيين العاديين طالما أنهم لا يغادرون المنطقة الخضراء أبدا؟ بدلا من ذلك فقد حولوا المكان إلى ما يشبه نزلا جامعيا. بعد يوم شاق من الحلم بمشاريع مستحيلة، كان الصبية يفعلون ما يفعله الصبية - يتجهون إلى البار باحثين عن الرفقة. ولم يكن للعراقيين وجود فى أذهانهم.

ويرأس قمة هذا العالم غير الواقعى، المندوب الأمريكى بول بريمر الثالث الذى يشار إليه فى هذا الكتاب على أنه رجل يعرف ما يريد ولا يسمح بتغيير قراراته لتلائم الواقع التعيس الذى يعيشه العراقيون خارج مصد الحواجز. وكان يمكن اعتبار هذا فصلا هزليا على طريقة جوزف هيلر، لولا مأساة موت عشرات الألوف من العراقيين وآلاف من الجنود الأمريكيين، بسبب قرارات سلطة الائتلاف المؤقتة والبنتاجون والبيت الأبيض.

فى كتاب تشاندراسكاران، تبلورت كل هذه العنجهية والعناد والرغبة فى الترقية فى عمله فى نهاية مارس ٢٠٠٤، حين قرر بريمر أن يغلق الصحيفة التى كان يصدرها رجل الدين الشيعى المتشدد مقتدى الصدر. ففى نهج صار نمطيا، اتخذ بريمر القرار بدون التفكير بما قد ينتج عنه. لم تكن لديه خطة دعم عسكرى فى حالة أن قرر الصدر القتال، وفعلا قاتل جيش المهدى دفاعا عن النفس. وفى أثناء ذلك، وقع أربعة مرتزقة أمنيين أمريكيين فى كمين وقتلوا فى الفلوجة، وعلقت جثثهم المشوهة على جسر على نهر الفرات. فجأة بعد سنة من الاحتلال، كانت الولايات المتحدة تحارب المتمردين الشيعة فى جبهة والمتمردين السنة فى جبهة أخرى. كانت هذه أول إشارة للجيش الأمريكى فى كتاب تشاندراسكاران الذى يتناول التاريخ المدنى للاحتلال فى العراق، وكان وصفه للمناوشات بين فصيل من فرقة الفرسان الأولى فى الجيش الأمريكى ومقاتلى جيش المهدى، شديد البراعة. إنها شهادة عيان تاريخية من الطراز الأول.

إذا كان هناك شيء ناقص فى الكتاب فهو المؤلف نفسه، فآراء تشاندراسكاران غائبة حتى نهاية الكتاب تقريبا.

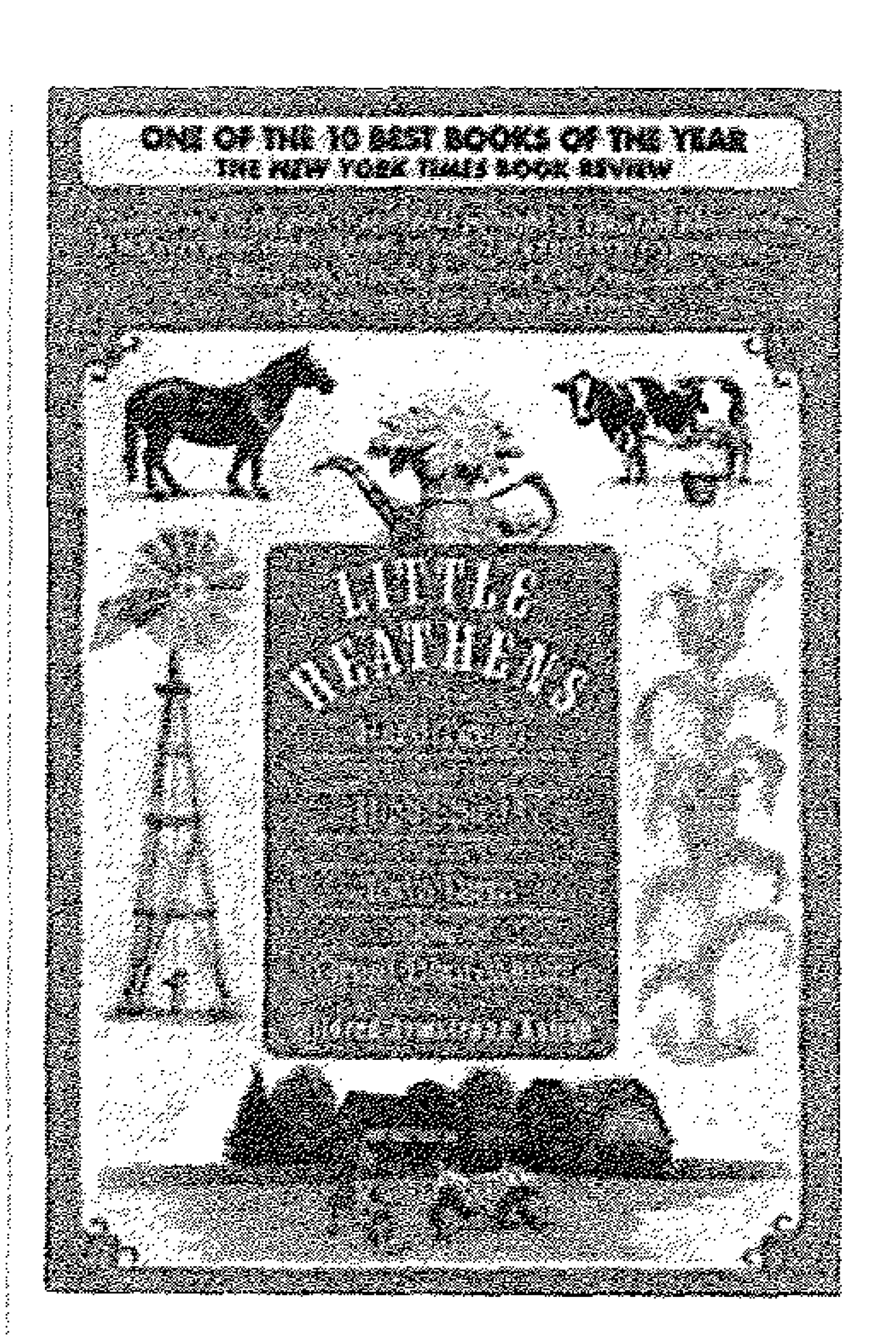
إنه يلتزم بالمضمون المهنى للصحافة: ينقل الوقائع بحيادية وموضوعية موسوسة. ولكن علينا نحن الصحفيين - وباعتبارنا مواطنين أيضا - من الذين اتيح لهم رصد أحداث تؤرخ لفترة تاريخية، واجب الشهادة المتفاعلة والدقيقة والنابعة من القلب، وليس مهمة جمع الحقائق فحسب.

الكتاب مكتوب بأسلوب واضح وغير دعائى لحسن الحظ. وينبغى أن يقرأه كل من يريد أن يفهم كيف انحدرت الأمور إلى هذا المستوى فى العراق. ■

● مايكل جولدفارب مؤلف كتاب «حرب أحمد، سلام أحمد: النجاة من صدام حسين والموت فى العراق الجديد».

البيت مكاننا

اليزابيث جلبرت



Hard Times and High Spirits on an Iowa Farm During the Great Depression

(الوثنيون الصغار .. أوقات عصيبة وأرواح طليقة فى مزرعة أيوا خلال زمن الكساد العظيم)

Mildred Armstrong Kalish
Bantam Books. 292 pp. $22.00

■ حين كانت ملدريد أرمسترونج كاليش فى حوالى الخامسة من عمرها، اختفى أبوها من حياتها إلى الأبد. بتعبير آخر أكثر فجاجة، طرد أبوها. أجبر على مغادرة المدينة من قبل جد ملدريد المتشدد، وكان مزارعا، بسبب «بعض التجاوزات التى أخفيت عنا نحن الأطفال، مع أننا سمعنا همس تلميحات لافلاس وعمليات نصب وحكم بالسجن سابقا». ولا يثير الدهشة أن اسم والدها لم يذكر ثانية فى المنزل، إذا أخذنا بنظر الاعتبار الزمان والمكان. لم يكن أهل ولاية أيوا الريفيون الذين يتبعون المذهب الإصلاحى المتزمت (meth odism) خلال فترة الكساد العظيم، لينى العريكة. فى ذلك الوقت حين يفعل البعض شيئا لا يغتفر، يفقدون الغفران إلى الأبد. ولكن ما يثير الدهشة هو أن والد ملدريد المشين - بعد ذكره السريع فى الفصل الأول من مذكراتها الجميلة «الوثنيون الصغار» - لم يذكر مرة أخرى حتى نهاية الكتاب.

ويجب أن أقول إن هذا يخالف كل التقاليد الأدبية الراهنة. فليس ثمة كاتب مذكرات حديث يحترم نفسه (بضمنهم أنا) يمكن أن يغفل مثل هذه اللقطة المثيرة عن معاناة أب مطرود. فمن مثل هذه المحنة، يستطيع الواحد منا أن يحلب مجلدات من الألم (وصفقات الكتب)! ولكن كاليش - التى تنشر فى ٢٠٠٧ - مازالت تعيش قيم ١٩٣٥، حين كان الناس يتكيفون مع الأحزان بشكل مختلف. بعد أن اختفى والدها، انتقلت مع أمها وأخواتها - عاطفيا وحرفيا - للعيش مع جديها المتشددين (شخصان جامدان «لم يصلهما القرن العشرون تماما»)، ومن هنا كانت البداية الحقيقية لقصة ملدريد الشابة - فى مزرعة حيث «أصبحت عائلة من خمسة أفراد مسئولية عجوزين» شرعا فورا بعملية تشكيل شخصية الصغار.

ما يتبع بعد ذلك ليس مفاجئا. ولكنك لن تستطيع تخمينه أبدا فقد انخرط هؤلاء الصغار فى العمل الشاق. كانوا يزرعون البطاطس ويرعون الماشية ويحصدون الحقول وكانوا يضربون على أقل هفوة فى سلوكهم. عاشوا بدون رفاهيات (كهرباء، راحة، تدفئة) وبدون بادرة حنان (وتتذكر كاليش أن الطفولة كانت تعتبر نوعا من المرض. أو «بأفضل حالاتها، إعاقة، يجب تجاهلها معظم الوقت وينبغى علاجها بأسرع وقت ممكن»).

يفهم هذا جيدا كل من لديه خلفية فلاحية على الطريقة القديمة. «علمونا أنه إذا اشترينا شيئا فيجب أن يعيش إلى الأبد - أو أقرب إلى الأبد على قدر استطاعتنا». أو «حين كان يخدش أى طفل منا أو يجرح لم نكن نهرع إلى البيت ليعتنى بنا الأهل».

إذا كانت هذه هى كل معاناة الوثنيين الصغار، فهى لا شىء يذكر قياسا لما تقاسيه الكثير من العائلات فى الأوقات العصيبة. ولكن ثراء المذكرات كان فى شىء آخر: فهى حافلة بالتوهج والحيوية وشىء مدهش فاجأنى إلى درجة أن ندت عنى شهقة سرور مسموعة: ملدريد أرمسترونج كاليش عشقت طفولتها البائسة!!

صحيح أنها تحترم القيم التى خلفها الكساد العظيم فى نفوس الناس، وصحيح أنها تشعر وهى فى هذه السن المتقدمة أن عليها أن تحفظ ذكريات زمن ولى. ولكن المسألة أبعد من ذلك، فهى تكتب بشكل ساحر معبرة عن حبها الشديد لذكريات الطفولة تلك، مغرقة القارئ فى مشاعر غير متوقعة من الفرح، والولع، والدهشة، وحتى الحسد.

ولكن كيف تأتّى للصبية ملدريد - وهى الخالية من الجمال والمتلئة، وفاقدة الأب، والتى قام على تنشئتها بشظف، فى مزرعة بولاية أيوا خلال فترة الكساد العظيم، أم كئيبة وجدان مثل العسكر فى شدتهما. وكانا يطلقان على أطفال ابنتهما الذين تسبب لهم والدهم بالعار، أوصافا محقرة. كيف تأتّى أن يكون لها كل هذا الشغف والاعتزاز بحياتها السابقة؟ أعتقد أن السبب يكمن فى تلك السماوات المفتوحة. فقد عاشت فترة طويلة من طفولتها فى الحقول تحت «السماء الزرقاء العالية» فى ولاية أيوا. وكل ذلك الأوكسجين الأزرق وكل تلك السقوف المعقودة المحلقة فى السماء. كان ذلك مثل خمرة مسكرة. وكذلك تلك الجولات عارية القدمين على «العشب الأخضر الكثيف المدهش الذى يغطى غابات أيوا». كانت تنتشى وهى تتذكر مشهد ورائحة «باقة الزهر الوردية العملاقة» شجرة التفاح البرى التى تزهر كل ربيع. وتؤكد كاليش بأن استنشاق «العطر العذب الذى يشع بدفء الشمس وندى الحشائش من الأجساد النظيفة للمهر والعجل والحمل والكلب الصغير والقطيطة» هى إحدى أعظم «مسرات الوثنى» فى الحياة. فيما بعد من حياتها، أصبحت كاليش أستاذة، وفى حين أن أساس كتاباتها مازال إنجليزيا (مرتبا ومتماسكا) يليق بمدرسة لغة إنجليزية، ولكن إيقاعاتها الوثنية تنز من خلال كل فقرة منضبطة. كتبت تقول «كان هذا عالمنا» ولكن إحساسا يتخلق لدى المرء بأن جاريسون فى ولاية أيوا كان عالمها الحقيقى الذى خبرته برهبة الصوفى. فى الغسق الأرجوانى لحقول ذرة، فى الصباحات الباردة وهى فى طريقها إلى مهماتها الشاقة، فى مشوارها الطويل المنفلت إلى المدرسة. فى ابتذال التهام الشحم المتقطر من اللحم المقدد المقلى، والقشطة الدسمة وثمرات الكرز، كانت حياة كاليش البسيطة تثير غرائزها باستمرار إلى حد الانتشاء. ولكنها كانت أيضا تثير حواسها بطرق أخرى. ومن المشاهد المكررة المبهجة مشهد استحمامها مع شقيقتها - الملطخة بالطين من يوم شاق فى المزرعة - تدعكهما أمهما على الشرفة (بالتصبين من الرأس حتى أصابع القدم)، وبعدها تهرول الصبيتان، عاريتين مثل طير أبى زريق عبر الحديقة الأمامية المغطاة بالحشائش إلى بيت الطاحونة. وبعد أن نصل إلى هناك، كنا نملأ الدلاء بماء بارد منعش نسحبه من المضخة، وتغمر إحدانا جسد الأخرى حتى نشعر بوخز الاهتياج».

وكاليش تعرف بحكمتها أن اللغة هى صلتنا الأخيرة بالماضى، وبدلا من النواح على ما فقدته، تظل مربوطة بعالمها الفتى باستخدام لغته الجذلى، وإن بطلت. ■

● أحدث كتاب لأليزابث جلبرت هو مذكراتها «كل وصلِّ واعشق» eat, pray . love

قائمة بأفضل الكتب مبيعا على موقع amazon.com

1. Harry Potter and the Deathly Hallows
(هاري بوتر والتقديس المميت)
Rowling .K.J
Arthur A. Levine Books, 2007, 784 pp., $19.24

2. A Thousand Splendid Suns
(ألف شمس ساطعة)
Khaled Hosseini
Riverhead, 2007, 384 pp., $14.27

3. The Dangerous Book for Boys
(الكتاب الخطير للفتيان)
Conn Iggulden
Collins, 2007, 288 pp., $14.97

4. Deceptively Delicious: Simple Secrets to Get Your Kids Eating Good Food
(لجعل طفلك يتناول طعاماً صحياً)
Jessica SeinfeldCollins, 2007, 208 pp., $14.97

5. God Is Not Great: How Religion Poisons Everything
(كيف يسمم الدين كل شيء)
Christopher Hitchens
Twelve Books, 2007, 307 pp., $14.99

6. Eclipse
(كسوف الشمس)
Stephenie Meyer
Little, Brown Young Readers, 2007, 640 pp., $10.44

7. The Children of Horin
(أطفال هورين)
Tolkien .R.R.J
Houghton Mifflin, 2007, 320 pp., $15.60

8. A Long Way Gone: Memoirs of a Boy Soldier
(مذكرات صبي جندي)
Ishmael Beah
Farrar, Straus and Giroux, $13.20

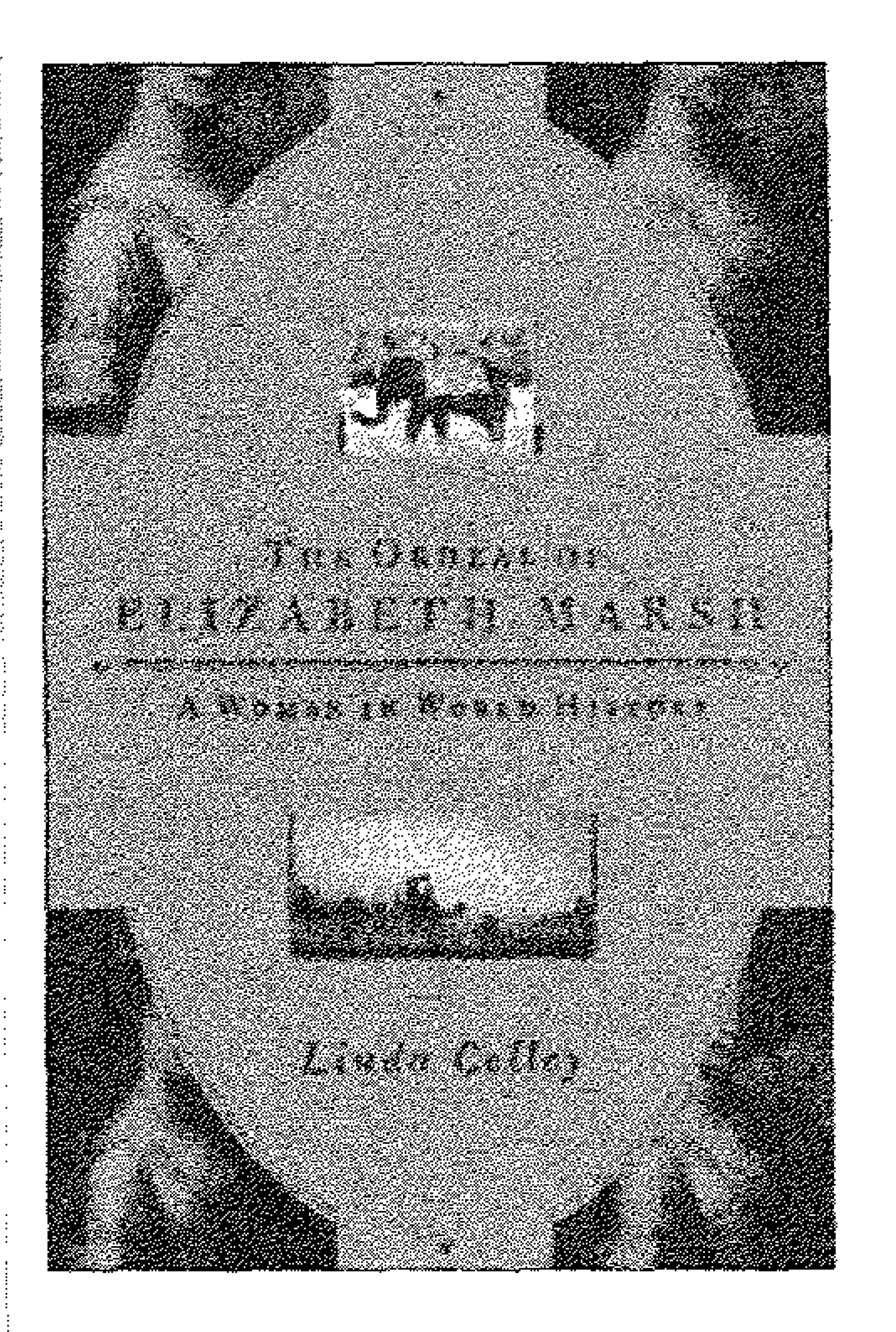
9. The 4-Hour Workweek: Escape 9-5, Live Anywhere, and Join the New Rich
(عش وانضم إلى محدثي النعمة)
Timothy Ferriss
Crown, 2007, 320 pp., $11.97

10. The Best Life Diet
(أفضل حمية في الحياة)
Bob Greene
Simon & Schuster, 2007, 304 pp.,$15.60

كتب
2 0 0 7
قائمة نيويورك تايمز

حياة غير عادية

ميجان مارشال



THE ORDEAL OF ELIZABETH MARSH
A Woman in World History
(محنة اليزابث مارش.. امرأة في تاريخ العالم)
Linda Colley
Pantheon Books. 363 pp
$27.50

معظم كتاب السير يعملون من الداخل للخارج. اليوميات والرسائل الخاصة والحوارات (إذا أمكن) تقدم مادة لوحة شخصية تبث فيها الحياة عبر سرد الأحداث التى أثرت بالشخص موضوع البحث وتأثر بها. ويتاح للقارئ التعرف على صاحب السيرة الذى يستعرض من خلال عينيه أو عينيها تاريخ زمان ومكان محددين. وهكذا فإن كتابة السيرة مع تفضيلها للحياة الداخلية تقف على الضد من السرد التاريخي. وحسب تعبير كاتب السير المحارب القديم كنيث سلفرمان «التاريخ هو مافعله نابليون. سيرة حياته هى معنى التاريخ بالنسبة له» ولكن هل الأمر بهذه البساطة حقا؟

فى كتاب «محنة اليزابث مارش» كتبت لندا كولى سيرة تعارض كل الأفكار الشائعة حول هذا النوع من الأدب، كأن تمر حوالى ٤٠ صفحة قبل أن تقدم لنا الكاتبة كلمة واحدة عن صاحبة السيرة، وهى كاتبة رحلات مغمورة من القرن الثامن عشر، تحتفظ المكتبة البريطانية بنسخة يتيمة من كتابها المطبوع الوحيد. وحتى حين تظهر اليزابث مارش أخيرا على المسرح، تكرر كولى تذكيرنا بقلة معرفتنا حول «حياتها المنسية».

ولدت مارش فى ١٧٣٥ لأب بريطاني يعمل فى صناعة السفن وأم من جامايكا لا يمكن التأكد من هويتها ولكن اسمها يشابه اسم امرأتين تعقبتهما كولى من خلال سجلات الجزيرة، إحداهما كانت على وجه اليقين بدرة علاقة عبدة وسيدها. هل كانت اليزابث مارش خلاسية النتاج؟ وحيث لم نر لها صورة أو وصفا جسديا: لا يمكن أن نقطع الشك باليقين. حين تركت مارش زوجها لتسافر لمدة ١٨ شهرا فى الهند الشرقية والجنوبية، هل كانت قد انفصلت عن زوجها، أم كانت مارش ببساطة تشبع شهوتها للترحال؟ ليست هناك إشارة لذلك فى يوميات الرحلة، لا رسالة إلى زوج مهجور قد تدلنا على الحقيقة. مرة أخرى لن نعرف أبدا.

ولكن بدلا من الإحباط، ملأت كولى الفراغات بالناس والأماكن التى زارتها مارش والقوى الكونية التى أثرت على قصتها. إحدى النواحى الغامضة الكثيرة فى حكاية مارش هى أن «الاتجاه المستقل الخاطئ» الذى اتبعته فى رحلة الهند الشرقية انتهى فى يوليو ١٧٧٦، فى نفس الوقت الذى أعلنت فيه المستعمرات الأمريكية التابعة لبريطانيا استقلالها. وقد أدت الثورة الأمريكية التى تصورها كولى بإقناع على أنها «حرب عالمية» تقريبا إلى خسارة زوج مارش لعمله فى دكا البعيدة.

فى مقدمة الكتاب تعكس كولى الأولويات البيوغرافية الاعتيادية فتكتب «هذا الكتاب يرسم عالما فى حياة وحياة فى عالم».

«محنة اليزابث مارش» أداء باهر فى البحث التاريخي الذى يكشف ما تصفه كولى «محنة تقصى سيرة اليزابث مارش» لتسمح للقراء بإحساس المشاركين فى تتبع هذه المرأة الجوالة. تزوج والداها فى جامايكا وولدت فى بورتسموث بإنجلترا، كانت مارش كما وصفتها كولى «فى حركة دائبة معظم حياتها» لقد قضت وقتا طويلا فى نصف دزينة مدن، من لندن إلى مدراس، تتبع نزوات والديها وزوجها وأحيانا نزواتها الخاصة، مما أدى، فى كثير من الأحيان، إلى حظ عاثر وبؤس. وقد قضت ثلاثة شهور رهينة فى المغرب، وكان هذا موضوع مذكرات رحلتها لعام ١٧٦٩ والتى عنونتها «الأسيرة الأنثى» وقد قدمت كولى المعادل التاريخي لخرائط قوقل لكل موقع، مع اشتمالها على تفاصيل مثل عدد وطرز المبانى. السكان حسب الجنس والعرق والاثنية والمهنة، ولمحات عن أحداث مهمة مثل الأمراض المعدية والزلازل والحروب.

تمتاز كولى بموهبة المؤرخ الماهر فى وصف مشاهد المعارك ولكنها تفعل الشىء ذاته وبتفوق فى وصف دخول مارش تحت الحراسة المشددة إلى مراكش، بدون قبعة، راكبة على حمار، يخترق بها «مشاهد من المنائر المتناثرة المضلعة» مارة بحشود هازئة، إلى اجتماعها بسيدى محمد، السلطان البالغ من العمر أكثر من ٣٠ عاما والذى سوف يحتفظ بها رهينة «حتى توافق بريطانيا على إقامة قنصلية حقيقية فى المغرب» تروى لنا كولى أن سبب اضطراب مارش وخوفها، حتى قبل أن يضغط عليها محمد لمرتين أن تنضم إلى حريمه، كانت معرفتها لـ «مسيرة الموسيقى الخشنة» والتى مازالت شائعة فى مدن الريف الأوروبى. حيث يركب الزناة بدون قبعات وسط حشود من «القرويين الغاضبين» كوسيلة إلحاق العار العلنى. إنها واحدة من لحظات كثيرة، تنجح فيها كولى، حين تأتى بالشرق والغرب فى صورة واحدة، فى رسم «العالم» داخل حياة مارش.

هل يمكن لاليزابث مارش وهى فى نظر كولى «شخصية صعلوكية إلى حد لا يصدق» فى نفس الوقت جاهلة ومغامرة، فضولية ومتحيزة. متزعزعة اجتماعيا وأنانية. أن تحمل ثقل العالم على كتفيها؟ كان ذلك بفضل دعم مجموعة من أصدقاء وأفراد العائلة وحتى عشاقها، وقد بحثت كولى حياتهم بنفس المثابرة والاهتمام الواسع اللذين منحتهما لمارش.

حين فقد زوج مارش عمله كوكيل للملح مع شركة الهند الشرقية فى أبريل ١٧٧٧، لم يكن لدى كولى دليل مباشر على رد فعله. ومن أجل ملء الفراغ، قامت بذكاء بإضافة تعليق مسئول كبير فى الشركة كتبه فى نفس السنة وحفظ فى (أرشيف مكتب الهند فى لندن) ويقول فيه أن أكون بدون وظيفة كاوروبى أبيض فى شبه القارة الهندية كان «محنة مأساوية. مجرد التفكير فيها يدفع الرعشة إلى جسدى.. أن ينحدر الرجل إلى هذا المستوى». إن التفكير فى قدرة كولى على وضع يدها على هذه الوثيقة تدفع بالرعشة إلى جسدى.

من أجل تعقب مارش، سعت كولى إلى قارات أكثر من التى زارتها مارش. فمذكرات مارش حول رحلتها إلى الهند الشرقية ارتحلت هى الأخرى إلى مكتبة كاليفورنيا وتتبعت كولى صلات عائلة مارش إلى إسبانيا وإيطاليا وأمريكا الوسطى والصين ونيوساوث ويلز وجاوا والفلبين. وهى تشيد بفضل الإنترنت فى تقديم شكل جديد من البحث ولكن الشبكة العنكبوتية العالمية جيدة إذا كان الباحث جيدا. مثل أفضل المؤرخين فى أى عصر، طرحت كولى أسئلة جديدة، وإجاباتها قدمت لنا عالما فى كتاب.

● ميجان مارشال مؤلفة كتاب «الأخوات بيبودى: ثلاث نساء أضرمن الرومانسية الأمريكية».

مسألة الموسيقى .. معزوفات القرن

جوف داير

THE REST IS NOISE
LISTENING TO THE TWENTIETH CENTURY
ALEX ROSS

THE REST IS NOISE
Listening to the Twentieth Century
(البقية ضوضاء: الاستماع للقرن العشرين)
Alex Ross
Farrar, Strausand giroux

هل الشيء الذي يؤهل امرءا ما لكتابة نقد - كونه نوع القارئ الذي يتوجه إليه الكتاب «خصيصا» - هو ذات الشيء الذي يجرده من أهليته للقيام بذلك؟ لا أتكلم كشخص «ضليع بالموسيقى الكلاسيكية» ولكن كممثل «لأولئك الذين يشعرون بفضول لمعرفة هذا الفردوس المفقود الغامض على أطراف الثقافة». وربما يمكن لأولئك الذين أفضل مني اطلاعا الانقضاض على اليكس روس، الناقد الموسيقى لصحيفة النيويوركر، إذا اختلطت عليه الأمور - أو أخطأ في حركة السلم الموسيقى، أو ما إلى ذلك.

«البقية ضوضاء» عمل واسع الأفق والطموح. الفكرة ليست مجرد القيام بمسح للتأليف الموسيقى الكلاسيكي في القرن العشرين ولكن لقراءة تاريخ ذلك القرن من خلال موسيقاه. نبدأ مع غوستاف ماهلر وريتشارد شتراوس «عمالقة الموسيقى النمساوية - الألمانية» في مدينة غراز، يوم ١٦ مايو ١٩٠٦ . شتراوس كان هناك لقيادة أداء أوبراه (سالومى). فإذا بها ليلة استثنائية - ليس بسبب زعيق ونشاز وولولة الموسيقى ولكن لأن الجمهور، لدهشة ماهلر، أحب كل ذلك.

قد لا تعدو تلك الليلة أن تكون «حدثا واحدا في موسم حافل. ولكن مثل ومضة برق، أضاءت عالما موسيقيا على حافة تغير مؤثر. كان الماضي والمستقبل يتصادمان، كانت ثمة قرون تمضى عبر الليل» يصور بجلاء ويحلل بعمق، واقعة تصلح أيضا نمطا للكتاب برمته. حيث يجد روس، مرارا، حدثا يعبر عن حركة أكبر - شخصا أو مشهدا تتشابك داخله الأهواء والمعاني.

من سترافنسكي إلى سبيليوس إلى شوينبرغ (الذي «تعلم الأشكال الموسيقية بالاشتراك في موسوعة وانتظار أن يصل مجلد حرف (س) قبل أن يؤلف سوناتا») كانت المقطوعات ثقيلة الوزن من الموسيقى الجديدة التي بدأت في البزوغ تؤلف بإيجاز وثقة هما نتاج انغماس ودراسة عميقين.

وعلى أية حال، بعد ١٥٠ صفحة، يبدأ المرء في التخوف من أن (البقية) قد تنحدر إلى سلسلة متصلة من اللمحات القصيرة عن الشخصيات التي اشتهرت بتأليفها ببراعة صحيفة نيويوركر. ولكن لحسن الحظ، ما إن تبدأ الأمور في الارتخاء والانحراف، حتى تهرع الشمولية بعملية إنقاذ. فحين يفحص روس مصير المؤلفين الموسيقيين تحت حكم ستالين وهتلر، يعود الكتاب مرة أخرى لمتابعة هدفه الأعمق.

وفي هذه الأثناء، في ألمانيا ما بعد فاغنر، هل نسمع شيئا ينذر بالخطر في كل هذه «السيمفونيات التيوتونية الهائلة»؟

مع إيمان روس منذ البداية أنه لم يحدث «أن عرض أي مؤلف موسيقى الانهيار الأخلاقي للفن الألماني، بشكل أكثر إيلاما من ريتشارد شتراوس» يبحث روس ببراعة شديدة في عقدة الموسيقار، وعلاقته المتناقضة غالبا مع النظام النازي.

والتركيز الأهم في هذا الكتاب يتلخص في بؤرة فكرة روس: هل تاريخ الموسيقى خاص بذاته، أم هل يمكن استخلاص تاريخ أوسع وخارج الموسيقى منه؟

يوضح لنا روس أن البدائل متضمنة ومتداخلة: «بسبب طبيعة الموسيقى الغامضة» صار من السهل «دمغها بالأيديولوجيات واستخدامها للأغراض السياسية». وباستمرار تكرار ظهور الشخصيات الرئيسية مثل موتيفات في سيمفونية فإن «البقية ضوضاء» باتت مثل توزيع موسيقى باهر. حتى إنه في بعض الأحايين، يبدو التاريخ ذاته وكأنه يميل للعزف بين يدى روس. فمن كان يتصور أن تكون النتيجة «السريالية» لصعود الفاشية، هي أن يجد الكثير من أساطين الموسيقى الكلاسيكية الأوروبية أمثال شويبرغ وسترافنسكي وراحمانينوف واوتو كليمبرير (ناهيك عن مان وادورنو) - أنفسهم على عتبات بعضهم البعض في لوس أنجيلوس؟

وقد بذل شوينبرغ وسترافنسكي أقصى جهودهما لاعتصار أجور ضخمة من ستوديوهات هوليوود المتعاطفة. وبعد ذلك، أصبح تأليف موسيقى الأفلام أحد أهم الوسائل التي حافظت فيها الموسيقى الأوركسترالية على وضعها الجيد في السوق الثقافية. وفي حين أن أمريكا كانت تنتج نوعين من الموسيقيين: محللين «للموسيقى الصرفة» (وهو التعبير المفضل لدى أهل الجاز) ومؤلفي الموسيقى الشعبية الذين يمكن إطلاق صفة كلاسيكيين عليهم مثل النجتون وجرشوين وبيرنشتاين - ولكن كثيرا من أهم الأفكار الرائدة كانت تنشر عبر الجاز والذي يعتبر غالبا «الموسيقى الكلاسيكية السوداء».

هذا يعني، في سنوات ما بعد الحرب، كان على بؤرة بحث روس أن تتوسع بالضرورة إلى نطاق أكبر. وهكذا كلما اقترينا من الزمن الحاضر، زاد ما ينبغي إضافته من كمية مادة حتى فقد الكتاب التركيز السابق الذي تحقق عند الحديث عن الموسيقى في منتصف القرن. إن تشظى المركز الموسيقى يعني تناثر القصة، مما يدفعنا بدون مقاومة إلى أطراف الثقافة. وبالتزام الكتاب بذكر الجميع يصبح الكتاب أشبه بموسوعة ترتدي قناعا سرديا. ولا أعرف إذا كان يمكن معالجة الأمر بصورة مختلفة، ولكن قوة الطرد المتولدة من مثل هذا الالتزام الشامل تفقد التركيز فاعليته.

ولكن يظل كتاب «البقية ضوضاء» إنجازا مهما. ومثلما ذكر ريلكه ذات مرة كيف تعلم الوقوف أمام لوحات فنية معينة متسلحا بقدرة على «نظر أوسع». فقد علمنا روس «استماعا أوسع».

● من بين كتب جوف داير العديدة «ولكن جميلة» وأحدث كتبه «الحركة المستمرة».

قائمة أفضل الكتب مبيعا على موقع amazon.co.uk

1. Harry Potter and the Deathly Hallows
(هارى بوتر والتقديس المميت)
Rowling .K .J
Bloomsbury; Children's edition, 2007, 608 pp., L9.99

2. Harry Potter and the Deathly Hallows
(هارى بوتر والتقديس المميت)
Rowling .K .J
Bloomsbury; Adult edition, 2007, 608 pp., L9.92

3. Nigella Express
(وجبات نايجيلا السريعة)
Nigella Lawson
Chatto and Windus, 2007, 400 pp., L12.00

4. The Secret
(السر)
Rhonda Byrne
Simon & Schuster Ltd, 2007, 160 pp., L6.91

5. Half of a Yellow Sun
(نصف شمس صفراء)
Chimamanda Ngozi Adichie
HarperPerennial, 2007, 448 pp., L3.94

6. The God Delusion
(وهم الرب)
Richard Dawkins
Black Swan, 2007, 464 pp., L4.44

7. Gordon Ramsay's Fast Food: Recipes from "The F Word"
(طعام جوردون رامزى السريع: وصفات من «كلمة إف»)
Gordon Ramsay
Quadrille Publishing Ltd, 2007, 256 pp., L7.99

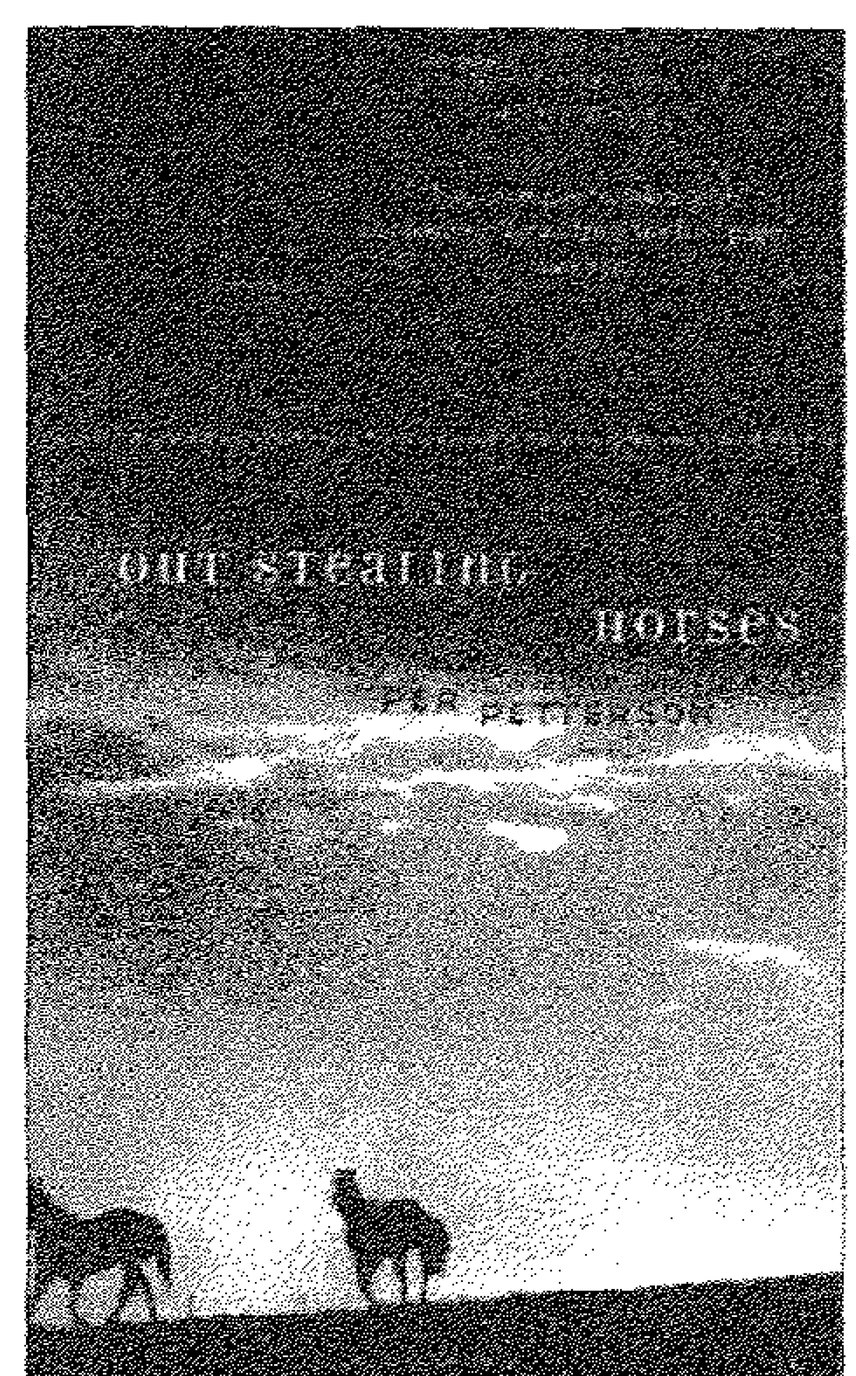
8. Jamie at Home: Cook Your Way to the Good Life
(اطبخ حتى تنال الحياة الصحية)
Jamie Oliver
Michael Joseph Ltd. 2007, 408 pp., L12.50

9. Suite Francaise
(الجناح الفرنسى)
Irene Nemirovsky (Author), Sandra Smith (Translator)
Vintage, 2007, 416 pp., L3.94

10. I Can Make You Thin
(أستطيع أن أجعلك نحيفا)
Paul McKenna
Bantam Press, 2007, 144 pp., L6.59

في مكان موحش

توماس ماكجوين



OUT STEALING HORSES
(سرقة الخيول)
Per Petterson
Translated to English: Anne Born
Graywolf Press, 2006. 258 pp., $22.00

■ نتصور أننا قد شهدنا مثيله: تروند ساندر، مهنى يعيش فى أوسلو فقد زوجته وأخته مؤخراً، يأمل أن يداوى وحدته عن طريق الغرق فى العزلة: بلا أية دراما. ما يود إلا أن يتقاعد ويجىء بعدة تغييرات. لا شك أن الاسكندنافيين يفرقون بين الوحدة والعزلة. بيد أن تروند يلمح إلى القارئ فى أحيان ويباغته بالعامية مقترباً من أذنه فى أحيان أخرى وهو ينبئه بقصة صريحة واقعية الأسلوب حتى إن القارئ لا بد أن يعيشها حتى النهاية. «لقد حالفنى الحظ» يقول عن حياته فيما يعترف بأنه تاق دائماً إلى الوحدة. هل أطلقته وفاة زوجته من عقاله؟ لكنه لا ينبس سوى بـ «لقد فقدت الرغبة فى الحديث مع الناس». سوف يتعلم بحق أن يتحدث بمفرده وسط قطار أفكاره حين «يتلاشى الفرق بين الكلام والصمت تلاشياً بطيئاً». يتأمل انتقاله إلى الريف فيصرح قائلاً «لقد وضعت نفسى فى موقف مستحيل». ينام نوماً مضطرباً لأن الماضى يضغط عليه فى الصمت فلا يسلم من الانزعاج. تدنو بداية الألفية الثانية لكنه يتوقع ألا تعنى شيئاً. وبينما تنتشر الألعاب النارية فى أماكن أخرى، سوف يسكر ويستمع إلى بيلى هوليداى من التسجيل. إن تروند أشبه بالأبطال الأمريكيين: فهو لا يقترب من الشخصيات الاسكندنافية بمن فيهم شخصية كنوت هامسون Knut Hamsun «الملازم جلان» أو شخصية «هالدور لاكسنيس» Halldor Laxness «بجارتور» إلا أن جهوده تتطلب طمأنينة وهدوءاً.

وكما هو الحال مع الكثير من العجائز لما ينتهون إلى نقطة لا يدرون فيها ماذا يفعلون، يقحم تروند نفسه فى خضم عدة خطط ينهض بها بنفسه غير أن طبيعتها اليومية المبتذلة لا تفلح فى إخفاء ما يخالج حياته وذكرياته من غرابة. تضم إحدى ذكرياته «ضجة الجزم المتناغمة شأنها شأن فرقعة السوط» الصادرة عن القوات الألمانية إبان تقدمها باتجاه أوسلو، وهدير الطائرات الألمانية وهى تطير فى تشكيلات «من البحر المفتوح ومن ألمانيا» فوق الخلجان لتقترب من أسقف المدينة. بات أخوا أمه التوأمان معروفين بالأخ الذى قتله الجستابو والآخر الذى لم يقتله الجستابو. ثمة توأم آخر قُتل صدفة بظروف مختلفة كل الاختلاف فى بداية سلسلة حوادث ضيقت الخناق حول حياة تروند الراشدة بأسرها. إن هذا التأثير وألواناً أخرى من الانعكاسات لجزء من براعة السرد، سرد يتنقل زمنياً إلى الخلف وإلى الأمام بثقة إنشائية وإحكام متناسق حتى إن التتابع لا ينقطع البتة. حتى العنوان «سرقة الخيول» يخدم كإعلان على مزحة يقوم بها مراهقون وكلمة سر تدل على النشاط الخطر للمقاومة. إنها رواية قصيرة إلى حد ما لكنها تمتد زهاء نصف قرن دون أن تخلف على ما يلوح أية حادثة مهمة، إنها معجزة. لا يسعنى أن أدرك كيف للمفسرين - فى انفعالهم بنتائج الرواية التفكيكية المشحونة - تحليل هذه الرواية. فكما أشار دوستويفسكى Dostoyevsky، «إن معادلة «اثنان واثنان يساويان أربعة» تبدو بالنسبة لى ببساطة إهانة ليس إلا».

ثمة نوع من الثقة الدنيوية تساور سبر تروند لشئونه الراهنة. سبر جاء فى أواخر حياته وامتزج بحيرة لا تقبل الراحة. يصرح تروند عن الموت القريب الوشيك بأنه «أمر لا يكترث له قط»، ونحن نصدقه وإن كان تصديقاً لا يخلو من تحفظ: فتأمله الملزم لماضيه يمكن تفسيره على أنه كشف حساب أخير». إن ذلك الجزء من حياتى حين استطعت أن أستغل الأحلام انقضى الآن. لن أُحدث أى تغيير بعد الآن.» لكنه يود أن يعلم قبل كل شىء لماذا اختفى أبوه الذى عشقه والذى على ما يبدو بادله العشق - إنها ولا شك فوضى الحرب. لماذا اختفى وجعل تروند يتيماً فى حين حمل أمه إلى الانجراف نحو شىء خطير لا يقف عليه حتى الآن. إن كون أبيه رسولاً للمقاومة، ينقل الوثائق ثم أجساد البشر من النرويج المحتلة، يسبغ عظيم الغموض على الهجران. إنها موجة بعيدة من موجات النازية، موجة توحى إيحاء لا فكاك منه بأن الألمان نازيون إلى الأبد. أو على ما جاهر به كونراد صحيح: إن كل البشر نازيون.

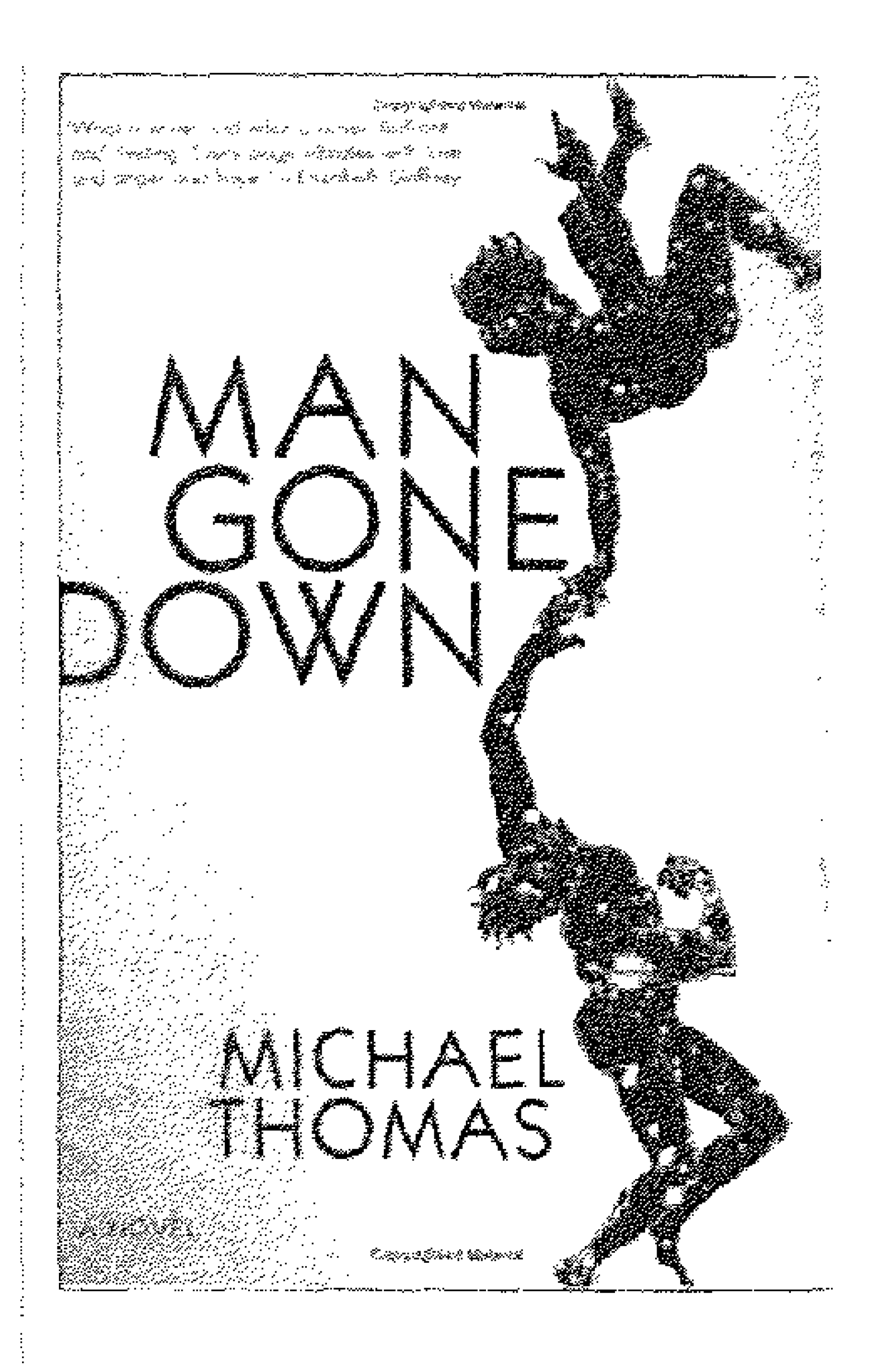
على الجانب الآخر، يقدم المؤلف فى البداية «فعلة لا مبرر لها»: حكاية يستحوذ عليها الدمار. يمسك جون، صديق تروند فى الصبا، عشاً مثالياً من أعشاش طائر الوصع فلا يند عنه إلا سحقه فى التراب ليهشم البيض على الأرض. وبشعر أشعث وسيماء من عنف قلما يجد كبتاً وحباً للصيد لغرض واحد وحيد هو متعة القتل، يعمم جون مشكلة لم تحلها حرية يُحسد عليها وإن شابها الغموض. يتحلى جون بعينين سوداوين لا سبيل إلى سبر غوريهما ووجه أبيض كما الطباشير يستعصى عليه التعبير. يكاد وجهه وعيناه يتحولان إلى أسطورة عندما يقوم بما أتاه من تدنيس: إنه يحتل موقعاً بالقصة باعتباره مصدراً للشر المساوى للألمان فى معاطفهم الطويلة: ألمان يحرسون جسر القرية بالدراجات البخارية والرشاشات. إنهما زوجان يتحديان قدرتنا على الاحتمال: ثمة لمحات ناظرة بعين العطف إلى الجنود الألمان بصفتهم شباناً بعيدين عن بيوتهم، يهرعون بغرابة إلى عمليات الاغتيال، فى حين تنزع بنا فعلة جون الصغيرة بل العنيفة عنفاً لن يمحى من الذاكرة باتجاه مشهد عالمى شرير يمتنع فيه الغفران.

يشمل الشخصيات الحية والميتة قدر مساو من الجلاء. إنها أعجوبة أخرى صغيرة من أعاجيب رواية «سرقة الخيول». إن ما يداخل مكان تروند من بُعد مجرد من المشاعر يُنتج سكوناً حيوياً يسمح له بالتذكر واستيعاب ما بعث أبيه على الرحيل. وسواء جون مرتاد البحر أو أبو تروند المتيم، يتحلل الذكر الضارى بهدوء فيما تتعرى المعاناة الناتجة عن إهماله أمام القراء. إن هذا الكتاب يستمد الكثير من سوداويته من الظل الطويل للرجال حاملى الأسلحة، ظل لا يقل عن القوة الشهوانية التى تقف عائقاً أمام الترتيبات المتحضرة.

إن ذلك الكتاب القصير الرحب القوى يُذكرنا - فى تناقض واضح مع الثرثرة المنمقة للرواية الأمريكية المنتفخة - بالكتابات الدقيقة لجيه. إم. كوتزى ودابليو. جى. سيبولد. كما أن صلة بيترسون بكنوت هامسون - تلك الصلة التى لا ينكرها - بينة فى رواية هامسون «فيكتوريا» بل وروايته المرحة «الحالمون». غير أنه لا يوجد ما قد يوحى بأن رواية بيترسون الرائعة استغرقت فى مصادرها استغراقاً حال دون أن تصبح سرداً أصيلاً يوسع من تجربة القارئ الحياتية. ■

تأجيل الحلم الأمريكى

كـيـامـا إل. جـلـوفـر



MAN GONE DOWN

(الإطاحة برجل)

Michael Thomas

Grove Press, Black Cat, 2006,

431 pp., $14.00

■ «سمه إشميل». عبارة من بين عدة عبارات رمزية تقدمها شخصية رواية مايكل توماس الأولى، «الإطاحة برجل»، كمفتاح لحل لغز هويته. ومع ذلك لا يهم إذا كان هذا هو اسمه الحقيقى أم لا؛ فهذا الرجل لا يتوقع أن يمكث على قيد الحياة حتى انتهاء رحلته كما هو الحال مع بطل ميلفيل Melville المتنور المفتقد لكل سمات البطولة. لطالما علم أنه ضائع تائه فى هذا العالم.

إن توماس يهبه قصته ليسردها بصوت الراوى وقد سمح لبطله بما يربو على ٤٠٠ صفحة كى يحكى أحداث أربعة أيام وعمر مشحون بالاضطراب أفضى إليها. إنه رجل أسود تربى فى بوسطن ويقطن فى بروكلين: يكافح ليكتب فيما يعيل زوجة بيضاء أرستقراطية وثلاثة أطفال. يكاد يخسر راوى توماس كل ما يمتلكه. فهو مفلس تماماً ويقيم بصورة مؤقتة فى غرفة ابن أحد أصدقائه. لا بد أن يتوصل إلى ما يزيد على ١٢٠٠٠فى غضون أربعة أيام - ما يكفى من نقود لتأجير شقة ودفع مصاريف التعليم لمدرسة أطفاله الخاصة. إن «الإطاحة برجل» تروى قصة هذه المحاولة المستحيلة ومحاولات أخرى لا تقل استحالة.

على الرغم من أن الرواية تسرد فى ظاهرها وقائع أربعة أيام تترع باليأس فى نيويورك، فهى تمتد إلى ما وراء هذه الحدود الزمانية والمكانية. إذ يحاول الراوى استدعاء ذكريات ماضية تندمج اندماجاً لا انقطاع فيه؛ فهو يستحضر صدمة طفولته فى ثمانينيات القرن الماضى باعتبارها «تجربة اجتماعية» وذلك حين نقلته الحافلة من المدينة إلى ضواحى بوسطن الغنية. يستخدم عندئذ البطل هذه الغزوات الماضية كنقطة انطلاق يسير من خلالها التواريخ المهشمة لأم اعتادت الإساءة إليه وأب غائب بلا سبيل إلى عودته - إنه أشبه بـ«أذى غير مباشر ناجم عن الشتات». ومن هناك يتقدم صوب مآسى تاريخه الحديث: إدمان للكحوليات نال من عافيته وانفجارات من العنف خلال أيامه بهارفارد وأحلام مؤجلة إن لم تكن منهارة.

إن أكبر الأسئلة المطروحة فى هذه الرواية هى كيفية متابعة الحلم الأمريكى وأحلام أخرى غيرها على حين تعرقلها حقائق العرق عرقلة لا هوادة فيها. كيف للمرء أن يتغلب على لون يسرى مباشرة فى دماء عائلته؟ يكرر الراوى لازمة لا تبرأ من السخرية استعارها من لورين هانزبيرى Lorraine Hansberry، «انظر ماذا جلب العالم الجديد». إن تأثير تلك اللازمة قد يهت ولكن ما انخرط فيه الراوى من تأملات حول ما يسمى بقضية العرق - فى تأثيرها على أطفاله لا تنقصه القوة ولا العاطفة. وبعيداً عن الافتتان الأبوى المألوف بجينات الأطفال المتوارثة وملامحهم الجسدية، يقر باهتمامه المتعاظم بأصل ملامح معينة: فابنه الصغير «يشبهه تماماً، عدا أنه «أبيض».

لا شك أن توماس فى نقده للمجتمع الأمريكى يتكل على رواية «الرجل الخفى» لكنه يعتمد أيضاً على أعمال إليوت Eliot فى جوانب اعترف بها وأخرى لم يعترف بها. ثمة مسحة واضحة من عدمية بروفروك Prufrock: الاغتراب الحاد لروح سامية لا يلائمها انحطاط العالم الأرحب: يأس حصان أعرج مرغم على العدو فى سباق لا حد لإنهاكه. يصارع قدراً قضت به جيناته بقدر ما قضت به بلده. إن راوى توماس رجل لا يفارقه الخطر على الإطلاق. تكشف نفسيته المعذبة بحدة أن ما يداخل التسليات الأمريكية كالبيسبول والجولف من براءة ظاهرية قد يتحول إلى ستائر شريرة تخفى وراءها خيبة أمل للمهمشين، وأن الطيبة قد تنقلب سماً لمن تفرض عليهم فرضاً - لدرجة أن رفض الهدايا المقدمة بيد مهملة يغدو وكأنه حفظ للذات من الهلاك. وسواء كانت الرأسمالية مفضية إلى السعادة أم لا، يصر توماس على أن الأغنياء أفضل حالاً من الفقراء - ليس لأنهم يملكون من المتاع ما يفوق الفقراء لكن لأن الحياة قد أعفتهم مما يخامر التسول والسؤال الدائم من إهانة.

يجازف توماس فى اختياره لبطل يؤدى دور الراوى. إن كلمة «أنا» تنتمى بالضرورة إلى مذهب الوحدة الذاتية، وكلمة «أنا» هذه توحى بما يبدر منه من مواقف عدائية. له الحق فى تكرارها، كما أن له الحق فى تحمل عبء ما يبدو بلا رابط أو وازع. لكنه ينخرط أحياناً فى رثاء للنفس لا تعوزه العجرفة، رثاء بوسعه أن يقلل ما ينتاب القراء من شفقة تجاه ورطته. إنه الخجلان من البهجة يسير كما المهرج على الحبل ما بين نكران ذات يتلون بالجلال وقدر من الماسوشية - فهو يرفض الطعام المجانى على الرغم من أنه يموت جوعاً. يلقى متعة ما بعدها متعة فى رفض متع بسيطة. يستولى عليه فخر غاضب لأن القادرين على معاونته يكنون له كرهاً. ولهذا فإن كلمة «أنا» هذه تجعله أيضاً هشاً كل الهشاشة. إنه بطل - كاتب - فى حوار متواصل مع نفسه، يقر بخوفه من الآلة فى حين يغذيها. وبينما يبدى فى الغالب احتقاراً للعالم العادى الذى يتجاهل قيمته، لا ينفك يضع نفسه فى وضعية يصدر فيها هذا العالم الأحكام عليه. مما يعرى حقارته وعجزه كأب وزوج وابن وصديق ورجل.

كان من الممكن أن تشغل رواية «الإطاحة برجل» عدد صفحات أقل. ومع ذلك فإن مدى مشروع توماس مذهل كلية والنتيجة النهائية ناجحة نجاحاً مبهراً. ينعم توماس بعين استثنائية تلتقط التفاصيل: أما شعر استطراداته الوصفية فيملأ القلوب إثارة وجموحاً. وباعتباره كاتباً أمريكياً نشأ فى بوسطن ويقيم فى بروكلين مع زوجته وأطفاله الثلاثة، يلوح أن توماس يعتنق بشدة شعار «اكتب ما تعرف عنه». وما يعرفه هو كيف يتم تقدير احتمالات النجاح سلفاً فى أمريكا. يدرك أنه من غير المحتمل لأب أسود أن يحرز فلاحاً مع أولاده. يدرك أن الأوضاع مرتبة لكى يبقى الآخر فقيراً والفقراء فى أماكنهم بلا حراك. وقبل كل شىء يدرك كيف أن القليل بمقدوره الإطاحة برجل. ■

قائمة أفضل الكتب مبيعا على موقع amazon.fr

1. Harry Potter, tome 7: Harry Potter et les reliques de la mort

(هارى بوتر. الجزء السابع: هارى بوتر والتقديس المميت)

J. K. Rowling
Gallimard jeunesse, 2007, 809 pp., EUR 25,18

■

2. Un secret

(السـر)

Philippe Grimbert
LGF, 2007, 184 pp., EUR 5,23

■

3. L'élégance du hérisson

(أناقة القنفذ)

Muriel Barbery
Editions Gallimard, 2007, 359 pp., EUR 19.00

■

4. Cahier de gribouillages pour adultes qui s'ennuient au bureau
Claire Fay

(كراسة شخابيط للكبار)

Editions du Panama, 2007, 50 pp., EUR 7,13

■

5. Une vie

(حيـاة)

Simone Veil
Stock, 2007, 395 pp., EUR 21,38

■

6. Miscellanees Culinaires de Mr. Schott Boris Donné (adapté); Ben Schott (Auteur)

(وصفات طعام)

ALLIA, 2007, 160 pp., EUR 14,25

■

7. Les Miscellanées de Mr Schott Boris Donné (Adapté), Ben Schott (Auteur)

(مهام مطبخية صغيرة للأستاذ شوت)

Allia, 2007, 158 pp., EUR 14,25

■

8. XIII Tome 18: La version irlandaise Jean Van Hamme (Auteur), Jean Giraud (Illustrations)

(الجزء الثامن عشر: النسخة الأيرلندية)

Dargaud, 2007, 48 pp.. EUR 9,88

■

9. XIII Tome 19: Le dernier round Jean Van Hamme (Auteur), William Vance (Illustrations)

(الجزء التاسع عشر: الجولة الأخيرة)

Dargaud, 2007, 48 pp., EUR 9,88

■

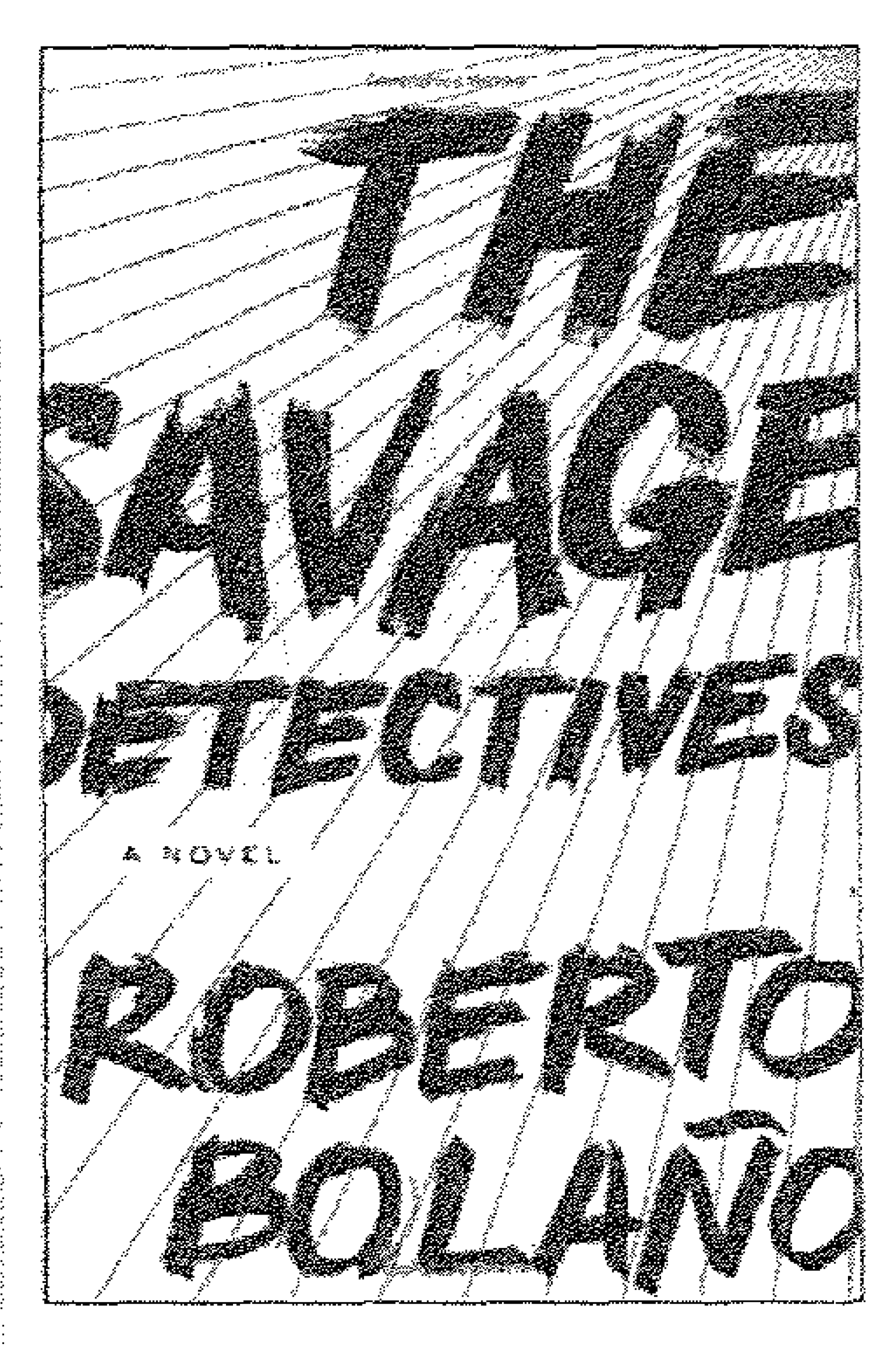
10. Le Chirurgien

(الجراح)

Tess Gerritsen
Pocket, 2007, 470 pp., EUR 6,65

الواقعى العميق

جيمز وود



THE SAVAGE DETECTIVES
(المخبرون المتوحشون)
Roberto Bolano
Translated to English: Natasha Wimmer
Farrar, Straus & Giroux, 2006.
577 pp., $27.00

لقد انتشرت سمعة روبرتو بولانو انتشاراً سريعاً هادئاً - بين المتحدثين باللغة الإنجليزية على الأقل - خلال السنوات القليلة الماضية. وسوف تضمن رواية «المخبرون المتوحشون» أن تتناهى سمعة بولانو إلى أسماع الجميع. فحتى مؤخراً كان القراء بهذا البلد (الولايات المتحدة) يتناقلون اسم بولانو بقدر من السرية: أدين بإدراكى له لصديق أعارنى بكل حماسة نسخة لن أردها مطلقاً من أقصوصة بولانو الرائعة «ليلاً فى شيلى». كان هذا الشيلى الخيالى الغريب غرابة مدهشة واقعياً راسخاً وشاعراً غنائياً فى يوم ما. توفى عام ٢٠٠٣ عن عمر بلغ الخمسين، وقد تم الاعتراف به منذ عدة سنوات فى العالم المتحدث بالأسبانية كواحد من أعظم الكُتاب الحداثيين وأكثرهم تأثيراً. إن هؤلاء من غير المتحدثين بالأسبانية سوف يضطرون إلى الاعتماد على النقل الأمين للترجمة بدءاً من «ليلاً فى شيلى» (٢٠٠٣) وروايتين قصيرتين - «نجم بعيد» (٢٠٠٤) و«التعويذة» (٢٠٠٧) - ومجموعة قصصية تحت عنوان «آخر الأمسيات على الأرض»، كلها من ترجمة كريس أندروز ونشر دار نيو دايريكشنز.

الحق أن اندهاشاً لن يساورك حين تعلم أن روبرتو بولانو كتب الشعر قبل كتابة النثر. حتى فى رواية طويلة كرواية «المخبرون المتوحشون» سوف تجد أن وحدته الأثيرة هى المونولوج المتحفظ الأشبه بكتابات براونينج Browning وليس المشهد المطول. ولد بولانو فى شيلى عام ١٩٥٣ لكنه نضج فى مدينة ميكسيكو سيتى حيث انتقلت أسرته عام ١٩٦٨ . عاد إلى شيلى عام ١٩٧٣ كى يدعم الثورة الاشتراكية كما رآها هو فتم القبض عليه لفترة وجيزة فى انقلاب بينوشه. رجع إلى المكسيك حيث نشر ديوانين للشعر ثم كابد فترة طويلة من الاغتراب والترحال والمخدرات ووظائف شديدة الغرابة فى فرنسا وأسبانيا. وافته المنية ببرشلونة من جراء قصور فى الكبد: فكان كالكمان النائى وسط آلات البالالايكة (على حد قول نابوكوف Nabokov عن أحد الكتاب المنفيين). كان يعلم أن أجله قريب: فثمة المزيد من الأقاصيص فى الطريق ورواية ضخمة «٢٦٦٦» ستظهر باللغة الإنجليزية فى العام القادم. إن الأدب الذى يُترجم فى الوقت الحاضر كُتب فى فورة من الإبداع أثناء سنوات عمره الأخيرة.

نُشرت «المخبرون المتوحشون» عام ١٩٩٨ غير أن روحها تنتمى إلى مدينة ميكسيكو سيتى فى منتصف العقد الثامن من القرن العشرين حين كان بولانو شاعراً طليعياً يزخر عقله بجداول أعمال مجنونة. وكما هو الحال مع الكثير من أعماله، تلوح الرواية سيرة ذاتية مدهشة لحياته. يروى الراوى الجزء الأول منها فى صورة مذكرات كتبها خوان جارسيا ماديرو، شاعر فى السابعة عشرة يسعى إلى بلوغ غاياته الشهوانية والشعرية. سئل خوان عن الانضمام إلى جماعة أدبية أطلقت على نفسها اسم «الواقعيون». يقود الجماعة شاعران فى ريعان الشباب: أرتورو بيلانو ويوليسيز ليما، اثنان لا ينقصهما الجموح يظهران فى حكاوى أخرى من كتابات بولانو (فى «التعويذة» على سبيل المثال). تعتمد شخصية ليما على أحد أصدقاء بولانو، ألا وهو ماريو سانتياجو، فيما تستند شخصية بيلانو إلى ... بولانو.

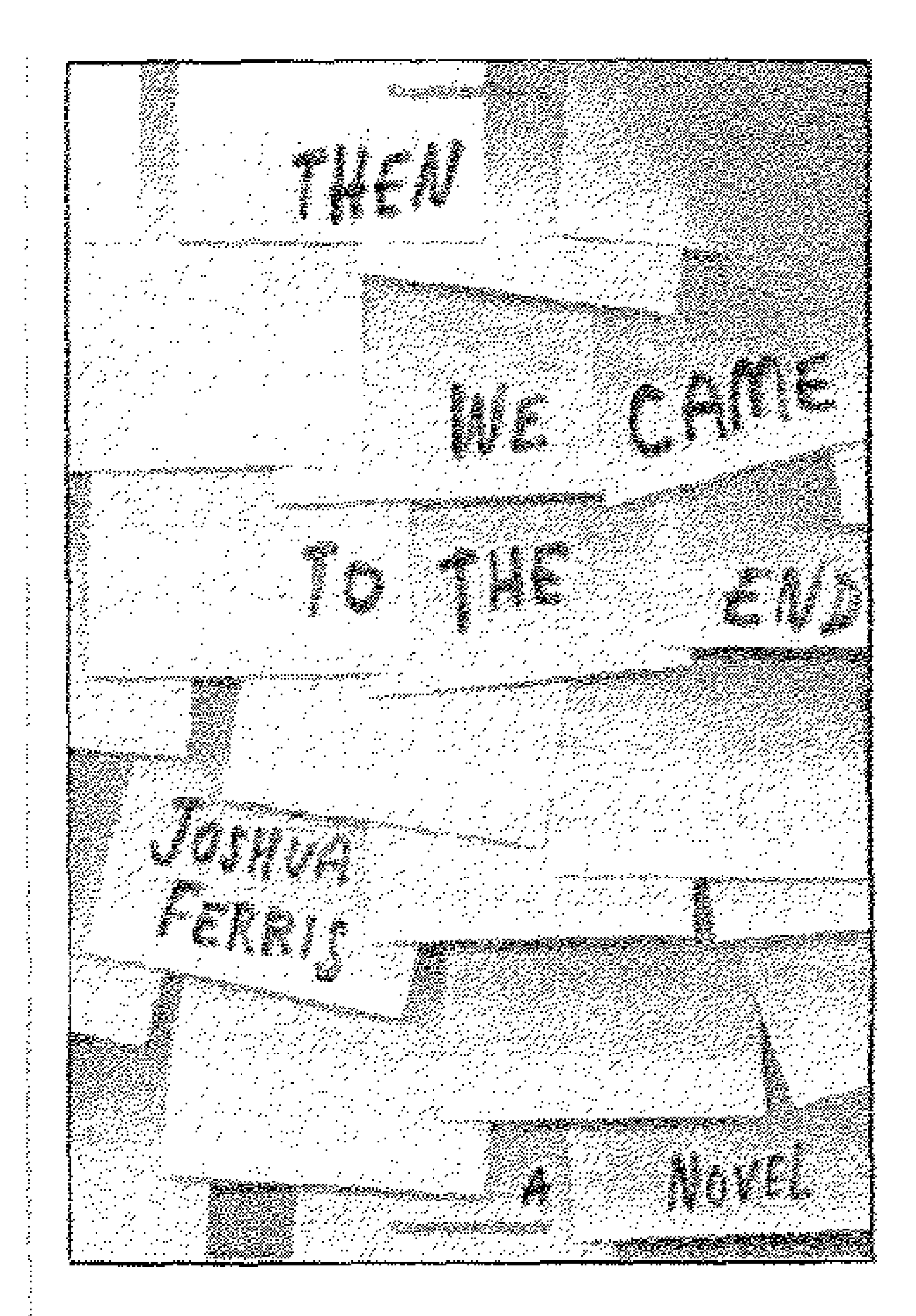
إنها رواية لا تتمحور سوى حول الشعر والشعراء، أحدهم ما هو إلا نسخة متوارية من المؤلف ذاته: كان من الممكن أن تنزلق تلك الرواية بسهولة لتصير نافذة متكلفة تطل على نرجسية لعوب ومغامرات «أدبية» تستعصى على الاحتمال!! بيد أن بولانو ينجو من الخطر ليسرع بعيداً عنه فى طرب. يستمتع القارئ أيما استمتاع بتلك الرواية (وإن تفيض فى النهاية بمشاعر الفجيعة) لأن بولانو على الرغم من كل ألاعيبه ينعم بحساسية دنيوية لا تعدم الواقعية. تتراءى أجواؤه فى خيالاتها راسخة الأقدام إلا أن نبرته مبتهجة عامية لا تغرق فى المصطلحات الأدبية على ما فى ذلك من عظيم الدهشة. وهنا نستحضر رواية أندريه جيد André Gide «المزيفون» أو بالأحرى أحد أعمال ستيندال Stendhal الذى امتهنت شخصياته مهنة الكتابة (كثيراً ما يستشهد بولانو بستيندال). إنه يضع أعيننا هناك، فى ميكسيكو سيتى، ويُذكرنا بالإثارة والملل، الادعاء الأدبى والجهل، الطموح الشهوانى والقلق الملازم لكاتب شاب أو قارئ يرافق أصدقاء يتسلحون بنفس الأفكار والاهتمامات. بوسع كاتب المفكرات اليافع أن يخط أحداثاً قد تجعل القارئ - على الأقل - يجفل فى تسليم موجع. «تتولانى الكآبة طيلة النهار غير أنى أكتب وأقرأ شأنى شأن المحرك البخارى». أو: «ثم أطالع ويليام بوروز حتى بزوغ الفجر». أو: «لم يقع شىء اليوم. ولو حدث وطرأ شىء، أفضل ألا أنبس عنه بكلمة لأنى لم أفهمه». وبكل فخر وعبثية صنَف واحد من أصدقائه - شاعر شاذ جنسياً - صنوف الأدب إلى: المستقيم جنسياً والشاذ جنسياً والثنائى الجنس: «الروايات بوجه عام مستقيمة جنسياً بينما الشعر شاذ تمام الشذوذ: أخال أن القصص القصيرة ثنائية الجنس على الرغم من أنه لم يصرح بذلك!» أعلن نفس الشاعر أن الشعر يكفيه فى الوقت الحالى «وإن من المحتوم أن أساق عاجلاً أو آجلاً إلى سوقية كتابة القصص».

نتوغل فى الرواية مسافة ١٢٠ صفحة ثم ما ندرى إلا وصيغة الكتاب تتبدل. إذ تصور ٤٠٠ صفحة تالية حوارات على لسان الراوى تضم عدداً لا حصر له من شهود ليما وبيلانو وأصدقائهما وأحبابهما ومعارفهما وأعدائهما. إنهم أناس تقاطعت حيواتهم، وإن على نحو وجيز، مع «الواقعيين» منذ عام ١٩٧٦ وحتى عام ١٩٩٦. وكأن الروائى تناول تسجيلاً وطاف به عبر أنحاء العالم، من مكسيكيو سيتى إلى سان دييجو وبرشلونة وتل أبيب. طاف وقلبه تراوده اللهفة على اكتشاف ما جرى لشاعرين شابين يرين عليهما التفاؤل وإن شاب مصيرهما الآن الهلاك. إلى أين ذهبا بعد صحراء سونورا؟ ماذا امتهنا؟ ماذا كتبا؟ ماذا حل بكل ذلك الطموح؟ يبدأ الظلام يخيم على الرواية الصفحة تلو الأخرى. جاهر محرر التقى بليما وبيلانو قبيل توجههما إلى الصحراء بأنهما «كانا حاضرين وغائبين فى نفس الوقت»، فتُقلد الرواية بأسلوب دقيق الحضور الحاد ثم الغياب القاطع.

ثمة صديق ليوليسيز ليما يفضى بأن أهمية حياتى الشاعرين لا تتصل بحال بالواقعية العميقة: «إنها ترتبط بالحياة، بما نفقده دون أن نعى وما نقدر على استرجاعه». يواصل قائلاً إن ما فقدناه يمكن استعادته. «بمقدورنا استرجاعه دون نقصان». هل نستطيع؟ تمضى عدة دقائق عقب إلقاء تلك الحكمة ثم يفارق هذا الرجل الحياة بفعل حادثة سيارة. حوت نهاية الرواية مقابلة مع أكاديمى مكسيكى باح بأن أحداً لم يعد يتذكر الواقعيين. فالكثير منهم موتى. ينهى إلينا بأن ليما يعيش فى ميكسيكو سيتى. «أما أرتورو بيلانو فلا أفقه عنه شيئاً». هكذا تختم الرواية أخيراً نبضاتها العابثة ما بعد الحداثية. إن حياة أرتورو بيلانو - ذات روبرتو بولانو الثانية - تظلل حياة بولانو (حارس ليلى وغاسل صحون، حياة فى باريس وبرشلونة... إلخ). يختفى أرتورو بيلانو من القصة كى يعاود بالتأكيد الظهور بوصفه رجلاً على استعداد لأن «يساق إلى سوقية كتابة القصص» رجلاً كتب كالمنتصر هذه الرواية الرائعة الحزينة. كأنه بالفعل حاضر وغائب فى نفس الوقت.

اكتئاب المهن المكتبية

جيمز بونيووزيك



THEN WE CAME TO THE END
(ثم بلغنا النهاية)
Joshua Ferris
Little, Brown & Company, 2006,
387 pp., $23.99

إنه لمؤلف شجاع مَن يطمر أسباب كتابة روايته فى غضون الرواية نفسها. بعد ٧٠ صفحة من رواية جوشوا فيريس الأولى - التى تدور بأحد المكاتب المهنية - نلتقى بهانك نيرى. يعمل نيرى كاتب إعلانات فيما يخط أولى رواياته التى تجرى بأحد المكاتب المهنية. أصاب فيريس فأضفى شيئاً من السخافة على مشروع نيرى الجاد. يصف نيرى كتابه بأنه «صغير الحجم غاضب اللهجة». يقترح زملاؤه بلباقة موضوعات تفوق موضوعه تشويقاً، فيرفضها. «إن قضاءنا معظم حياتنا فى العمل مسألة مثيرة لاهتمامى» أفضى إليهم، «كتاب صغير الحجم غاضب اللهجة عن العمل» يتفكر زملاؤه. «سوف يتمتع القراء على الشاطئ».

لكن يتضح فى النهاية أن رواية «ثم بلغنا النهاية» ليست صغيرة ولا غاضبة بل منفتحة تحفل بالمرح ولا تنقصها الفكاهة اللاذعة. تقع أحداثها فى بداية القرن الحالى عندما كان انفجار شركات الإنترنت يحصد ضحاياه فى أروقة تصطف بها أنوار الفلورسنت بشركات شيكاغو الإعلانية. يهرب العملاء هرباً وتنضب المشاريع وتتخلص الإدارة من الموارد البشرية من قائمة الاتحادات المشتركة. يأتى تسريح الموظفين على مراحل لكن بدون إنذار، وتماشياً مع التطبيق القانونى الوحشى الفاضح يرحل الموظفون بدون أية تبريرات تجاهر بأسباب تسريحهم.

وفى وسط هذه الأزمة تتلقى الوكالة مهمة خيرية من عميل يلفه الغموض، جماعة للتوعية بمرض سرطان الثدى لم يجدوا لها أثراً على الإنترنت أو أى مكان آخر. طلبت طلباً صعباً كل الصعوبة: تروم الجماعة إعلاناً سوف يَحمل مكابدات مرضى سرطان الثدى على الضحك على مرضهن. (تستحيل المهمة مشحونة بالتوتر والشكوك عندما تسرى إشاعة بأن لين ميسون، مشرفة الموظفين الرئيسية متحفظة الطباع، أُبتليت بسرطان الثدى.) ترتفع شكاوى الموظفين من الحملة الإعلانية وكذا سخرياتهم بيد أنهم يعملون بهمم يائسة على آمل أن يصير أحدهم هو القائم على إتمامها بسهولة ويسر. «ندت عنا جميعاً نفس الدعوة: يا رب أكون أنا».

أما عن كلمة «عنا»: فإن فيريس يكتب الرواية على لسان عدة أشخاص: إذ يشكل موظفو الوكالة المضطربون الثرثارون القلقون راوياً واحداً جمعياً. كثيراً ما جعل ذلك الأسلوب الغريب من رواية جيفرى يوجينايدس Jeffrey Eugenides «عمليات انتحار عذرية» مخدرة للحواس بعيدة عن الأذهان.

غير أن الصوت الجمعى يتماشى تماماً مع موظفى الشركات الكبرى: فهم يتدربون على العمل فى وحدات متعاونة ويشحذون تفكيرهم الجماعى فى ملايين الاجتماعات. إن تأثير ذلك الأسلوب يبث الرجفة فى القلوب عندما يبدأ تسريح العاملين وتضعف بحق سلطة الراوى الجمعى.

يدس فيريس أيضاً عدداً لا بأس به من الرواة المتفردين. وهنا يلفى القارئ أن الرواية منقولة بالأساس من خلال قصص متفرقة عشوائية - فرجال فيريس العاملين بالإعلانات لا يمسكون عن الكلام بدءاً من حديثهم عن الأعصاب والضجر حتى التدريبات المهنية - وعن طريقهم ننصرف «نحن» إلى الأصوات المفردة. ها هى كارين وو، مديرة القسم الفنى، مصدر القيل والقال بالمكتب وينبوع الذكاء الخادع. تعمل فى حملة لترويج ماركة كعك تراعى المقتضيات الصحية، لذا تردف متباهية أن الكعك لا يحتوى على مادة «حمض اللاستيف» مادة خطرة لا وجود لها على الإطلاق. («كنتُ أحاول أن أبدع وأبتكر» فسرت تصرفها) وها هو كريس يوب، كاتب إعلانات عجوز لا يسلم من اليأس. يتسلل إلى المكتب ليشتغل فى مشروع سرطان الثدى حتى بعد فصله من وظيفته. وجوى بوب، البديل للين ميسون. «نحن» نبغضه لما يبديه من تباعد دال على كراهيته للمجتمع. وهناك العاجزة العزباء الحامل كاثوليكية الديانة: حبيبها المتزوج يدعو الرب أن تجهض نفسها ويرنو إليها بعين الاحتقار: والأم الثكلى يخالجها الأسى كل يوم لمرأى إعلان عن «فتاة مفقودة» يشير إلى ابنتها: لم يمر به صاحب لوحة الإعلانات حتى يزيله عقب شهور من العثور على الفتاة الصغيرة مقتولة.

وفوق كل شىء، يتمتع فيريس بحاسة سادسة تجاه جنون الارتياب. يتلهف مهنيو المعلومات إلى المعلومات، وحينما يحرمون منها - من سيرحل، كم عددهم وما هو السبب - ينسجون نظريات وهمية ويتخذون أوثاناً لا تفتقر إلى الغرابة. إذ يكتشف الموظفون أن منسق المكتب يعرف حق المعرفة أى قطع الأثاث تنتمى إلى أى المكاتب. فيدب الخوف فى قلوبهم أن تتسبب كراسيهم فى طردهم - تلك التى التقطوها خلسة من أقران مفصولين ذوى أثاث أفضل فى سلسلة معقدة من التغييرات حتى إن أحداً لم يعد يتذكر مصادر الكراسى. يغدو هنا الكرسى رمزاً لكل ما هو مكروه فى العمل ومرغوب فيه. إنه سجن ورمز للمكانة، تذكرة بأن «مكاتبهم» ليست بحق ملكهم، وسيلة لممارسة طغيان ثانوى، مكافأة، عرش، حافظ للحياة.

لا تحمل الخطوط الأساسية لرواية «ثم بلغنا النهاية» كثيراً من المفاجآت. فهى عذر لاختراق ما ينطوى عليه اليوم من أفراح حقيقية. أفراح تتسرب من ملاحظات فيريس التافهة: جاذبية الفوز بالكعك المجانى. حزن لا متناه يساور بيضة مقلية يأكلها أحدهم على مكتبه. وهناك فقدان ذاكرة وقائى يباعد ما بين وقت تقول به الساعة ومجموعة ساعات العمل التى نطلق عليها «حياتنا»: «لا يسعنا أغلب الوقت أن نتذكر ما وقع منذ ثلاث ساعات. إن ذاكرتنا فى ذلك المكان لا تختلف عن ذاكرة سمكة ذهبية. سمكة ذهبية تقطع رحلتها كل ليلة داخل كيس صغير شفاف من الماء ثم تعود إلى الحوض فى الصباح.

ومع ذلك لن تعثر برواية فيريس على ما تتوقعه من هجاء. فبدءاً من رواية «الرجل ذو البذلة الصوفية الرمادية» إلى الرسوم الهزلية «ديلبيرت» قام الموقف الأساسى للقصة الأمريكية عن عالم الأعمال مقام السخرية ولا سيما هدف فى مثل سهولة عالم الإعلانات. إن المهن المكتبية مؤذية لا تهدف إلا لقتل الروح. ولا مراء أن فيريس يكشف النقاب عن وجهة النظر تلك فى تصويره لتوم موتا، موظف مكتبى مطلق تنطق نفسه بالمرارة، يولع بالأسلحة وإيمرسون ويبعث عدة رسائل إلكترونية بليغة حول كيفية تعارض حياة المكتب التى تتطلب جلوساً طويلاً مع طبيعة البشر. (وهنا مجدداً، يتحلى فيريس بذكاء كاف فيطبع لومه وتقريعه المقنع على لسان شخصية يركبها جنون محفوف بالخطر).

إنها مشاعر سخيفة لا حد لسخافتها، تتعارض مع كل الحقائق البديهية المحرضة على الاستمتاع باليوم الحاضر - مَن مات متمنياً العمل ساعات أطول؟ تلك فكرة مفهومة لكل الأذهان، يتلقاها العقل فى صور معبرة جميلة. لكن حتى بعد متابعة المسيرة وإعادة بناء حيواتهم، يشتاق الموظفون الخارجون من شركة فيريس المجردة من الاسم إليها، إلى الكدح والحنق وساعات أمضوها مع «هذا الشخص أو ذاك الذى بث فى ملائكة السماء غضباً وإزعاجاً وإهانة». وعندما يبلغ القارئ نهاية هذا المشهد وتلك الرواية الممتعة السوداء، سوف يتمكن من التعاطف مع شخصياتها. البادى أن رواية «ثم بلغنا النهاية» سوف تغدو رواية ممتعة تليق بالشاطئ، وبخاصة لو كنتَ لا تزال تحتفظ بوظيفة تحصل منها على إجازة.

الكاشف

جيم لويس

TREE OF SMOKE
(شجرة من الدخان)
Denis Johnson
Farrar, Straus & Giroux, 2006, 614 pp., $27.00

صباح الخير، استمع إلىّ من فضلك: دينيس جونسون فنان أمريكي حقيقي، وروايته «شجرة من الدخان» كتاب بحق هائل، متعة ترين عليها الغرابة، كتاب طويل للغاية وإن تتسارع مجرياته بسرعة هائلة، فهو أشبه بركوبة ملاه لا تنفك عن الدوران. يبدأ بنبرة حزينة ليتطور إلى حزن ما بعده حزن، يدور بلا توقع في كل اتجاه ثم يتمايل بغتة ليسقط في النهاية سقطة تُنزل بمعدتك اضطراباً. تجابه الرواية القارئ بدرع الروايات العظمى وعتادها: موضوع تاريخي كبير (فيتنام) ومؤسسة معرفية كما الأسطورة (الاستخبارات العسكرية) وفترة زمنية طويلة (١٩٦٣-٧٠، مع مقطع ختامي يدور في ١٩٨٣) وطول يتعذر على العقل (٦١٤ صفحة). ربما أخمدت كل هذه العوامل رغبة القارئ لو لم تكن الرواية بالفعل عظيمة ولو لم تكن «ابن يسوع» (١٩٩٢)، تلك المجموعة القصصية العجيبة الباعثة على الإدمان، هي كتاب جونسون الأخير. إن «شجرة من الدخان» لكتاب مفعم بالعاطفة بل والقدسية (أهداه مؤلفه إلى «مرة أخرى إلى ق. ع». أراهن بعمري أنه إهداء إلى «القوى العظمى»). ينبغي لهذا الكتاب أن يضمن مكانة جونسون ككاشف لهذا القرن الجديد - توقع أعلنه بثقة إنما بعزوف، وبشيء من الإحباط والفزع.

أعلنه بعزوف لأن جونسون يتراءى دوماً شخصية محيرة، هو واحد من آخر الأساتذة الهامشيين. لا ينعزل عن العالم لكنه أيضاً لا يواجهه محملاً بالغرور. لم يسبق لي قط أن قرأتُ له حوارا (رغم أني لم أنقب ملياً) أو أبصرتُ صورة له ليست على غلاف أحد كتبه. والأهم أن الكتب نفسها - ست روايات ومجموعة قصصية وأخرى مسرحية وثلاثة مجلدات ومجموعة مقالات صحفية - غالباً ما تبرز على نحو عفوي من شقوق سرية تتقاطع مع الحياة والثقافة الأمريكية: زنزانات السجون، الأحياء الرديئة، مواقف الحافلات، منازل خشبية رخيصة تقبع في الحقول وراء آخر عامود كهربائي. تطفح كتاباته بأرواح محرومة في مواقف رهيبة، رحالة سيئي الحظ في سبيلهم إلى كارثة تالية. لكن على العكس من أغلب كتب المنبوذين، نجدها أصيلة مبتكرة (يا لغرابة استخدام تلك الكلمة في هذه الأيام لكنها تنطبق عليها). ليست مبتكرة فحسب بل وجميلة كما النشوة - تسلب الألباب وتوجع القلوب: في مثل بؤس ديستوفسكي وتوقد عاطفة إدجار آلان بو ورعبه.

يشوب موقف جونسون إذن مثالية كاتب اليوم: احترام جم من زملائه وأقرانه، دعم طفيف من المؤسسات، مجموعة أتباع ضخمة خلفته مع ذلك خارج الأضواء على نحو غامض. سوف نلفي رواية «شجرة من الدخان» كتاباً لا يستهان به، لا يقل عن التحفة الأدبية؛ فهو نتاج كاتب استثنائي في أوج مسيرته المهنية. لكنني لا أملك إلا أن أتمنى ألا يمد الكتاب يد التغيير إلى منزلته. فلا حاجة لنا إلى المزيد من الروائيين-المؤدين أو الروائيين-الخبراء أو الروائيين-النرجسيين بيد أننا في حاجة ماسة إلى روائيين بإمكانهم الإبداع على هذا المستوى.

أما عن هذه الرواية تحديداً، فهي مغايرة لما قد تتوقعه بديهة القارئ. إذ تحكي مثلاً عن حرب فيتنام. ومن كان ليظن أننا في حاجة إلى كتاب آخر عن ذلك الإخفاق المروع؟ كما أن أحد أبطالها هو بيل هيوستون، رجل تصدر رواية جونسون الأولى «ملائكة» (١٩٨٣) وانتهى نهاية بائسة. إن قراءة تاريخه الأول في البحرية تجربة مزعجة لمن قرأ الكتاب الأول وإن كانت لا تعني شيئاً لمن لم يقرءوه.

الأغرب من ذلك أن القارئ لا يشعر بأن «شجرة من الدخان» رواية من روايات دينيس جونسون، ليس في مستهلها على الأقل. يمتلك جونسون ولعاً بالصيغ النبوئية وغالباً ما يطرح أساليبه البلاغية في إطار لا يحظى به معظم الكُتاب المعاصرين. إنه أسلوبه الطبيعي في الخطاب غير أنه أحياناً ما يتراءى منهكاً للأعصاب. تبدأ إحدى رواياته السابقة «ميت بالفعل» (١٩٩٧)، بنبرة جامحة ثم يختمها بعد ٤٣٥ صفحة في حال من التشوش. تتلون «شجرة من الدخان» بالمزيد من المكر: إذ تبدأ كأي رواية ممتازة كتبها مؤلف آخر وبحلول الوقت الذي تدرك فيه ما تتطلبه من صبر وجهد، يكون الأوان قد فات.

تبدأ مثل تلك الجمل في المرور بعجلة أمام عيني القارئ: «ليس لديها في هذا العالم سوى يديها وحبها المجنون ليسوع، يسوع الذي من جانبه لم يسمع عنها قط من قبل». يا لها من جمل! إلا أن صفحات الكتاب تتوالى. يظهر جنديان نال منهما السُكر، أحدهما مبتور القدم يتكلم طويلاً بلا ثمرة ليعلن العاجز أن «الألم حل بقدمي المختفية». بعدئذ ينوح الجندي الآخر «مثله مثل كلب ينبح». تمتد السطور ككرات البلياردو فيما ترافقها لغة إنجليزية لا تنقصها الغرابة، تدور السطور وتنزلق بعد الفاصلة الأخيرة بالضبط ثم تهبط في جيوب طاولة البلياردو ليعلو صوتها المفاجئ الحاد.

لكنني لم أنبئك بعد بقصة الرواية. تدور في الأساس حول رجل يدعى سكيب ساندس، مبتدئ في وكالة الاستخبارات المركزية. يبدأ الكتاب وهو شاب عام ١٩٦٥ ليقطع صفحات الكتاب تقريباً حتى النهاية لكن تُقبل إليه سنة ١٩٨٣ وهو عجوز عتيق: يبدأ عمه عملية محدودة من عملياته ثم يفارق الحياة بطريقة عبثية عبثاً لم يصدق معه الناس أنه مات بحق: وهناك الأخوان هيوستون، بيل وجيمز، اللذان يخدمان بلادهما ثم يطوفان طواف الغضب والحرية رجوعاً إلى ولاية أريزونا، إلى الفراغ والوحشة؛ وثمة عسكريان من فيتنام، واحد من الجنوب والآخر من الشمال، يتصرف الاثنان بمسحة من اللاعقلانية: وضابط استخبارات اسمه ستورم، يتبدى بالكتاب وكأنه آخر رجل في سباق للجري، يتم السباق عند خط النهاية ليقابل امرأة كندية تدعى كاثي. تنتمي كاثي إلى مذهب يقول بأن مجيء المسيح ثانية ونهاية العالم قريبان. وهنا تحوي كاثي القصة بأكملها وينتهي بها الأمر إلى تحمل عبء أكثرية مآسي الكتاب والحصول - كما تستحق - على مساحة من النحيب في آخر صفحاته.

يلخص جونسون العديد من موضوعات كتبه السابقة: أمريكي ينطلق نحو العالم وعالَم يلوح مبهماً عويصاً في أعين الأمريكي؛ الرقة كمشاعر غير متوقعة والفظاظة كعاطفة طاغية لا خلاص منها. لقد أنفقتُ ساعات طوالاً في قراءة «شجرة من الدخان»، وبينما اقتربتُ من النهاية، ألفيت نفسي متمنياً ألا تنتهي. هناك حفنة من الكُتاب يستطيعون اليوم توصيل ذلك الأسى الذي ذكرته من قبل، وأدبنا فاتر ممل من دونهم. لا يخلو كتاب من كشف ملهم غير أن الرؤى النبوئية تتعذر على الوجود. إن مشاعر الندم الضئيلة بالفصول الأخيرة شائعة كل الشيوع حتى إنها تتمنع على ملاحظة القارئ: لكن كم كِتاب يسعه بالفعل توصيل معنى أن تكون ضائعاً وحيداً كما يفعل هذا الكتاب، فضلاً عن توصيل معنى أن يجدك أحدهم؟



١ ـ أفضل كتاب لهذا العام: «المفقودون»
(Les Disparus)

للكاتب الأمريكى دانييل مندلسون.

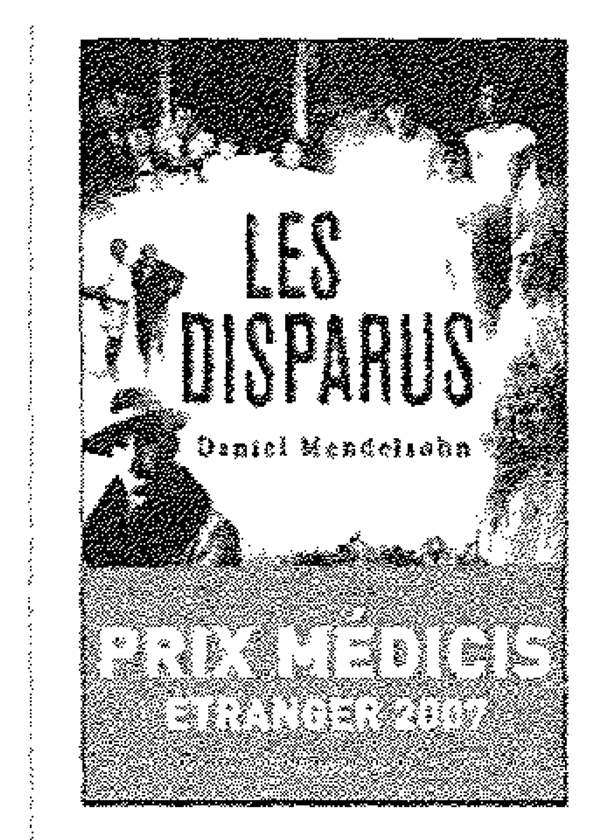
(Daniel Mendelsohn)

ترجمةُ من الإنجليزية إلى الفرنسية بيار جوجليلمينا

العنوان الأصلى:

The Lost: A Search for Six of Six Million

دار نشر فلاماريون، ٦٥٠ صفحة، ٣ يورو.



تُرى أى مصير ذلك الذى آل إليه «شميال» و«إستر» وبناتهما الأربع، بعد غزو الألمان لبولندا فى سبتمبر ١٩٣٩؟ لا يعرف الكاتب من تلك القصة سوى النهاية التى تكرر ذكرها على سمعه: «قتلهم النازيون». ولكن متى وفى أية ظروف؟ وهل كانوا ضحية حملة داهمتهم أم وشاية تقصدتهم؟ وهل كان ذلك ثمرة لحالة معاداة السامية التى كانت تملأ الأجواء؟ أم ثمرة الحقد أم الجشع؟ وكيف كان رد فعل الإخوة والأخوات فى أمريكا وفى فلسطين على نداءات الاستغاثة التى أطلقها صوبهم أخوهم «شميال»؟ ومن أين أتى ذلك الشعور المبهم بالذنب الذى يملأ نفوس الأحياء، أو ذلك الندم الذى ظل يساورهم لإخفاقهم فى استنقاذ أخيهم الأكبر؟ يروى كاتب «المفقودين» حنايا وخفايا ذلك التقصى على طريقة الرسام الذى يُظهر ضربات فرشاته فرادى، من شائعة شاردة، إلى اقتفاء آثار كاذبة، إلى إساءة فهم أو تكذيب حدس و فى الوقت ذاته، ينغلق الكاتب على نفسه، فيعترف بتلك العلاقة السادية التى فرضها فى طفولته على أحد إخوته، فيزيد بفعل تلك النبرة الذاتية الصادقة من مصداقية الشهود الأحياء الذين استجوبهم (السيدة «بيجلى» بنيو يورك، وجاك جرين أو ميج جروسبارد فى سيدنى، وكلارا فريليش فى ستوكهولم). ويردف مندلسون إلى سرديته قراءة جديدة لمقاطع كبيرة من التوراة، وهو الأمر الذى يتيح له فرصة غير عادية للتأمل والتفكر فى بواعث الغيرة والقتل، وتجليات الجبن أو الشجاعة و هنا، ثمة ثلاث قناعات راسخات: أولها أنه يجدر البحث عن القصة الأخرى التى تتخفى وراءها الحكاية التى يقصها الكاتب، وثانيها أن العنف لا يتجلى فقط فى مواجهة الغريب، وإنما قد يبيته القريبُ للقريب، وأخيرا، إن أحدا لا يسعه أن يجزم بأنه كان سيختار جانب الخير أو البطولة لو عاد به الزمان.

وينتمى كتاب «المفقودين» إلى عائلة الكتب التى تترك فى النفس أثرا لا يمحى. ففى البداية، يلوح مندلسون بالليلة التى ابتلعت أولئك الستة المفقودين من على مسافة قاصية، لكن تلك المسافة تقصر شيئا فشيئا من صفحة إلى أخرى، حتى أننا كلما اقتربنا من نقطة النهاية، راحت تلك الليلة تقتحمنا وتغزونا ببرودتها وقدرتها على إصابة النظار بالدوار.فهل كان القص يعمق الانتظار؟فالنهاية أشبه ما تكون بالمواجهة. وعلى كل حال، لا تقتصر جدارة دانييل مندلسون فى هذا الكتاب على نجاحه فى حثنا على مساءلة التوراة واستدعاء إرث بروست ومكاشفة إخوتنا من البشر.

٢ ـ أفضل رواية فرنسية: «فى مقهى الصبا الضائع»
(Dans le café de la jeunesse perdue)

للروائى باتريك موديانو

Patrick Modiano

دار نشر جاليمار، ١٥٠ صفحة، ١٥ يورو.

يعد باتريك موديانو، الذى أتم الثانية والستين، أكبر روائى فرنسى معاصر، تلك حقيقة دامغة.كما تعد روايته الجديدة، «فى مقهى الصبا الضائع»، دليل تلك المكانة وبرهانها، حتى وإن كان الأمر يتعلق بكتاب رصين حزين، تعزف نهايته لحن أسى وكآبة.يعود بنا ذلك المقهى الباريسى القائم فى حى الأوديون إلى الستينيات من القرن الماضى ومن بين رواده، ثمة امرأة شابة تدعى لوكى، فى الثانية والعشرين من عمرها، جميلة هى، وغامضة، قد تطبعت بطبع من اليقظة والاحتراس تلك هى الفاتنة، أما المفتون، فهو طالب فى المدرسة العسكرية، لم يعد يشغله سوى ترقب مجيئها أما كيسلى، فهو ينتحل صفة ناقد فنى، بينما هو فى الواقع مخبر سرى خاص يعمل لحساب زوج لوكى الذى هجرته فجأة و أما رولان، الكاتب المبتدئ، فهو الرجل الذى سيصبح عشيق الفاتنة الشابة. وهكذا تمضى تلك التوليفة السردية المكونة من أربعة أصوات.هذا ولا تعد رواية «فى مقهى الصبا الضائع» مجرد تعبير آخر عن وساوس باتريك موديانو وهواجسه. فهنا رواية جذابة، تدور أحداثها فى باريس ساحرة، حيث تتجاوب أصداء فكرة الفقد هنا حجر كريم جديد، يضاف إلى ذلك البناء الذى لا يضاهى، والذى كان قد بدأه موديانو عام ١٩٦٨، برواية «ميدان ليتوال»، والذى ما فتئ يقويه ويدعمه بخصيب الإلهام وعذب الأسلوب. وتلك هى شيم الكتاب الكبار.

المرشحون الآخرون لهذه الجائزة:

- رواية «مصاص دماء روبران» للكاتب جاك شيسكس، دار نشر جراسيه.
- رواية «فى حمى لا شىء» للكاتب أوليفييه ادم، دار نشر لوليفييه.

٣ - أفضل رواية أجنبية: رجل
(Un homme)

للروائى الأمريكى فيليب رُث

Philip Roth

ترجمتها من الإنجليزية إلى الفرنسية جوزيه كامون

العنوان الأصلى للرواية:

Everyman

دار نشر جاليمار، ١٥٤ صفحة، ١٥.٥٠ يورو.

تعد كل رواية جديدة لفيليب رُث بمثابة إنجاز حقيقى. وفى رواية «رجل» يوقع عملاق الأدب الأمريكى المهيب على واحد من أكثر كتبه قسوة ويأسا لما للموت فيه من حضور طاغ. فبطل الرواية رجل فقد كل شىء حتى اسمه. فهو ليس إلا ظل رجل، تحمل على مدار سنوات حياته ضربات الدهر، إذ تبين له منذ البداية أنه سيكون فى «خطر داهم دائم»، بسبب الأمراض العديدة التى افترست جسده وزادته وهنا يوما بعد يوم.

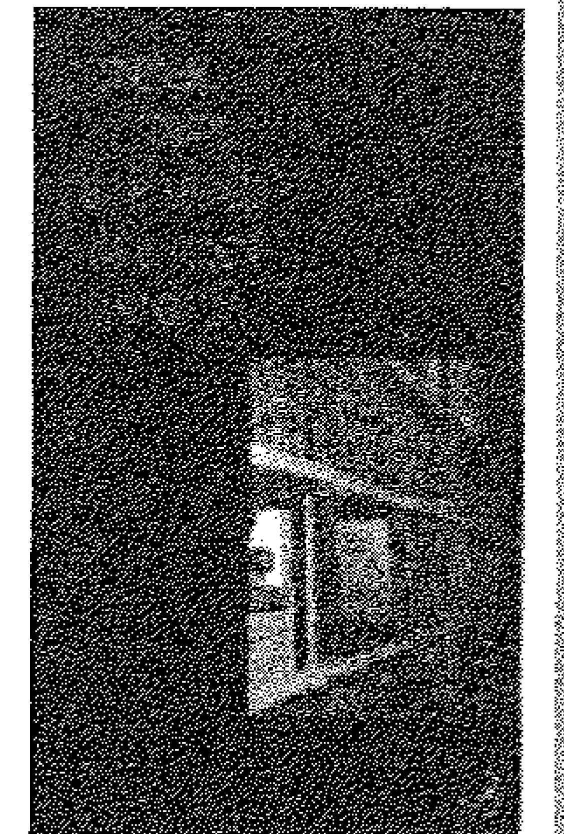
ها نحن نراه يواجه العذاب بصلابة ورباطة جأش، ويعبر حياة تعسة تخللتها ثلاث زيجات فاشلات، ليغرق من ثم فى عجز أسلمته إليه الشيخوخة، وأخيرا، سيرفض هذا الغريق الأبدى غوث الدين، إلى أن يسلم الروح على سرير بمستشفى.. هكذا، تبدو رواية «رجل» كموجز رهيب للتحلل، وهى فى ذات الوقت لحن جنائزى وتأمل شديد القسوة فى ضعف الإنسان وفى فنائه.أما أسلوب الكتابة فكأنما هو نتاج مبضع جراح، يثير النفس بما فيه من تجرد زاهد ومن تقشف مأساوى.

المرشحون الآخرون فى هذه الفئة:

- رواية «العيش فى ترصد» للإنجليزى ويليام بويد، دار نشر «سوى».
- رواية «امرأة الخامس» للأمريكى دوجلاس كنيدى، دار نشر «بلفون».

كـتـب 2007

قائمة «ليـر»



٤- أفضل اكتشاف لرواية أجنبية: «الحياة السرية لـ إى روبرت بندلتون» للروائى الأيرلندى مايكل كولينز (La vie secrète de E Robert Pendleton)

ترجمها من الإنجليزية إلى الفرنسية جان جيلوانو.
دار نشر كريستيان بورجوا، ٥٢٨ صفحة، ٢٦ يورو.

يعمل بندلتون أستاذا للكتابة الإبداعية فى جامعة متواضعة، وكان قد نشر، منذ فترة طويلة، رواية حققت نجاحا كبيرا، ولكن سرعان ما طواها النسيان، وتوارى اسم كاتبها بعد بارق لمعان. غير أنه عندما يهبط على الجامعة منافس يصيب النجاحات الأدبية الواحد تلو الآخر، تستثار حفيظة بندلتون حتى أنه يقرر الانتحار.

لكنه هنا أيضا يخفق.. ويباعث من شفقة، تقرر إحدى طالباته الجميلة آدى، أن تهتم بشئونه، فتكتشف بين أوراقه روايته القديمة. فلما يتراءى لها ما يحمله النص من مزايا أدبية، تقرر الفتاة الشابة السعى لإعادة نشر الرواية. لكنها تلحظ أن القصة، التى تسرد أحداثها جريمة قتل بشعة تتعرض لها صبية فى الثالثة عشرة من العمر، تكاد تتماثل مع تفاصيل حادثة مأساوية شهيرة..

بعد النجاح الكبير لروايتيه الرائعتين «شبكة الزمرد» و«حراس الحقيقة»، ينجح مايكل كولينز هنا فى المزج بين يوميات الدراسة الجامعية، وعناصر الرواية البوليسية، وتأمل دقائق الإبداع الأدبى.

المرشحون لهذه الفئة:

- رواية «عبور فينوس» للأمريكية شيرلى هازارد، دار نشر جاليمار.
- رواية «إلىَّ إلى الأبد» للأمريكية لورا كازيشكى، دار نشر بورجوا.

٥- أفضل اكتشاف لرواية فرنسية: مناصفة بين روايتين:

❖ رواية «دائرة» (Cercle)

ليانيك انيل، دار نشر جاليمار، ٤٩٤ صفحة، ٢١ يورو.

❖ ورواية «نو وأنا» (No et moi)

لدولفين دو فيجان، دار جوزيه كورتى لاتيس، ٢٨٨ صفحة، ١٤ يورو.

بأسلوبها البديع الذى تتخلله روح شاعرية فريدة، تبرز رواية «دائرة» ليانيك انيل كواحدة من أكثر الروايات الفرنسية طموحا فى هذا العام. فكل شىء ينقلب رأسا على عقب فى الساعة الثامنة وسبع دقائق بالنسبة لجان ديشل. الراوى، الذى يحسم أمره ويقرر «العودة إلى الحياة». وعلى الفور يترك البطل عمله، ويهجر حياته المعتادة، ليتجول فى باريس على غير هدى، تتدافع نحوه الوجود والتجارب. وعلى الطريق ثمة امرأة مثيرة فى انتظاره، هى الراقصة أناليفيا.. وتتواصل فصول الرواية، محمومة العواطف، متزاحمة الرغبات، وكأنها أوديسا عصرية تقدم المفتاح السحرى لتجديد الحياة، أوديسا مليئة بأسباب المتعة الأدبية والحسية.

أما رواية «نو وأنا»، فهى الرواية الرابعة لكاتبتها دولفين دو فيجان، التى تكشف فيها عن مبلغ أصالة موهبتها، بالرغم من كونها قد اختارت موضوعا صعبا، إذ تتناول علاقة الصداقة العجيبة التى تربط بين «لو» البالغة من العمر ثلاثة عشر عاما والمتمتعة بذكاء خارق والابنة لأم مصابة بالاكتئاب ولأب فاقد لزمام الأمور، وبين «نو» ذات الأعوام الثمانية عشر، التى تعيش بلا مأوى، وتبيت ليلتها على رصيف محطة أوسترليتز. لكن الكاتبة قد عثرت على النبرة المناسبة للقص، وابتعدت عن كل الكليشيهات الجاهزة فى هذا السياق. كما تعد روايتها بمثابة مرآة أمينة تعكس ملامح عصرنا، وما فيه من أكثر أصداع الحياة غورا.

المرشحون الآخرون لهذه الفئة:

- رواية «سندريلا» لإيريك رينا رد، دار نشر ستوك.

٦- أفضل سيرة ذاتية: رواية «استانبول» (Istanbul)

لأورهان باموق (Orhan Pamuk)
ترجمها من التركية إلى الفرنسية سافاس دوميريل وفاليرى جى أكسوا وجان فرانسوا بيروز.
دار نشر جاليمار، ٤٥٠ صفحة، ٢٢ يورو.

بقلم أديب نوبل ٢٠٠٦، الذى يقطر عذوبة ونوستالجيا، تجمع صفحات الرواية بين الرغبة فى تقديم صورة للذات والسعى إلى إسداء التكريم لاستانبول. فعلى مدار الذكريات، يعيد باموق رسم أعوامه العشرين الأولى على خلفية مدينته الحبيبة، التى ولد فيها عام ١٩٥٢.. مدينته التى استعان بها لتكون مرآته، وملاذه، وملهمته، وهو يحكى هنا كيف استمرت تلك المدينة التى كانت فيما مضى بيزنطا القديمة فى إمداده بالمادة التى غذت كل أعماله.

كل شىء موجود هنا: انعكاسات الأضواء على قرن الذهب، ووشوشات البوسفور، وغمغمات الأصوات فى العمارة التى كبر فيها باموق، واكتشافاته فى المدرسة، ومغامراته الليلية، وقصة حبه الأول، ومشكلاته مع الدين فى ظل أسرة «علمانية ومتغربة ولا تصلى». وما بين استطراد وآخر، يحاول باموق الكشف عن روح استانبول الموغلة فى حزنها السرمدى. لكن هذا الكتاب لا يعد محض دعوة للسفر، بل هو المفتاح الأمثل للدخول إلى بيت آل باموق.

المرشحون الآخرون فى هذه الفئة:

- «عليك الرحيل مع الفجر» للنيجيرى وول سوينكا، عن دار نشر أكت سود.
- «تقشير البصل» للألمانى جونتر جراس.

٧- أفضل رواية أجنبية أولى: «الأشياء الجميلة التى تحملها السماء» (les belles choses que porte le ciel)

للكاتب الأمريكىديناو منجستو (Dinaw Mengestu)
ترجمها من الإنجليزية إلى الفرنسية آن ويك.
عن دار نشر ألبان ميشال، ٣٠٤ صفحات، ١٥,٥٠ يورو.

بعد أن أتم السادسة عشرة من عمره، وبعد أن تم إعدام والده، يهرب ستيفانوس من إثيوبيا ليستقر فى الولايات المتحدة الأمريكية. وهناك، بعد أن أتم دراسة الهندسة، ينتهى به المطاف إلى افتتاح محل بقالة صغير فى حى فقير فى مجاهل واشنطن. ويخرج ستيفانوس من عزلته عندما يلتقى فى إحدى الأمسيات بصديقين قديمين من أصول أفريقية، كان قد تعرف عليهما عندما كان يشغل وظيفة عامل حقائب فى أحد الفنادق الكبرى. الصديقان هما «كن» الكينى الذى يؤمن بـ «عظمة الحلم الأمريكى»، و«جو» الكونغولى الذى يفتقر إلى التفاؤل فى نظرته إلى المستقبل. وفى يوم من الأيام، تأتى سيدة بيضاء وابنتها الملونة للسكنى إلى جوار ستيفانوس، فتنشأ روابط من الألفة والمودة بين البقال وجارتيه. تلك هى الرواية الأولى لديناو منجستو، الروائى الأمريكى ذو الأصول الحبشية، والبالغ من العمر تسعة وعشرين عاما، الذى ينجح فى تقديم عمل مدهش بكل المقاييس، وشخصيات مرسومة بعناية فائقة. وهو إلى ذلك يبرع فى تصوير العلاقات بين مختلف الأعراق فى أمريكا المعاصرة، تصويرا لا يعرف أدوات التجميل ولا يسقط فى فخ التبسيط الممجوج، وإن احتفظ بقدرته على إثارة العاطفة وتحريك الشجن، لإثارة موضوعات مثل الاندماج فى المجتمع الأمريكى وما يتضمنه من مناقشة للعلاقات الطبقية. فهل لنا أن نضيف أن منجستو روائى واعد، مازال ينتظر منه الكثير؟

المرشحون فى هذه الفئة:

- رواية «فيزياء الكوارث» لماريشا بيسل، عن دار نشر جاليمار.
- رواية «ويسكونسن» لميرى ريلندز ايليس، عن دار نشر بوشيه شاتيل.

كـتـب 2007

قائمـة «لـيـر»

٨- علوم: الخلايا العصبية للقراءة
(Les neurones de la lecture)

للعالم الفرنسي ستانيزلاس دوين

Stanislas Dehaene

دار نشر أوديل جاكوب، ٤٧٨ صفحة، ٢٩ يورو.

ترى هل يمكن معرفة ما يحدث داخل المخ أثناء تعلم الإنسان القراءة؟ أخيرا أتاحت وسائل علم دراسة الأعصاب تلك المعجزة. وما أعجب ما تم اكتشافه حول تلك العاصفة التي تهب داخل الدماغ عندما تطالع العينان صفحة مليئة بالعبارات المصفوفة. مؤلف الكتاب أستاذ شاب في مجمع فرنسا، اختار في بحثه القيم أن يفسر كيفية دراسته لحالات الأطفال الذين يتعلمون القراءة، كما حالات المرضى العاجزين عن تعلم القراءة، وكذا حالات الأشخاص البالغين المنتمين إلى مجتمعات تفتقر إلى الكتابة. ويشرح المؤلف لنا أن المخ البشري، الذي لم يتطور منذ أزمنة الصيد والالتقاط، لم يكن مهيأ للقراءة. ولكنه قد تكيف بإعادة استخدام بعض الخلايا العصبية التي تساعد الإنسان على تحديد موقعه. ولقد اعتمد إنسان ما قبل العصر الحجري القديم على حفظ ما يتراءى له من علامات بسيطة في الطبيعة. وهي العلامات التي رمزت إليها الأبجديات فيما بعد. هذا وتتماثل آليات التعلم في جميع اللغات، وبغض النظر عن عدد الحروف، وفقا لما جاء في هذا البحث الهام الذي يفند نظريات كثيرة سابقة في هذا المجال العلمي.

المرشحون في هذه الفئة:

- كتاب «مصير الكون» لجان بيار لوميتيه، دار نشر فايار.
- كتاب «كان يا ما كان أجدادنا» لريتشارد دوكنز، دار نشر روبير لافون.

٩- جائزة الأدب «الأخضر»: رواية «ثيران القلب الكسير»
(Les bisons du Coeur brisé)

للكاتب الأمريكي دان أوبراين

Dan o'Brien

ترجمها من الإنجليزية إلى الفرنسية لورا ديراجنسكي، دار نشر «أو ديابل فوفير»، ٣٦٦ صفحة، ٢٣ يورو.

بدأت القصة بتبادل نظرات غير عادية: على الطرف الأول كان دان أو براين، المؤلف الذي يهوى الصيد في سهول ولاية داكوتا، وعلى الطرف الآخر كان هناك ثور يرى جسده يشبه جبلا من العضلات، ورأسه تحاكي في ضخامتها الغسالة الكهربائية. من تلك المواجهة، التي تشبه مواجهات ميلفيل بين الإنسان والحيوان، والتي تمثل مشهدا افتتاحيا رائعا للرواية، ينشأ في رأس الكاتب مشروع إلحاق هذا المخلوق الأسطوري بمزرعته القائمة في سهول الغرب الشاسعة. وتقدم رواية «ثيران القلب الكسير» سردا إكلينيكيا ومؤثرا في آن، يحكي فصول تلك المغامرة. ففي الصباح يتراءى لنا أوبراين في صورة أستاذ الجامعة الذي يدرس الإنشاء الإبداعي ويكتب رواياته، وبعد ذلك، نراه يجتاز مئات الكيلومترات، على صهوة جواده، قاصدا أراضي الطبيعة البكر. ويخلص كاوبوي الأدب الأمريكي في كتابه إلى أن «مستقبل العالم يكمن في الحفاظ على الجمال الوحشي». وهي رسالة أشبه ما تكون بأنشودة للطبيعة بفضاءاتها الرحبة، أنشودة لا تفسدها الغنائية الزائفة، وهو ما يجعلها تترك أثرا عميقا في نفس القارئ، كذلك الأثر الذي يخلفه الحديد الساخن على جلد ثيران الغرب البعيد.

المرشحون في هذه الفئة:

- رواية «كتاب ياك» للأمريكي ريك باس، دار نشر جاليستر.
- رواية «فعل أملاه الحب» للإنجليزي جيمس ميك، دار نشر ميتاييه.

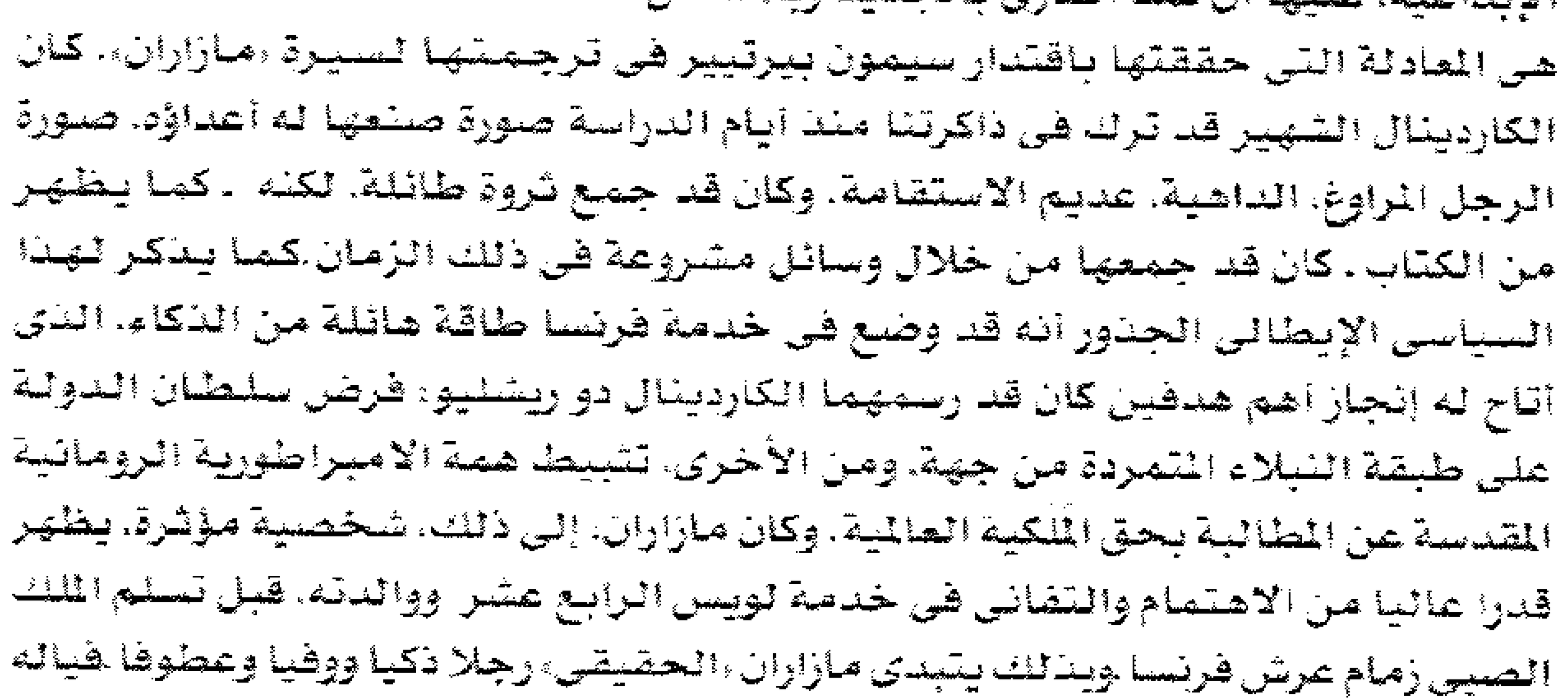
١٠- أفضل سيرة شخصية: «مازاران، سيد اللعبة»
(Mazarin, le maître du jeu)

للكاتبة الفرنسية سيمون بيرتيير

Simone Bertière

منشورات لو فالوا، ٦٩٨ صفحة، ٢٤ يورو.

تعتمد كتابة السيرة الشخصية بالأساس على مهارة التنفيذ. فالقارئ يعرف كل شيء، أو هو يتصور أنه يعرف كل شيء، عن الشخصية الشهيرة التي يتم الترجمة لها. فلكي ترتفع كتابة السيرة إلى مصاف الأعمال الإبداعية، عليها أن تمد القارئ بالجديد وبالمدهش. تلك هي المعادلة التي حققتها باقتدار سيمون بيرتيير في ترجمتها لسيرة «مازاران». كان الكاردينال الشهير قد ترك في ذاكرتنا منذ أيام الدراسة صورة صنعها له أعداؤه، صورة الرجل المراوغ، الداهية، عديم الاستقامة، وكان قد جمع ثروة طائلة. لكنه - كما يظهر من الكتاب - كان قد جمعها من خلال وسائل مشروعة في ذلك الزمان. كما يذكر لهذا السياسي الإيطالي الجذور أنه قد وضع في خدمة فرنسا طاقة هائلة من الذكاء، الذي أتاح له إنجاز أهم هدفين كان قد رسمهما الكاردينال دو ريشليو: فرض سلطان الدولة على طبقة النبلاء المتمردة من جهة، ومن الأخرى، تثبيط همة الامبراطورية الرومانية المقدسة عن المطالبة بحق الملكية العالمية. وكان مازاران، إلى ذلك، شخصية مؤثرة، يظهر قدرا عاليا من الاهتمام والتفاني في خدمة لويس الرابع عشر ووالدته، قبل تسلم الملك الصبي زمام عرش فرنسا. وبذلك يتبدى مازاران «الحقيقي» رجلا ذكيا ووفيا وعطوفا. فياله من اكتشاف مدهش!



المرشحون في هذه الفئة:

- كتاب «ايرجيه»، للفرنسي فيليب جودان، دار مولنسار.



١١- أفضل كتاب في أدب الرحلات: «نولاربور» (سهل بلا أشجار)
Nullarbor

للكاتب الفرنسي ديفيد فوكمبورج

دار نشر Hoëbeke، ١٨٦ صفحة، ١٨ يورو.

هو مترجم وكاتب نشرات سياحية، مارس الملاكمة في كوبا، ومشى مع المتظاهرين في الأرجنتين، وعزف الجيتار في فرق الفلامنكو. وفي الثالثة والثلاثين من العمر، احترف ديفيد فوكمبورج الكتابة، ونال مؤخرا جائزة نيكولا بوفييه عن كتابه الأول «نولاربور». والكتاب عبارة عن قصص مقتضب وخلاق لتنقلات الكاتب في بقاع أستراليا البرية. وتكفل واقعية الحوارات لهذه الرحلة المصورة شيئا من التوتر المستمر الذي يميز أفلام الحركة والإثارة. وفي معرض اجتياز ذلك «السهل الخالي من الأشجار» (و هو ما تعنيه كلمة «نولاربور»)، يمر الراوي بالفنادق الرخيصة ويقابل أشخاصا تحيط بهم الشكوك. ويجد هذا المواطن الفرنسي نفسه ضائعا في تلك الأرض التي يراها أكبر مما يتصور وأكثر عنفا مما يتحمل. وبعد رحلة صيد لاهثة على متن سفينة مجانين، ها هو «نابليون» الجديد الذي تقرحت ذراعاه بفعل مجاذبة شباك الصيد، يجد حسن الضيافة عند إحدى قبائل السكان الأصليين، الذين يبسطون إليه أيديهم بعهد الأخوة. ولكن الطبيعة تستعيد حقوقها ومجراها.. وتنبعث من الأرض الحمراء بخضاب الدماء هبة هواء حيوانية. وفي النهاية، تختفي كل الأصوات، عندما يغرق العالم القديم في لُجج تضحية أخيرة.

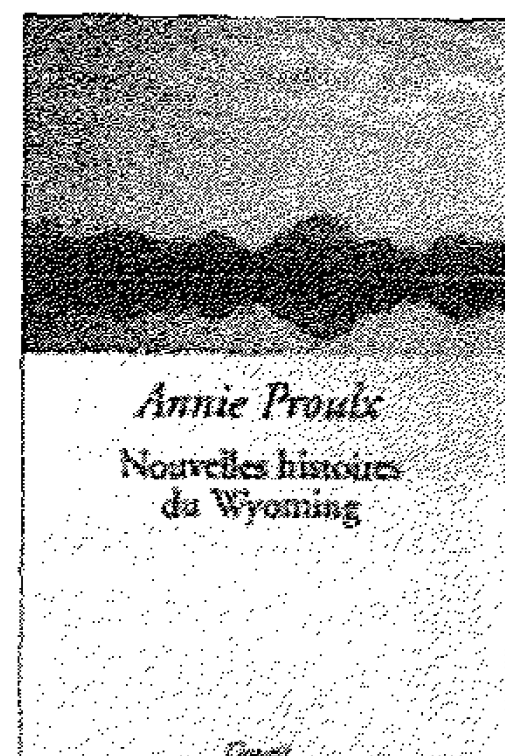
المرشحون في هذه الفئة:

- «في مدح الطاقة الشاردة»، للفرنسي سيلفان تيسون، منشورات «ليزيكواتور».
- «صحاري حارقة»، للفرنسي فيليب فري، دار جوزيه كورتي لاتيس.

كـتـب 2007

قائمة «ليـر»

١٢ - أفضل مجموعة قصصية: «قصص جديدة من الويومنج»



(Nouvelles histoires du Wyoming)

للكاتبة الأمريكية أني برولكس

Annie Proulx

ترجمها من الإنجليزية إلى الفرنسية اندريه زافرو

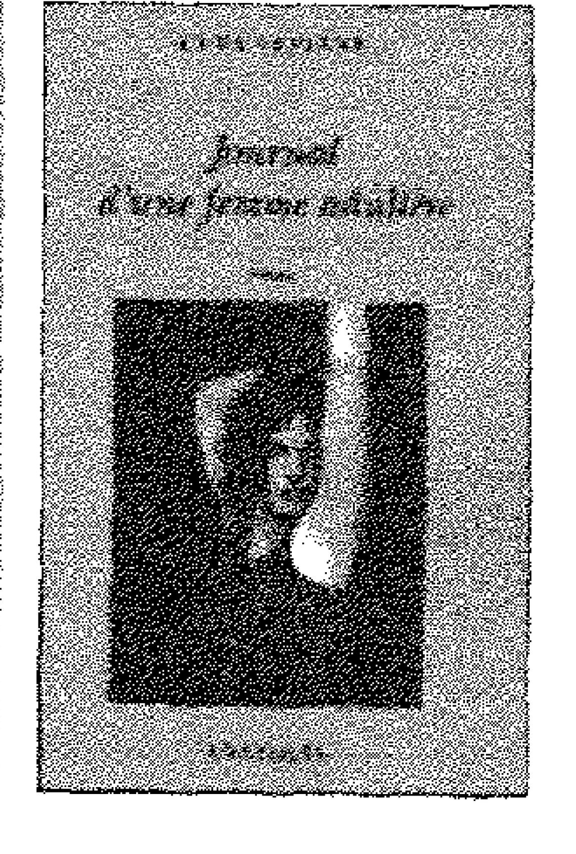
دار جراسيه، ٣١٠ صفحات، ١٧،٩٠ يورو.

أني برولكس ليست روائية حساسة فحسب، وإنما هي أيضا قاصة ماهرة.ففي القصص الإحدى عشرة التي تتضمنها هذه المجموعة الرائعة، تقدم أني لقطات مقربة متباينة لمنطقة «ويومنج»، التي تصفها كأرض مستقطعة من فيلم من أفلام رعاة البقر، بقمم جبالها المدببة، وقطعانها التي تفترش المدى، وبراريها الراكضة خلف الأفاق. وعلى تلك الخلفية التي تصنع من الطبيعة فردوسا حالما، تصف كاتبة رواية «جبل بروك باك» في هذه المجموعة مخاوف البشر وحيرتهم، وهي تصور أحوال فلاحين أحاطت بهم الوحدة، وفاشلين استعبدتهم زجاجة الخمر في أيديهم، ومهمشين مكدسين في عرباتهم، وهنود قضهم البؤس، ومحاربين قدماء سلبتهم حرب فيتنام العقل والصواب، ومزارعين أفزعتهم رؤية غربهم الأمريكي القديم يتشوه تحت وقع أقدام الحداثة الزاحفة. هذا وبالرغم من كون غرب أني برولكس يبدو محصنا من هبات التلوث الهاجمة، فهو في النهاية غرب فاقد للبراءة، فهو ليس إلا حلما مكسورا، راحت الكاتبة تعبث في أنقاضه بشيء من الحسرة الحارقة.

المرشحون في هذه الفئة:

- مجموعة «لطشة برد»، للأمريكي توم جونز، دار ألبان ميشيل.
- مجموعة «حالة أوستاند»، للفرنسي إيريك ايمانويل شميت، دار ألبان ميشيل.

١٤- أفضل رواية جنسية: «مذكرات امرأة زانية»



(Le journal d'une femme adultère)

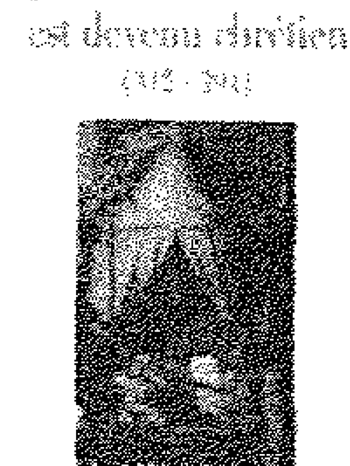
للمؤلف الأمريكي كيرت ليڤاينت

ترجمتها من الإنجليزية إلى الفرنسية بياتريس ڤيارن،

دار نشر أناتوليا، ٦٨٠ صفحة، ٢٥ يورو.

بعد أن قدمت منشورات أناتوليا رواية «في مدح النساء الناضجات» لستيفن ڤيزينكزي، ها هي تهدينا في هذا العام رائعة أخرى من روائع الأدب الجنسي. فإن كان غلاف الرواية لا يمكن أن يمر مرور الكرام، فالرواية في حد ذاتها تستأهل وقفة للاستكشاف، لاسيما أن مؤلفها، الأمريكي كورت ليفاينت لم تتم ترجمة أعماله في لغتنا الفرنسية من قبل. وتدور أحداث هذه المذكرات حول «جيدو» المصور وصديقه «تشارلي» الطبيب النفسي، اللذين تربط بينهما علاقة صداقة قديمة منذ كانا معا على مقاعد الدراسة في المدرسة اليهودية. فما إن يتخطى كل منهما الأربعين حتى تدخل إلى حياتهما امرأة تهز تلك العلاقة وتغيرها. تلك هي «أفيفا» عازفة الكمان التي تتخذ من جيدو عشيقا، ومن تشارلي معالجا، من دون أن تعلم أن الرجلين يعرف كل منهما الآخر.هذا ويستخدم المؤلف أدوات تشريح ذلك المثلث التقليدي بمهارة لم تعهد من قبل، فيحكي لنا القصة من وجهة نظر كل شخصية، قبل أن يختتم كتابه بمسرد ألفبائي لأهم المعاني التي جاءت في الرواية.هذه المذكرات، التي تكاد تخلو من المجون، هي في الواقع عمل أدبي ناجح، والاستمتاع بها غير مقصور بالطبع على محترفي الخيانة الزوجية.

١٣- أفضل كتاب في التاريخ: «عندما أصبح عالمنا مسيحيا (٣١٢-٣٩٤)».



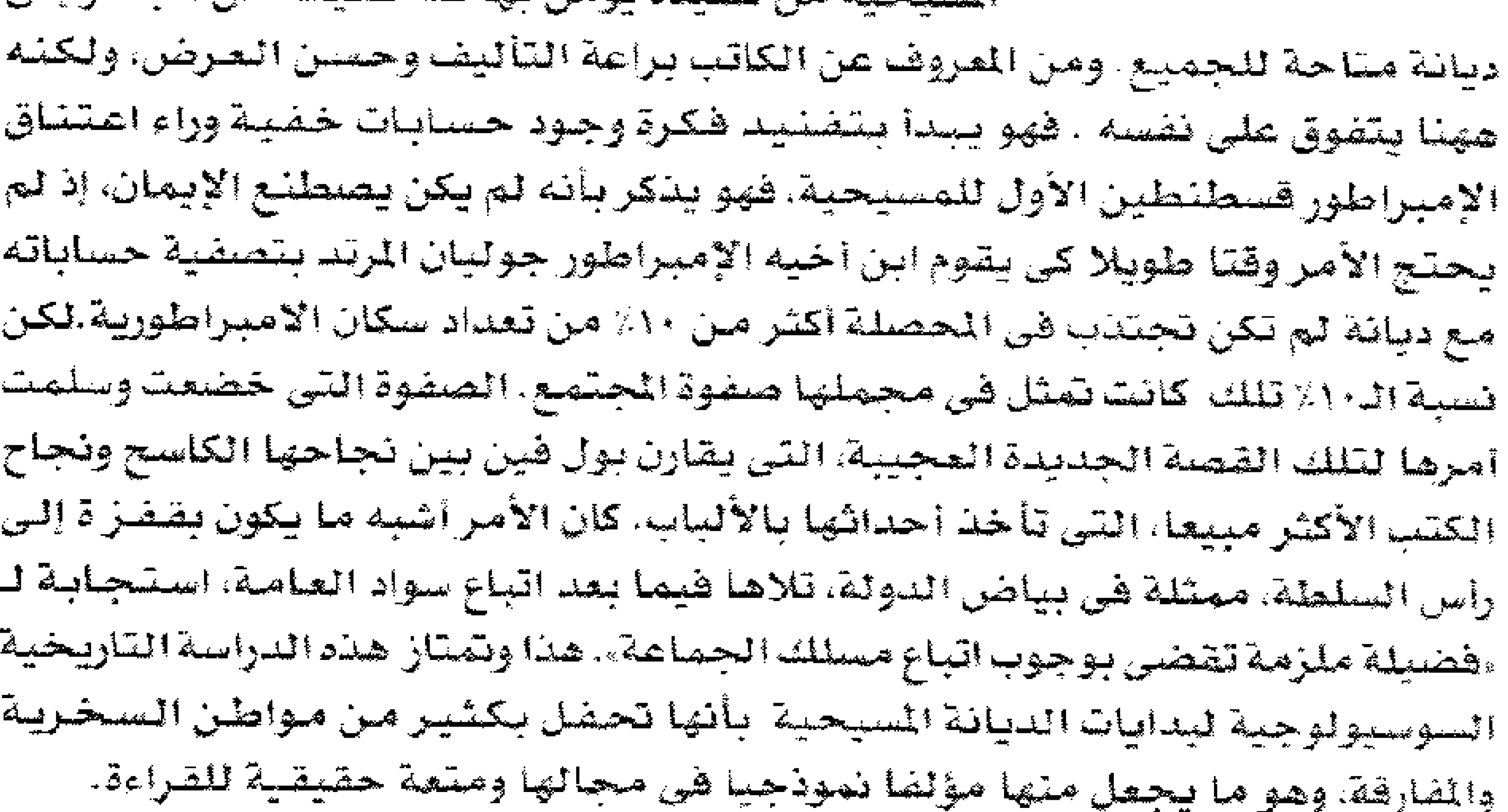
Quand notre monde est devenu Chrétien)

(٣٩٤-٣١٢

للمؤرخ الفرنسي بول ڤين.

دار نشر ألبان ميشيل، ٣٢٠ صفحة، ١٨ يورو.

إن المقولة التي تؤكد أن «أية ديانة هي في الأصل طائفة قد اكتسحت» هي مقولة تفتقر إلى إظهار أسباب التحول العقدي. وبعد ادوارد جـ. جبون وغيره من المؤرخين، يعمد بول ڤين في هذا الكتاب الى استجلاء الأسباب التي حولت المسيحية من عقيدة يؤمن بها قلة قليلة من البشر إلى



ديانة متاحة للجميع. ومن المعروف عن الكاتب براعة التأليف وحسن العرض، ولكنه ههنا يتفوق على نفسه . فهو يبدأ بتفنيد فكرة وجود حسابات خفية وراء اعتناق الإمبراطور قسطنطين الأول للمسيحية، فهو يذكر بأنه لم يكن يصطنع الإيمان، إذ لم يحتج الأمر وقتا طويلا كي يقوم ابن أخيه الإمبراطور جوليان المرتد بتصفية حساباته مع ديانة لم تكن تجتذب في المحصلة أكثر من ١٠٪ من تعداد سكان الامبراطورية.لكن نسبة الـ١٠٪ تلك كانت تمثل في مجملها صفوة المجتمع. الصفوة التي خضعت وسلمت أمرها لتلك القصة الجديدة العجيبة، التي يقارن بول ڤين بين نجاحها الكاسح ونجاح الكتب الأكثر مبيعا، التي تأخذ أحداثها بالألباب. كان الأمر أشبه ما يكون بقفزة إلى رأس السلطة، ممثلة في بياض الدولة، تلاها فيما بعد اتباع سواد العامة، استجابة لـ «فضيلة ملزمة تقضي بوجوب اتباع مسلك الجماعة». هذا وتمتاز هذه الدراسة التاريخية السوسيولوجية لبدايات الديانة المسيحية بأنها تحفل بكثير من مواطن السخرية والمفارقة، وهو ما يجعل منها مؤلفا نموذجيا في مجالها ومتعة حقيقية للقراءة.

المرشحون في هذه الفئة:

- كتاب «قوات الـ اس اس»، لجان لوك لولو، دار نشر بيران.
- كتاب «ثمن المجد» لبيار برا ندا، دار نشر فايار.

١٥- أفضل كتاب في فن الطهي: «ساخن ملتهب»

(Chaud brûlant)

للأمريكي بيل بفورد Bill Buford

ترجمته من الإنجليزية إلى الفرنسية إيزابيل شابمان

دار نشر كريستيان بورجوا، ٥٤٢ صفحة، ٢٥ يورو.

يمثل هذا الكتاب عملا ضخما في فن الطهي وفي الصحافة معا. فمؤلفه هو مدير التحرير السابق لمجلة «جرانتا»، الذي يعمل حاليا بين محرري مجلة «نيو يوركر» الشهيرة. وهو هنا يقدم لنا تحفة أشبه ما تكون بالمشهيات اللذيذة السريعة، حيث كل صفحة تنم عن عبقرية في فنون المقال والتحرير والتصوير.إذ يحكي بيل بفورد على مدار الصفحات تجربته الشخصية في دهاليز مطعم«بابو» الشهير بمانهاتن، من دون أن يخفي آية تفاصيل من مشاهداته في كواليس هذا الصرح المطبخي الكبير. كما يجري الكاتب حوارا مع رئيس الطهاة هناك، الشيف ماريو باتالي، فيصوره كشخصية غير نمطية، ذات شغف بالطعام وبالحياة.كما يتناول المؤلف سرد وقائع رحلته إلى إيطاليا، حيث أتقن صنع المعجنات الطازجة وتقطيع اللحوم. «ساخن ملتهب» هو بحق كتاب فريد ومفيد، وهو إلى ذلك ممتع إلى درجة التسرية، ومضحك إلى حد القهقهة.

المرشحون في هذه الفئة:

- «خضروات مدهشة»، للأمريكية باتريشيا ويلز، دار «جوزيه كورتي لاتيس».
- «أسرار مطبخ الأخوات سكوتو»، منشورات «لوشين».

١٦- أفضل رواية بوليسية: «مستر بوكس»

(Mister Boxe)

للكاتب الأمريكي إيدي مولر

Eddie Muller

ترجمه من الإنجليزية إلى الفرنسية باتريس كارير

دار نشر فايار، ٤٤٤ صفحة، ٢٣ يورو.

النص في الإنجليزية بعنوان:

The Distance: A Crime Novel Introducing Billy Nichols

بيلي نيكولز محرر في صحيفة «سان فرانسيسكو اكزامينر»، يكتب عمودا يوميا تحت عنوان «بين الحبال». يعشق الملاكمة، وأجواء الحلبة

كتب 2007

قائمة «لير»

وصالات التمرين، بمثل ما يعشق أجواء مجلته وصالات التحرير.هذا هو بيلى الذى يمارس مهنة يحبها. ومرتبط بفتاة تحبه، ويخالط أصدقاء مقربين، أهمهم ذلك التعس «هاك»، الملاكم المصنف فى فئة الوزن الثقيل، الذى لا يدرك مبلغ قوته. وفى ذات ليلة، يضرب هاك مدير أعماله فيرديه قتيلا. فيساعد بيلى صديقه للتخلص من الجثة، ليجد نفسه المتهم الأول فى جريمة القتل. هذا ويعرف عن المؤلف أنه متخصص فى كتابة أفلام الدراما السوداء فى عصرها الذهبى.لذلك، حين أراد أن يكتب روايته الأولى، توجه مباشرة إلى عالمه الأثير الذى يعرفه كل المعرفة. فارتد إلى أجواء عقد الخمسينيات، وإلى سان فرانسيسكو وملاهيها الليلية الصاخبة، ورجال المافيا الذين ينفثون دخان السيجار الغليظ، ومغامرات الرجال والنساء الفاتنات. إذ تعد رواية «مستر بوكس» بمثابة تكريم لأساطير الرواية البوليسية .فكل ما فيها، من حوارات بواسطة المدافع الرشاشة، إلى احتداد لحس الوصف والتصوير، إلى عملية المونتاج المتوترة التى تحكم كل مشهد، كل شىء قد تم إنجازه بشكل واضح ومنتظم، لكى يستشعر القارئ صخب الحلبات، ويشاطر الأبطال أحلامهم المستحيلة.

المرشحون فى هذه الفئة:

- «تفسير جرائم القتل»، للأمريكى جد روبنفلد، دار نشر «بانامـا».
- «مدينة الدراما»، للأمريكى جورج بيليكانوس، منشورات «سوى».

■

١٧- أفضل دراسة: «مجتمع الارتياب»
(La société de défiance)

يان ألجان وبيار كاووك
دار نشر «رو دولم»، ١٠٠ صفحة، ٥ يورو.

من أين يأتى ذلك التخاذل الذى تعيشه فرنسا؟ من بين كل المفارقات الغريبة التى طالتها، ثمة مفارقة قد فرضت ألف تفسير وتفسير، ألا وهى عجز فرنسا عن توصيف نفسها بما يتفق مع حقيقتها، مقارنة ببقية العالم. هذا التفسير يقدمه باحثان فى مائة صفحة من شأنها أن تحمل الأعمى على الإبصار، والأصم على السمع والإنصات . أما المادة الأولية لهذه الدراسة فهى استطلاعات الرأى الميدانية. إذ يقوم كل من «يان ألجان»، أستاذ الاقتصاد، و«بيار كاووك»، أستاذ الهندسة، بإظهار مدى الارتياب الذى يقوض علاقة الفرنسيين ببعضهم البعض، وعلاقتهم بمؤسسات الدولة (البرلمان، القضاء، النقابات)، كما يظهر الباحثان مبلغ انهيار الإحساس بالانتماء الوطنى فى المجتمع.فمن بين كل عشرة فرنسيين هناك ستة لا يجدون غضاضة فى إساءة استغلال خدمات الدولة ومساعداتها! وتحت غطاء كل من التجمعات النقابية وحماية الدولة، اللتين تفرزان حالة من الريبة، تكمن السمات السلبية الثلاث التى تنفرد بها الحالة الفرنسية، ألا وهى فوبيا المنافسة، والدفاع عن التكسب من ريع الموقع، والفساد.فما هو الإجراء الذى يسعه الخروج بنا من هذه الحلقة المفرغة؟

المرشحون فى هذه الفئة:

- «الفحش الديمقراطى»، لريجى ديبريه، دار نشر فلاماريون.
- «أسوأ عالم على الإطلاق»، للأمريكى مايك ديفيز، دار نشر «لاديكوفرت».

■

١٨- أفضل كتاب فى الفن: «الأتيليـيه اللانهائى، ثلاثون ألف عام من الرسم»
(atelier infini, 30 000 ans de peintureL)

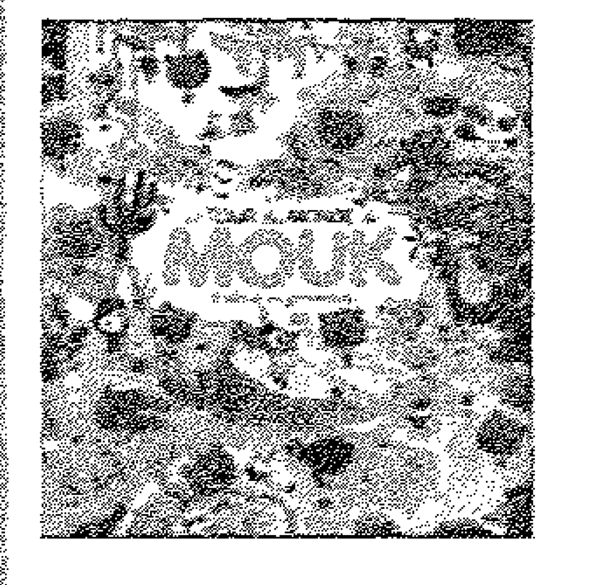
جان كريستوف بايى
دار نشر «أزان»، ٤٣٠ صفحة، ٤٩ يورو.

عادة ما تحدثنا كتب تاريخ الفن عن كثير من التاريخ وقليل من الفن، الأمر الذى يولد بداخلنا عند القراءة شعورا بالانغماس فى الماضى من دون الاقتراب بالقدر الكافى من الأعمال الفنية.أما هذا الكتاب فهو مختلف تماما.فهو لا يقدم الأعمال الفنية بوصفها أدوات معرفية، وإنما يجعلنا نتأملها ونحبها. وهو ينجح فى تلك المهمة بصورة رائعة. فما أجمل أن يقال لنا إن لوحة «إنزال الصليب» لروجيه فان در فيدن تشبه «رقصة انهيار غريبة وبطيئة»، وإن بورتريه الصبية للفنان بتروس كريستوس«فيه ما يذكر بوجه حصان أسطورى يبرز قرن من جبهته»، وإنه يمثل «وجها شتويا مدهشا»! وما أجمل أن يقال عن حاكمات فرانز هالز إنهن يؤلفن «شكلا تبدو فيه الفاكهة وكأنها وجوه آدمية»! أو أن يقال لنا إن تردد ماتيس بين التجريد والتصوير يعبر عن «ارتعاش الفن الحديث بأسره تحت شمس النهار على أنغام الكمان»! أجل، ما أحوجنا لأن نسمع هذا الأسلوب فى الحديث عن فن التصوير! فإن لهذه المهارة فى القلب وقعا يطفر ما يشبه «دمع الفن الشجى».

المرشحون فى هذه الفئة:

- «بالرسم، يا سيمون»، لآلان كريانج، منشورات «فاج».
- «تاريخ القبح»، لأمبرتو اكو، دار «فلاماريون».

■



١٩- أفضل كتاب للطفل: «موك على دراجته حول العالم»
(Le tour du monde de Mouk à vélo)

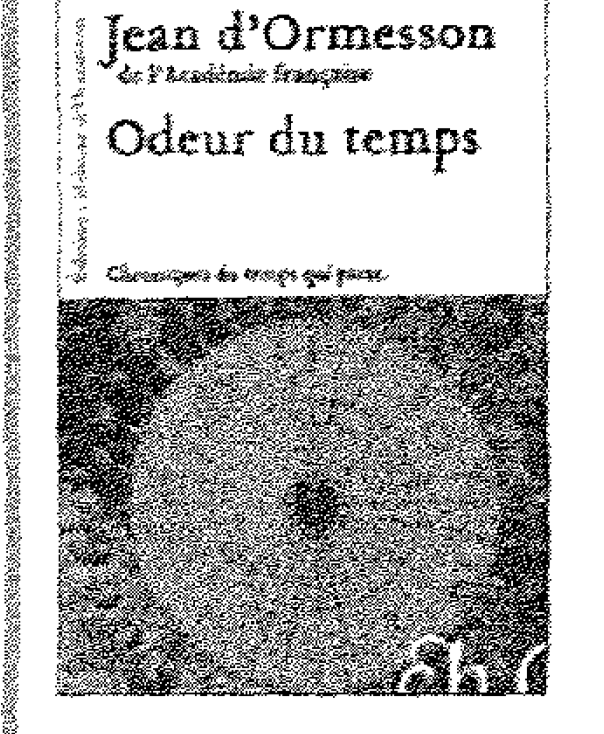
مـارك بـوتـافـان Mark Boutavant
ألبان ميشيل للصغار، ٢٨ صفحة، ١٤,٩٠ يورو.

بهدف حث الصغار على التعرف على تنوع الثقافات، يطلق الكاتب مارك بوتافان بطله، «الدب موك»، فى رحلة حول العالم.والنتيجة مهرجان من الألوان المبهجة التى تقفز على الورق اللماع، مهرجان يبهر العينين وينعش الخلايا العصبية بصوره المشبعة بالشخصيات، والنباتات، والكلمات التى تجذب الطفل لاستكشافها .ففى اليونان- «ياسو» -ثمة أخطبوط يقود التاكسى العائم فى بحر دافئ الزرقة، بينما راحت القطة تقرأ أشعارا لهوميروس: أما فى بوركينا فاسو، فيطالعنا موك وهو يلبس الزى الوطنى ويشرب عصير الفاكهة الأحمر اللذيذ، ومن حوله الغزلان ذات القرون اللؤلؤية المتشعبة والسحالى الأفريقية ذات الألوان المتغيرة. وتحت أشجار جوز الهند بمدغشقر، راحت النسانيس والقردة ترقص حول النار بأعينها الجاحظة، وفى اليابان، حيث الربيع المشمس، يظهر موك وهو يستمتع بتناول الماكى والواجاشى مع صديقه «مانيكى نكو»، القط الذى يجلب حسن الطالع.إن هذا الكتاب المصور يمكن قراءته كقصة ممتعة، أو كألبوم صور عملاق، أو كرحلة تحفل بألف اكتشاف واكتشاف، فعلى كل طفل أن يختار مطيته فى هذه الرحلة المتجهة صوب المنتهى.

المرشحون الآخرون:

- «جورج وأسرار الكون»، للأمريكيين لوسى وستيفن هوكنج، منشورات بوكت.
- «العدو»، للإيطالى ديفيد كالى، رسوم سيرج بلوك، منشورات منظمة العفو الدولية.

■



٢٠- أفضل يوميات: «رائحة الزمن»
(odeur du tempsL)

چان دورميسون Jean D'Ormesson
منشورات ايلويز دورميسون، ٤٨٠ صفحة، ٢٢ يورو.

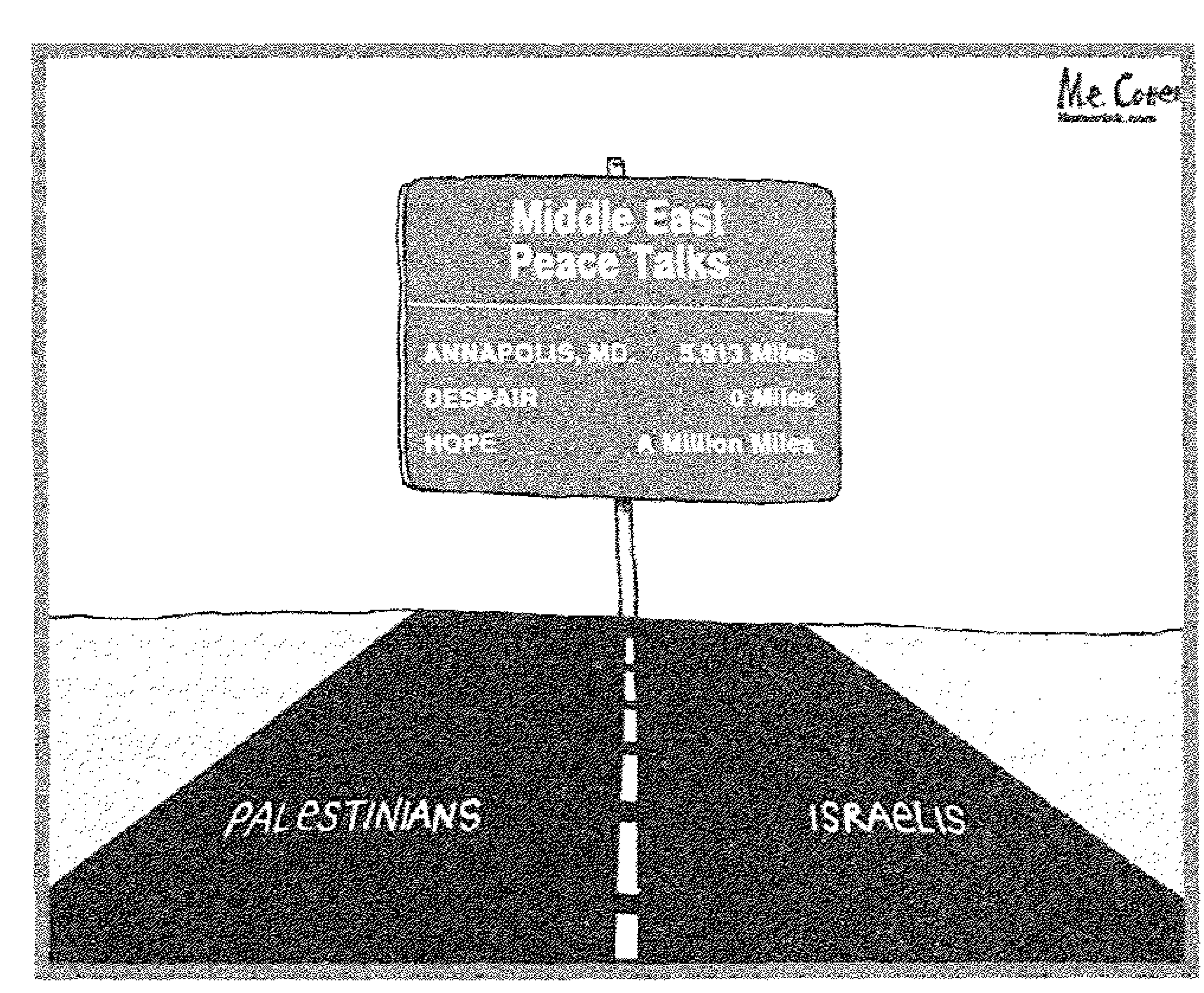
بمقتضى التعريف، ترتبط كتابة اليوميات بالآنى والمستجد من الوقائع: وهو ما يجعل منها فنا يحمل فى طياته أسباب فنائه، لكن هذا لا يسرى حينما يكون الموقع على اليوميات الأديب الكبير چان دورميسون.وأكبر دليل على ذلك هو هذا الكتاب الجديد الذى يضم نصوصا نثرية نشرها الكاتب فى كل من صحيفة «لوفيجارو» ومجلة «لو فيجارو ماجازين» . فبعد سنوات من نشرها، تحمل كلمات هذا الأكاديمى الذى لا يشبه الأكاديميين كل ما أحببناه فيها عند القراءة الأولى، وكأنها زَبَد الموهبة الذى لا يذهب هباء قط، هنا كل مكر الرجل، وكل علمه المتدفق، وطريقته الأنيقة فى تصفية الحسابات من دون إسالة الدماء، (لاسيما مع برنار فرانك)، وأيضا ميله إلى سرد ذكرياته وأفراحه بكثير من البهجة والخفة والحنين والطلاقة. وإن كان شاتوبريان مازال الأفضل فى نظره، فثمة مكانة عنده لأراجون، ولسيوران، ولمورياك، ويورسنار. كما تحفل يوميات دورميسون بتذكر جريتا جاربو، وجون ماكنرو، والأخوات ميتفورد وفينيسيا . وما بين إبداء الإعجاب وإسداء التكريم، يقدم لنا چان دو واحدا من أكثر مؤلفاته إمتاعا ومؤانسة.

المرشحون فى هذه الفئة:

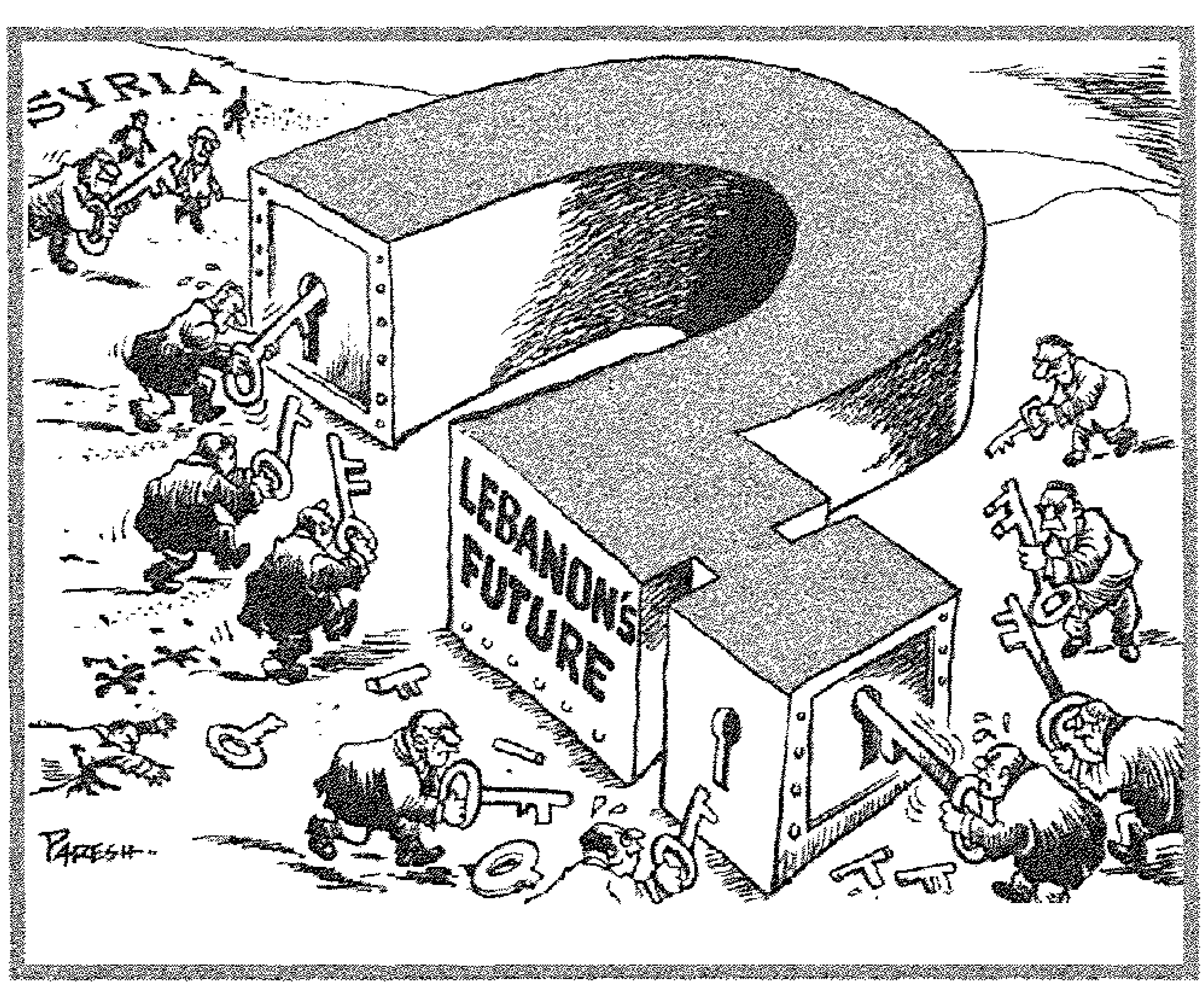
- «٥ شارع الإيطاليين»، لبرنار فرانك، جراسيه.
- «أشياء لحظية»، لروجيه جرونييه، جاليمار.

كاريكاتير 2007

إذا كان المثل الصينى يقول إن صورة واحدة أهم من ألف كلمة، فإن رسامى الكارتون وحدهم يستطيعون تقديم رؤية مميزة ومدهشة عن أحداث ٢٠٠٧ العاصفة والمليئة بالفوضى بأفضل مما يمكن أن تعبر عنه المقالات والتحليلات.
إنه سحر الرسم الكارتوني وقدرته على اختزال عالمنا المعقد وأحداثه المتشابكة فى مساحة ضئيلة على الورق تستطيع أن تفتح آفاقا جديدة وتثير تساؤلات عديدة وترسم أيضًا الابتسامة على وجه القارئ.
وجهات نظر اختارت بعضًا من أهم الرسوم الكارتونية المعبرة عن ٢٠٠٧ والتى اختارتها نخبة عالمية مميزة من الفنانين والصحفيين والكتاب.



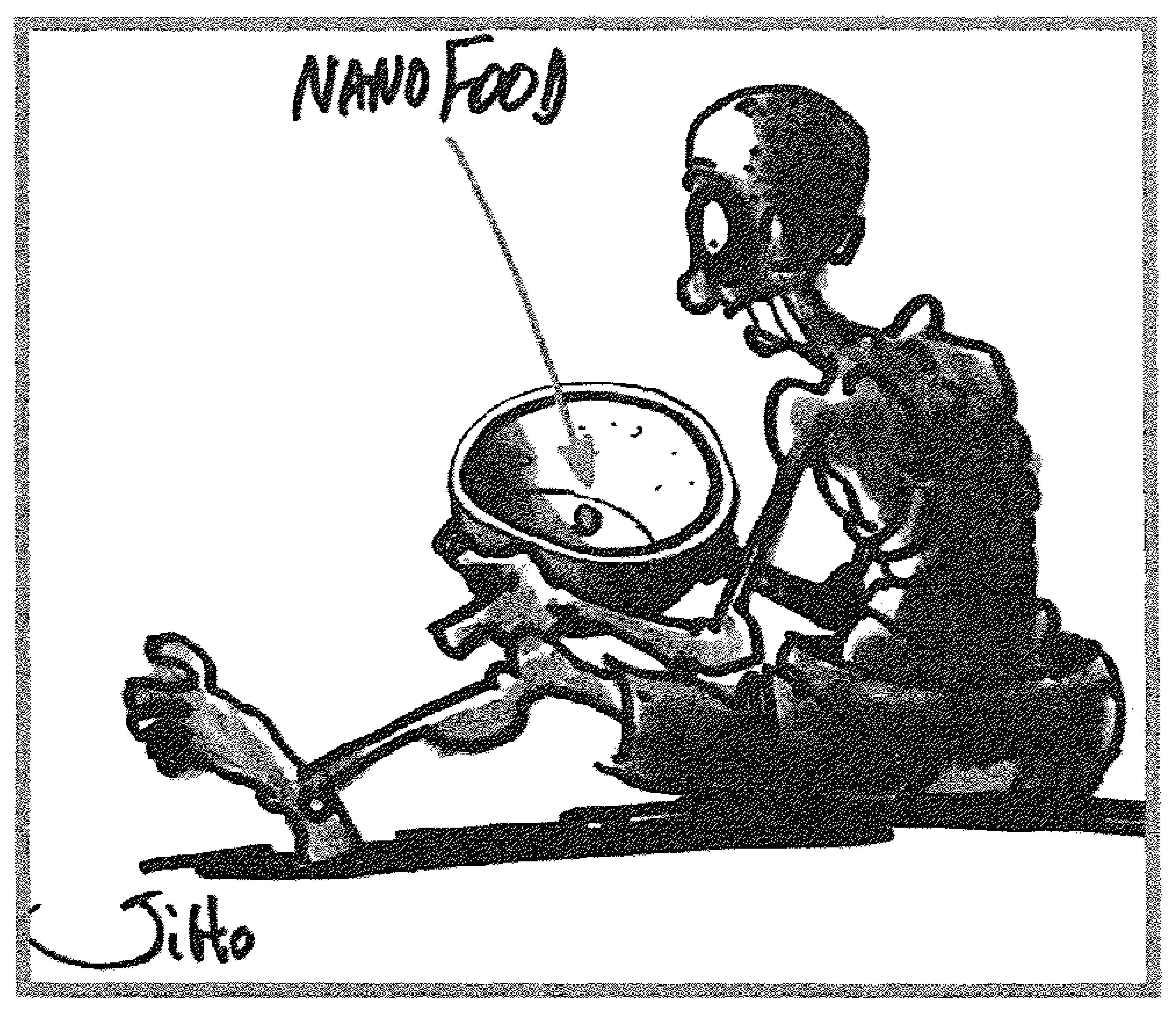
السلام في الشرق الأوسط ٢٠٠٧. © M. e. Cohen - M.e.Cohen/HumorInk.com



مستقبل لبنان. © Copyright 2007 Paresh Nath - National Herald, India c



الديموقراطية على الطريقة الباكستانية. © Christo Komarnitsk - Bulgariai

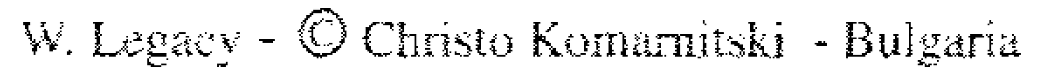


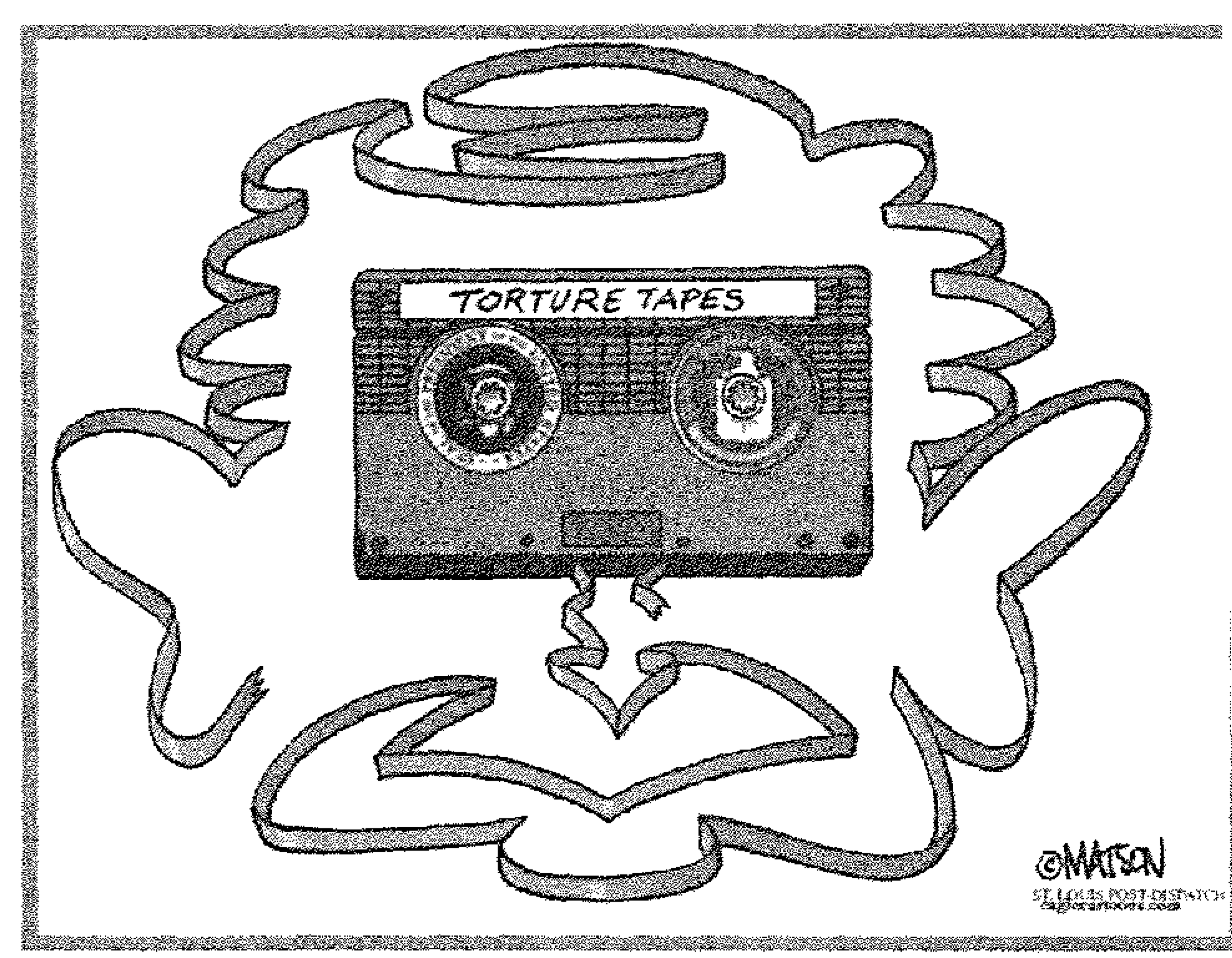
Nano-Food - © 2007 Jiho - France





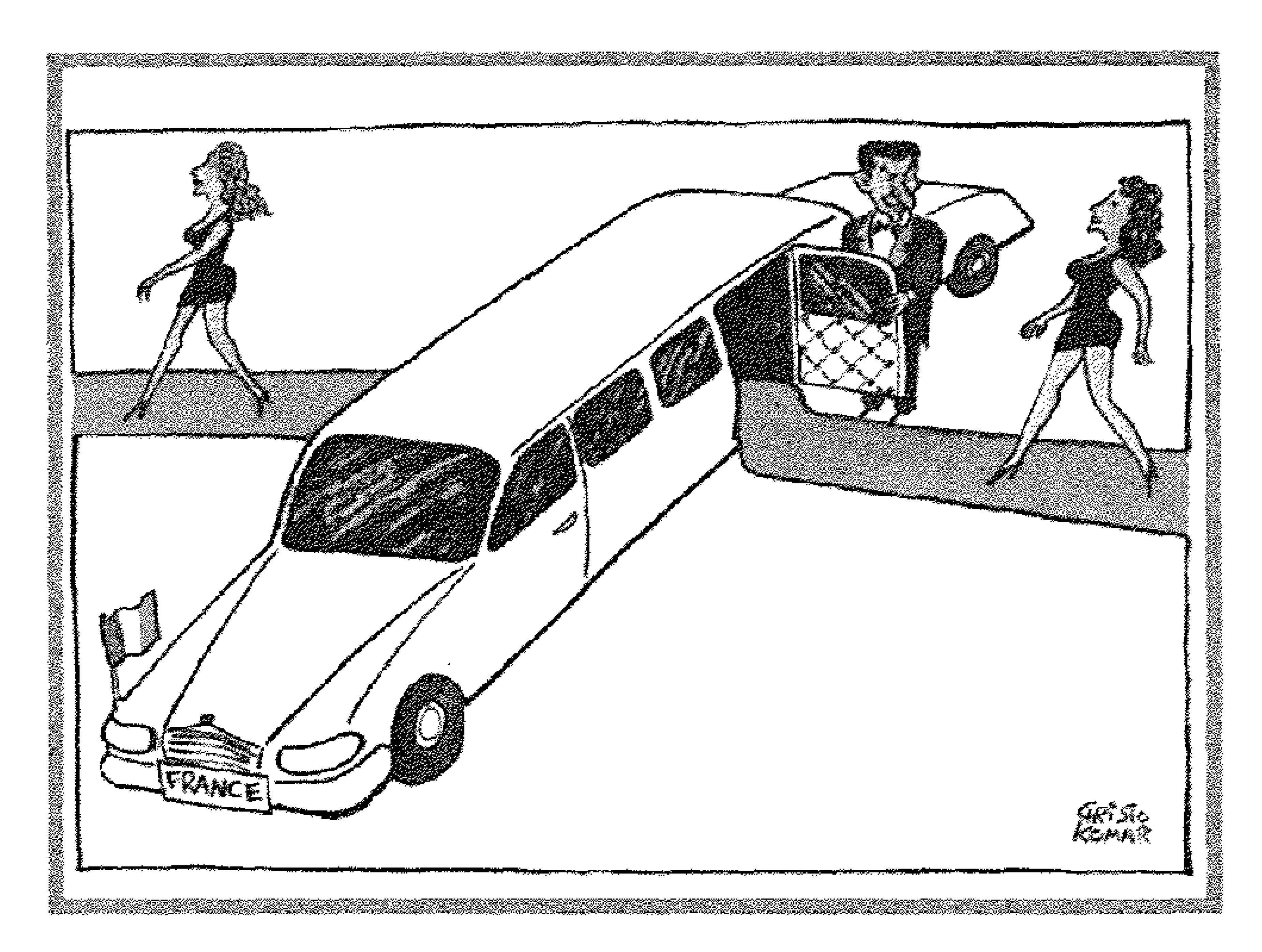



W. Legacy - © Christo Komarnitski - Bulgaria



فضيحة تدمير أشرطة التعذيب- The St. Louis Post Dispatch - © RJ Matson

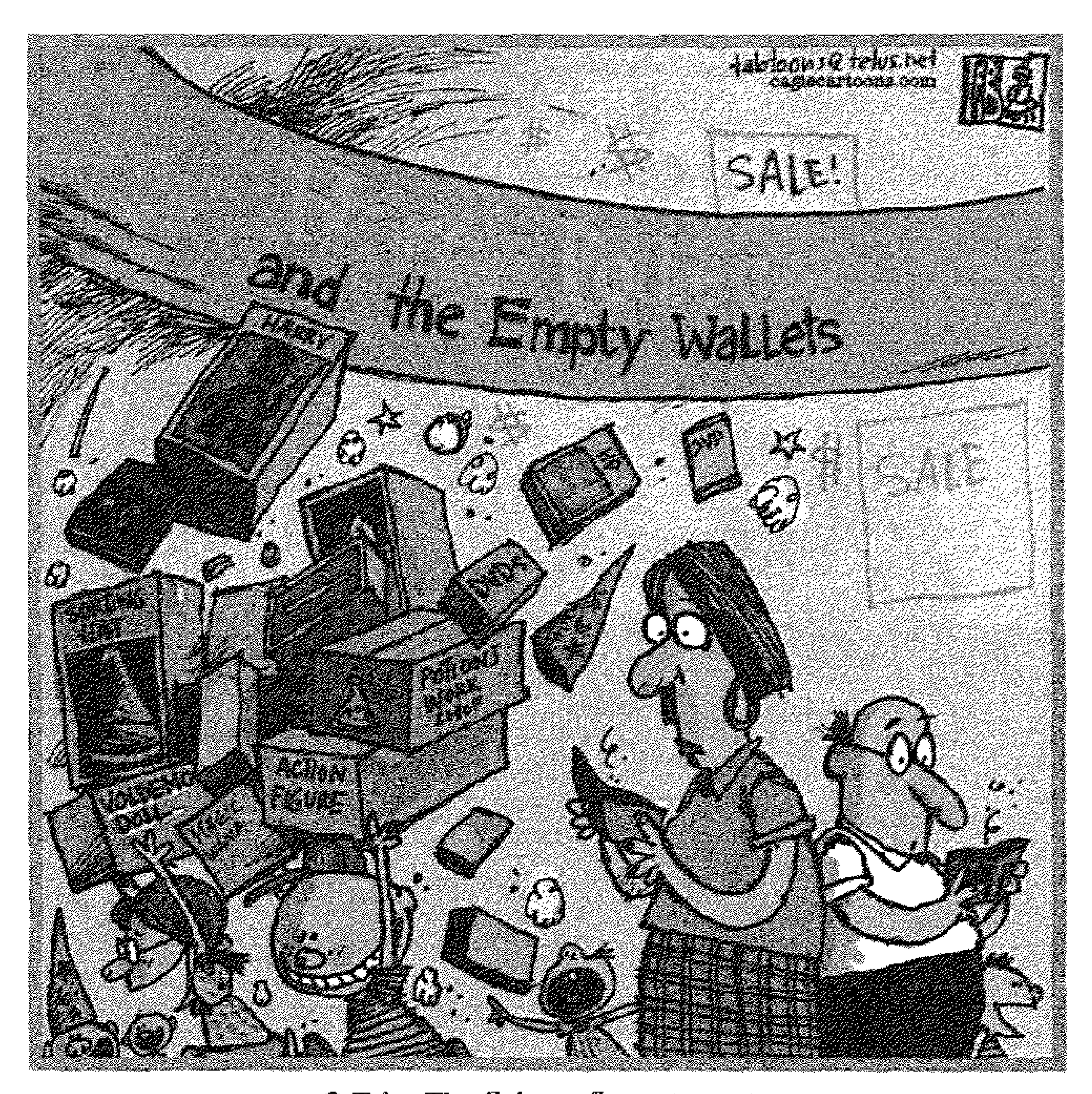
علم العراق- عماد حجاج - الأردن ©



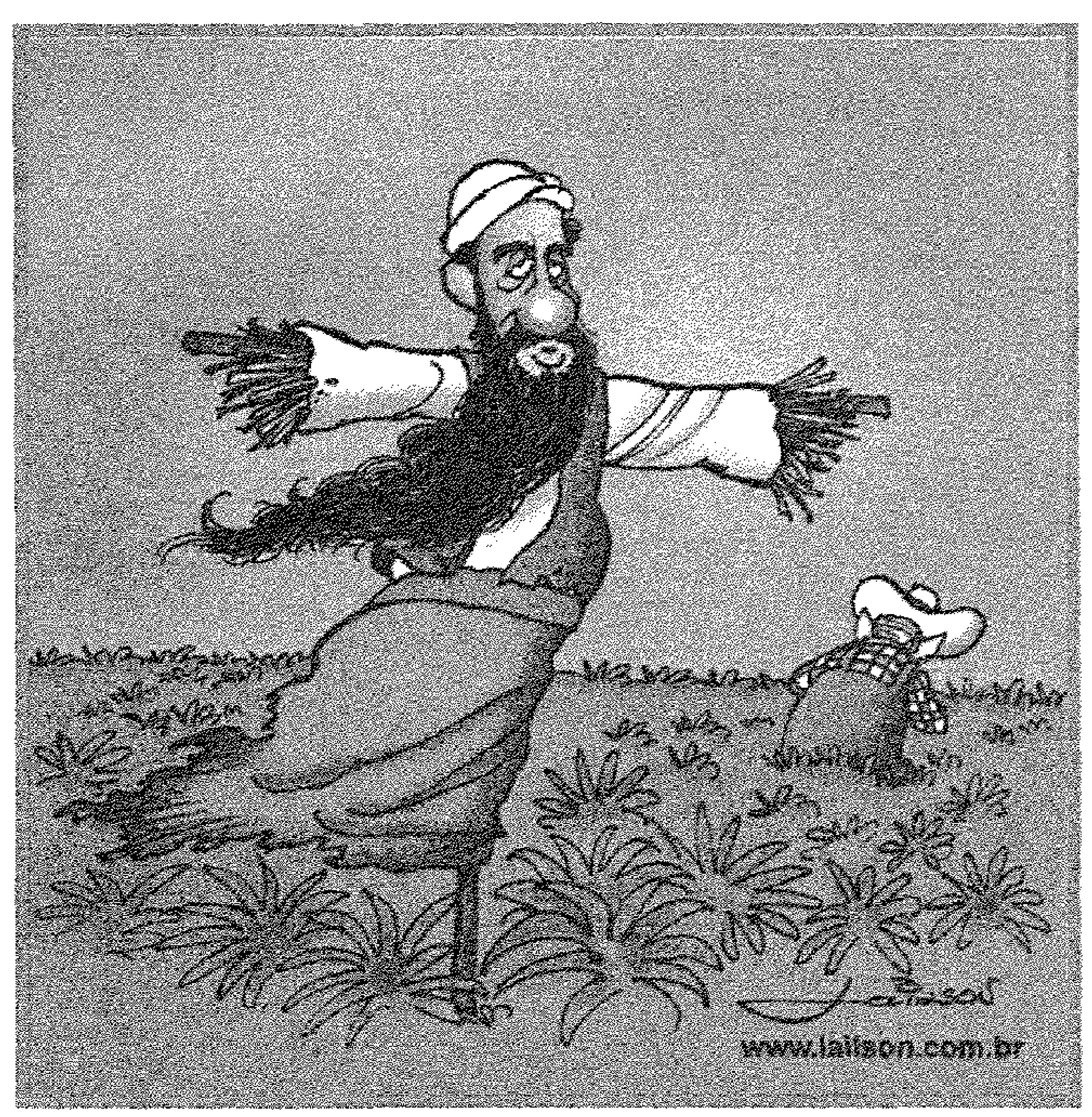
Sarkozy's limo - © Copyright 2007 Christo Komarnitski



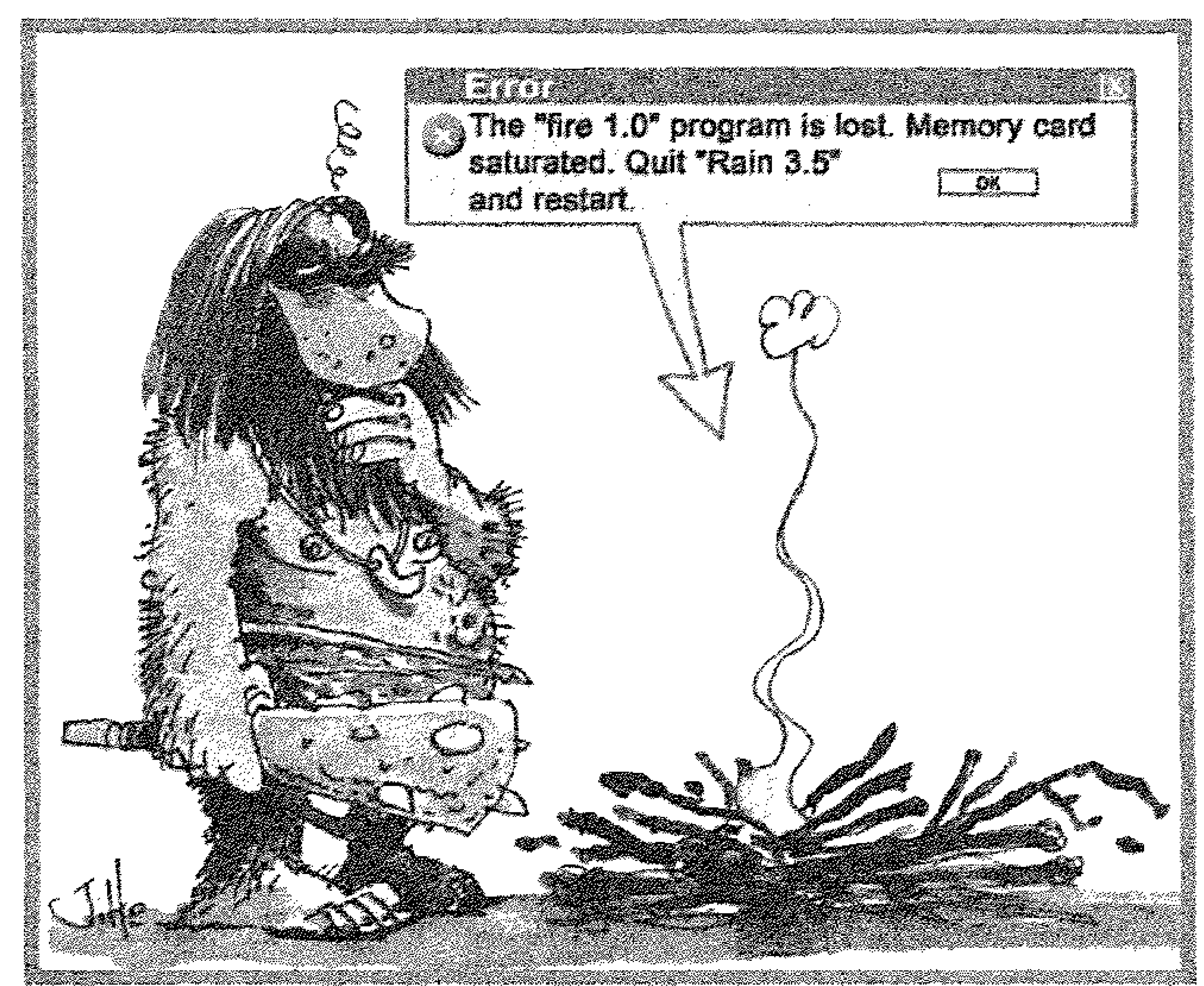
© Mike Lane - Cagle Cartoons . الصين: مراقبة «جوجل».



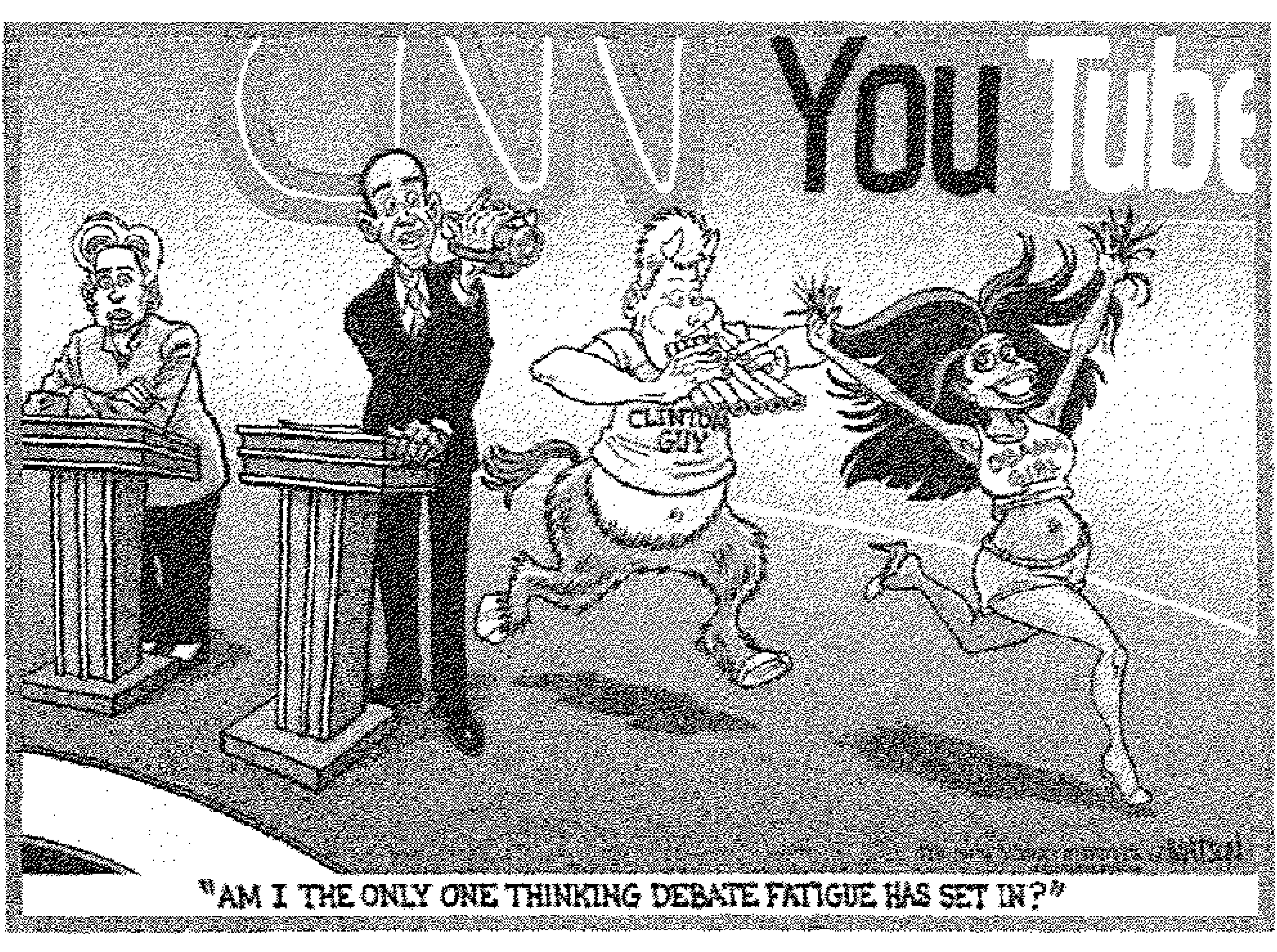
© Tab - The Calgary Sun . هاري بوتر.



© Lailson - Humor World . أسامة (خيال المآته).



Windows Vista - © 2007 Jiho - France



© RJ Matson - The New York Observer c . مناظرات «يو تيوب».